



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٢٣٠٩

المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

مكة المكرمة

كلية الدعوة وأصول الدين

قسم العقيدة

وام الطالب بتعديل وتصويب ما طلب  
منه إشارات الماتحة

عصفا مشر

مضامين

د. الزهراني

رئيس قسم العقيدة

المشرف

## الانحرافات العقدية والعلمية

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

وأثارها في حياة الأمة

.....

الطالب

علي بن بقيت بن عبد الله الزهراني



بإشراف / فضيلة الشيخ

محمد قطب

المجلد الثاني ٢٠٩

رسالة لنيل درجة الماجستير لعام ١٤١٤ هـ

دبیب دینی

الانجازات العلمية

في القرنين

الثالث عشر والرابع عشر الهجريين.

## الفصل الأول : المستوى التعليمي ومناهج التعليم

انحدر المستوى التعليمي في الفترة التي ندرسها انحداراً خطيراً ، وساعت الحالة العلمية كثيراً ، وكان ذلك بفعل عدة عوامل أسهمت في الواقع السيء الذي وصل إليه المستوى التعليمي في تلك الفترة ، ولم يكن ذلك الانحدار التعليمي مقصوراً على هذه الفترة التي ندرسها ، وإنما كان امتداداً لانحدار بدأ منذ أزمنة متطاولة شأنه كشأن بقية الانحرافات الأخرى فقد «بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع ..... وكثر فيه الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين .....»<sup>(١)</sup>.

وقد زاد انحطاط العلم في القرن العاشر والحادي عشر ودخل القرن الثاني عشر ولا تجديد فيه ولا جديد ، إلا النظر في قضايا قديمة لاكتها الألسن قديماً لا إبداع فيها ولا اختراع ، فالمسائل الدينية تنتقل خلفاً عن سلف ، والآداب العربية تنحط حتى أصبح الشعر والنثر في حالة مخزية و«صارت الفتوى والقضاء والمناصب العلمية ملعبة وشعبذة وسخرية والمدارس مأوى الحمير» كما قال أحد العارفين بذاك القرن ...»<sup>(٢)</sup>.

ومع ازدياد حدة الانحرافات التي أصابت الأمة من تصوف وإرجاء وترد في الشرك والبدع والخرافات وغير ذلك ، «وتحت تأثير ذلك كله فقد غفت الأمة الإسلامية غفوة طويلة امتدت فترة قرنين من الزمن على الأقل إن لم يكن أكثر ، تقابل من تاريخ أوربا قرنيها الثامن عشر والتاسع عشر قرني الصعود الأوربي نحو السيطرة والتمكن ، والتقدم العلمي والحضاري والمادي ...»<sup>(٣)</sup>.

فبالنسبة لمناهج التعليم «حدث تقلص ضخم ، أبعد بالتدريج - كل العلوم «الدنيوية» من معاهد العلم في ذات الوقت الذي اقتصر في العلوم الشرعية على فكر القرن الخامس على أكثر تقدير ، مع الفارق الكبير بين الأصالة التي كان عليها فكر القرن الخامس والتقليد الذي تلا ذلك من القرون ، وظل «يتحجر» قرناً بعد قرن!»<sup>(٤)</sup>.

فالانحراف الذي طرأ على مناهج التعليم عند المسلمين كان من جهتين ، من جهة التقلص الذي حدث وذلك بإخراج العلوم الدنيوية من طب وهندسة وفلك وفيزياء وكيمياء إلى خارج المستوى

(١) خطط الشام ٤٩/٣ محمد كرد علي ، دار العلم للملايين. بيروت ط ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م.

(٢) المصدر السابق ٥٧/٣.

(٣) واقعنا المعاصر ص ١٧٤.

(٤) المصدر السابق ص ١٧٤.

التعليمي لأسباب سوف نتطرق لها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ما أصاب العلوم الدينية من جمود وانغلاق لأسباب أخرى سنتطرق لها أيضاً .

«لقد كان من مفاخر الحركة العلمية الإسلامية .... أنها تفتحت «للعلم» كله ، وأبدعت في العلم كله ، وكان العالم يكون عالماً في العلوم الشرعية ، وعالماً في ذات الوقت في الطب أو الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء بغير تعارض ولا تناقض بين هذا وذاك . وكانت المعاهد العلمية في الأندلس وغيرها - تلك التي تعلمت فيها أوروبا حين بدأت تخرج من قرونها المظلمة - تعلم طلابها كل فروع العلم وألوانه بغير تفريق ، وكانت العلوم «الدنيوية» من المعالم البارزة في تلك المعاهد إلى جانب العلوم الشرعية ، ومن هناك تعلمت أوروبا المنهج التجريبي في البحث العلمي ، وترجمت ما كتبه المسلمون في الطب والفلك والفيزياء والكيمياء والرياضيات والبصريات لتتلمذ عليه في بدء نهضتها الحديثة .

ولكن المسلمين «الغافلين» طردوا تلك العلوم تدريجياً من معاهدهم ليقتصروا على العلوم الشرعية ، مع ما في دراستهم للعلوم الشرعية ذاتها من «تخلف» عن الصورة التي ينبغي أن تكون الدراسة عليها ...»<sup>(١)</sup> .

«وقد ضعف التفكير العلمي وتوقف المسلمون عن السير في كشف سنن الكون ، وأعرضوا عن ذلك إعراضاً يكاد يكون تاماً ، فأهملت علوم الكون أو الطبيعة ، بل انتشرت الخرافات والأساطير ، وضعف التفكير في الأسباب ومعرفتها ، حتى إن الأمية انتشرت انتشاراً كبيراً بين المسلمين بعد أن كان الإسلام دافعاً إلى إزالتها ، وإلى نشر العلم والتعليم ، واكتشاف آيات الله في الكون ، وازدهار العلوم الكونية . ومال الناس ميلاً عظيماً إلى ذكر الخوارق والكرامات تعظيماً لمن يعتقدون بهم»<sup>(٢)</sup> .

ونتحدث الآن عن العلوم الدنيوية ففي أوائل الفترة التي ندرسها كانت أوروبا تواصل صعودها السريع على أكتاف ما تتعلمه من علوم دنيوية (كونية) محاولة السيطرة على العالم الإسلامي الذي كان يتردى في دركات من الجهل والخرافة ، وقد أحس المسلمون بالخطر الأوربي القادم المتسلح بالعلوم الكونية الحديثة ، فوقف الكثير من المسلمين في وجه هذه العلوم الزاحفة ، ومنعوا من تعلمها بحجة أنها خرجت من بلاد الكفار التي لا يخرج منها إلا الكفر والضلال ، وقد ساعد على ذلك الجهل المتفشى في ديار الإسلام ، الذي جعل المسلمين ينفرون من هذه العلوم ، ويستبشعون أخذها عن غيرهم ، ويرون حرمة أخذها أو تعليمها ، وغفلوا عن «أن الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها»<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر السابق ص ١٧٤ .

(٢) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٥٤ .

(٣) رواه «الترمذي» برقم ٢٦٨٧ كتاب العلم ، وقال : حديث غريب .

وهذا هو الموقف السلبي الذي وقفته كثير من بلاد المسلمين وهو «رفض العالم الإسلامي هذه الحضارة القادمة من بلاد الكفار ، وما جاءت به بتاتاً ، ووقوفها منها موقف المعارض الثائر ، أو موقف المعتزل الحائد ، لا يقتبس منها شيئاً ، ولا يسمح بدخول علم من العلوم التي كان للأوربيين فيها التفوق والاختصاص ، ولا ينتفع بتجارب الغرب في مجالات الطبيعة والكيمياء والرياضة وعلم الميكانيكا ، ولا يستورد شيئاً من الآلات ، والصنائع والأجهزة ، وأنوات الحرب والبضائع ومرافق الحياة»<sup>(١)</sup> .

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى ذلك الموقف السلبي ما حدث في الهند مثلاً التي كانت واقعة تحت الاحتلال الإنجليزي ، حيث قامت «ضجة بين الأوساط الدينية في الهند ، لأن العلوم الوافدة من الغرب كانت لها ثقافتها وأفكارها التي تمثل الحياة المادية البحتة ، وإذا تعلمها طالب ناشئ أول مرة أصابته الحيرة ، ورسخت الأفكار الباطلة الملونة بزينة هذه الحياة الدنيا في ذهنه ، فالأفكار الغربية المادية وجدت عقلية ناشئة ساذجة خالية ، فتمكنت فيها وتغلبت عليها ، ولما شاهد العلماء أن هذه العلوم تفسد أخلاق الشباب المسلمين ، وتسوقهم إلى الخمر والقمار ، والفساد في العقائد ، قاطعوا هذا التعليم وكافحوا هذه الثقافة .... واعتزل المسلمون بصفة عامة - التعليم الجديد الأوربي ، فتأخروا في الحياة ، وتخلفوا اقتصادياً واجتماعياً ، أما الشعوب الأخرى في الهند فانها تقدمت في العلوم الحديثة ، ونالت نصيباً من عزة وكرامة وبذخ وشرف في حياتها الاقتصادية والسياسية»<sup>(٢)</sup> .

وهكذا زهد المسلمون في كل ما يأتيهم من الخارج ، ولم يفرقوا في ذلك بين خير وشر ، ونافع وضار. «وإذا كان أكثر المعاهد المصرية قد تأثرت بالآراء الغربية الحديثة فإن الكثرة الغالبة من علماء الأزهر ورجاله كانوا يفاخرون بأنهم بمعزل عن هذه التيارات الحديثة ، ويزعمون أن إصلاح الأزهر إفساد له وقضاء عليه»<sup>(٣)</sup> ، حتى أن الأمر بلغ بالمجاورين إلى أن رموا الشرطة بالحجارة وأكروههم على الانسحاب من الأزهر حينما أرادوا أن يدخلوه في ٧ يونيه سنة ١٨٩٦م للتحقق من تنفيذ بعض الاحتياطات الصحية التي اقتضاها انتشار الطاعون»<sup>(٤)</sup> .

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٢ . انظر : مبحث الولاء والبراء في الباب الأول من هذه الرسالة ص ٨٩ .

(٢) العلامة «السيد عبد الحي الحسني» مؤرخ الهند ص ٢٨ . د . «قدرة الله الحسني» الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م . دار الشروق . جدة .

(٣) لم يكونوا يروا ذلك إصلاحاً وكانوا يرون أن الأزهر ليس بحاجة إلى مثل تلك الإصلاحات . والجدير بالذكر أن كثيراً من الحركات التي حاولت إصلاح الأزهر كانت مشوبة بالتيار التغريبي ومتأثرة بالهزيمة الروحية في ذلك الزمن أمام الغرب . وسيأتي مزيد من الحديث عن تلك القضية .

(٤) الأزهر تاريخه وتطوره ص ٢٤٧ وزارة الأوقاف وشئون الأزهر . دار ومطابع الشعب ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م .

وقد أدى هذا الانغلاق أمام العلوم الحديثة إلى استنكار الأزهريين القول بأن الشمس تغرب على قوم لتطلع على آخرين»<sup>(١)</sup>.

ولا نكاد نبالغ إذا قلنا أن الصوفية كانت من أعظم العوامل التي أدت إلى الاستهانة بالعلوم الدنيوية ثم إخراجها نهائياً. «فالصوفية التي فرقت بين الدنيا والآخرة ، واتجهت إلى إهمال الدنيا بحجة تزكية الأرواح من أجل الآخرة ، وأهملت بالتالي عمارة الأرض ، على أساس أن الاشتغال بها يثقل الروح ويذهب عنها شفافيتها وطلاقتها ، ومن ثم أهملت كل العلوم المتصلة بتلك العمارة ، واعتبرتها نافلة تستطيع الأمة أن تستغني عن أدائها بلا ضير»<sup>(٢)</sup>.

ومما يذكر أن الشعراني وهو عملاق عصره في التصوف تنلمذ على سبعين شيخاً لا يعرف أحدهم النحو... بل كان بعضهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون<sup>(٣)</sup>. قلئن كانوا قد استهانوا بالعلوم الدينية واللغوية ، فمن باب أولى أن يستهينوا بالعلوم الدنيوية.

وهكذا خلت مناهج التعليم من هذه العلوم الدنيوية ، وأخرجت من معاهد العلم ، وأصبحت المعاهد التعليمية في طول بلاد الإسلام وعرضها نائية عن هذه العلوم. فالأزهر مثلاً وهو المعهد الإسلامي الأول كان مجافياً للعلوم الحديثة من طب وهندسة ورياضة وفلك ونحوها ، حيث إن «مناهج الدراسة بالأزهر كان خلواً من علوم الدنيا ، تلك العلوم التي تفيد صاحبها في زراعة أو صناعة أو تجارة أو في غيرها من وسائل الحياة ، وكانت العناية فيه منصرفة إلى تحقیقات لفظية ليس لعامة الشعب فيها غناء»<sup>(٤)</sup>.

ويذكر الجبرتي أن الوالي التركي «أحمد باشا» الذي ولى مصر سنة ١١٦١ هـ قال لشيخ الأزهر «عبد الله الشبراوي» كلاماً معناه : «إني سمعت عن مصر أنها منبع الفضائل والعلوم ولكن وجدت كما يقال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» لأن «أحمد باشا» قد تحدث مع بعض شيوخ الأزهر في العلوم الرياضية فلم يعرفوا شيئاً فقال له الشيخ «الشبراوي» أن غالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض كعلم الحساب. ولأن هذه العلوم تحتاج إلى أنوات وآلات ودقة الرسم وأهل الأزهر فقراء»<sup>(٥)</sup>.

(١) تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية ص ٢٢٨ الدكتور «ماجد عرسان الكيلاني». دار ابن كثير. «دمشق». «بيروت». الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٧٥ بل لم يتوقف الأمر عند اعتبارها نافلة ، بل لقد تعدى ذلك إلى تحريمها ومهاجمتها كما سنعرف ذلك.

(٣) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٤٧.

(٤) تاريخ التعليم في عصر محمد علي ص ١٧.

(٥) عجائب الآثار ١٩٢/١ وانظر: تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ١٠ - ١٢ عبد المتعال الصعيدي مطبعة الاعتماد. «القاهرة».

فقد دل كلام الشيخ «الشبراوي» على بعض النظرة التي كان ينظرها شيوخ الأزهر وتلامذته إلى هذه العلوم وأنهم كانوا لا يتعلمون منها إلا مايساعدهم في حساب الفرائض لا غير ولا شك أن تلك النظرة الخاطئة كانت تدل على قصور في الوعي بشأن أهمية تلك العلوم .

هذا بالإضافة إلى ما ذكره الشيخ «الشبراوي» عن الفقر الذي يعاني منه أهل الأزهر مما يجعلهم يعزفون لضيق ذات يدهم عن هذه العلوم التي تحتاج إلى المال لشراء الأدوات والآلات اللازمة لتعلمها والإفادة منها .

يقول «عبد المتعال الصعيدي»<sup>(١)</sup> معلقاً على هذه القصة : «وإن هذا الباشا ليذكر له بالفخر أنه كان أول من شعر بنقص التعليم بالأزهر ولا سيما أنه قد شعر بهذا في عصر خيم الجهل فيه على العقول ، ونام المسلمون فيه نومة أهل الكهف ، حتى صاروا لا يشعرون بنقصهم في العلوم ، ولا يدركون تأخرهم في التعليم ، ولا يقدرعون عاقبة هذا الإهمال من ضياع بلادهم ، ووقوعها لقمة سائغة في يد أمم أوربا التي كانت قد قطعت شوطاً عظيماً في نهضتها العلمية ، وتوشك أن تنقض على البلاد الإسلامية للاستيلاء عليها ، بعد أن وصلت بنهضتها العلمية إلى ما وصلت إليه من القوة ، ووصلت الأمم الإسلامية بتأخرها في العلم إلى ما وصلت إليه من الضعف .

وكذلك يحمد للشيخ «عبد الله الشبراوي» أنه اعترف بذلك النقص ، ولم يجادل في أمر العلوم الرياضية التي أخذ الباشا عليهم إهمالهم لها ، فهو في هذا خير من أولئك الذين جادلوا في أمرها بعده بنحو قرنين ، وثاروا عليها عند دخولها في الأزهر ، وعارضوها باسم الدين ، والدين براء مما يعارضون .....

وكانت فرصة صالحة لإصلاح الأزهر ، اتفق فيها الرئيس المدني والرئيس الديني على نقص التعليم فيه ، فلو تعاونوا على إصلاحه لكان نجاحهما فيه مكفولاً ، ولأدركا الإصلاح قبل أن يفوت أوانه ، فينهض المسلمون قبل أن يأخذهم أعداؤهم في غفلتهم ، ويبتلعوهم لقمة سائغة بسبب جهلهم...»<sup>(٢)</sup>.

ومن العوامل التي أدت إلى الإعراض عن دراسة العلوم الدنيوية أيضاً ما كان «يرجع إلى قانون العرض والطلب فالمعروف أن الطالب يدرس ما يساعده على كسب رزقه وبخاصة إذا كان فقيراً . وقد كانت الوظائف المعروفة إذ ذاك ووظائف دينية كالمؤذن والإمام والخطيب والمأذون والشاهد والقاضي ونائبه والمفتي والمحاسب والمدرس...»<sup>(٣)</sup>.

(١) الاعلام ١٤٨/٤ .

(٢) تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ١٣ .

(٣) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص ٤٥ .

وقد «أصاب الجمود التعليم في الجامع الأزهر وسائر المعاهد العلمية فأهمل تدريس العلوم الحديثة بالجامع الأزهر وأصبح الاهتمام منصباً على العلوم الدينية واللغوية...»<sup>(١)</sup>.

وليت الأمر وقف عند الإعراض عن تلك العلوم وإهمالها أو الاستهانة بها ، بل لقد وصل الأمر إلى مهاجمتها ومحاربتها وتحريمها بعد أن استبعدت من الأزهر تماماً .

فحين أراد بعض المتصدرين للإصلاح في الأزهر إدخال العلوم الطبيعية والرياضية في الأزهر شعروا بما سيواجهونه في سبيل ذلك من سخط وإعراض «واتفقوا على استفتاء شيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية في مسألة العلوم التي يجوز تدريسها بالجامع ، ولا تعتبر العناية بها في أماكن العبادة مخالفة للتقاليد الإسلامية. وكلفوا عالماً تونسياً فاضلاً هو الأستاذ «محمد بيرم» أشهر علماء الزيتونة في عصره أن يتوجه بهذا الاستفتاء إلى الشيخ «محمد الانباني» شيخ الجامع الأزهر يومذاك (١٣٠٥ هـ - ١٨٨٧ م) فكتب إليه بعد التمهيد «ما قولكم رضي الله عنكم : هل يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعات وتركيب الأجزاء المعبر عنها بالكيمياء ، وغيرها من سائر المعارف ، لا سيما ما ينبنى عليه منها من زيادة القوة في الأمة بما تجاري به الأمم المعاصرة لها في كل ما يشمله الأمر بالاستعداد؟»<sup>(٢)</sup>.....

وقد كان الشيخ «الانباني» يعلم مصدر الاستفتاء ، فلم يهمله كما أشار عليه بعض أعوانه. فكتب في جوابه :

«يجوز تعلم العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافية ، لأنه لا تعرض فيها لشيء من الأمور الدينية ، بل يجب منها ما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوباً كفاً كما يجب علم الطب لذلك كما أفاده «الغزالي» في مواضع من كتابه الأحياء. وما زاد على الواجب من تلك العلوم مما يحصل به زيادة في القدر الواجب فتعلمه فضيلة»<sup>(٣)</sup>....

(١) التاريخ الثقافي للتعليم في مصر ص ١٢.

(٢) يقول «الغزالي» رحمه الله : وأما فرض الكفاية فهو علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب ، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان ، والحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواثيق وغيرها. وهي العلوم التي لو خلا البلد عن يقوم بها حرج أهل البلد. وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلحة والحياسة والسياسة بل الحجامة والخياطة. إحياء علوم الدين ٢٧/١.

ويقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله : فأخذ علم الطب من كتبهم (يعني كتب الفلاسفة) مثل الاستدلال بالكافر على الطريق واستطبابه بل هذا أحسن. لأن كتبهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تنخل فيها الخيانة وليس هناك حاجة إلى أحد منهم بالخيانة ، بل هي مجرد انتفاع بآثارهم ، كالملايس والمساكن والمزارع والسلاح ونحو ذلك. مجموع الفتاوى ١١٤/٤.

(٣) الأزهر. تاريخه وتطوره ص ٢٤٩. وانظر : تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٣٩ - ٤٢.



وبعد أسبوعين من صدور هذه الفتوى من قبل شيخ الأزهر «الشافعي» صدرت الموافقة عليها من مفتي الديار المصرية ، وهو حنفي المذهب ، فقال : «إن ما أفاده حضرة الأستاذ شيخ الإسلام موافق لمذهبنا.....»<sup>(١)</sup>.

وهذا الموقف من أغرب المواقف وألمها على النفس ، فبعد أن كانت معاهد المسلمين وجامعاتهم تزخر بهذه العلوم التي كانت تلقى بين جنبااتها كما ذكرنا ذلك سابقاً ، أبعدت هذه العلوم رويداً رويداً حتى جاء على الأمة الإسلامية يوم يستفتى فيه عن جواز تدريس هذه العلوم التي لم تكن غريبة على المعاهد الإسلامية في يوم من الأيام .

بل إن نفس الجامع الأزهر كانت تدرس فيه هذه العلوم إلى أواخر القرن الثاني عشر الهجري تقريباً ، فالشيخ «أحمد الدمنهوري» (المتوفى سنة ١١٩٢ هـ)<sup>(٢)</sup> شيخ الأزهر ذكر عن نفسه أنه قد درس كثيراً من المؤلفات في علوم الحساب والجبر والمقابلة والطب والفلك والهندسة والجغرافيا والأحياء والجيولوجيا<sup>(٣)</sup>.

والشيخ «حسن الجبرتي» الذي عكف الوالي التركي «أحمد باشا» على مجالسته والاستفادة منه ، بعد أن دله الشيخ «الشبراوي» عليه كان عالماً متبحراً في تلك العلوم<sup>(٤)</sup>.

ولكن يبدو - والله أعلم - أنها لم تكن على المستوى العام ، وإنما يقوم بدراستها بعض النابغين من نوي الهمم العالية. وعلى أي حال فإن ما كان يدرس من تلك العلوم لم يكن إلا ما درس في القرون السابقة ، لم يداخله تطوير ولا ابتكار.

ومع ذلك فلم يعمل بالفتوى المذكورة إلا بعد مضي تسع سنوات أخرى : ولهذا أيضاً دلالاته<sup>(٥)</sup>

وهنا لا بد لنا من كلمة موجزة حول إصلاح الأزهر الذي شغل حيزاً لا بأس به من التفكير الإسلامي في العصر الحديث فلا بد قبل كل شيء أن نكون حذرين عند حديثنا عن إصلاح الأزهر ، بل وعما سمي بالإصلاح والحركات الإصلاحية بصورة عامة ، لأن هذا المجال أضحى معتركاً ضيقاً ،

(١) الأزهر تاريخه وتطوره ص ٢٥٠.

(٢) الأعلام ١٦٤/١ وقد ذكر «الزركلي» أن «الدمنهوري» له رسالتان في تلك العلوم. الأولى هي «عين الحياة في استنباط المياه» والثانية هي : «القول الصريح في علم التشريح». غير أن «الدمنهوري» بعد أن ساق المؤلفات في تلك العلوم التي تلقاها على مشايخه ، أعقبها بذكر المؤلفات التي قرأها بنفسه دون أن يكون قد أخذها على شيخ ، وذكر منها الرسلتين السابقتين. فيحتمل أن «الزركلي» قد أخطأ في نسبة الرسلتين إليه. انظر : تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٣٠.

(٣) انظر أسماء هذه المؤلفات في : تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٢٩ - ٣٠.

(٤) عجائب الآثار ١٩٢/١.

(٥) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢٠٩.

اختلفت فيه الأمور ، فلم يعد يميز فيه بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب ، ويعرف المصيب من المخطئ . ولا يشك عاقل في أن الأزهر كان بحاجة إلى إصلاح شامل ، ولكن المتأمل لحركة الإصلاح في الأزهر يرى بوضوح أن غالب من نادى بالإصلاح كان متأثراً بالحضارة الغربية ومشغوهاً بها . وعلى رأس هؤلاء «رفاعة الطهطاوي» و«جمال الدين الأفغاني» و«محمد عبده» وغيرهم .

لقد كان كثير مما انتقده هؤلاء على الأزهر حقاً ، ولكن انتقادهم كان ممزوجاً بالنظرة الغربية والفلسفة الأوربية ولم يكن إسلامياً صافياً ، فكان حرياً ألا يقبل هذا الإصلاح لأول مرة . واصطدم دعاة بشيوخ الأزهر . وحدث صراع عنيف بين أنصار الإصلاح وكانوا قلة ، وبين جمهور الأزهريين شيوخاً وطلاباً<sup>(١)</sup>

فالشيخ «محمد عبده» الذي كان أكبر داعية إلى إصلاح الأزهر ، يخاطب من أنكر عليه حديثه في دعوته وقال له إنه قد تعلم في الأزهر ووصل في العلم إلى منزلة عالية : إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكر ، فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الأزهر!! ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريده له من النظافة!!<sup>(٢)</sup>

فالإصلاح الذي كان يدعو إليه «محمد عبده» كان إصلاحاً نابعاً من كرهه وغيظه شديدين للأزهر وأهله ، وليس له ما يبرره في نظرنا حتى ولو قسا عليه الأزهريون ، واشتطوا في الهجوم عليه . وقد طغى الصراع على الفريقين ، حتى نسي أنصار الإصلاح ما يدعون إليه في خضم صراعهم ، وأصبح همهم مهاجمة من يسمونهم بالجامدين ، وإصاق كل نقيصة بهم ، ونعي جمودهم وتخلفهم ورجعيتهم .

وكان «محمد عبده» يطلق على الأزهر بعض الألقاب الجارحة ، كالاصطبل والمارستان والمخروب<sup>(٣)</sup> .

ومن أغرب الأمور أن جمهور الأزهريين الذين كانوا ناقلين على الشيخ «محمد عبده» الذي سقاه أحلامهم وانتقصهم أيما انتقاص ، وعارضوا دعوته إلى الإصلاح معارضة شديدة ، انقلب خلفهم بعد ذلك إلى متعصبين شديدي التعصب للشيخ نفسه ، لا يقبلون بنقده أبداً . فهاجموه في البداية دون أن يقبلوا شيئاً من دعوته الإصلاحية ، وتولوه في النهاية ولاية لا تقبل طعناً أو نقداً . فكانوا مخطئين في

(١) انظر مراحل هذا الصراع في : تاريخ الإصلاح في الأزهر .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ وقد أورد «محمد عبده» تلاميذه تلك الروح الناقمة التي تلتهب حقداً وكرهه للأزهر وأقرأ ما كتبه تلميذه الشيخ «محمد رشيد رضا» عن الأزهر مما يشيع في نفس القارئ التقرؤ والنفور في تاريخ الأستاذ الإمام ٤٨١/١ مطبعة المنار . مصر . الطبعة الثانية ١٣٤٤ هـ .

(٣) تاريخ الأستاذ الإمام ٤٩٥/١ .

الحالين معاً. ولم يهياً للأزهر إلى زمننا هذا مصلح صادق يقوم إصلاحه على منهج أهل السنة والجماعة.

ولم يكن الأمر مقتصرًا على الأزهر فحسب ، بل لقد كانت المعاهد الإسلامية الأخرى كذلك. فالزيتونة في تونس ، والقرويين في فاس لم يعد لهذه العلوم وجود فيها ، بعد أن كانت تدرس أزمنة بين جنباتها . «وانمحي أثرها في القرن التاسع عشر نظراً إلى فقدان المدرسين الأكفاء ، إذ عنوان المطامح آنذاك إنما كان علم الفقه»<sup>(١)</sup> .

وحتى عندما أصدر «أحمد باي» الأول مرسوماً عام ١٨٤٢م يقضي بتنظيم التعليم في جامع الزيتونة وفق خطة معينة ، كانت تلك الخطة ناقصة من حيث العلوم العصرية التي أدخلت على نطاق ضيق لا يتناسب مع ما تقضيه مستلزمات العصر ، إذ على الرغم من أنه أدخل على برنامج الجامع تعليم شيء من الحساب والجغرافية والهندسة وغيرها من العلوم ، إلا أن ذلك بقي ضمن إطار محدود ويكاد يكون غير إجباري<sup>(٢)</sup> .

ويذكر الشيخ «رشيد رضا» أن الشيخ «حسين الجسر الأزهري» (المتوفى سنة ١٣٢٧هـ)<sup>(٣)</sup> قد أسس مدرسة تسمى «المدرسة الوطنية الإسلامية» وأدخل فيها بعض العلوم العصرية ، ولكن الحكومة العثمانية لم تقبل أن تعدّها من المدارس الدينية التي يعفى طلابها من الخدمة العسكرية ، فكان ذلك سبباً في إلغائها<sup>(٤)</sup> . وفي ذلك دلالة على التدهور العلمي ، والنظرة المشوهة إلى تلك العلوم في هذه الفترة.

ويقول الشيخ «محمد أديب الحصني» متحدثاً عن العلوم التي كانت رائجة في بلاد الشام ثم تلاشت : «ومن العلوم التي راجت في تلك العصور الرياضيات كالحساب والجغرافيا والهندسة والفلك وما يتفرع عنه .... ، وقد اضمحلت هذه العلوم كلها وفي تاريخ موتها تفاوت»<sup>(٥)</sup> .

وهكذا أبعدت هذه العلوم من حيز التعليم وعورضت معارضة شديدة ، بل لقد أصبحت في عقول الناس وأذهانهم مرتبطة تماماً بالكفر والضلال ، فما ظنك بأناس سدوا على أنفسهم أبواباً من العلم والقوة ، رأوا أن في فتحها وتعلمها شراً عظيماً وبلاداً خطيراً - إلا وقوع الانحطاط والتخلف في حياتهم.

(١) التعليم الإسلامي وعلاقته بتطور المجتمع ص ٢٨١ ، د. «علي الشنوفي» . من ضمن «الدين والمجتمع» ، وهو مرجع سبق ذكره.

(٢) تونس العربية ص ٢٠٢ «إحسان حقي».

(٣) الأعلام ٢٠٨/٢ .

(٤) السيد «رشيد رضا» أو إخوانه أربعين سنة ص ٣٦ .

(٥) منتخبات تواريخ «دمشق» ص ٢٠١ .

وحتى العلماء المجتهدون الذين بلغوا منزلة عظيمة في العلم والدين والبصيرة كان لهذا الصد  
العنيف تجاه هذه العلوم من قبل جمهور العلماء أثر في عدم قدرتهم على مواجهة الناس بضرورة  
دراستهم لهذه العلوم. فهذا الامام «الشوكاني» يرسم منهاجاً لطلبة العلم بكافة مستوياتهم ، ويحدد  
المواد والعلوم لكل مستوى من حيث علوم الدين واللغة على اختلافها ثم يقول : «ثم لا بأس على من  
رسخ قدمه في العلوم الشرعية أن يأخذ بطرف من فنون هي من أعظم ما يصقل الأفكار ويصفي  
القرائح ويزيد القلب سروراً والنفس انشراحاً كالعلم الرياضي والطبيعي والهندسة والهيئة والطب ،  
وبالجملة فالعلم بكل فن خير من الجهل به بكثير ولا سيما من رشح نفسه للطبقة العلية والمنزلة  
الرفيعة ودع عنك ما تسمعه من التشنيعات ، فإنها كما قدمنا لك شعبة من التقليد. وأنت بعد العلم  
بأي علم من العلوم حاكم عليه بما قد يكون لديك من العلم ، غير محكوم عليك ، واختر لنفسك ما يحلو ،  
وليس يخشى على من قد ثبت قدمه في علم الشرع من شيء ، وإنما يخشى على من كان غير ثابت  
القدم في علوم الكتاب والسنة ، فإنه ربما يتزلزل وتحول ثقته فإذا قدمت العلم بما قدمنا لك من العلوم  
الشرعية فاشتغل بما شئت ، واستكثر من الفنون ما أردت وتبحر في الدقائق ما استطعت ، وجاوب  
من خالفك وعذلك وشنع عليك بقول القائل :

أتانا ان سهلاً ذم جهلاً علوماً ليس يعرفهن سهل  
علوماً لو دراها ما تلاها ولكن الرضى بالجهل سهل

واني لأعجب من رجل يدعى الإنصاف والمحبة للعلم ويجري على لسانه الطعن في علم من العلوم  
لا يدري به ولا يعرفه ولا يعرف موضوعه ولا غايته ولا فائدته ولا يتصوره بوجه من الوجوه ..... ولقد  
وجدنا لكثير من العلوم التي ليست من علم الشرع نفعاً عظيماً وفائدة جلية في دفع المبطلين  
والمتعصين»<sup>(١)</sup>.

ويفهم من هذا النص الذي أوردناه للإمام «الشوكاني» التردّي العميق الذي منيت به هذه العلوم  
في تلك الفترة، ونرى ذلك في كلام «الشوكاني» الذي اتخذ من اللين والهدوء، والتدرج أسلوبياً ، حتى  
لا ينقض عليه الجامدون ، ويتألب عليه الجاهلون. فدخل عليهم من باب الاستحياء والحذر.

ولقد كان لهذا الموقف السلبي الذي وقفه غالب علماء المسلمين وفقهائهم من هذه العلوم التجريبية  
آثار وخيمة بعيدة المدى حيث أضحى موقفهم ضعيفاً وحرَجاً أمام حركات التغريب وموجات التحرر  
والعلمانية التي غزت العالم الإسلامي في العصر الحديث وكان موقفهم من دعاة التغريب أن «أعلنوها  
عليهم حرباً شعواء عملت في أقاويلهم ومحاولاتهم معاول الفضح والتجريح .. ولكنهم مع ذلك عجزوا

(١) أدب الطلب ص ١٢٤.

عن أن يحسنوا عرض هذه الحقائق بالأسلوب الذي يفهمه الجيل الجديد ، فظلوا خارج ميدان المعركة، لا يعرف الناس عنهم إلا أنهم ثائرون بكل العلوم التجريبية التي اكتشفها العقل الحديث : فكأن مهمتهم الكبرى هي أن يحبسوا المسلمين في نطاق أسفارهم الموروثة ، دون أن يسمحوا لهم بالقاء نظرة إلى خارجها ....

ولقد كان لجمود هذا الفريق من الشيوخ أثر كبير في نفرة الشباب الجديد من الإسلام إذ اعتبروهم صورة من الدين الذي يدعون إليه فهو إذن دين بئس ضيق الصدر بحرية الفكر والبحث. يستنكر كل تقدم عقلي أحرزه الإنسان في ظل الحضارة الحديثة ، ولو كان ذلك التقدم قائماً على المعادلات الرياضية التي لا تقبل الجدل! (١).

ومما لا شك فيه أن ذلك الموقف السلبي قد هيا تربة خصبة لبذور العلمانية والتغريب حيث بدا الانقسام واضحاً بين جيلين كل منهما على طرف نقيض حيث «جاءت النتائج الخطرة التي تولدت من هذا الفصل الجديد بين الجيلين ، إذ انصرف أحدهما عن الحياة بما فيها ليردد أقوال السابقين ، ويحذر من حوله من أباطيل اللاحقين ... على حين انقطع الآخر عن سبيله بل عن الدين كله ، ليتولى شئون الدنيا كلها ، فيديرها على أساس لا يمت إلى الإسلام بأي سبب (٢) . «وجاءت نتيجة سيئة ... هي أن أبناء الجيل الجديد ظنوا أن جمود الفقهاء ناشيء عن جمود الدين ، وحسبوا أن الدين عاجز عن مسايرة الظروف المتطورة والأحوال المتجددة ، ففقدوا ثقتهم في الدين ، وقل احترامهم للمتدينين» (٣).

على أن بعض الباحثين يحمل الاستعمار الأوربي بعض المسؤولية في عزوف المسلمين عن هذه العلوم وحرمانهم منها في تلك الفترة حيث يقول : «أن الضعف العلمي الذي بدأ في عهود الأتراك وصل غايته في عهد الاستعمار الأوربي للدول الإسلامية ، فقد كان هذا العهد عهد الابتكار والفكر ، ولكن الغرب شل عقول المسلمين وحرّمهم التفكير ، ولا يمكن أن ترجى نهضة علمية في جو من الإرهاب والقيود والعبودية ، وفي جو من الفقر والمرض والجهل ، تلك الآفات التي بذرها الغرب في الدول الإسلامية التي أخضعها إليه...» (٤).

ولكن هذا لا يعفي المسلمين مهما كان الأمر من تحمل المسؤولية كاملة فيما وقع من إهمال العلوم الكونية حيث تهاونوا فيها مما ترتب على ذلك آثار عظيمة من التخلف والضعف وكان سبباً

(١) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ٢٩٩.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٠.

(٣) المجتمع الإسلامي ص ٢٠٩ د. «أحمد شلبي»، مكتبة النهضة المصرية. الطبعة الثالثة ١٩٦٧ م.

(٤) المصدر السابق ص ٣٢٦.

جوهرياً في رواج دعوات التغريب والعلمانية في الأمة الإسلامية. وإن ما وقع في الأمة من إعراض عن دراسة هذه العلوم في القرون المتأخرة ليس له أي تبرير على الإطلاق ، وهو موقف دل على جهل عظيم بالدين والتاريخ .

فإن الدين هو «الذي دفع المسلمين إلى طلب العلم ، والتعمق فيه ، والبحث الجاد في مجالاته المختلفة .. وإن روح البحث العلمي سواء النظري أو التجريبي ، لم تكن طبيعة في هذه الأمة قبل إسلامها ، إنما اكتسبتها الأمة من الإسلام حينما أمنت به ومارسته في عالم الواقع .

فقد بدأ الوحي - أول ما بدأ - بالتوجيه إلى القراءة. ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق ١- ٥]. وتوالت الآيات تطلب من المسلمين التفكير والتدبر في ملكوت السموات والأرض ، وتخبرهم أن الله سخر للإنسان ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، وأن عليه أن يبذل جهده في التعلم لتحقيق ذلك التسخير في عالم الواقع . وأن القوة مطلب من مطالب هذه الأمة من أجل المحافظة على عقيدتها وكيانها ، ومن أجل منع الفتنة عن المسلمين ، والقوة لا تتأتى بغير العلم.

وقد أثمرت هذه التوجيهات الربانية ظهور المنهج التجريبي في البحث العلمي على يد المسلمين حين كانوا مسلمين حقاً ، وبالمنهج التجريبي تقدمت العلوم تقدماً هائلاً ، ووضعت اللبنة التي يقوم عليها صرح التقدم العلمي في الوقت الحاضر»<sup>(١)</sup>.

وإن التاريخ لهو خير شاهد لاهتمام المسلمين في القرون المتقدمة بهذه العلوم. وإن حواضر الإسلام الكبرى ك«بغداد» و«دمشق» و«قاس» و«القيروان» و«القاهرة» و«قرطبة» و«غرناطة» ، وغيرها لشاهدة بأن هذه العلوم كانت رائجة جنباً إلى جنب مع العلوم الدينية ، وأن الحضارة الإسلامية في الشرق الإسلامي وفي الأندلس لم تكن سوى صدى عظيم للاحتفاء بهذه العلوم. ولكن الانحرافات العقدية والدينية التي قدمنا الحديث عنها جعلت المسلمين مع توالي القرون يهملونها شيئاً فشيئاً ، حتى وصل بهم الأمر إلى تحريمها ، فبرزت الآثار وخيمة جداً.

أما العلوم الدينية التي اقتصر عليها المسلمون في تلك الفترة فقد أصابها الرتابة ، وأصبحت إلى حد كبير لا تتلائم مع تغير الزمن ، وتجدد الأحوال وتطورها ، لأنها وقفت عند صورة معينة لا تتخطاها.

وقد تأثرت هي الأخرى بروح «التقليص» العامة التي غشت العالم الإسلامي من أكثر من وجه.

---

(١) العلمانيون والإسلام ص ٥٠ الشيخ «محمد قطب». دار الوطن للنشر. «الرياض» الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

فمن ناحية قل الاقبال على العلم عند الناس فتفشيت الأمية والجهل في الأمة ، بنفس المقدار الذي كانت أوريا تزيل به أميتها وتفتح المدارس لنشر العلم!

ومن ناحية أخرى « جمدت العلوم الشرعية على صورتها التي كانت تدرس بها قبل خمسة قرون على الأقل بما كان قد دخل فيها من غزو فكري إغريقي ، ومن «علم كلام» لا يغني ولا ينفع ، فوق تحويله دراسة العقيدة إلى معاذلات ذهنية باردة معقدة تفرغ العقيدة من محتواها الحي وتحيلها إلى «قضايا» فلسفية مثيرة للجدل بغير نتيجة ولا غاية! وفوق ذلك كله فقد تحول الطلاب إلى حفظة لا مفكرين . يتعالَم الواحد منهم بمقدار ما يحفظ من المتون والشروح والحواشي ، ولكنه لا يفكر لنفسه ولا يفكر بنفسه ، ففقد «العلماء» أصالة العلم وأصبحوا مجرد نقلة مقلدين<sup>(١)</sup>.

يقول الدكتور «جمال الدين الشيال» (المتوفى سنة ١٣٨٧هـ)<sup>(٢)</sup> متحدثاً عن عيوب التعليم في تلك الفترة : «ومنها .. جمود الدراسات وتأخرها ، بحيث أصبح المدرسون يرددون ما قاله السابقون ، ويدرسون المتون والكتب القديمة دون أن يؤلفوا أو يكتبوا جديداً ، فانعدم الابتكار ، وأثر هذا بالتالي في الطلاب ، فأصبحوا يعيدون ما يسمعون ويعنون بالمسائل الشكلية التافهة ، ويعتمدون على الاستذكار والحفظ عن ظهر قلب دون الفهم أو الوعي السليم.

ونستطيع أن نتبين من تراجم شيوخ هذا العصر وعلمائه أن بعضهم كان غزير الإنتاج ، فكم من عالم أنتج العشرات من الكتب والرسائل ، ولكننا لا نستطيع أن نجد من بينها بحثاً له قيمة أو كتاباً يضيف إلى العلم جديداً ، أو رسالة فيها شيء من الابتكار أو أصالة الفكر ، وإنما كان أقصى ما يفعله الواحد منهم أن يكتب شرحاً لمتن أو يضيف حاشية على شرح...»<sup>(٣)</sup>.

ومن أهم أوجه النقد التي صوبت إلى مناهج التعليم في ذلك الوقت أنها لا تؤدي إلى تحقيق الغرض من التربية ، كما يقول الشيخ «عبد الحميد بن باديس» الذي يراها فقط «تكون ثقافة لفظية ، يهتم أصحابها بالمناقشات اللفظية العميقة طوال سني الدراسة»<sup>(٤)</sup>.

وقد أصيبت العلوم الدينية في هذه الفترة بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل أعطت أثرها عبر القرون المتوالية ، ومن هذه العوامل :

(١) واقعنا المعاصر ص ١٧٥.

(٢) الأعلام ١٣٥/٢.

(٣) الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي ص ١١ المطبعة الكمالية - ١٩٥٨م.

(٤) «ابن باديس». حياته وآثاره ١٠٨/١.

## ١ - الاهتمام بالمختصرات :

ونعني بها ما قام به العلماء من اختصار للمؤلفات الطويلة بغية تسهيل حفظها لطلبة العلم ، حيث غدا الحفظ هو الغاية عند العلماء والطلاب حيث ضعفت ملكة الفهم والاستنباط عندهم بسبب الاعتماد على الحفظ والتركيز عليه .

«فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم ، ويختصرون مؤلفاتهم في متون موجزة ، ويأخذون هذه الأقوال مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة ، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها»<sup>(١)</sup> .... يقول الشيخ «محمد بن الحسن الحجوي» تحت عنوان «غوائل الاختصار وتاريخ ابتدائه» :

«لما ألفت المتقدمون دواوين كباراً كـ « المدونة » و « الموازية » و « الوضحة » وأمثالها ، عسر على المتأخرين حفظها لبرودة وقعت في الهمم ، فقام أهل القرن الرابع باختصارها ، فأول من وقفت عليه اختصر «المدونة» فضل بن سلمة الجهني الأندلسي» (المتوفى سنة ٣١٩ هـ) ... كما اختصرها «ابن أبي زيد» في «القيروان» ، ثم جاء «البرازعي» وألف «التهذيب» اختصر مختصر «ابن أبي زيد» ، واتقن ترتيبه ، واشتهر كثيراً حتى صار من اصطلاحهم إطلاق لفظ «المدونة» عليه ، ثم جاء «أبو عمر ابن الحاجب» واختصر تهذيب البرازعي في أواسط السابع ، ثم جاء «خليل» في أواسط الثامن واختصره . وهناك بلغ الاختصار غايته ، لأن مختصر «خليل» مختصر مختصر المختصر بتكرر الإضافة ثلاث مرات ، وإن أخل بالفصاحة وكاد جل عبارته أن يكون لغزاً ....»<sup>(٢)</sup>.

ثم يذكر أن اللغة تحتوي على مترادفات متفاوتة المعنى وفيها المشترك والتراكيب ذات الوجهين فأصبحت الجملة الواحدة تحتل احتمالات ، فلما اختصروا أحوالوا أشياء عما قصد بها ، وتغيرت مسائل عن موضعها ، ثم يذكر انتقاد الشراح على هذه المختصرات ووقعهم في الغلط نفسه «باختصار بعضهم لبعض ومن هذا ألفت الحواشي على هذه الشروح لإصلاح الأغلاط فحصل الطول وضاع الفقه الحقيقي ، كما ضاع جل وقت الدرس والمطالعة في حل المقفل وبيان المجمل»<sup>(٣)</sup>.

ويتابع «الحجوي» حديثه قائلاً: ومنها (أي من غوائل الاختصار) أنهم لما أغرقوا في الاختصار ، صار لفظ المتن مغلقاً لا يفهم إلا بواسطة الشراح ، أو الشروح والحواشي ففات المقصود الذي لأجله وقع الاختصار وهو جمع الأسفار في سفر واحد ، وتقريب المسافة وتخفيف المشاق وتكثير العلم

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر. ص ٥٦ .

(٢) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ٢/٢٩٨ و خليل صاحب المختصر هو «ابن اسحاق الجندي» ، من فقهاء المالكية بمصر توفي سنة ٧٧٦ هـ / ٣١٥ .

(٣) المصدر السابق ٢/٢٩٨ .



وتقليل الزمن ، بل انعكس الأمر ، إذ كثرت المشاق في فتح الأغلاق ، وضاع الزمن من غير ثمن . فإذا «ابن عرفة» ألف مختصره مسابقاً «ابن الحاجب» و«خيلاً» في مضممار الاختصار ، ففاتهما في الإغراق في الاستغلاق.

ولما كان يدرس هو فيه تعريف الإجارة وهو قوله : بيع منفعة ما أمكن نقله غير سفينة ولا حيوان لا يعقل بعوض غير ناشئ عنها بعضه يتبع بعض بتبعيضها . وأورد عليه بعض تلاميذه أن زيادة لفظ «بعض» تنافي الاختصار ، فما وجهه؟ فتوقف يومين وهو يتضرع إلى الله في فهمها وأجاب في اليوم الثاني بأنه لو أسقطها لخرج النكاح المجعل صداقه منفعة ما يمكن نقله ، وناقشه تلميذه «الوانوغي» وغيره بما يطول جلبه.

ثم يقول بعد ذلك : فتأمل وانظر أفكار الشيخ والتلاميذ التي اشتغلت هذا الزمن الكثير في حل مشكلة عويصة وهي إقحام لفظ واحد لا أهمية له تفريراً ولا تأصيلاً يومين بل وبعده اشتغل غيره أياماً ولا زلنا نشتغل كذلك ، فذلك دليل على أن الوقت ليس له عندهم ثمن<sup>(١)</sup>.

ثم يبين ما وقع من التطويل العظيم فيقول : «وأما من حيث المواد وتقليل الأسفار ، فقد وقع لهم غلط فيما أملوه وصرنا من جمع القلة إلى الكثرة وذلك أن «المبونة» مثلاً فيها نحو ثلاثة أسفار ضخام وهي مفهومة بنفسها لا تحتاج لشرح في غالب مواضعها ، لكن «خليل» لا يمكننا أن نفهمه ونثق بما فهمنا منه إلا بستة أسفار «للخرشي» ، وثمانية «للزرقاني» ، وثمانية «للرهوي» ، الجميع اثنان وعشرون سفرًا مع طول الزمن المتضاعف في الدروس والمطالعة في تفهم العبارات المغلفة فلم يحصل المقصود من الاختصار ، بل انعكس الأمر ، وأصبحنا في التطويل ، فأصبح علم الفقه يستغرق عمر الطالب والمدرس ، لا يبقى معه فراغ لعلم غيره لمن يريد إتقانه وتوقي الغلط فيه ، والطامة الكبرى هي عدم الوثوق بما فهمناه ، لأن الاختصار تذهب عنه متانة الصراحة وتأتي مرونة الإجمال والإبهام والإيهام حتى صار يضرب المثل لكل عبارة إجمالية تحتل احتمالات ، فيقال : عبارة فقهية أو عدلية. وقد ختم المختصر بعض أשיاخنا تدريساً في نحو أربعين سنة ومع هذا فإنما يحرر الفروع ويسردها مسلمة ، وأما الاطلاع على أصولها من كتاب وسنة وإجماع وقياس ، وعلة الحكم التي لأجلها شرع ، وفهم أسرار الفقه ، وما هناك من أفكار السلف وكيفية استنباطهم ومداركهم ، فكل ذلك فاتنا بفوات كتب الأقدمين...»<sup>(٢)</sup>.

(١) المصدر السابق ٢/٤٠٠.

(٢) المصدر السابق ٢/٤٠١.

ثم يقول متعجباً : «ومن الغريب في أحوال القرون الأخيرة أن النحو الذي لا تدعو ضرورة لإقامة أدلة على قواعده ، افتعلوا له أدلة فضخموه وصعبوه ، والفقه الذي يتأكد معرفة أدلته تركوها وضخموه بكثرة الاختصار ، وكثرة المسائل النادرة وإن إفناء العمر في المسائل النادرة التي تمضي الأعمار ولا تقع واحدة منها قليل الجوى ، وهي غالب ما زاده المختصر على «المدونة» على أن في «المدونة» من المسائل بل الأبواب النادرة الوقوع كثير وغير خفي أن الاشتغال في دراستها لمن ليس بحافظ ولا يبقى على باله منها إلا القليل ضياع للعمر ، فطلاب الفقه محتاجون إلى كتاب بين الصراحة واضح لا يحتاج إلى شرح ، جامع للمسائل الكثيرة الوقوع من كل باب دون النادرة أو المستحيلة ، فبهذا تكون الدراسة والتعلم ، وهذا الذي يفيد المبتدئين بل والمتوسطين ، وأن كثيراً من الناس تراهم يحفظون المختصر عن ظاهر قلب وليسوا فقهاء ، بل إذا احتاجوا في العبادة لمساءلة راجعوا الشراح أو الفقهاء لعدم فهم ألفاظه إلا بشرح في كثير من أبوابه .....»<sup>(١)</sup>.

ثم يبين المؤلف أن الفتور الذي أصاب الأمم الإسلامية عموماً حتى في العلوم اللغوية والدينية ، كان سببه الوحيد «هو الاختصار والتواليف التي لم تبق صالحة للتعليم ، ولا مناسبة لروح العصر.

والواقع في الفقه هو الواقع في النحو والصرف والبيان والأصول ، حتى إن صاحب «جمع الجوامع» لتمكن فكرة الاختصار منه ادعى في آخره استحالة اختصاره<sup>(٢)</sup>. وكل العلوم وقع فيها ذلك...»<sup>(٣)</sup>.

ويقول الشيخ «عبد الحميد بن باديس» ناقدًا للطريقة التقليدية في تدريس الفقه : «واقصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر ، جافة بلا حكمة ، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تفنى الأعمار قبل الوصول إليها»<sup>(٤)</sup>.

ومن هنا يمكننا القول بأن الاختصار كان عاملاً من عوامل الجمود والضعف الذي أصاب العلوم الإسلامية ومناهج التعليم حيث استمال إلى غاية يتسابق إليها العلماء وطلبة العلم كما عرفنا ذلك.

ويذكر الامام «الشوكاني» اهتمام الناس في عصره بهذه المختصرات والخطورة التي تنطوي

(١) المصدر السابق ٢/٤٠٢.

(٢) حيث أصبح الاختصار والاستغراق فيه هو الغاية عندهم وفيه يتسابقون وكأن أفقهم هو من لم يترك لغيره مجالاً لاختصار ما قام باختصاره. ومن هنا يمكننا أن نطلق على تلك الانكباب الغريبة على الاختصار بـ «موضة الاختصار» إن صح التعبير.

(٣) المصدر السابق ٢/٤٠٤.

(٤) ابن باديس ، حياته وآثاره ١/١٠٨ .

على ذلك فيقول : «قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية والرأي أغلب ، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم ، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً ، لأنه قد تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر ، وأن ما عداه فضلة أو فضول ، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه ، ورغبوا عما عداه ، وزهدوا فيه زهداً شديداً»<sup>(١)</sup>.

## ٢ - الشروح والحواشي والتقارير :

بعد أن ألفت المختصرات والمتون وبولغ في اختصارها وتعقيدها احتيج إلى الشروح والحواشي والتقارير التي لم تسلم هي ذاتها من التعقيد والغموض فضاع العلم بذلك وسط هذا الخضم الهائل من المؤلفات. وكان «أكثر ما كتب في هذا العصر إنما هو من قبيل الشروح والحواشي والتعليق وشروح الشروح ونحوها. ويصح أن يسمى هذا العصر «عصر الشروح والحواشي»<sup>(٢)</sup>.

كذلك حلقات التعليم قد رحلت عنها كتب المتقدمين وحلت محلها كتب المتأخرين المتكلفين ، وغصت بالحواشي والتقارير والتلخيصات والمتون التي ضن فيها مؤلفوها على القرطاس ، وتعمدوا التعقيد والغموض ، وكأنهم ألفوها في صناعة الاختزال ، وكل ذلك ينبيء عن الانحطاط الفكري والعلمي الذي حل بالعالم الإسلامي وتغلغل في أحشائه<sup>(٣)</sup>.

وكانت الهمم والعزائم عند الشيوخ والتلاميذ تتجه إلى حل ألفاظ الكتب من شروح وحواشٍ وتقارير وقد كانت «الألفاظ أشبه بالمقدسة ، وكانت المقدرة على حلها هي العلم كله. والعجيب ، ولكن ذلك ليس عجيباً على من نخل الأزهر أو عالج كتبه ، أنك تقرأ المتن فتفهم أكثره أو كله (في بعض الأحيان) فإذا ذهبت تقرأ الشرح عجزت عن فهم أكثره أو كله ، فإذا ذهبت إلى الحاشية والتقرير قابلت ألفاظاً ومعميات»<sup>(٤)</sup>.

ويضرب أحد الباحثين على ذلك مثلاً بـ : «متن المنهاج للنووي» ويشرحه تحفة المحتاج وحاشية «الشرنواني» على الشرح عند قوله بسم الله الرحمن الرحيم ويذكر كلام الشارح رحمه الله في لفظ (باسم) ثم يذكر أن «الشرنواني» علق على كلمة من كلمات «ابن حجر» وإن هذا التعليق قد بلغ ثلاث صفحات من الحجم الكبير»<sup>(٥)</sup>.

(١) أدب الطلب ص ٥٩.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٢٧٣/٣ «جرجي زيدان». مطبعة الهلال ط ١٩٣١.

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٦٨.

(٤) المجتمع الإسلامي ص ٢٦١.

(٥) المصدر السابق ص ٢٦١.

فكان الحفظ للمتون من غير فهم والعكوف على الحواشي والشروح والتقارير والتعليقات يزيد في اضطراب عقول الطلاب هذا إذا وصلوا إليها<sup>(١)</sup>.

«ويصف أحد علماء الأزهر هذه الحال بقوله : ولما فترت همة المتأخرين من العلماء عن التأليف عمدوا إلى مصنفات السلف الصالح - رضوان الله عليهم - وشرحوها ، ثم عمدوا إلى الشروح فشرحوها ، وسموا ذلك حاشية ، ثم عمدوا إلى الحواشي فشرحوها وسموا ذلك تقريراً ، فتحصل عندهم متن هو أصل المصنف وشرح ، وشرح الشرح ، وشرح شرح الشرح ، وكانت النتيجة أن تطرق الإبهام إلى المعاني الأصلية واضطربت المباحث واختلت التراكيب وتعددت العبارات واختفى مراد المصنف»<sup>(٢)</sup>.

ويقول الإمام «الشوكاني» - رحمه الله - الذي درس ودرّس الكثير من هذه الشروح والحواشي في مختلف العلوم الدينية واللغوية منتقداً لها : «مع أن فيها جميعها ما لا تدعو إليه حاجة بل غالبها كذلك ولا سيما تلك التدقيقات التي في شروحها وحواشيتها فإنها عن علم الكتاب والسنة بمعزل»<sup>(٣)</sup>.

ثم يبين - رحمه الله - الآثار السيئة المترتبة على العكوف على هذه الشروح والحواشي وأن سبب ذلك أنه «جاء في المتأخرين من اشتغل بعلوم أخرى خارجة عن العلوم الشرعية ، ثم استعملها في العلوم الشرعية ، فجاء من بعده ، فظن أنه من علوم الشريعة ، فبعدت عليه المسافة ، وطالت عليه الطرق ، فربما بات دون المنزل ، ولم يبلغ إلى مقصده ، فإن وصل فبذهن قليل وفهم عليل ؛ لأنه قد استفرغ قوته في مقدماته ، وهذا مشاهد معلوم ، فإن غالب طلبة علوم الاجتهاد تنقضي أعمارهم في تحقيق الآلات وتدقيقها ، ومنهم من لا يفتح كتاباً من كتب السنة ولا سفرّاً من أسفار التفسير ، فحال هذا كحال من حصل الكاغد والحبر ، وبرى أقلامه ، ولاك دأوته ، ولم يكتب حرفاً ، فلم يفعل المقصود.....»<sup>(٤)</sup>.

وقد كان علماء تلك الفترة وطلابها لا يرفعون رأساً بغير تلك الحواشي والشروح ولهذا كانوا ينتقدون من يخرج عن حيزها كما انتقد بعض علماء مصر الشيخ «طاهر الجزائري»<sup>(٥)</sup> في طريقة

(١) «جمال الدين القاسمي» وعصره ص ١٦

(٢) التاريخ الثقافي للتعليم في مصر ص ١٤.

(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ص ٨٦

(٤) المصدر السابق ص ٨٨.

(٥) هو الشيخ «طاهر الجزائري» الأصل الدمشقي موطناً ، عالم باللغة والأدب والمخطوطات ومن أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وله مؤلفات كثيرة ، توفي سنة ١٣٣٨ هـ . الأعلام ٢/٢٢٢.

تأليفه. كما ذكر الشيخ «محمد سعيد الباني»<sup>(١)</sup> وقالوا : «ما هذه المؤلفات الصغيرة أين المجلدات وأين الشروح والحواشي» فرد «الباني» عليهم : «بأن هذه الحواشي التي ينوهون بقدرها ما زادت العلم إلا نقصاً وتقهقراً إلى ما وراء لحيلولتها بين ذهن المتعلم القاصر الفهم وبين قواعد العلم السمحة وأنت ترى أكثر أسفار المتأخرين ومجامعهم الضخمة خالية من نواعي التأليف وإضاعة الوقت بالمؤلفات الفارغة. لذا ترى بعض المؤلفين مثلاً يتناولون كتاباً قد شرحه من سلفهم شروحاً عديدة على أساليب مختلفة فيعيدون شرحه بنفس ألفاظ الشراح السالفين بدون إدخال إصلاح أو تجديد واختراع في الأسلوب فيزيدونها بلة على ذهن الطالب وإني انتحل المعذرة لهؤلاء لأن روح زمانهم اقتضت ذلك ولكل زمان روح جديدة وأما اليوم فلا عذر ولا اعتذار»<sup>(٢)</sup>.

وبهذا اتسع الأمر و«كثر التدوين وتفرع فوضعت الكتب واختصرت وشرحت ووضعت الحواشي واشتغل الناس بها ، وكان ذلك على حساب الاشتغال بالكتاب والسنة ، وقد أضر ذلك كثيراً وقد عقد «ابن خلدون» فصلاً في مقدمته عنون له بقوله : «فصل في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل» وقال في هذا الفصل : اعلم أنه مما أضر الناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته : كثرة التأليف ، واختلاف الاصطلاحات في التعاليم ، وتعدد طرقها ، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك ، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل ، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ، ومراعاة طرقها ، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها ، فيقع القصور ولا بد من رتبة التحصيل.....»<sup>(٣)</sup>.

وبهذا كانت هذه المؤلفات على كثرتها من شروح وحواش وغير ذلك من الأغلال التي كبلت العقول وأدت إلى جمود العلوم عبر قرون عديدة ، ولا يعني هذا أنه لم يوجد في هذه المؤلفات بعض الحواشي والشروح المفيدة ، ولكنها كانت بجانب غيرها لا تكاد تذكر.

ولو ألقينا نظرة إلى مناهج التعليم الدينية في تلك الفترة لوجدنا أنها وللأسف الشديد كانت بعيدة ، كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة ذلك المنهج الذي يتمثل به الإسلام في واقع الحياة. وكانت المعاهد الإسلامية كلها تقريباً غريبة عن ذلك المنهج الإسلامي الأصيل.

فالأزهر مثلاً وهو المعهد الإسلامي الأول والجامعة العتيقة كان مركزاً لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الإسلام ومبادئه.

(١) أديب وعالم دمشقي ، من المناهضين للترك ، تولى الإفتاء في بعض أقضية «دمشق». له كتاب «تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر» توفي سنة ١٣٥١هـ . الاعلام ١٤٢/٦.

(٢) منتخبات تواريخ «دمشق» ص ٧٣٩.

(٣) تاريخ الفقه الإسلامي ص ١٥٠ «د.عمر الأشقر». مكتبة الفلاح. الكويت. ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

فالعقيدة والتوحيد تدرسان من كتب المتكلمين مثل : أم البراهين للسنوسي ، وجوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني ، والعقائد النسفية للنسفي ، والمقاصد لسعد الدين التفتازاني ، والمواقف لعبد الرحمن العضد. وغير ذلك من كتب علم الكلام التي لا تزيد الإنسان إلا حيرة وضياءً ، «فوق ذلك تحويلها دراسة العقيدة إلى معاذلات ذهنية باردة معقدة تفرغ العقيدة من محتواها الحي إلى قضايا فلسفية مثيرة للجدل بغير نتيجة ولا غاية»<sup>(١)</sup>. كما سبق وذكرنا .

يقول أحد الدارسين في الأزهر عن علم الكلام :

«ومن العلوم التي لم أنتفع بدراستها في الأزهر على الإطلاق علم الكلام ، فقد درسته بالأزهر عدة سنوات ، ولكنني لم أعرف منه شيئاً عن الله ذا بال ، وإنما انغمست في اصطلاحات زادت تفكيري غموضاً واضطراباً حتى تمنيت إيمان العوام .....»<sup>(٢)</sup>.

وقد هيمن علم الكلام على بلاد الإسلام شرقاً وغرباً إلا ما رحم الله ، وعكف عليه العلماء والطلاب بالدراسة والاهتمام<sup>(٣)</sup>. وحتى العلماء الذين لم يكونوا يؤمنون بجدواه ونفعه لم يكن لهم بد من دراسته وتدريسه نظراً لوقوع العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه تحت هيمنة ذلك العلم ورضوخه له أزمنة طويلة.

فالإمام «الشوكاني» في بلاد اليمن يتحدث عما ينبغي لطلبة العلم الطالبين لنيل رتبة الاجتهاد وهم ما عناهم بالطبقة الأولى أن يدرسوه ويتعلموه فيقول : «ثم ينبغي له (طالب العلم من تلك الطبقة) بعد إتقان فن أصول الفقه وإن لم يكن قد فرغ من سماع مطولاته أن يشتغل بفن الكلام المسمى بأصول الدين»<sup>(٤)</sup> ، ويأخذ من مؤلفات الأشعرية بنصيب ، ومن مؤلفات المعتزلة بنصيب ومن مؤلفات الماتريدية بنصيب ، ومن مؤلفات المتوسطين بين هذه الفرق كالزيدية بنصيب فإنه إذا فعل كل هذه عرف الاعتقادات كما ينبغي وأنصف كل فرقة بالترجيح ، أو التجريح على بصيرة ، وقابل كل قول بالقبول أو الرد على حقيقة. ومن أحسن مؤلفات المعتزلة المجتبى ومن أحسن مؤلفات متأخري الأشعرية المواقف العضدية وشرحها للشريف والمقاصد السعدية وشرحها له...»<sup>(٥)</sup>.

وإذا كان الامام «الشوكاني» يوصي طالب العلم ومريد الاجتهاد بدراسة هذه الكتب للمتكلمين

(١) واقعنا المعاصر ص ١٧٦ .

(٢) المجتمع الإسلامي ص ٢٥٨ .

(٣) انظر : مبحث علم الكلام والفلسفة في الباب الأول من هذه الرسالة ص

(٤) وهل ضاع الدين أو كاد إلا حين صار ذلك الكلام الضار أصولاً للدين يعكف العلماء على تدريسه ، والطلاب على دراسته.

(٥) أدب الطلب ص ١١٥ .

الحائدين عن طريق أهل السنة والجماعة فإنه كان يدرس للطلبة بعضاً منها حيث يقول عن نفسه :  
«وكنت أدرس الطلبة في اليوم الواحد نحو ثلاثة عشر درساً ..... منها ما هو في الأصول كالعضد  
وحواشيه والغاية وحاشيتها...»<sup>(١)</sup>.

وانتا لتستغرب مثل ذلك على الإمام «الشوكاني» ، ولا يمكننا أن نرى إلا أن البيئة الكلامية  
التي نشأ عليها في اليمن<sup>(٢)</sup> كانت هي المؤثرة على منهجه الذي سار عليه ورغب من طلبة العلم أن  
يسيروا عليه أيضاً ، ومع إيمانه بمخالفتها للحق إلا أنه قد حيل بينه وبين أن يفلت من أغلالها .

ويحسن بنا أن ننقل شيئاً من كلامه رحمه الله في رحلته مع علم الكلام وكتب المتكلمين فبعد أن  
بين لطالب العلم ما ينبغي له أن يطالعه ويعكف عليه من مؤلفات علم الكلام قال : «وأني أقول بعد هذا  
انه لا ينبغي لعالم ان يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم من  
الوقوف على ما تقتضيه أدلة الكتاب والسنة ، وإبراز الصفات كما جاءت .....»<sup>(٣)</sup> .

ثم يصف رحلته الحائرة مع علم الكلام ، حيث يقول : « واعلم أنني عند الاشتغال بعلم الكلام  
وممارسة تلك المذاهب والنحل لم أزد بها إلا حيرة ، ولا استفدت منها إلا العلم بأن تلك المقالات  
خزعبلات فقلت مشيراً إلى ما استفدته من هذا العلم :

وغاية ما حصلته من مباحثي      ومن نظري من بعد طول التدبر  
هو الوقف ما بين الطريقين حائراً      فما علم من لم يلق غير التحير  
على أنني قد خضت منه غماره      وما قنعت نفسي بدون التبهر

وعند هذا رميت بتلك القواعد من حائق ، وطرحتها خلف الحائط ورجعت إلى الطريقة المربوطة  
بأدلة الكتاب والسنة المعمودة بالأعمدة التي هي أوثق ما يعتمد عليه عباد الله ، وهم الصحابة ومن  
جاء بعدهم من علماء الأمة المقتدين بهم ، السالكون مسالكهم ، فطاحت الحيرة ، وانجابت ظلمة  
العماية ، وانقشعت وانكشفت ستور الغواية ، ولله الحمد ، على أنني والله الشكر لم أشتغل بهذا الفن  
إلا بعد رسوخ القدم في أدلة الكتاب والسنة ، فكنت إذا عرضت مسألة من مسائله مبنية على غير  
أساس<sup>(٤)</sup> رجعت إلى ما يدفعها من علم الشرع ، ويدمغ زائفها من أنوار الكتاب والسنة ، ولكني كنت  
أقدر في نفسي أنه لو لم يكن لدى إلا تلك القواعد والمقالات فلا أجد حينئذ إلا حيرة، ولا أمشي إلا في

(١) البدر الطالع ١/٤٦٤.

(٢) لأن الزيدية تبع للمعتزلة في علم الكلام . انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ١/٥٠.

(٣) أدب الطلب ص ١١٣.

(٤) وما أكثر مسائل علم الكلام التي لم تبين على أي أساس إلا الخرص والتخمين.

ظلمة ، ثم إذا ضربت بها وجه قائلها ودخلت إلى تلك المسائل من الباب الذي أمر الله بالدخول منه كنت حينئذ في راحة من تلك الحيرة ، وفي دعة من تلك الخزعبلات والحمد لله رب العالمين عدد ما حمده الحامدون بكل لسان في كل زمان»<sup>(١)</sup>.

وإذا كان هذا هو حال علم الكلام ومقالات المتكلمين وما تسببه من حيرة وضلال فكيف يجعلها «الشوكانى» من المناهج التي ينبغي على طالب العلم أن يتعلمها . وأين كتب السلف الصالح في ذلك المجال . أين كتب «ابن تيمية» و«ابن القيم» وغيرهما ممن أصلوا عقيدة أهل السنة والجماعة في مؤلفات كثيرة ، و«الشوكانى» من الذين يعلمون ذلك .

هذه العلوم التي تسبب الحيرة والظلمة كان لها كامل الهيمنة على ديار الإسلام ومعاهد العلم وبدلاً من أن يلقي بتلك العلوم جملة ، وتعزل جانباً عن العقيدة الإسلامية الخالصة ، وتدرس دراسة تاريخية بحثية ، لبيان زوايا الانحراف فيها ، وأسباب هذا الانحراف لتجنب كل ذلك كما يقول أحد الدعاة<sup>(٢)</sup> - وهذا على أحسن حال - بدلاً من هذا فقد أضحت هي العلوم المقدمة وأصول الدين التي يجب أن يتعلمها الطلاب ، ويعلمها الشيوخ والعلماء لتلاميذهم . وفوق ذلك فهي المصادر التي يجب أن تؤخذ العقيدة عنها .

«لقد جاء الإسلام لينقذ البشرية كلها من الركام الذي كان ينوء بأفكارها وحياتها ، ويثقلها ، ومن التيه الذي كانت أفكارها وحياتها شاردة فيه ، ولينشئ لها تصوراً خاصاً متميزاً متفرداً ، وحياة أخرى تسير وفق منهج الله القويم . فإذا البشرية كلها اليوم ترتكس إلى التيه وإلى الركام الكريه!»<sup>(٣)</sup>.

ولقد جاء الإسلام لينشئ أمة ، يسلمها قيادة البشرية ، لتتأى بها عن التيه وعن الركام فإذا هذه الأمة اليوم تترك مكان القيادة ، وتترك منهج القيادة ، وتلهث وراء الأمم الضاربة في التيه ، وفي الركام الكريه...»<sup>(٣)</sup>.

ولكن المسلمين فرطوا في منهج الله القويم وارتكسوا في ركام علم الكلام وفي تيه الفلسفة المظلم ونسوا أنهم أمة القيادة في العالم ومن أجل ذلك أنزل الله لهم ذلك المنهج القويم كي يرتفعوا بأنفسهم عن تلك الركامات الهائلة التي تتخبط فيها بقية الأمم .

وقد أصاب المناهج الإسلامية في تلك الفترة بالإضافة إلى الجمود موجة من الجفاف حيث «أن

(١) المصدر السابق ص ١١٥ .

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ١٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١ .



العصور المتأخرة بعدت بعداً كبيراً عن روح الإسلام واهتمت بالجسم والمادة حتى أصبحت الدراسات الإسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح ، وجرت عدوى هذه الدراسات إلى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التي كان يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها .....»<sup>(١)</sup>.

ويضرب بعض الباحثين على ذلك بعض الأمثلة ، منها : الزكاة وهي أهم أبواب الفقه صلة بالناحية الاجتماعية يتكلمون عن المادة والجسم دون أي عناية توجه للروح ، أنهم يبدؤون كلامهم بقولهم : تجب الزكاة في خمسة أشياء : المواشي والأثمان والزروع والثمار وعروض التجارة ثم يتحدثون عن شروط وجوبها والمقادير الواجبة فيها ، والعجيب أنهم حتى المحدثون منهم يكترون الكلام عن الإبل والبقر والغنم ، تلك التي كانت أهم مصادر الثروة والغنى في الجزيرة العربية ، وينسون أنها الآن لا تكاد توجد في أكثر العالم الإسلامي ولم يهتم أحد منهم تقريباً بمصادر الثروة التي جدت في العصور الحديثة ، فليس فيهم واحد فيما أعرف تكلم عن زكاة الدخل الوارد من العمارات والحوانيت المؤجرة مع ما تفيضه على أصحابها من ثروة. وقد قلنا إن أغلب الفقهاء أهملوا روح الإسلام ، ونريد أن نقرر هنا شيئاً يبلغ الغاية في الغرابة والدهشة ، هو أن من الفقهاء من حارب روح الإسلام ، فرسم لقرائه الحيل والسبل التي يتخلصون بها من الزكاة ، كأن يرسم للمالك أن يهب ماله لابنه أو لزوجته قبيل أن يحول الحول ثم يستوهبه إياه وبذلك يبدأ حول جديد ، ولا تجب زكاة عن الحول الماضي لأنه لم يكمل وهكذا يكرر ذلك قبيل انتهاء كل حول فلا تجب عليه زكاة قط.

ف نجد أن الفقهاء قد تكلموا عن كل هذا بجفاف تام على حين أنهم أهملوا الكلام عن نظرية الإسلام الاقتصادية وفوائد الزكاة ووجوب التعاون بين المسلمين وتنبية الناس إلى خطورة عبادة المال وأنها كانت ولا تزال سبب التدهور الخلقي الذي أصاب العالم إلى غير ذلك من الأهداف والغايات الرائعة النبيلة للزكاة في الإسلام<sup>(٢)</sup>.

ثم يمثل المؤلف بمثل آخر هو الصوم فيقول : نجد أن الفقهاء اتبعوا نفس الطريق فليس فيهم من تكلم عن الصوم على أنه رياضة روحية سامية ، وأنه ترجيح لجانب الروح في صراعها مع الجسم ، وأنه عن طريق الصوم يتحرر الإنسان من العادات التي خضع لها كتناول الطعام في وقت معين ، ..... تلك العادات التي يمكن أن يقال أن الشخص أصبح عبداً لها لا يستطيع أن يتخلف عنها ..... ماذا كتب الفقهاء عن الصوم؟ إن الجمهرة العظمى لهؤلاء الفقهاء تصور الصوم جوعاً وحرماناً ، تضع له الشروط. وتسرف في بحث ما يفطر به الصائم ، وتعالج ما شابه ذلك من المسائل المادية ، دون أن تعطى أي اهتمام للجانب الروحي في هذه الفريضة السامية.

(١) المجتمع الإسلامي ص ٢١٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢١١.

ويضرب المؤلف أمثلة جافة تحفل الكتب الفقهية منها بالمئات بل والآلاف ... ومن ذلك : لو بل خيطاً بريقة ، ثم أدخله في فمه ، وهو رطب واختلط بلل الخيط بريقه وابتلعه أفطر .. هذا وأمثاله ما اهتم به الفقهاء ، أما هجر القول وفحشه ، أما الحكمة الحقيقية للصوم ، والانتفاع به ، أما جشع الصائمين عند الفطر ، أما بخل الصائم وشحه . . . فهذا ما لم يعن به الفقهاء ، أو ما عنا به عناية ضئيلة... (١)

وفي باب الصلاة وما تستلزمه من طهارة يجد الباحث أشتاتاً من الاحتمالات قدرها الفقهاء ، وتكلموا فيها ، ولكنهم كالعهد بهم لم يذكروا كلمة واحدة تبين أن الصلاة انقلاب من ضجيج الحياة ليفرغ المسلم إلى الله بضع لحظات من اليوم ، وكثير من الفقهاء كانوا على صلة بالخلفاء وهم يعرفون آداب الدخول على الخليفة والمثول بين يديه والحديث في حضرته....

وهكذا عرف العلماء والفقهاء هذا الأدب واتبعوه وأوصوا به ليكون سلوك من يجلس في حضرة الخليفة. فماذا دونوا لمن يكون في حضرة الإله؟.

الحقيقة المؤلة أنهم لم يدونوا شيئاً من هذا القبيل ، وكان كل اهتمامهم أو جله متجهاً اتجاهاً مادياً جافاً ، جعل من الصلاة عملية أوتوماتيكية ، كأنما تقوم بها ماكينة لا قلب لها ولا إحساس ، وجعل من الوضوء والتميم وسيلة لدخول الصلاة ، أما ما في الصلاة من تفرغ إلى الله لحظات ، وما فيها من آداب اجتماعية رائعة ، وما في الوضوء واللبس من إعداد الشخص للمثول في حضرة العلي العظيم ، فلم ينل من عناية الفقهاء اهتماماً ذا بال، وحتى كلمة «الخشوع» التي قفزت إلى اصطلاحات الفقهاء خرجوا بها عن معناها ، وفسروها على مقتضى اتجاههم بالتأني في السجود أو الركوع ، دون أن يوردوا أهم معاني هذه الكلمة من الخضوع والتفكير في الله والإجلال لذاته .. (٢)

وفي الحديث عن السواك مثلاً أورد الفقهاء مسألة وهي : لو استاك بأصبع غيره!! وهي خشنة أجزأه قطعاً قاله في شرح المذهب ، وفي أصبعه خلاف ، الراجح في الروضة لا يجزي ، والراجح في شرح المذهب الإجزاء ، وبه قطع القاضي «حسين» و«المحاملي» و«البغوي» والشيخ «أبو حامد» واختاره «الرويانى» في البحر ...

مسئلة أخرى هي : الشك فيما خرج من الفرج هل هو مني أو مذي وأن هذا الخلاف وصل في بعض الكتب إلى ثلاث عشرة مقالة! .....

(١) المصدر السابق ص ٢١٣.

(٢) المصدر السابق ص ٢١٥.

وكذلك عند حديثهم عن تعدد الزوجات مثلاً وعن الطلاق ، فهم لا يكادون يذكرون شيئاً عن بعض الحكم والفوائد التي انطوت عليها مثل تلك الأحكام ولم يجهدوا أنفسهم في إيضاح روح التشريع فيها .

وهكذا في أغلب أبواب الفقه التي أصابها الجفاف وركز فيها على الجوانب المادية دون المعنوية . «وليس الفقهاء فحسب هم الذين اتجهوا هذا الاتجاه ، وليس علم الفقه وحده هو الذي بلي بهذه الدراسات الجافة ، بل إنها العلوم كلها التي عالجها من نسميهم العلماء ، إنها المنطق ، والحديث والتفسير ، والتاريخ الإسلامي ، وعلم الكلام ، والنحو والصرف والبلاغة ..... وانعدمت الروح في دراستها .....»<sup>(١)</sup> .

«ماذا فعل به (يعني القرآن الكريم) هؤلاء العلماء عندما كتبوا عنه ما أسموه تفسيراً؟ الجواب أنهم كتبوا كل شيء لا يلزم ، وأهملوا كل ما يجب أن يكتب ، أهملوا إبراز جمال القرآن في أسلوبه ومعانيه ، وما يدعوله من خلق وبر وعمل صالح ، وأحالوا الروح المتدفقة والمعنى الخلاب والأسلوب المعجز إلى قواعد نحوية ودراسات بلاغية وفقهية .

إن الرجل العربي ليقراً القرآن فيحس بلذة ما تعدلها لذة ، فإذا ذهب يقرأ تفسير القرآن استعجم عليه القرآن واستغلق»<sup>(٢)</sup> .

وبعد هذا فإنه مما لا شك فيه أن هذا الجفاف الذي أصاب مناهج التعليم من حيث الاهتمام بالجسم والمادة دون الروح والمعنى كان من الأسباب التي ساعدت على تفلت المسلمين من أحكام الدين والعبادات على مر القرون ، فكم نرى من الفقهاء بل ربما من المفتين الذي لم يراعوا لله حرمة ، ولم يراعوا ما تعلموه من تلك الدراسات الجافة . فكيف بسواهم من التلاميذ فضلاً عن العامة . وقد ذكرنا أن ذلك الجفاف كان سبباً كبيراً في تحول الجماهير عن هؤلاء العلماء والفقهاء إلى شيوخ الصوفية ..... ونحن نورد هنا بياناً مختصراً عن المناهج التعليمية في الأزهر عام ١٣١٠ هـ لنرى إلى أي مدى استطاعت تلك المناهج أن تؤدي دورها<sup>(٣)</sup> وبالطبع لم يكن هذا هو حال جميع العلماء ، بل هو حال الغالبية منهم ، وإلا فإن هناك من العلماء - وإن كانوا قلة - من راعوا روح الشريعة وحكمها ، وتميزت مصنفاتهم بالروعة والتجديد والحيوية .

### كتب علم التوحيد :

١ - أم البراهين (الصغرى) للشيخ «محمد يوسف السنوسي» بشرح الشيخ السنوسي والشيخ «الهدهدي» والشيخ «الباجوري» .

(١) المصدر السابق ص ٢٢٥ . (٢) المصدر السابق ص ٢٢٦ .

(٣) من رسالة قدمتها مشيخة الأزهر إلى الخديوي عام ١٣١٠ هـ .

- ٢ - (أم البراهين) الكبرى «لأبي عبد الله محمد السنوسي» .
- ٣ - جوهرة التوحيد للشيخ «إبراهيم اللقاني» بشرح «عبد السلام اللقاني» .
- ٤ - العقائد النسفية بشرح «سعد الدين التفتازاني» .
- ٥ - الخريدة للشيخ «أحمد الدردير» .
- ٦ - المقاصد لـ «سعد الدين التفتازاني» .
- ٧ - المواقف للشيخ «عبد الرحمن العضد» بشرح الجرجاني .
- ٨ - طوابع الأنوار «لليضاوي» بشرح الأصفهاني .
- ٩ - متن بليحة بشرح الشيخ «السقا» .
- ١٠ - متن السباعي بشرح «الباجوري» .

### كتب التصوف :

- ١ - الإبريز لسيدي «عبد العزيز» .
- ٢ - الأنوار القدسية لسيدي «عبد الوهاب الشعراني» .
- ٣ - بستان العارفين للشيخ «نصر السمرقندي» .
- ٤ - تاج العروس «لابن عطاء الله السكندري» .
- ٥ - التجليات الالهية للشيخ «محيي الدين بن عربي» .
- ٦ - تحفة الإخوان للشيخ «الدردير» .
- ٧ - تقليس إبليس «لعز الدين بن عبد السلام» .
- ٨ - تنبيه الغافلين للشيخ «نصر السمرقندي» .
- ٩ - التنوير في إسقاط التدبير «لابن عطاء السكندري» .
- ١٠ - الإحياء «للغزالي» .
- ١١ - قوت القلوب «لأبي طالب المكي» .
- ١٢ - المنن الكبرى للشيخ «الشعراني» .

### كتب علم التفسير :

- ١ - الكشف لـ «الزمخشري» .
- ٢ - تفسير الجلالين بحاشية الشيخ الجمل .
- ٣ - تفسير الخطيب الشربيني .

- ٤ - تفسير البيضاوي .
- ٥ - تفسير أبي السعود .
- ٦ - تفسير الفخر الرازي .
- ٧ - تفسير الخازن .
- ٨ - تفسير النسفي .
- ٩ - الإتيقان للسيوطي .

### كتب المنطق :

- ١ - السلم للأخضري بشرح المؤلف نفسه والقويسني والملوي والباजوري .
- ٢ - إيساغوجي للأبهري بشرح الشيخ زكريا الأنصاري .
- ٣ - التهذيب للسعد التفتازاني بشرح الخبيصي .
- ٤ - الشمسية للكاتب بشرح قطب الدين الرازي .
- ٥ - المختصر السنوسي .
- ٦ - المطالع للأرموي بشرح الرازي .

### كتب التاريخ :

منها طبقات الشعرا لسيدي عبد الوهاب ، لواقح الأنوار للشعراني .

### كتب الحكمة :

- ١ - الإرشادات لابن سينا .
- ٢ - الهداية لأثير الدين الأبهري .
- ٣ - حكمة العين للكاتب .
- ٤ - مقولات السجاعي .
- ٥ - مقولات البليدي .
- ٦ - مقولات المرصفي .
- ٧ - غالية النشر لعبد الجواد القباني .

أما كتب الفقه فلم تخرج عن المذاهب الأربعة وكذلك كتب أصول الفقه وهي جميعها عبارة عن مختصرات وشروح وحواش<sup>(١)</sup> .

---

(١) الأزهر ، تاريخه وتطوره ص ٢٨٢ - ص ٢٩٢ . وانظر تاريخ الإصلاح في الأزهر ص ٥٠ - ص ٥٥ .

فبالنسبة لعلم التوحيد والعقيدة نجد أن المناهج كلها كلامية اعتمدت علم الكلام ويعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة في التوحيد والعقيدة وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك الانحراف.

وبالنسبة لعلم التفسير فأغلبها من قبيل التفسير بالرأي المذموم وهي تفاسير مليئة بانحرافات المتكلمين وشبههم من معتزلة وأشعرية ، ونجد أنه لا مكان للتفسير بالمأثور في هذا المنهج ، فلا وجود لـ «جامع البيان والتأويل» للطبري» ولـ «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير» ولـ «تفسير البغوي» وغيرها من التفاسير المعتمدة المتبعة لأثار السلف ومروياتهم .

يقول العلامة العراقي «محمود شكري الألوسي» عن كتب التفسير في العصر الأخير : «إن من طالع كتب التفسير المتداولة بين الأيدي اليوم وجدها أعظم مانع من الوقوف على مراد الله تعالى بكتابه الكريم ، فإن منها ما هو مشحون بقواعد النحو ووجوهه ، فتراه يذكر في كل آية من الوجوه ما يفوت الحصر ، ومنها ما هو مشحون بالمسائل الكلامية ، والقواعد الحكمية ، حتى يصرف الآيات إلى ما أصله من الأصول ، ويؤول النصوص القطعية إلى ما يوافق معتقده . إذا نظرت تفسير الرازي والبيضاوي وأبي السعود تعلم حقيقة هذا الكلام . ومنها ما اشتمل على قصص بني إسرائيل وأكاذيبهم وأقوالهم التي تحيلها العقول ، وتنفر عنها الطباع ، ومنها تفاسير لا يدل عليها نقل ولا عقل ولا لغة من اللغات ، كالتفسير الشهير بأنه من باب الإشارة ، ومنها مما لا يحيط به العد والإحصاء.

ثم نقل كلاماً طويلاً للشيخ محمد بدر الدين الحلبي في كتابه (التعليم والإرشاد) انتقد فيه كثيراً من كتب التفسير المتداولة في تلك الفترة والتي يعتمد عليها طلاب العلوم الشرعية في تفسير كتاب الله عز وجل. وذكر أنها غير صالحة للتعليم.

فتفسير الخازن مثلاً ، وهو أكثر كتب التفسير تداولاً ، وأعظمها انتشاراً بين عامة المسلمين وطلبة العلوم الشرعية ، خير ما يقال فيه إنه مجموعة من الأكاذيب ، ولو جرد ما فيه من الأحاديث الموضوعية ، والإسرائيليات والقصص الكاذبة لكانت فوق نصف الكتاب، وبعد ذلك فأشياء إن لم تضر لم تنفع ، «وهو على اشتماله على هذين الوصفين اللذين هما من أقبح أوصاف المؤلفات ، فهو العمدة لعامة المسلمين ، وأكثر طلبه العلوم الشرعية ، وأكثر انتشاراً بينهم ، ولقد أرى أن نسخه التي نشرت في مصر لا تقل عن مائة ألف نسخة ، فسد بواسطتها عشرة أضعاف هذا العدد من المسلمين، ودخل عليهم في دينهم ما ليس منه من حديث موضوع وتفسير مفتري ثم تحدث عن تفسيري الزمخشري والبيضاوي اللذين يعدان غاية في الغموض والإغلاق. «ولشدة عراقتها في ذلك أكثر المتأخرون من تعليق الحواشي والشروح عليهما ، لبيان عبارتهما وتوضيح مقاصدهما ، حتى لو جمعت الحواشي

والشروح التي عليهما لأريت على ألف مجلد ، وما ذكره صاحب (كشف الظنون) مما كتب عليهما قليل من كثير ، ولولا أنهما بحيث يخفيان إلا على ما ألف حل الرموز والطلاسم واستخراج المخبآت لم يعتن من جاء بعدهما بالتوسع في الكتابة عليهما ، والمبالغة في توضيح غوامضهما ، وفوق هذا كله اشتمالهما على مسائل كثيرة خارجة عن التفسير بالمرّة ، لا ترتبط فيه بوجه من الوجوه ، كالمسائل الكلامية التي حشيا بها كتابيهما ، وهي ليست من فن التفسير ولا من متعلقاته ، وإنما كان الغرض من ذكرها بيان معتقديهما والاستشهاد له بكتاب الله .

ويلحق تفسير «أبي السعود» بهذين التفسيرين ، فإنه صورة أخرى لهما مع بعض تغييرات قليلة جداً . وقد تحدث عن غالب كتب التفسير «ثم اعتذر عما كتبه بأنه لم يرد انتقاص أحد بذلك ، بل إن غرضه بيان أن هذه التفاسير المتداولة قاطعة عن العلوم الإسلامية ، وأن ضرورة المحافظة على الدين تقتضي باختيار الكتب النافعة»<sup>(١)</sup> .

أما دراسة التصوف في الأزهر فهي مؤثر خطير على مدى عدول الأزهر عن الخط الذي كان يجب أن يسير عليه ، وانجرافه في تيارات الواقع المتردي من صوفية وعلم كلام وتعصب مذهبي وكذلك تدريس المنطق الذي لا يسمن ولا يغني من جوع والذي ما زادت به العلوم إلا تعقيداً وتأخراً . وبعد ذلك تدريس تراجم المتصوفة كالطبقات الكبرى «للشعراني» التي احتوت على مئات من الأباطيل والخرافات ، وطفحت بالشرك الصريح .

ومن الانحرافات التي تطرقت إلى مناهج التعليم وكان لها أثر عظيم فيما وقع للأمة من تدهور وانحطاط عدم اهتمام العلماء من فقهاء ومفسرين ومتكلمين بعلم الحديث وقد نعى الإمام «الشوكاني» على هؤلاء الذين لم يلتفتوا إلى حديث الرسول ﷺ : «ولا يفرقون بين أصح الصحيح وأكذب الكذب كما يعرف ذلك من يعرف نصيباً من العلم وحظاً من العرفان ، ومن أراد الوقوف على حقيقة هذا فلينظر مؤلفات جماعة هم في الفقه بأعلى رتبة ، مع التبحر في فنون كثيرة كـ «الجويني» و«الغزالي» وأمثالهما فإنهم إذا أرادوا أن يتكلموا في الحديث جاعوا بما يضحك منه سامعه ويعجب ؛ لأنهم يوردون الموضوعات فضلاً عن الضعاف ، ولا يعرفون ذلك ، ولا يفطنون به ، ولا يفرقون بينه وبين غيره ، وسبب ذلك عدم اشتغالهم بالحديث كما ينبغي فكانوا عند التكلم فيه عبرة من العبر ، وهكذا حال مثل هذين الرجلين وأشباههم من أهل طبقتهم مع تبحرهم في فنون عديدة فما بالك بمن يتصدى للكلام في فن الحديث ويشغل بإدخاله في مؤلفاته وهو دون أولئك بمراحل لا تحصر .

(١) غاية الأمانى ٧٨/١ - ٨٣ .

وهكذا تجد كثيراً من أئمة التفسير الذين لم يكن لهم كثير اشتغال بعلم السنة كـ«الزمخشري» و«الفخر الرازي» وغالب من جاء بعدهم فإنهم يوردون في تفاسيرهم الموضوعات التي لا يشك من له أدنى اشتغال بعلم الحديث في كونه موضوعاً مكنوياً على رسول الله ﷺ ، وذلك المفسر قد أدخله في تفسيره واستدل به على ما يقصده من تفسير كتاب الله سبحانه .

وهكذا أئمة أصول الفقه فإن أكثر من يشتغل الناس في هذا الزمان بمؤلفاتهم لا يعرفون فن الحديث ولا يميزون شيئاً منه بل يذكرون في مؤلفاتهم الموضوعات ويبنون عليها القناطر<sup>(١)</sup>.

ثم يبين رحمه الله ما جناه بعض الفقهاء على الشريعة بإدخال ما ليس منها فيها ، ويطالب أهل عصره من المشتغلين بالفقه الإنكار على مثل هؤلاء المتهاونين في علم الحديث وبيان ما في كتبهم من خطأ وباطل و« أن يأخذوا على أيدي الناس ويحولوا بينهم وبين هذا الكتاب الذي لا يفرق مؤلفه بين الحق والباطل . ولا يميز بين ما هو من الشريعة وما ليس منها فما أوجب هذا عليهم ، فإن هذا المشؤم قد جنى على الشريعة وأهلها جناية شديدة وفعل منكراً عظيماً ، وهو يعتقد لجهله أنه قد نشر في الناس مسائل الدين ، ويظن من اتبعه في الأخذ عنه أن هذا الذي جاء به هذا المصنف هو الشريعة. فانتشر بين الجاهلين أمر عظيم وفنتة شديدة ، وهذا هو السبب الأعظم في اختلاط المعروف بالمنكر في كتب الفقه وغلبة علم الرأي على علم الرواية .... وبهذه العلة تجد المصنفين في علم الفقه يعولون في كثير من المسائل على محض الرأي ويبنونونه في مصنفاتهم وهم لا يشعرون أن في ذلك سنة صحيحة يعرفها أقل طالب لعلم الحديث.

وقد كثر هذا جداً من المشتغلين بالفقه على تفاقم شره وتعاضم ضرره ، وجنوا على أنفسهم وعلى الشريعة وعلى المسلمين. وإذا شككت في شيء من هذا فخذ أي كتاب شئت من الكتب المصنفة في الفقه وطالعه تجد الكثير الواسع...»<sup>(٢)</sup>.

ثم أخذ - رحمه الله - ينكر على مثل هذا المتفিকে وأمثاله حيث قد حفظ الواحد منهم مختصراً من مختصرات مذهب ولم يحط بمذهبه ولا بمذاهب غيره فضلاً عن المؤلفات في سائر العلوم ثم يذكر المؤلف أن هذا وأمثاله من علامات القيامة ومن دلائل رفع العلم كما في الحديث الصحيح حين يتخذ الناس رؤوساً جهالاً فيفتنون بغير علم فيضلون ويضلون<sup>(٣)</sup>.

على أننا نرى أن علم الحديث قد تعرض إلى ثلاثة انحرافات هي :-

(١) أدب المطلب ص ٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٨ .



١ - أنه فقد دوره في التربية الإسلامية الصحيحة ، فلم يعد ذا تأثير إيجابي ملموس في حياة الناس .

٢ - أنه لم يكن يقرأ لأخذ الأحكام منه ، بل يقرأ في الغالب على سبيل البركة كما ذكر «الأثري»<sup>(١)</sup> . وقد رأينا كيف كان يقرأ « البخاري » لحصول البركات ودفع الأزمات . وكثيراً ما وقفت الأوقاف على من يقرأ كتب الحديث عند ضريح من الأضرحة ، أو في زاوية من الزوايا<sup>(٢)</sup> .

ومما يؤكد شيوع هذين الانحرافين الذين أصابا علم الحديث الشريف هو جمع الكثيرين من الشيوخ بينه وبين التصوف . ونضرب على ذلك مثالين :

الأول : هو الشيخ الحبيب «حسين الحبشي» (المتوفى سنة ١٢٣٠هـ) جاء في ترجمته ما خلاصته «تلقن الذكر ، ولبس الخرقة من السيد «أبي بكر ابن عبد الله العطاس» ، بمكة ، فنجب ، وتفنن في فنون كثيرة . وعلوم شهيرة ، لكن كان اشتغاره بعلم الحديث والتصوف والحقائق والاعتناء بالغرائب والدقائق»<sup>(٣)</sup> .

والثاني : ما ذكره «السلوي» صاحب «الاستقصا» عن شيخه القاضي «أبي بكر ابن محمد عواد» (المتوفى سنة ١٢٩٦هـ) بقوله : «ختمنا عليه عدة كتب كبار .... جعلها الله في ميزان حسناته ، منها «صحيح البخاري» نحو عشر مرات و«صحيح مسلم» ثلاث مرات .... و«إحياء الغزالي» رضي الله عنه ، و«عوارف المعارف للسهروردي»<sup>(٤)</sup> .

٣ - عدم الاعتناء بالتخريج والتحقيق ، وتمييز المقبول من الحديث من المردود ، وانتشار الأحاديث الموضوعة . وقد ذكر «الجبرتي» أن الشيخ «محمد مرتضى الزبيدي» حين استقر في مصر كان حريصاً على جمع الفنون التي أغفلها المتأخرون ، كعلم الأسانيد وتخريج الأحاديث واتصال طرائق المحدثين المتأخرين بالمتقدمين ، وأنه ألف في ذلك كتباً ورسائل ومنظومات وأراجيز جملة<sup>(٥)</sup> . وفي ذلك دلالة على عدم اهتمام العلماء في تلك الفترة بالحديث وعلومه .

ويقول الشيخ «عبد العزيز الملتاني» من علماء الهند في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري مصوراً ما وصلت إليه حالة علم الحديث في عصره : «وإلى الله المشتكى من المعاصرين ومن

(١) أعلام العراق ص ٩٠ .

(٢) كالوقف الذي وقف لمن يقرأ الحديث في مسجد الصخرة بالقدس في رجب وشعبان ورمضان انظر نهر الذهب في تاريخ حلب ٦١/٢ .

(٣) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١٢٨/١ .

(٤) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢٥٦/٤ .

(٥) عجائب الآثار ١٠٦/٢ .

علمائهم المتعصبين القاصرين ، اتخذوا علم الحديث ظهرياً ، ونبذوا التخريج نسبياً ، فأوعظهم ألهمهم بالأكاذيب ، وأعلمهم أكذبهم في الترغيب والترهيب ، وليس هذا أول قارورة كسرت في الإسلام ، بل هذه الشنيعة متقدمة من سالف الأيام ، فإن الأبالسة أفسدوا بالوضع والتزوير ، فانخدع لهم مدونو المواظم والتفسير ، ويهلك بتدوينها تالف بعد تالف والله الناصر الموفق للمحدثين وموكلهم عن نفي الكذب في الدين<sup>(١)</sup>.

### ٣- الإجازات :

من عوامل تدهور الحياة العلمية في تلك الفترة التساهل في منح الإجازات ف«نجد في هذا العصر تساهلاً كبيراً في منح الإجازات العلمية. ففي العصور الأولى كان طالب الإجازة يلزم أستاذه مدة طويلة ، يحفظ فيها كل ما سمعه من الأستاذ الذي لا يمنحه الإجازة إلا بعد تدقيق وتحقيق وامتحان ، أما العصر الذي ندرسه (العصر العثماني) فكانت تعطى جزافاً ، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مرويّاته. وكثيراً ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة. فكان العالم في «القاهرة» يبعث إلى طالب في «مكة» بالإجازة دون أن يراه أو يختبره. فيبدو أنهم اعتبروها رتبة فخرية.

وشذ من هؤلاء العلماء «محمد بن حسن بن جمال الدين الشافعي» (المتوفى سنة ١١٩٩هـ) فقد ذكر «الجبرتي» أنه كان صعباً في الإجازة ، لا يجيز أحداً إلا إذا قرأ عليه الكتاب الذي يطلب الإجازة فيه بتمامه ولا يرى الإجازة المطلقة ، ولا المراسلة ، حتى أن جماعة من أهل البلاد البعيدة أرسلوا يطلبون منه الإجازة فلم يرض ذلك. وهذه الطريقة في مثل هذا الزمان عسرة جداً»<sup>(٢)</sup>.

ولما رحل «الزبيدي» إلى مصر تقاطر إليه علماء الأزهر وطلبوا منه الإجازة فقال لهم لابد من قراءة أوائل الكتب<sup>(٣)</sup> . وقد كان موقفه مفاجأة لأهل الأزهر الذين ما اعتادوا ذلك.

وفي اعتقادي أن المتصوفة كان لهم دور كبير في الاستهانة بالإجازات والإفراط في منحها فقد سبق أن عرفنا نظرتهم إلى العلوم واستهانتهم بها فلا عجب بعد ذلك أن يستهين شيوخ المتصوفة بالإجازات ويفرطوا في منحها.

فقد ذكر الشيخ «عبد الرزاق البيطار» أن الشيخ «خالد النقشبندي» من كبار زعماء المتصوفة

(١) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٢٧٧/٧.

(٢) الأدب المصري في ظل الحكم العثماني ص ٤٢.

(٣) عجائب الآثار ١٠٦/٢.

في القرن الثالث عشر أمر تلميذه الشيخ «هداية الله الأربيلي» بقراءة الورقة الأولى من كل كتاب معد للتدريس ، فقرأ ذلك على حضرة المذكور ، ثم أجازته بجميع العلوم النقلية والعقلية ، وتدرّس كتبها الدقيقة<sup>(١)</sup>.

«وقد كانت الإجازة المكتوبة في البداية محددة ومقننة ، فلا يعطاها أي طالب ، ولكن بتوالي الزمن وضعف التعليم والتعلم ، وتدهور الحياة العقلية بصفة عامة ، أصبح منح الإجازات سهلاً وشائعاً ، وكثيراً ما كان يمنح الطالب الإجازة سواء كان يستحقها أو لا يستحقها ، أي من جلس للدرس وتلمذ ، ومن كان عابر سبيل ، بل أصبحت الإجازة تعطى عن طريق المراسلة دون أن يرى الطالب المدرس ويأخذ عنه»<sup>(٢)</sup>.

ويذكر الشيخ «محمد رشيد رضا» أن الشيخ «محمد عبده» كتب إلى عالم من الهند طلب منه أن يجيزه بما رواه وما تلقاه ، وفيه بيان رأيه في الإجازة بالكتب وتناقل الأسانيد :

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم :

حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ «أحمد أبي الخير» حفظه الله :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ... وبعد

قد سرّني أن أعرف لي أخاً جديداً في بلاد الهند ، يقدر العلم قدره ، ويحب بثه بين الناس ونشره . يسألني الأخ أن أجيزه بجميع ما تلقيت وما رويت ، ويطلب مني أن أرسل إليه سندي في رواياتي ، وإني أقول لحضرتكم : أنني أستحي أن أجيز شخصاً لم أره بشيء ، لم يكن لي فيه أثر بالنسبة إليه ، كيف أجيزك بشيء تقول أنك ترويه عني ، ولم تروه في الحقيقة عني ، ثم ما قيمة سند لا أعرف بنفسه رجاله ، ولا أحواله ، ولا مكانهم من الثقة والضبط ، وإنما هي أسماء تتلفها المشايخ بأوصاف تقلدهم فيها ، ولا سبيل لنا إلى البحث فيما يقولون . أحب أن أكشف لك رأيي في هذه الشؤون :

هذه كلها صور شغل بها المسلمون عن الحقائق ، ولا قيمة لها في خلاصهم مما هم فيه من شقاء الدنيا ، ولا فائدة لها فيما يوعنون به من شقاء الآخرة على ما فرطوا في جنب الله ، وإنما شأني الذي كلفت به هو أن أعلم وأقول وأبين وأكتب ما استطعت ، ومن تلقى عني شيئاً أو فهمه مما كتبت ، فله أن يرويه عني ، وأن يورده على ما فهمه بعد دقة البحث والتحري ، والأخذ بالاحتياط في فهم القول وتحرير الرواية ، فإذا

(١) حلية البشر ١٥٧٩/٣.

(٢) تاريخ الجوائز الثقافية ٢٨٠/١.

وصل إليك شيء مما أقول أو أكتب وفهمته كما أحب أن يفهم ، فإليك الأخذ به ، وروايته عنى بعد التحقق من صحة النسبة ، وأكون لك من الشاكرين ، أسأل الله أن يوفقنا إلى خدمة دينه الحق ، إنه ولي العاملين . والسلام عليكم ورحمة الله .

١٩ ربيع الأول سنة ١٣٢٢ هـ

مفتي الديار المصرية "محمد عبده"

وعلق الشيخ «رشيد رضا» قائلاً : إن الأستاذ الامام - رحمه الله تعالى - افترض هذا الطلب ليعين للمشتغلين بالعلوم الشرعية هذه الحقيقة : عنايتهم بالوسائل الصورية وتركهم لمقاصد الشريعة الموصلة لغايتها ، أعني فهم الكتاب والسنة والعمل بهما الموصول لسعادة الدارين والنجاة من شقائهما . كانت الآثار والكتب تتلقى بالرواية عن الثقات للاطمئنان على صحة نسبة ما فيها إلى أصحابها ، وذلك من وسائل حفظها ، ولم يبق في الإجازة شيء من هذه الفائدة ، وإنما صارت من قبيل حفظ سلسلة النسب لمن يحرص على صحة انتسابه إلى أصل عظيم ، وإن لم يكن له أدنى حظ من عظمتها في علم ولا هدى ولا ملك ولا غنى<sup>(١)</sup> .

ويذكر «السنوسي» أنه زار في «دمشق» الشيخ «سليم العطار» محدث «دمشق» (المتوفى سنة ١٣٠٧هـ)<sup>(٢)</sup> ، وكان يومئذ نقهاً من مرض . ويقول : «ودخلت عليه صبيحة يوم الأحد الرابع من ربيع الأول سنة ١٣٠٠هـ وكان مجلسه محتباً بحضور العائدين من العلماء والوجهاء .... وجرت مسائل من علم الكلام والحديث .... وبوقوع المشاركة معه فيما عرض من الحديث خشيت أن أسمع منه حديثاً قبل أن أروي عليه المسلسل بالأولية<sup>(٣)</sup> ، فبادرت له في ذلك المجمع العظيم ، وطلبت منه روايته عنه للحصول على شرف سنده!! .... ثم طلبت منه الإجازة برواية «الصحاح» الستة<sup>(٤)</sup> بأسانيده فيها ، فأجاز لي بها ، ثم طلبت منه تعميم الإجازة بما تضمنته ثبت جده الشيخ «أحمد العطار» ، فأجاز لي به إجازة تامة . وبإثر ذلك استجازه أغلب الشيوخ الحاضرين فأجازهم بذلك ، وعد ذلك من حسن الاجتماع<sup>(٥)</sup> .

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ٥٩١/٢ .

(٢) قال عنه الزركلي في الأعلام : له إجازات كثيرة لعلماء عصره ، وله منهم إجازات . الأعلام ١٤٧/٦ .

(٣) هو حديث «الراحمون يرحمهم الله . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» وجرت العادة أن يكون أول ما يسمعه الطالب من شيخه . ورواه «الترمذي» برقم ١٩٢٤ كتاب البر والصلة وقال عنه : حديث حسن صحيح .

(٤) قوله : الصحاح الستة هي من باب التجوز ، إذ لا يصح عند التحقيق إطلاق ذلك إلا على الصحيحين .

(٥) الرحلة الحجازية ٢٦٦/٣ .

وفي ذلك أوضح دليل على اهتمامهم بالمظهر دون المضمون ، والقشر دون اللب. وقد كان الشيخ «صالح بن إبراهيم الرئيس» (المتوفى سنة ١٢٤٠هـ) يقرئ «صحيح البخاري» بالحرم يقول أحد تلامذته : (ومما تفضل الله به علينا في عام تسع وثلاثين ومائتين وألف أننا سمعنا منه جملة من صحيح الإمام البخاري وكان ذلك تجاه الكعبة مجالس عديدة متوالية من غير انقطاع ، وبعد ختمه لذلك الصحيح مع جملة من العلماء أهل الفضل والاتباع ، أشار شيخنا وأستاذنا الشيخ «عمر بن عبد الكريم بن عبد رب الرسول» على شيخنا المترجم بأن يجيز جميع من حضر ذلك المجلس إجازة عامة فأجابته لذلك وأجاز جملة الحاضرين<sup>(١)</sup>).

ولما سافر الشيخ «علي علاء الدين» (المتوفى سنة ١٣٤٠هـ) موفداً من والده إلى الإمام الشهير النواب «حسن صديق خان» ملك بهوبال سنة ١٢٩٩ هـ في مصلحة طبع كتبه وكتب أبيه «أبي الثناء» فبقي في ضيافته نحو سبعة عشر يوماً .... فقرأ عليه وعلى شيخه المحدث الكبير الشيخ «حسن بن محسن اليميني الأنصاري» ما تيسر له. وأجازه كل منهما إجازة عامة<sup>(٢)</sup>.

وهذا الشيخ «محمد بن عبد الحفيظ» لازم «أبا الفيض الكتاني» وانتفع به وأجازه إجازة عامة ، كتب له بالإجازة أئمة علماء الحرمين والشام والعراق والهند والأستانة وغيرهم...<sup>(٣)</sup>.

والسؤال الذي يطرح نفسه : ما فائدة كل هذا؟

لا شك أنها مجرد شكليات ورسوم برزت في الناحية العلمية حين خبت جذوتها ، وانطفأ نورها. وقد كان رأي الشيخ «محمد عبده» فيها صائباً ، حيث عدها من الأمور التي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم كما كان ينبغي ، وهكذا كان التساهل في منح الإجازات عاملاً مهماً من عوامل انحدار المستوى التعليمي ، وضعف العلوم الشرعية ، حين أضحى الهدف عند كثير من المنتسبين إلى العلم ، هو حيازة أكبر عدد من هذه الإجازات الصورية التي لم يكن لها في كثير من الأحيان أي رصيد علمي في الواقع<sup>(٤)</sup>.

## ٤ - وراثة المنصب العلمي :

من العجيب في تلك الفترة التي ندرسها ما وقع من أمر غريب في الأحوال الدينية ، ألا وهو وراثة المناصب التعليمية والشرعية كالتيقريب والفتوى والإمامة وحتى القضاء ، فقد غدت تلك المناصب

(١) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ١/١٧٥.

(٢) أعلام العراق ص ٧٣.

(٣) شجرة النور الزكية ص ٤٣٤.

(٤) كما هو الحال بالنسبة لكثير من طلاب الشهادات اليوم ، والله المستعان.

تورث بموت من كانوا يتولونها ، تماماً كما تورث الدور والضياح والأموال ، فكثيراً ما كان يحدث أن يموت شيخ يدرس عليه ، فلا يوارى في التراب حتى ينتقل منصبه وكرسيه إلى ولده. أو أخيه أو أحد أقاربه وقد يكون الوارث قليل الفهم مزجي البضاعة في العلم ولكن لا بد من التصدر للإقراء والتدريس وعدم إخلاء الكرسي الذي قد يتربع عليه غريب عن أهل المتوفى حتى ولو كان جديراً بخلافة المتوفى في منصبه الذي رحل عنه.

ويذكر «الجبرتي» أن «عبد الفتاح بن الجوهري» قد تصدر لمنصب التدريس والإقراء بدلاً عن أخيه الأكبر «أحمد» ، مع أنه لم يكن من أهل العلم بل هو من التجار ولكن فعل ذلك «حفظاً للناموس وبقاءً لصورة العلم الموروث»<sup>(١)</sup>.

ولا أدري أي ناموس هذا الذي يقضي بتوارث مناصب التدريس والتعليم وحكرها في أسر معينة تتوارثها خلفاً عن سلف. والذي نجزم به أن هذا الناموس كان بعيداً عن روح الإسلام وغريباً عن تعاليمه.

ويذكر «الجبرتي» أيضاً أن والد الشيخ «أحمد بن سالم النفراوي المالكي» (المتوفى سنة ١٢٠٧هـ) لما توفى والده تعصب له الشيخ «عبد الله الشبراوي» وحاز له وظائف والده وتعلقاته وأجلسه للإقراء في مكان درس أبيه وأمر جماعة أبيه بالحضور عليه. وكان الشيخ «علي الصعيدي» من أكبر طلبة أبيه فتطلع للجلوس في محله ، وكان أهلاً لذلك ، فعارضه الشيخ «الشبراوي» وأقصاه وصدر ولده لذلك ، مع قلة بضاعته وثغته في لسانه....»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كان يقصى العلماء الجديرون بتولي مثل تلك المناصب، ليتولاها من ليس أهلاً لها بدعوى أنها كانت في حوزة آبائهم وتحت ولايتهم ، وهم أحق بوراثتها من غيرهم حتى ولو كانوا غير جديرين بها ، وكان غيرهم أحق بها. حفظاً للناموس وصورة للعلم الموروث كما قال «الجبرتي» ، وفي تعصب الشيخ «عبد الله الشبراوي» شيخ الأزهر في وقته أكبر دليل على تمكن تلك العادة السيئة ذات الآثار الوخيمة من أهل العلم والمنتسبين إليه.

وعندما توفي الشيخ «أحمد البراوي الشافعي الأزهري» تصدر بعده ولده الشيخ «إسماعيل» (المتوفى سنة ١٢١٤هـ) وكان كما يقول «الجبرتي» : «قليل البضاعة إلا أنه تغلب عليه النباهة واللسانة والسلطة والتداخل»<sup>(٣)</sup>.

(١) عجائب الآثار ٤٣٣/٢.

(٢) المصدر نفسه ١٥٨/٢.

(٣) المصدر نفسه ٢٧٩/٢.

وهذا الشيخ «محمد المنيني» مفتي «دمشق» : «تصدر لقراءة العلوم الدينية والفنون والعلوم العربية في مدرسة الملك العادل لصيقة داره المشروطة لسكناه مع تدريس العلوم بها ورث ذلك عن آبائه وأجداده ، وقد ورث عنهم أيضاً وظيفة تدريس «البخاري» الشريف تحت قبة النسر .... وحصة من الخطابة والإمامة مع تربدراية مقام النبي الحصور...»<sup>(١)</sup>.

وهذا الشيخ «عبد الله بن العلامة سعيد الحلبي الدمشقي الحنفي» : «لما توفي والده تصدر مكانه للتدريس والإفادة ... وقد تقلد صاحب الترجمة بعد وفاة أبيه درس البخاري تحت قبة النسر في كل جمعة بالجامع الأموي .... بالنيابة عن القاصر «محمد أفندي المنيني» مفتي «دمشق» (السابق ذكره)»<sup>(٢)</sup>.

ولما مات الشيخ «عمر بن عبد الغني الغزي» مفتي الشافعية تولى بعده إفتاء الشافعية ولده «محمد أفندي»<sup>(٣)</sup>.

ولما عين الشيخ «قاسم بن صالح» الشهير بالخالق الدمشقي الشافعي إماماً للشافعية بجامع السنانية وذلك سنة ١٢٧٩ هـ ترك إمامة ذاك المسجد لأحد أنجاله<sup>(٤)</sup>.

وربما وقعت الخصومات والمنازعات بين أولئك المتعطين لوراثته تلك المناصب كما حدث مع ولد الشيخ «سليم العطار» الذي تولى مكان جده تدريس البخاري في جامع السلطان سليمان .... «وبعد وفاته قام ولده العالم الفاضل الشيخ «صادق» وطلب درس السليمانية في مكانه حيث هو جدير به إلا انه عارضه عم أبيه العلامة الشيخ «بكري» صاحب هذه الوظيفة لوفاة والده الشيخ «حامد» عنه وهو مرأق ، فوجهت إليه بالوكالة عن مدرس هذا الدرس اليوم ولده الشيخ «أحمد» الذي كان تاجراً إذ ذاك وكان ذلك سبباً لهجرة الشيخ «صادق» إلى بلاد «فاس»<sup>(٥)</sup>.

ويذكر صاحب كتاب «نشر النور والزهر» أن الشيخ «عبد الرحمن عجمي» (المتوفى سنة ١٣٠١ هـ) : «سافر إلى الأستانة بمساعدة الشيخ «عبد الرحمن سراج» ، وكبار الخطباء ، وكتبوا معروضاً ليعرضه على السلطان «عبد العزيز خان» ، عندما أراد بعض الناس الذي لم يكن من أبناء الخطباء والأئمة ، ولا من سلكهم الدخول معهم ومشاركتهم في وظائفهم ، وذلك بمساعدة بعض

(١) منتخبات تواريخ دمشق ٧٨٨ ومعنى تربدراية المقام ادارة تربية المقام الذي يحوي ضريحاً.

(٢) المصدر السابق ٦٦٧.

(٣) المصدر السابق ٦٧٢.

(٤) المصدر السابق ٦٧٤.

(٥) المصدر السابق ٧٢٤.

الحكام . . . فنجح له مطلوبه ..... وأنه خلف ابنين أحدهما ... الفاضل الشيخ «حسن» وانتقلت إليه وظيفة الخطابة والإمامة»<sup>(١)</sup>.

يقول «محمد كردعلي» في حديثه عن الأحوال العلمية في الشام وترديها في العصر العثماني : «وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبر الأب للابن ، وكان المفتي «أبو السعود» من مشايخ الإسلام في الأستانة أول من ابتدعها وأخرجها للناس ، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية توسد إلى الجهلة بدعوى أن آباؤهم كانوا علماء ، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم. بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولي القضاء الأميين ، وكم من أمي غدا في «دمشق» و«حلب» و«القدس» و«بيروت» قاضي القضاة ، أما في الأقاليم فربما كان الأميون أكثر من غيرهم...»<sup>(٢)</sup>.

ويقول «عبد الوهاب عزام» : «كانت خطابة الجوامع الكبيرة منصباً مشرفاً في تاريخ المسلمين ، وكثير من علمائنا يلقبون بالخطيب ، وكانت هذه المناصب متوارثة ، يخلف فيها الأبناء الآباء ، وتحرص الأسر على شرفها ، كما كانت في تاريخنا بيوت تعرف بالقضاء وأخرى بالفقه وهكذا...»<sup>(٣)</sup>.

ويقول الدكتور «الشيال» معيداً عيوب نظم التعليم في تلك الفترة : «منها أن وظائف التدريس كانت أحياناً تؤخذ بالوراثة لا بالجدارة ، فيعين الابن مدرساً مكان أبيه ، ولو لم يكن كفوئاً لتولي هذه الوظيفة»<sup>(٤)</sup>.

تلك العادة السيئة كان لها آثار وخيمة في انحدار مستوى التعليم ، وضعف الحياة العلمية عند المسلمين ، وذلك بتوارث تلك المناصب الدينية ، وحكها في أسر معينة ، فيتربع عليها الجهال ويقصى عنها العلماء الأكفاء ، وكذلك يشغلها عقول العلماء وتفكيرهم أولاً وآخرأ في كيفية حيازة تلك المناصب والاستئثار بها والتنافس من أجلها ، كل ذلك ساعد على ركود الأحوال العلمية وتغلغل الضعف فيها.

\* \* \*

(١) المختصر من كتاب نشر النور والزهر ٢٠٥/١.

(٢) خطط الشام ٧٠/٣.

(٣) رحلات «عبد الوهاب عزام» ص ٤٠٣.

(٤) الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث ص ١١.



## الفصل الثاني : التعصب المذهبي

من الانحرافات التي اشتدت وطأتها في القرون المتأخرة خصوصاً القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ما عرف بالتعصب المذهبي ، ذلك الداء العضال الذي استشرى مع الأيام خطره ، وأعى دواؤه ، وقد ساعد هذا الداء الخطير على إضعاف المستوى التعليمي ، وانحدار العلوم وجمودها وتكبير العقول والأفهام والحجر عليها . بالإضافة إلى ما تسبب فيه من تفريق كلمة المسلمين وإفساد ذات بينهم ، وزرع العدا والشتقاق بين أفرادهم وجماعاتهم ، بعد أن تحزبوا طوائف وجماعات ، كل طائفة تناصر مذهبها وتعادي غيرها من أجله ، وكم تكون المصيبة حين يجتمع في البلدة الواحدة مذهبان ، فتصبح مسرحاً للعداء المتفاقم بين الطائفتين ، وتحرص كل طائفة أن تفرض هيمنتها على المدينة التي تقطنها ، وتبسط نفوذها على ما جاورها من قرى وأماكن ، فليس بمستغرب بعد هذا أن ينقرض مذهب عاش زمنًا طويلاً في بلد ما ، بسبب النزاعات الدائمة وهجرة الفقهاء بسببها .

وزاد من حدة هذا البلاء مشاركة الحكام وذوي المناصب في تلك النزاعات المحتدمة ، ووقوفهم بسلطاتهم إلى جانب أنصار مذهبهم يدافعون عنهم ويفرضون سيطرتهم على مخالفيهم وينزلون ما شاعوا من العقوبات عليهم .

«وشب بذلك عدا طويل بين المذاهب المختلفة ، وأسفر العداء عن معارك طاحنة ، وأسفرت المعارك عن خراب ودمار ، وقد شمل هذا الدمار كثيراً من البلدان ، وحسبك أن تقرأ في «معجم البلدان» لـ«ياقوت» لترى أنه في عدة مواضع يقول : وقد خربت هذه البلدة بسبب الخلاف بين الشافعية والحنفية»<sup>(١)</sup> .

يقول الشيخ «محمد قطب» عن التعصب المذهبي الذي عم الدارسين : «كل يتعصب لمذهبه الذي نشأ عليه ويجعل قصارى جهده من أجل دينه أن يثبت تفوق مذهبه وشيوخه على المذاهب الأخرى وشيوخها ، وأن يدخل في معارك من أجل المذهب تتجاوز في كثير من الأحيان حد الجدل باللسان ، إلى التدافع بالأيدي والأبدان ، وفشت الفرقة والتنازع بين أصحاب المذاهب المختلفة حتى إن أحدهم قد

---

(١) المجتمع الإسلامي ص ٢٤٤ .

يرفض أن يصلي خلف إمام من غير مذهبه بل قد يقاتل أخاه في الصلاة ؛ لأنه رآه إلى جواره يرفع يديه أو يضعهما على صدره بما يخالف مذهبه ، ويحس أن مقاتلته لأخيه في الإسلام على هذا النحو هي «الخدمة» التي يؤديها للإسلام»<sup>(١)</sup>.

وإن الأكم ليعصر قلب المؤمن ويتملكه الأسى حين يدخل إلى الحرم أو إلى مسجد رسول الله ﷺ أو المسجد الأقصى وغيرها من المساجد والجوامع الكبار كالجامع الأزهر والجامع الأموي بدمشق في ذلك الزمن فيرى المسلمين طوائف وجماعات ، كل طائفة تصلي خلف إمام مذهبها ، ولا ترى أن صلاتها تصح خلف غيره. فأى فرقة أعظم من هذه.

ويذكر الشيخ «أحمد السباعي» قصة وقعت أحداثها في القرن الحادي عشر في المسجد الحرام فيقول : «وفي هذا العهد كانت خطبة عيد الفطر للإمام «زين العابدين الطبري» وهو من الأئمة الشافعية وكان المتبع أن يعد الخطيب «سماطاً» (وهو ما يبسط ليضع عليه الطعام) في بيته لاستقبال رواده بعد صلاة العيد مباشرة فلما تأهب لهذا في آخر يوم من رمضان وافى نبأ مستعجل من دار الخلافة بنقل الخطبة إلى أئمة الحنفية ، وهو المذهب الشائع في سائر بلاد الترك وقد اتصل النبأ بوالد «زين العابدين» فحاول المراجعة قبل أن يبلغ الخبر ابنه فلم ينجح وعندما عاد إلى داره مساء ذلك اليوم كان ابنه قد أعد لكل شيء عدته ، فلما أخبره شهق شهقة فاضت فيها روحه . وهكذا اعتلى خطيب الحنفية المنبر بينما كان جثمان خطيب الشافعية في نعشه على خطوات منه ينتظر صلاة الجنازة وهكذا يتعسف الحكام في سبيل نصرة مذاهبهم»<sup>(٢)</sup>.

وفي تلك الفترة التي نعتى بدراستها تفاقم هذا البلاء وعم البلاد والأقطار الإسلامية ولم يسلم منه قطر ولا مصر.

فالجامع الأزهر كان ميداناً رحباً للصراعات المذهبية خصوصاً بين الشوافع والأحناف وذلك من أجل التنافس الشديد على مشيخة الأزهر<sup>(٣)</sup>...

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٧٦.

(٢) تاريخ مكة ١٩/٢. والجدير بالذكر أن الصلاة في الحرم المكي كانت تقام للمذاهب الأربعة فكان لكل مذهب مكان معروف وجهة واحدة من جهات الكعبة الأربع يصلون فيه ولم تنقطع تلك البدعة الشنيعة إلا بدخول الملك «عبد العزيز» رحمه الله مكة سنة ١٣٤٣ هـ وأمره بإبطالها.

(٣) ومن ذلك حين لجأ الشوافع إلى مقام الشافعي لنقض ما أبرمه الوالي من إسناد منصب شيخ الأزهر إلى فقيه حنفي ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك . انظر عجائب الآثار ٢/٢٤٢.

ففي إحدى المرات خلت مشيخة الأزهر من شيخ يتصدر لها قرابة السنتين وذلك بسبب النزاع والشغب الذي نشب بين الحنفية والشافعية<sup>(١)</sup>.

وهكذا ينسى هؤلاء العلماء الرسالة المنوطة بعواتقهم من نشر العلم الشرعي وتبصير الناس بأمور دينهم ومحاربة الجهل ، وينصرفون إلى المنازعة والخصومة فيما بينهم بسبب التعصب المقيت الذي سيطر على عقولهم وقلوبهم.

ويذكر العلامة «محمود شكري الألوسي» عن المدعوب السيد «أحمد بن السيد إبراهيم النقشبندی الخالدي» : أنه كان شافعي المذهب متعصباً فيه لا يرى تقليد غيره...»<sup>(٢)</sup>.

ويذكر الإمام «الشوكاني» أنه اجتمع بالشيخ «صديق بن علي المزجاوي الزبيدي الحنفي» في بعض المواقف بمحضر جماعة فيقول : وقعت بيني وبينه مراجعة في مسائل ، وأكثر الاعتراض في مسائل من فقه الحنفية وأوردت الدليل ، وهو يتمحل الجواب لما يوافق الحنفية وينتصر لهم ، فلما خلوت به قلت له : اصدقني هل ما تبديه في المراجعة تعتقده اعتقاداً جازماً ، فإن مثلك في علمك بالسنة لا يظن به أنه يؤثر مذهبه الذي هو محض الرأي في بعض المسائل على ما يعلمه صحيحاً ثابتاً عن رسول الله ﷺ ، فقال : لا أعتقد صحة ما يخالف الدليل وإن قال به من قال ، ولا أدين الله بما يقوله أبو حنيفة وأصحابه إذا خالف الحديث الصحيح ولكن المرء يدافع عن مذهبه»<sup>(٣)</sup>.

والسؤال هو لماذا يدافع عن مذهبه إذا خالف الدليل. أليس ذلك هو التعصب بعينه؟.

ويقول الشيخ «محمد المجذوب» : «ولقد والله سمعت واحداً من هؤلاء (المتعصبين) ومن ذوي المناصب الدينية العالية ، يقول لي بصراحة مدهشة : «إنني لأخذ بكلام شيخي ، ولو تعارض مع نص نبوي ثابت ، لأنني أشك بعلمي ، وأثق بمأخذ شيخي» تمام كما فعل الذين من قبلهم إذ كانوا ﴿إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ . . . وهذا الكلام قد تجد له تأويلاً يرضيك ، ولكنني لا أقهم منه سوى الجهل المطبق بمذاهب الأئمة أنفسهم ، الذين يقررون جميعاً أن الحديث هو مذهبهم إذا صح . ثم الجهل المطبق بكتاب الله الذي يتعبد عباده بمتابعة الرسول ﷺ دون غيره من الخلق ، فلا دين إلا ما جاء به فقط ، وكل كلام أو عمل من غيره فوسيلة إلى معرفة ما قال الله وقال رسوله.....»<sup>(٤)</sup>.

(١) الأزهر. تاريخه وتطوره ص ٣٢٧.

(٢) المسك الأنقر ص

(٣) البدر الطالع ١/٢٩٣.

(٤) مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ١٣٢.

ويقول العلامة «محمود شكري الألوسي» : وقد سمعت من بعض قضاة الأتراك أنه قال : إذا رأيت نصاً في منية المصلي (من كتب الأحناف) ، ورأيت حديثاً في صحيح الإمام البخاري يخالف ذلك النص ، آخذ بما في المنية ، وأترك الحديث الصحيح ، ولا أعمل به . فانظر إلى هذه الغباوة والجهل العظيم <sup>(١)</sup>.

ويقول «محمد يوسف البنوري» عن شيخه «أنور» <sup>(٢)</sup> : «وقد قضى نحو ثلاثين عاماً وهو شطر عمره الشريف في خدمة مذهب إمامنا ومقتدانا الإمام القطب الذي تنور حوله رحي الفقه من فقهاء الأمصار الإمام الكوفي «أبي حنيفة» .... ، وكان يقول عن نفسه : قد أسست بنيان الحنفية بحيث لا يفنى مذهبهم مائة سنة إن شاء الله .. <sup>(٣)</sup>

وهذا الشيخ «جمال الدين العظيم آبادي» يذكر أنه رأى النبي ﷺ يتوضأ فساله ﷺ من يوافقك في الوضوء من المجتهدين ، فقال «أبو حنيفة»!! <sup>(٤)</sup>.

ولما قام الشيخ «أحمد عرفان» بدعوته في الهند ، ومال بعضهم إلى رفع اليدين في الصلاة شنع عليهم المتعصبون ، ومن هؤلاء «كرامة علي الجونيوري» (المتوفى سنة ١٢٩٠هـ) الذي قال عنهم : «إنهم تمذهبوا بمذهب جديد ، وافترى عليهم غير ذلك ، ورغبهم عن الكتاب والسنة وقال : إن القرآن والحديث عسيران جداً ، وفهم ذلك لا يتيسر إلا للمجتهدين» <sup>(٥)</sup>!!

ووصل الأمر حتى قال بعض المتأخرين من الأحناف : إن الحنفي إذا صار شافعيًا يعزر. <sup>(٦)</sup>

«والأحناف في بلغاريا وقزاق يعدون ذكر الجهر بالتأمين بدعة ، وينهرون عنه صاحبه ، وينكرون عليه أشد الإنكار» <sup>(٧)</sup>.

وكان المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي للدولة العثمانية ، فلا يلي الإفتاء والقضاء إلا من كان حنفياً. لذا كان الانتقال إلى مذهب أبي حنيفة ظاهرة واضحة. فهذا الشيخ «أحمد بن محمد الخاني الحنفي» يقول عنه «البيطار» : «وكان شافعي المذهب ، إلا أنه لما تولى القضاء في بعض الأمكنة للضرورة الداعية لذلك ألزمته ظروف الأحوال للانتقال لمذهب سيدنا الإمام أبي حنيفة النعمان...» <sup>(٨)</sup>.

(١) غاية الأمان في الرد على النبهاني ٧٠/١.

(٢) هو الشيخ «محمد أنور شاه الكشميري» (المتوفى سنة ١٣٥٢هـ).

(٣) نفحة العنبر في حياة إمام العصر «أنور» ص ٩٢ «محمد يوسف البنوري». إدارة المجلس العلمي. «كراتشي».

(٤) نزعة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ١٢٢/٧.

(٥) المصدر السابق ٢٣٧/٧.

(٦) المصدر السابق ٢٨٧/٧.

(٧) تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزاق وبلغار وملوك التتار ٤٠٤/٢.

(٨) حلية البشر ١٨٥/١.

ويقول عن الشيخ «حسين بن سليم الدجاني الشافعي» «انتقل إلى المذهب الحنفي بقصد الإفتاء مع أنه إلى موته يتعبد على مذهب الشافعي»<sup>(١)</sup>.

وكان المتحررون من أغلال هذه المذاهب عرضة لاضطهاد المتعصبين الذين يستعدون عليهم السلطة في كثير من الأحيان. فهذا الشيخ «إبراهيم بن أبي إبراهيم البنكالي» رفض التقليد ، وكان يعمل بنصوص من الكتاب والسنة ، فشنع عليه المتعصبون والجامدون ، ونسبوا إليه أقوالاً غير مرضية كعادتهم دائماً<sup>(٢)</sup>.

ولما خالف الشيخ المحدث «عبد الله الغزنوي» (المتوفى سنة ١٢٩٨هـ) العلماء في عصره في بعض المسائل الفرعية ، استدعاه أمير «كابل» ، وأشار عليه بأن يوافق العلماء في المسائل التي خالفهم فيها ، ولكنه أبى ، وكان الأمير لا يقدر أن يخالف العلماء فأمر أن تنتف لحيته ، ويسود وجهه ، ويركب على الحمار ، ويشهر في البلد ، ثم يجلى إلى بلاد الهند<sup>(٣)</sup>.

بل لقد كان التعصب وضيق الأفق يسودان تلك الفترة المظلمة في كل المجالات العلمية ، وليس المجال الفقهي فقط . ومن هذه المجالات التي هيمن عليها التعصب ، مجال اللغة وعلومها . فقد ذكر «السنوسي» أنه التقى بالشيخ «محمد محمود الشنقيطي» (المتوفى سنة ١٣٢٢هـ)<sup>(٤)</sup> في المدينة بعد أن خرج من مكة إليها بسبب معاداة علماء الحرم له ، والسبب كما يقول : «أنه غلط «سيبويه» فمن بعد إلى «ابن مالك» و «ابن هشام» في مسألة قولهم بمنع صرف «ثعل» للعلمية والعدل ، مع أن العدل إنما يلتجأ إليه في علل منع الصرف إذا ورد الاسم ممنوعاً من الصرف ، ولم تعرف له علة ، وهذا ثعل لم يرد عن العرب إلا مصروفاً ..... وبذلك نشأت لي جميع العدوات التي أنا فيها ، وصرت في الحرمين مثلاً ، وربما سموني ثعل الشنقيطي ، حتى أن بعض علماء «مكة» نظم نظماً في العلوم وقال فيه :

وصنته جهدي من التخليط فلم يكن كثعل الشنقيطي<sup>(٥)</sup>

«لقد مني الفقه الإسلامي بظاهرتين : إحداهما التعصب المذهبي ، وثانيهما التقليد البعيد عن معرفة الدليل الشرعي الأصلي ، وهو غالباً تقليد لفقهاء متأخر من فقهاء المذاهب أو المؤلفين فيه.

(١) المصدر السابق ٥٢٨/١.

(٢) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والتواظر ٧/٧.

(٣) المصدر السابق ٣٠٢/٧.

(٤) الأعلام ٨٩/٧ وصفه الزركلي بعلامة عصره في اللغة والأدب.

(٥) الرحلة الحجازية ١٧٠/٣.

وبالبعد عن نصوص القرآن والسنة ضعفت الملكة الفقهية ، وضيق على الناس أفق الشرع الواسع ، وظهرت العصبية بين المذاهب حتى كان يصلي في كل مسجد أئمة بعدد المذاهب المتبعة في ذلك البلد ، وتقام عدة جماعات في آن واحد أو على التعاقب ومن البديهي حينئذ أن تختفي ملكة الاجتهاد حتى في صورها الجزئية والمحدودة ، وألا يظهر مجتهدون كبار وأن تقف وتركد الحيوية في هذا المجال كما ركبت الحياة في المجالات الأخرى»<sup>(١)</sup>.

ويتحدث الإمام «الشوكاني» رحمه الله عن التعصب المذهبي في زمانه فيقول : «ولقد شاهدنا من هذه الطبقة ما لو سردنا بعضه لاستعظمه سامعه واستفظعه...»<sup>(٢)</sup>.

ثم يبين - رحمه الله - حال أولئك المتعصبين الذين يكادون أن يكونوا خالين من العلوم إلا ما تحزبوا عليه وتعصبوا له من فقه بلا دليل فيقول :

«فإنهم إذا استفرغوا وسعهم في علم الرأي وأنفقوا في الاشتغال به شطراً من أعمارهم وسكنت نفوسهم إلى التقليد سكواً تاماً ، وقبلته قبولاً كلياً ، لم تبق فيهم بقية لفهم شيء من العلوم ، وقد شاهدنا من هذا الجنس من لا يأتي عليه الحصر ، قد تقتضيه في بعض الأحوال رغبة تجذبه إلى النظر في علم النحو ، فلا يفهمه قط فضلاً عن سائر علوم الاجتهاد التي يفتتحها الطلبة بهذا العلم ..... فإنه قد ارتكز في ذهن غالب هؤلاء أن الصحة والسلامة لهم هي في نفس العلة التي قد تمكنت من أذهانهم فسرت إلى قلوبهم وعقولهم وأشربوا من حبها زيادة على ما يجده الصحيح عن العلة من محبة ما هو فيه من الصحة والعافية ، وسبب ذلك أنهم اعتقدوا إمامهم الذي قلده ليس في علماء الأمة من يساويه أو يدانيه ، ثم قبلت عقولهم هذا الاعتقاد الباطل وزاد بزيادة الأيام والليالي حتى بلغ إلى حد يتسبب عنه أن جميع أقواله صحيحة جارية على وفق الشريعة ليس فيها خطأ ولا ضعف ، وأنه أعلم الناس بالأدلة الواردة في الكتاب والسنة على وجه لا يفوت عليه منها شيء ولا تخفى منها خافية ، فإذا أسمعوا دليلاً في كتاب الله أو سنة رسوله قالوا لو كان هذا راجحاً على ما ذهب إليه إمامنا لذهب إليه ولم يتركه ، لكنه تركه لما هو أرجح منه عنده ، فلا يرفعون بذلك رأساً ولا يرون بمخالفته بأساً.

وهذا صنيع قد اشتهر عنهم وكاد أن يعمهم قرناً بعد قرن وعصراً بعد عصر على اختلاف المذاهب وتباين النحل ، فإذا قال لهم القائل اعملوا بهذه الآية القرآنية أو بهذا الحديث الصحيح قالوا لست أعلم من إمامنا حتى نتبعك ، ولو كان هذا كما تقول لم يخالفه من قلدها. فهو لم يخالفه إلا إلى

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٥٦.

(٢) أدب الطلب ص ٤٧.

ما هو أرجح منه وقد ينضم إلى هذا من بعض أهل الجهل والسفه والوقاحة ووصف ذلك الدليل الذي جاء به المخاطب لهم بالبطلان والكذب إن كان من السنة ولو تمكنوا من تكذيب ما في الكتاب العزيز إذا خالف ما قد قلدوا فيه لفعلوا<sup>(١)</sup>.

ثم يبين - رحمه الله - السبب في وقوع التعصب وشيوعه واستفحاله في عصره فيقول :

«واعلم أن سبب الخروج عن دائرة الإنصاف والوقوع في موبقات التعصب كثيرة جداً فمنها وهو أكثرها وقوعاً وأشدّها بلاءً أن ينشأ طالب العلم في بلد من البلدان التي قد تمذهب أهلها بمذهب معين واقتدوا بعالم مخصوص وهذا الداء قد طبق في بلاد الإسلام وعم أهلها ولم يخرج عنه الأفراد ، قد يوجد الواحد منهم في المدينة الكبيرة ، وقد لا يوجد ، لأن هؤلاء الذين ألفوا هذه المذاهب قد صاروا يعتقدون أنها هي الشريعة ، وأن ما خرج عنها خارج عن الدين مباين لسبيل المؤمنين ﴿ وكل حزب بما لديهم فرحون ﴾ فأهل هذا المذهب يعتقدون أن الحق بأيديهم ، وأن غيرهم على الخطأ والضلال والبدعة ، وأهل المذهب الآخر يقابلونهم بمثل ذلك والسبب أنهم نشأوا فوجدوا آبائهم وسائر قراباتهم على ذلك ، ورثه الخلف عن السلف والآخر عن الأول وانضم إلى ذلك قصورهم عن إدراك الحقائق بسبب التغيير الذي ورد عليهم ممن وجدوه قبلهم ، وإذا وجد فيهم من يعرف فهو لا يستطيع أن ينطق بذلك مع أخص خواصه وأقرب قرابته فضلاً عن غيره لما يخافه على نفسه أو على ماله أو على جاهه حسب اختلاف المقاصد وتباين العزائم الدينية ..... فإذا سمع عالماً من العلماء يفتي بخلافه أو يعمل على ما لا يوافقه اعتقد أنه من أهل الضلال ومن الدعاة إلى البدعة وهذا إذا عجز عن إنزال الضرر به بيده أو لسانه فإن تمكن من ذلك فعله معتقداً أنه من أعظم ما يتقرب به إلى الله ، ويدخره في صحائف حسناته ويتاجر الله به ، وهذا معلوم لكل أحد ، وقد شاهدنا منه ما لا يأتي عليه حصر ولا تحيط به عبارة ، بل قد بلغ هذا المتعصب في معاداة من يخالفه إلى حد تجاوز به عدواته لليهود والنصارى .....»<sup>(٢)</sup>.

ويتحدث الإمام «الشوكاني» رحمه الله عما جناه هذا التعصب المقيت على الشريعة الإسلامية فيقول : «ولقد عظمت المحنة على الشرع وأهله بهذا الجنس من المقلدة حتى بطل كثير من الشريعة الصحيحة التي لا خلاف بين المسلمين في ثبوتها لاشتهارها بين أهل العلم ، ووجودها إما في محكم الكتاب العزيز أو في ما صح من دواوين السنة المطهرة التي هي مشتهرة بين الناس اشتهاً على



(١) المصدر السابق ص ٤٨.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢.

وجه لا يخفى على من ينسب إلى العلم ، وإن كان قليل الحظ فيه . وسبب ذلك إن هؤلاء كما عرفت قد جعلوا غاية مطلبهم ونهاية مقصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية والرأي أغلب ، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم ، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً ، لأنه قد تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر ، وأن ما عداه فضلة أو فضول ، فاشتد شغفهم به ، وتكالبهم عليه ، ورغبوا عما عداه وزهدوا فيه زهداً شديداً ، فإذا سمعوا آية من كتاب الله أو حديثاً من سنة رسول الله ﷺ مصرحاً بحكم من الأحكام الشرعية تصريحاً يفهمه العامة من أهل طبقتهم كان ذلك هيناً عندهم كأنه لم يكن كلام الله أو كلام رسوله ، ويطرحونه لمجرد مخالفته لحرف من حروف ذلك الكتاب ، بل مفهوم من مفاهيمه ، وهذا لا ينكره من صنيعهم إلا من لا يعرفهم .

وقد عرفت منهم من لو جمع له الجامع مصنفاً مستقلاً من أدلة الكتاب والسنة يشتمل على أدلة قرآنية وحديثية ما يجاوز المئين أو الألوف كلها مصرح بخلاف حرف من حروف ذلك المختصر الذي قد عرفه من الفقه لم يلتفت إلى شئ من ذلك ، ولو انضم إلى الكتاب والسنة المنقولة في ذلك المصنف إجماع الأمة سابقها ولاحقها وكبيرها وصغيرها من كل من ينتسب إلى العلم على خلاف ما في ذلك المختصر لم يرفع رأسه إلى شئ من ذلك ، ولا أستبعد أنه لو جاءه نبي مرسل أو ملك مقرب يخبره أن الحق الذي شرعه الله لعباده خلاف حرف من حروف ذلك المختصر لم يسمع منهما ولا صدقهما بل لو انشقت السماء وصرخ منها ملك من الملائكة بصوت يسمعه جميع أهل الدنيا بأن الحق على خلاف ذلك الحرف الذي في المختصر لم يصدقه ولا رجع إلى قوله .....

وبالجملة فمن كان بهذه المنزلة فهو ممن طبع الله على قلبه وسلبه نور التوفيق فعمي عن طريق الرشاد وضل عن سبيل الحق ، ومثل هذا لا يستحق توجيه الخطاب إليه ولا يستأهل الاشتغال به فإنه وإن كان في مسلاخ إنسان وعلى شكل بني آدم فهو بالدواب أشبه وإليها أقرب وباليته لو كان دابة ليسلم من معرفته عباد الله وشريعته ، ولكن هذا المخذول مع كونه حماري الفهم بهيمي الطبع قد شغل نفسه بالخط على علماء الدين المبرزين المشتغلين بالكتاب والسنة وعلمهما وما يوصل إليهما وعاداهم أشد العداوة وكافحهم بالمكروه مكافحة ونسبهم إلى مخالفة الشرع ومباينة الحق بسبب عدم موافقتهم له على العمل بما تلقنه من شيخه الجاهل<sup>(١)</sup>.

ثم ينعي - رحمه الله - حال الأمة بسبب هؤلاء المتعصبين واستيلائهم على كل المجالات الدينية



والعلمية لأنهم «قد طبقوا جميع أقطار الأرض الإسلامية وصارت المدارس والفتاوى والقضاء وجميع الأعمال الدينية بأيديهم فإن كل مملكة من الممالك الإسلامية يعتزى أهلها إلى مذهب من المذاهب ونحلة من النحل وكل بلد من البلاد وقطر من الأقطار كثرت أو قلت لا بد أن يكون أهلها مقلدين لميت من الأموات يأخذون عنه ما يجدونه في مؤلفاته ومؤلفات أتباعه المقلدين له حتى صارت مسائل مذهبهم نصب أعينهم لا يتحولون عنها ولا يخالفونها ، ويعتقد من تفاقم تعصبه من المقلدة أن الخروج عن ذلك خروج من الدين بأسره ، وإن كانت بقية المذاهب على خلافه في تلك المسألة كما نجده في كل مذهب من المذاهب الأربعة وغيرها»<sup>(١)</sup>.

ثم يقول رحمه الله : ومع هذا فهذه المذاهب قد طبقت الأقطار وصارت عند المنتمين إلى الإسلام قدوة يقتدون بها ، لا يخرج عنها ويجتهد رأيه ويعمل بما قام عليه الدليل إلا الفرد بعد الفرد والواحد بعد الواحد ، وهم على غاية الكتم لما عندهم والتستر بما لديهم ، خوفاً من المتمذهبين ، لأنهم قد جعلوا المذهب الذي هم عليه حجة شرعية على كل فرد من أفراد العباد ، لا يخرج عنه خارج ولا يخالفه مخالف ، إلا مزقوا عرضه وأهانوه وأخافوه ، والنولة في كل أرض معهم وفي أيديهم. والملوك معهم لأنهم من جنسهم في القصور والبعد عن الحقائق. وإذا وجد النادر من الملوك ، والشاذ من السلاطين له من الإدراك والفهم للحقائق ما يعرف به الحق والمحقين فهو تحت حكم المقلدة وطوع أمرهم لأنهم جنده ورعيته .....»<sup>(٢)</sup>.

ويعتبر الإمام «الشوكاني» رحمه الله أن هذه المذاهب التي جابت التعصب والشقاق من الدواهي العظيمة التي رزى بها الإسلام حيث يقول : «واعلم أن المفاصد الماحقة لبركة العلم والمفرقة لكلمة المسلمين كثيرة جداً ، والإحاطة بها تتعسر ، وقد ذكرنا هنا ما حضر عند التحرير ، وأعظم ما أصيب به دين الإسلام من الدواهي الكبار ، والمفاصد التي لا يوقف لها في الضرر على مقدار ، أمران أحدهما : هذه المذاهب التي ذهبت ببهجة الإسلام وغيرت رونقه وجهت وجهه .....»<sup>(٣)</sup>.

ويقول الشيخ «محمد بن الحسن الحجوي» بعد أن ذكر عبارة صاحب «جمع الجوامع» في وجوب التزام مذهب معين من المذاهب الأربعة وهي : «الأصح أنه يجب على من لم يبلغ رتبة الاجتهاد التزام مذهب معين يعتقده أرجح أو مساوياً ثم ينبغي السعي في اعتقاده أرجح». ويمثل هذه الأقوال نشأ الجمود وتأخر الفقه<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر السابق ص ٨١.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٠.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٧.

(٤) الفكر السامي ٤١٤/٢.

ثم يقول : وتعلم أن قولهم خلاف العلماء رحمة لما كانت الأخلاق مهذبة في الصدر الأول زمن الصحابة ومن بعدهم كـ«مالك» و«ابن حنبل» وأضرابهما لا في هذا الزمن الذي ظهر فيه التعصب فقد صار الخلاف فيه نقمة وسبب الفرقة ، كما أشار «العايشي»<sup>(١)</sup> في الرحلة قائلاً :

من طاف الحجاز والعراق والشام وديار المشرق ، علم ذلك فإن المالكي مثلاً إذا كان في بلد ليس فيه عالم مالكي ، ونزلت به نازلة أو نوازل في دينه يأنف أن يسأل من هو شافعي ، فيعمل عن جهل أو يسأل عامياً مثله ... وكم من عالم في الشام وغيرها أريد توظيفه في بلد أهلها حنابلة في الفتوى مثلاً ، فيلزم أن ينتقل من مذهبه الأصلي كـ«الشافعي» ، ويصير حنبلياً كي يكون مفتياً ، مع أن هذا سهل لا بأس به ، ولكنه من أدلة ما كان لهم من التعصب الذميم .

وهناك بالمشرق أوقاف خاصة بالشافعية ، وأخرى بالحنفية مثلاً ، ومدارس لا ينال التدريس بها إلا من كان مقلداً لأحد المذاهب الأربعة ، ووظائف كذلك من قضاء وفتوى ، فكان هذا العمل مما أوجب بقاء العلماء يقلدون ولو بلغوا درجة الاجتهاد . . . . . والله در «الشعراني» إذ يقول : إن أعدى عدو للإمام «المهدي» عند خروجه هم الفقهاء ، لأنهم مقلدون ، يعتقدون الحق في أئمتهم قد انحصر، متعصبون ، وهو مجتهد ، ووزراؤه مجتهدون ، وهو فرع ظريف ناشئ عن فكر لطيف ، وإغاضة لقول بعض الحنفية أن الإمام المهدي يتمذهب بمذهبهم . فانظر إلى هذه الهذيان التي شغلت أفكار الأمة<sup>(٢)</sup>.

«إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين في القرون الأخيرة ، فأضعفت شعورهم بوحدة الإسلام اجتماعياً وسياسياً ، وأرثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم ، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام ، وقد كان أهمها في هذا العصر الاستعمار ، أي استيلاء غير المسلمين على بلاد الإسلام ، وجعلها تحت حكمهم والإلحاد والتشكيك في الإسلام . وقد كان ذلك مقترناً مع الاستعمار ومساعداً له ... ، وقد دخل الإلحاد والشك عن طريق الأوربيين الغربيين أولاً سواء أكانوا مدنيين باسم العلمانية والعلم وتحت ستارهما أم كانوا مبشرين بالمسيحية ، فاكثفوا بتشكيك المسلمين بدينهم مساعدة للمستعمرين من بني قومهم لإضعاف مقاومة المسلمين وتمزيقاً لوحدة صفوفهم ، ثم استمر انتشاره واشتد عن طريق الشيوعية ومذهبها المادي ، والعدو الثالث المشترك والمهم مع العدوين السابقين هو اليهودية العالمية والصهيونية.

(١) هو «عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي» من أهل «فاس» ، قام برحلة دونها في كتابه «الرحلة العياشية» توفي سنة ١٠٩٠ هـ انظر الأعلام ١٢٩/٤ .

(٢) الفكر السامي ٤٨٨/٢ .

«إن ما أحدثته العصبية من جفاء وعداوة وانقسام بين المسلمين المنقسمين إلى مذاهب قد شغلهم عن هذه الأخطار الثلاثة ، وشغلت بعضهم ببعض عن صد غزوات أعدائهم الحربية والفكرية ، فكانت العصبية عوناً لأعدائهم عليهم .....».

«إن الانشغال بهذه الخلافات بين المسلمين وبمعادة المخالفين من أهل القبلة صرف جمهور المسلمين عن قضايا العالم الإسلامي الكبرى ، سواء منها السياسية كقضايا فلسطين وكشمير والصومال وأرتيريا وتنزانيا أو العقائدية كالغزو العقائدي والفكري»<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان التعصب المذهبي انحرافاً عظيماً اتسعت به دائرة الانحرافات وزاد في عمقها من حيث حجره على العقول ، وتكبيله للأفهام ، وتسببه في جمود العلوم ، وكذلك ما بثه بين المسلمين من عداة ونزاع وانقسام ، مما كان له أعظم الأثر في التدهور الذي وصل إليه المسلمون ، والانحطاط الذي وقعوا فيه.

\* \* \*

---

(١) المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٩٠.

### الفصل الثالث : رفض إمالة 'فتح باب الاجتهاد

لا ينقطع بالإنسان العجب حين يطالع تلك القضية الخطيرة التي أطلق عليها «إغلاق باب الاجتهاد»، وإن كان المرء ليعجب من جميع الانحرافات التي وقعت فيها الأمة<sup>(١)</sup>، إلا أن ذلك الانحراف ليزداد منه العجب، وذلك حين يعد الحجر على العقول ومصادرة الأفكار والأفهام ديناً يتقرب به إلى الله عز وجل، ويقول بذلك جماهير من العلماء المعبرين والمبرزين فيما دعوا إلى إغلاقه وسده.

فلقد «أثر عن بعض الفقهاء القول بأن الاجتهاد أصبح بعيد المنال ، لا يستطيع الوصول إليه أحد من العلماء ، مهما وصلت درجته العلمية ، وليس أمام الناس علماء وجهال ، خاصة وعامة إلا التقليد والاتباع.

إن هذا والله العجب العجاب ، من هذا الذي حجر على العقول أن تنظر في دين الله وشريعته ، مستنبطة للأحكام «مستخرجة لها من أدلتها التي نصبها الشارع للتوصل لمعرفة الحكم الشرعي ، أكان الاجتهاد وقفاً على طبقة معينة أو جيل من الفقهاء قد مضى ، أو على فئة مخصوصة انتهى الاجتهاد بانتهائها؟ فعلى أي أساس جاز هذا القول وعلى أي قاعدة علمية صدر الحكم على باب الاجتهاد بإغلاقه؟ ولصحة من قيل هذا القول الفظيع الخطير. أيراد أن يتهم الإسلام وشريعته التي خاطبت العقول بأن من مبادئ الإسلام الجمود والتوقف والحجر على النظر»<sup>(٢)</sup>.

يقول الشيخ «محمد قطب» موضحاً جوانب تلك القضية الخطيرة «لقد ظلت الأمور في العالم الإسلامي وفي العالم أجمع في الحقيقة - عشرة قرون كاملة تقريباً لا تكاد تتغير إلا في نطاق محدود».

وكان الفقهاء المسلمون الكبار قد اجتهدوا في كل ما واجههم من الأمور فأنشأوا فقهاً متكاملًا عميقاً شاملاً يغطي احتياجات المسلمين في العبادات والمعاملات. ثم جاء تلاميذهم وشرائحهم فزادوا في قضايا الفروع حلولاً لمشكلات تصوروها حدوثها في أي ظرف من الظروف القادمة فكانوا يفترضون الفرض ويقولون : أرأيت لو حدث كذا ! ويستنبطون لهذا الأمر المتخيل حكماً مستمداً من

(١) ولا يقل عنها عجباً الفكر الإرجائي الذي هيمن على حياة الأمة ، وأصبح معتقد السواد الأعظم منها.

(٢) أحكام الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٣٦. د. عبد الحميد ميهوب. دار الكتاب الجامعي. القاهرة. الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م.

شريعة الله. فلما مضى الزمن وحدثت تلك الافتراضات بالفعل ، لم يحس المسلمون أنهم في حاجة إلى اجتهادات جديدة ، فقد غطى الفقهاء وتلاميذهم وشرائحهم من قبل كل ما جد في حياتهم .. لذلك أعلنوا - منذ القرن الخامس - إغلاق باب الاجتهاد لعدم الحاجة إليه!

ومرت خمسة قرون أخرى أو ستة على وجه التقريب والمسلمون لا يحسون بحاجة لمراجعة هذا القرار ، لأن ما بين أيديهم من الفقه يكفيهم ويزيل عن حاجتهم ، فاكثفوا بالتعلم عليه ، وإخراج المختصرات التي تفي بحاجة طالب العلم المبتدئ لتعينه على الدخول في عالم الفقه العويص!

ولكن الأمور منذ القرن الثاني عشر الهجري على الأقل بدأت تتغير تغيراً سريعاً بعد اختراع الآلة وتقدم الأبحاث العلمية والمكتشفات والمخترعات ، مما أحدث أوضاعاً جديدة وعلاقات جديدة لم يكن الفقهاء القدامى وتلاميذهم وشرائحهم قد تخيلوا حدوثها ، فلم يستنبطوا لها الأحكام الملائمة من الشريعة الإسلامية.

وهنا كان المفروض أن يعاد فتح باب الاجتهاد لمواجهة هذه التغيرات وبيان حكم الله فيها ليلتزم به المسلمون. إذ مهمة الفقه الدائمة التي لا تتوقف هي مواجهة كل ما يلم بالمسلم في حياته وبيان حكم الله فيه من حلال أو حرام أو مندوب أو مكروه أو مباح ، ليكون المسلم على بينة من ربه في كل أمر يأتيه. ولكن الدولة العثمانية رفضت إعادة فتح باب الاجتهاد<sup>(١)</sup>. وفي الواقع فإن باب الاجتهاد ظل مفتوحاً عند جملة من العلماء ، وإن كان الجمهور الأعظم أعلنوا إغلاقه ، وشنعوا على من يحاول فتحه .

ويعزو بعض الباحثين إغلاق باب الاجتهاد إلى أسباب منها : تفرق المسلمين إلى فرق وأحزاب كل فرقة تحاول أن تجتهد في إنزال النصوص الشرعية تبعاً لأهوائها ، ومن هنا سد باب الاجتهاد حتى لا تأخذ أقوال هذه الفرق وأراؤها صفة الاجتهاد فيجوز العمل بها.

وسبب ثان وهو إحياء الأمراء والحكام ، لأنه كان لا يلي أمر المسلمين إلا من بلغ رتبة الاجتهاد سواء كان في القضاء أو الولاية العامة. وساعد على انتشار هذا القول والانتصار له بعض أدياء العلم حتى يقال إنهم في عداد العلماء لأن الناس جميعاً صاروا مقلدين لا مجتهدين فيتساوى أدياء العلم أو أنصاف الفقهاء مع الفقهاء القادرين على الاجتهاد<sup>(٢)</sup>.

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٥٩ ويذكر الشيخ «محمد قطب» أن ذلك كان من الدولة العثمانية عن حسن نية وبغيرة حقيقية على دين الله على أساس أنه لا يوجد في ذلك الوقت من تتوفر فيه شروط الاجتهاد. ولكن نتائجه كانت خطيرة (انظر نفس الصفحة).

(٢) أحكام الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٣٨ وكان الحكام أرادوا إبطال هذا الشرط بمن يتولى الإمامة العامة ، فأوجوا إلى الفقهاء بسد باب الاجتهاد.

وقد مر معنا ما أشار إليه الشيخ «محمد قطب» من شعور الفقهاء بالاكْتفاء والإستيفاء في مجال الفقه ، وأن الفقهاء الأولين لم يتركوا مسألة إلا تناولوها ، وهذا هو السبب الرئيسي لإغلاق باب الاجتهاد .

وقد كان بعض العلماء يرى في إغلاق باب الاجتهاد سداً للذرائع لأن الورع قل ، والتحفظ على الديانات كذلك ، وكثرت الشهوات وكثر من يدعي العلم ويتجاسر على الفتيا ، ولو فتح لهم ذلك لا تسع الخرق على الراقع ، وهتكوا هيبة المذاهب<sup>(١)</sup> . ومع كل هذا فليس لهذه الأسباب ما يبررها في نظرنا .

لقد أعلن إغلاق باب الاجتهاد في القرن الخامس تقريباً<sup>(٢)</sup> . ويقول السيوطي (المتوفى سنة ٩١١) الذي أدرك أوائل القرن العاشر الهجري : لهج كثير من الناس اليوم بأن المجتهد المطلق فقد من قديم وأنه لم يوجد من دهر إلا المجتهد المقيد<sup>(٣)</sup> .

وبعد أوائل القرن العاشر الهجري لم يبق سلطان غير سلطان التقليد ، وجاء زمن لم يبق من الاجتهاد إلا اسمه وأصبح دعواه ، بل دعوى إمكان وجوده ذنباً لا يغتفر ، واقتصرت وظيفة العلماء في اختصار الكتب ، وشرحها والتعليق عليها<sup>(٤)</sup> .

وفي تلك الفترة الحالكة التي نقوم بدراستها كان القول بالاجتهاد وفتح بابه كبيرة من الكبائر ، إن لم يصل عند بعض المقلدين والجامدين الى حد الكفر ، وكان من التهم التي وجهها خصوم الدعوة السلفية إلى علمائها دعوى الاجتهاد ، وكانت تهمة شديدة في ذلك الزمن مع أن أحداً منهم لم ينقل عنه القول بذلك<sup>(٥)</sup> .

ويعتبر الإمام الشوكاني - رحمه الله - مثلاً ظاهراً لما وصل إليه إيذاء المجتهدين ، وتآلب أرباب البدع والتقليد من السلاطين والأمراء والعلماء والعوام عليهم ، وإنكارهم الشديد على من نسب ذلك إلى نفسه ولو عن طريق مؤلفاته التي خالف فيها المشهور من المذاهب الأربعة .

(١) الفكر السامي ٤٦٣/٢ .

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٥٨ : يقول الامام «النووي» : إن الاجتهاد نوعان مستقل وقد فقد من رأس المائة الرابعة . انظر : الفكر السامي ٤٥٢/٢ .

(٣) الرد على من أخذ الى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض ص ٢٨ . مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة .

(٤) الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه في هذا العصر ص ٩٢ . د . «سيد محمد موسى» (توانا) الأفغانستاني مطابع المدني بمصر . نشر دار الكتب الحديثة ١٣٩١ هـ .

(٥) غاية الأمان في الرد على النبهاني ٦٠/١ . وسيأتي مزيد من الحديث عن هذه القضية في الباب الثالث إن شاء الله تعالى .

يقول رحمه الله : «ولكنه قد جفاني جماعة من الذين لا يعرفون الحقائق لصدور اجتهادات مني مخالفة لما ألفوه وعرفوه . وهذا دأبهم خلفاً عن سلف لا يزالون يعادون من بلغ رتبة الاجتهاد وخالف ما دأبوا عليه ودرجوا من مذاهب الآباء والأجداد» (١)

وينقل الشوكاني كلاماً للعصامي عند كلامه عن الشيخ ملا علي قاري بن سلطان بن محمد الهروي الحنفي وهو قوله : «أحد جماهير الأعلام ومشاهير أولى الحفظ والأفهام» ، ثم قال : «لكنه امتحن بالاعتراض على الأئمة لا سيما «الشافعي» وأصحابه واعترض على الإمام «مالك» في إرسال يديه ولهذا تجد مؤلفاته ليس عليها نور العلم ، ومن ثمة نهى عن مطالعتها كثير من العلماء والأولياء ويعلق «الشوكاني» على ذلك قائلاً : «وأقول ذلك دليل على علو منزلته فإن المجتهد شأنه أن يبين ما يخالف الأدلة الصحيحة ويعترضه سواء كان قائله عظيماً أو حقيراً...» (٢).

وقد حاول الإمام «الشوكاني» رحمه الله أن يحارب تلك البدعة العظيمة ، وأن يقاوم أهل عصره الذين كادوا أن يطبقوا على القول بها ، وأن يبذل من وقته وحياته في سبيل رد الناس إلى الجادة ، ويبيان أن الاجتهاد مرتبة لا تقتصر على عصر دون عصر ، ولا على أشخاص دون أشخاص.

ولعل رسالته المسماة بـ (بغية المستفيد في الرد على من أنكر الاجتهاد من أهل التقليد) (٣) خير مثال على ما قلناه . ومن ذلك معظم تراث «الشوكاني» في الأصول والفقه ، حيث نجد أنه من خلال تلك المؤلفات قد قاوم القول بإغلاق باب الاجتهاد أشد المقاومة ، وأنكر على القائلين به أعظم الإنكار (٤).

ويعد كتاب «البدر الطالع» في التراجم والسير الذي ألفه «الشوكاني» رداً عملياً وقوياً على

(١) البدر الطالع ٢١٩/١.

(٢) البدر الطالع بمحاسن من جاء بعد القرن السابع ٤٤٥/١.

(٣) من ترجمة له في أول الروضة الندية لصديق حسن خان .

(٤) قال في إرشاد الفحول بعد ذكر الخلاف في ذلك : وبالأجملة فتطويل البحث في مثل هذا لا يأتي بكثير فائدة فإن أمره أوضح من كل واضح وليس ما يقوله من كان من أسراء التقليد يلزم لمن فتح الله عليه أبواب المعارف وورقه من العلم ما يخرج به عن تقليد الرجال وما هذه بأول فاقرة جاء بها المقلدون ولا هي بأول مقالة باطلة قالها المقصرون ، ومن حصر فضل الله على بعض خلقه وقصر فهم الشريعة المطهرة على من تقدم عصره فقد تجرأ على الله عز وجل ثم على شريعته الموضوعية لكل عباده ثم على عباده الذين تعبد بهم الله بالكتاب والسنة ، وبالله العجب من مقالات هي جهالات وضلالات. فإن هذه المقالة تستلزم رفع التعبد بالكتاب وبالسنة وأنه لم يبق إلا تقليد الرجال الذين هم متعبدون بالكتاب والسنة كتعبد من جاء بعدهم على حد سواء. فإن كان التعبد بالكتاب والسنة مختصاً بمن كانوا في العصور السابقة ولم يبق لهؤلاء إلا التقليد لمن تقدمهم ولا يتمكنون من معرفة أحكام الله وسنة رسوله فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة والمقالة الزائفة وهل النسخ إلا هذا ، سبحانه هذا بهتان عظيم .

إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص ٢٥٤ دار الفكر.

طوائف المقلدة والجامدين ، حيث أورد فيه من تراجم المجتهدين وأحوالهم ما يدمغ به تلك الطوائف المنحرفة ، ولا غرو في ذلك ، فقد كانت تلك الفرية العظيمة سبباً في تأليف ذلك الكتاب الحافل بتراجم عشرات من المجتهدين والعلماء.

يقول رحمه الله في مقدمة الكتاب : «فإنه لما شاع على ألسن جماعة من الرعا ع اختصاص سلف هذه الأمة بإحراز فضيلة السبق في العلوم دون خلفها ، حتى اشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة تعذر وجود مجتهد بعد المائة السادسة كما نقل عن البعض ، أو بعد المائة السابعة كما زعمه آخرون . وكانت هذه المقالة بمكان من الجهالة لا يخفى على من له أدنى حظ من علم ، وأنزr نصيب من عرفان ، وأحقر حصة من فهم ، لأنها قصر للتفضل الإلهي ، والفيض الرباني على بعض العباد دون البعض ، وعلى أهل عصر دون عصر ، وأبناء دهر دون دهر ، بدون برهان ولا قرآن .

على أن هذه المقالة المخذولة والحكاية المرنولة تستلزم خلو هذه الأعصار المتأخرة عن قائم بحجج الله ومترجم عن كتابه وسنة رسوله ومبين لما شرعه لعباده ، وذلك هو ضياع الشريعة بلا مرية وذهاب الدين بلا شك ، وهو تعالى قد تكفل بحفظ دينه وليس المراد حفظه في بطون الصحف والدفاتر بل إيجاد من يبينه للناس في كل وقت وعند كل حاجة .

حداني ذلك إلى وضع كتاب يشتمل على تراجم أكابر العلماء من أهل القرن الثامن ومن بعدهم مما بلغني خبره إلى عصرنا هذا ليعلم صاحب تلك المقالة أن الله وله المنة قد تفضل على الخلف كما تفضل على السلف بل ربما كان في أهل العصور المتأخرة من العلماء المحيطين بالمعارف العلمية على اختلاف أنواعها من يقل نظيره من أهل العصور المتقدمة كما سيقف على ذلك من أمعن النظر في هذا الكتاب وحل عن عنقه عرى التقليد...» (١).

ويعرف «الشوكاني» بالمجتهد فيقول : «وبالجملة فالمجتهد على التحقيق هو من يأخذ الأدلة الشرعية من مواطنها على الوجه الذي قدمناه ويفرض نفسه موجوداً في زمن النبوة وعند نزول الوحي وإن كان في آخر الزمان ، وكأنه لم يسبقه عالم ولا تقدمه مجتهد . فان الخطابات الشرعية تتناوله كما تناولت الصحابة من غير فرق . وحينئذ يهون الخطب ، وتذهب الروعة التي نزلت بقلبه من الجمهور وتزول الهيبة التي تداخل قلوب المقصرين» (٢).

وقد كان العلماء المجتهدون يواجهون حرباً شعواء من قبل المبتدعين من المقلدين والجامدين وعلى رأسهم أهل السلطان ونوؤ النفوذ .

(١) البدر الطالع ٢/١ .

(٢) أدب الطلب ص ١٢٢ .



وخير مثال على ذلك الحادثة التي وقعت في «دمشق» عام ١٣١٣هـ ، واطلق عليها اسم «حادثة المجتهدين» ، حيث اجتمع جملة من العلماء : منهم الشيخ « جمال الدين القاسمي » ، والشيخ «عبد الرزاق البيطار» ، والشيخ «سليم سمارة» ، والشيخ «بدر الدين المغربي» وغيرهم .  
ويسوق «القاسمي» أحداث القصة فيقول : وذلك أنه يوم الجمعة العاشر من شعبان سنة ١٣١٣هـ وردت علينا رسالة من دائرة الحكومة مضمونها أن يحضر يوم السبت إلى المحكمة هؤلاء الأفاضل وهم :-

الشيخ «عبد الرزاق البيطار» ، والشيخ «سليم سمارة» ، والشيخ «بدر الدين المغربي» ، والشيخ «توفيق أفندي الأيوبي» ، والشيخ «أمين السفرجلاني» ، والشيخ «سعيد الغر» ، والشيخ «مصطفى الحلاق» ، والفقيه جامع الكتاب.

والسبب كما يقول الشيخ وشاية من بعض الحاسدين ، لما اجتمع هؤلاء الأفاضل للمدارسة والمذاكرة ، فيذكر أن «الواشي» ذهب إلى والي «الشام» «عثمان نوري باشا» ، ووشى له عن الجماعة المنوه بهم ما شاء ، فقال له عن الشيخ «بدر الدين» أنه قرر في درسه بعد الجمعة في الأموي على رؤوس العالمين تحريم الدخان!! ، وذنم ترك العمائم وشنع على الحيل في الربا التي تجري في المحاكم وكون الخلافة صارت ملكاً عضوضاً ، وغير ذلك مما نقله ذلك النمام عن هذا التحرير الهمام .

وأما الشيخ «توفيق أفندي الأيوبي» فوشوا عليه بأنه تكلم في درسه بين العشائين في الأموي بنجاسة أعيان المشركين ، وغير ذلك مما لفقوه من المين.

وأما بقية الجماعة فوشوا عليهم بأنهم عدوا أنفسهم من المجتهدين وأنهم يجتمعون على قراءة الحديث الشريف ، ويريدون أن يستتبطوا منه كل معنى شريف!! ، وأنهم صاروا يتذكرون في أقوال الفقهاء ويبحثون فيها ويتطلبون الأدلة على تلك الآراء!!<sup>(١)</sup> إلى غير ذلك مما نسبوه إليهم.

ثم يذكر «القاسمي» رحمه الله بداية هذا الاجتماع أنه كان من غير قصد من بعض منهم للمذاكرة والمدارسة ، وأنهم زاد عددهم فجعلوا لهم موعداً من كل أسبوع للفوائد العلمية ثم يقول :

واتفق أن حضر يومئذ رجل ينتمي بزيه للعلماء ، بيد أنه مشاء بنميم ، عتل زنيم ، فعد عليهم أبحاثهم وأحصاها . وبعد انفضاض الجمع قلب موضوعها في المجالس وأفشاها ، فعزز هذا السفیه أخويه السابقين (يقصد اثنين كانا قد قعدا معهم قبل ذلك) وأضحى ثالثهم، وتعاونوا في الجامع على أن ينشروا مباحثهم ، ففشا أمر اجتماعنا وانتشر ، وطار صيته في أقطار «دمشق» واشتهر ولقبوه

(١) لقد كان السؤال عن الدليل جريمة عظمى إذ لا يسأل عن الدليل إلا كل ضال يريد أن يخرق السياج المقدس لحرمة الاجتهاد.

جمعية المجتهدين ، ونسبوا مذهبهم إلى الفقير ، وقالوا : المذهب الجمالي ..... ثم دعانا الشيخ «أمين السفرجلاني» ، ودعا العلامة مقدم علماء «الشام» الشيخ «البكري العطار» ، فحضر معنا ضحوة ذلك النهار. وقصد بدعوته أن يطلعه على هذا الاجتماع ، ويريه هل يرى فيه ما ينكره سليمان الطباع ، فلم ير في مباحثنا ما يستنكر! بيد أنه قال : قد ذاع صيتكم بالاجتهاد وانتشر!!<sup>(١)</sup> فقلنا : أين الاجتهاد ونحن على ما ترى؟ وهل نباهة المرء وحرية أفكاره تعد نكراً ..... ثم لم تشعر الأصحاب إلا والقضية صارت لدى المحاكم، نم بها بعض من يتشوف المظالم ، وقلبوا على الجماعة، ونسبوا لهم عجائب الأمور ..... وأمر البوليس أن يخبرهم بحضورهم للمحكمة الكبرى آمين. وعينوا عقد مجلس كبير رئيسه القاضي «مكي بك أفندي» ، وأعضاؤه المفتي وأعوانه من المنتفضين.

ويذكر «القاسمي» أن المفتي أخذ يسألهم واحداً واحداً إلا من لم يحضر بعذر شرعي ، وكان مما قاله للشيخ «القاسمي» : ما لكم ولقراءة الحديث؟ وعزز بعض مجالسيه هذا القول الخبيث ، بأنه يلزم قراءة الكتب الفقهية ، والحجر على قراءة الكتب الحديثية والتفسيرية!!!<sup>(٢)</sup> ظناً منه أن العلماء يمتلكون أمره ....

ثم يذكر أنه أوقف تلك الليلة في البوليس. وكان مما قال : ثم تذاكر أهل المجلس بعضهم مع بعض ورأوا أنهم قد أدوا ما لزمهم في تعزيز الجماعة من الغرض وكان بودهم أن يقر أحدنا بصريح الاجتهاد ، أو أن يزل واحد منا فيلحقه الحق منهم والعناد فيبلغوا مأربهم من نفيعهم من «الشام».

ثم يحاول أن يلتمس للمفتي بعض العذر فيقول : ونحن لا ننكر أن كثيراً من الأعيان أغروه علينا . . . . . ولقد قال له بعض المشايخ المتصدرين : إن هؤلاء إن دام جمعهم لا نأمن أن يردوا فتوى المفتي حيث إنهم يناقشون الأقدمين . كما أن بعض المشهورين قال له : لو كان المفتي «الحمزاوي» حياً ما جسر أحد على دعوى الاجتهاد<sup>(٣)</sup>.

هكذا كان اجتماع أهل العلم للتذاكر والتدارس في كتب الحديث والتفسير في تلك الفترة الحالكة ذريعة للجهال والمقلدين أن يتسلطوا عليهم بالإيذاء والحبس والنفي والتشهير بدعوى الاجتهاد ومحاولة منعهم من قراءة كتب الحديث النبوي ، وكتب التفسير التي تساعد على اقتحام سياج التقليد! . وقصرهم على كتب الفقه المذهبية من مختصرات وشروح وحواش.

(١) وتلك جريمة كبرى لا تغتفر في تلك الفترة الحالكة كما ذكرنا.

(٢) يا سبحان الله ! هذا مع الحديث يمنعون من قرأته لئلا يستنبطوا منه الأحكام فيصبحوا مجتهدين ، ولكن ماذا يصنعون في القرآن. أيمنعون الناس من تلاوته للسبب نفسه ، في الواقع أنهم لم يفكروا في ذلك لأن القرآن قد فقد مكانته عندهم وأضحى يتلى في المآتم وعلى الموتى وأمام الأضرحة ويكتب في التعاويذ. ويكفيهم من ذلك منع كتب التفسير.

(٣) جمال الدين القاسمي وعصره ص ٤٨ - ٦٩.

ومن جملة ما رمى به المبتدع المدعو «يوسف بن إسماعيل النبهاني» (المتوفى ١٣٥٠هـ) <sup>(١)</sup> أهل الدعوة السلفية دعوى الاجتهاد. ظناً منه بفرط جهله أن تلك دأمة يدمفهم بها ، وكبيرة من الكبائر يلصقها بهم نظراً لما كان سائداً في ذلك العصر من تحريم الاجتهاد.

يقول «النبهاني» <sup>(٢)</sup> : القسم الأول من المقدمة في الكلام على انقطاع الاجتهاد المطلق ، الذي تدعيه - بالباطل - فرقة الوهابية ، ومن أعجبه شأنهم من جهلة المبتدعين شذاذ المذاهب الإسلامية ، وجعلت ذلك رسالة سميتها (السهام الصائبة، لأصحاب الدعاوي الكاذبة)، ثم ذكر خطبة هذه الرسالة، إلى أن قال : فأقول : إن دعوى الاجتهاد في هذا الزمان - منهم ومن غيرهم مطلقاً مهما كان عالماً - هي دعوى كاذبة ، لا يلتفت إليها ولا يعول عليها . قال : وقد ذكرت في كتابي (حجة الله على العالمين) الرد على من يدعي الاجتهاد في هذا الزمان ونقلت عبارات العلماء في ذلك ، كالإمام «الشعراني» ، والإمام «ابن حجر الهيتمي» ، والإمام «النووي» وغيرهم ، بما يقنع كل ذي طبع سليم ، وفهم مستقيم، إلى أن قال : أما الاجتهاد فلا يدعيه اليوم إلا مختل العقل والدين <sup>(٣)</sup> ، إلا من طريق الولاية <sup>(٤)</sup> ، كما قاله الشيخ الأكبر «محيي الدين بن عربي» .

ثم نقل ما نقله «المنأوي» في أول شرحه الكبير على الجامع الصغير عن «ابن حجر المكي» ، أنه قال : لما ادعى «الجلال السيوطي» الاجتهاد قام عليه معاصروه ورموه عن قوس واحدة ..... قال «الشهاب» : فتأمل صعوبة هذه المرتبة ، أعني اجتهاد الفتوى الذي هو أدنى مراتب الاجتهاد ، ويظهر لك أن مدعيها - فضلاً عن مدعى الاجتهاد المطلق - في حيرة من أمره ، وفساد فكره ، وأنه ممن ركب متن عمياء ، وخبط خبط عشواء ، قال : ومن تصور مرتبة الاجتهاد المطلق استحى من الله أن ينسبها لأحد من أهل هذه الأزمنة ، بل قال «ابن الصلاح» ومن تبعه : انها انقطعت من نحو ثلاثمائة سنة ، ولابن الصلاح نحو الثلاثمائة سنة ، أي لأنه من أهل القرن السادس ، فتكون اليوم قد انقطعت من ستمائة سنة ، أي بالنظر إلى عصر «ابن حجر» وهو من أهل القرن العاشر ، فيكون لها الآن منقطعة نحو ألف سنة ، إذ نحن في العام السابع عشر من القرن الرابع عشر وهو عام تأليفي لكتاب (حجة الله على العالمين) .... فإذا لم يتأهل الأكابر لمرتبة الاجتهاد المذهبي فكيف يسوغ لمن لم يفهم أكثر عباراتهم على وجهها أن يدعى ما هو أعلى من ذلك وهو الاجتهاد المطلق <sup>(٥)</sup>.

(١) الاعلام ٢١٨/٨.

(٢) من كتاب له أسماء «شواهد الحق ، في الاستغاثة بسيد الخلق» لم أقف عليه.

(٣) وكان مدعيه قد ادعى النبوة وأتى بجائحة من جوائح الدهر. انظر توضيح ذلك في غاية الأمانى ٦٤/١.

(٤) قاتل الله أرباب البدع والتصوف والضلال ، أرأيت كيف يبيحون لأنفسهم ما يحرمونه على غيرهم ، فيحرمون حرية الفكر والنظر على أهل العلم والدين ، ويبيحونه للطرقية والممخرقة من مدعي الولاية والجذب من الدجالين وغيرهم.

(٥) غاية الأمانى في الرد على النبهاني ٥٨/١.

وكما اعتبرنا الإمام «الشوكاني» مثلاً ظاهراً وحياً لما كان يلقاه المجتهدون في تلك الفترة من أذى وعداء ، فإن «النبهاني» ليعد المثال الأظهر على موقف السواد الأعظم من الجامدين والمقلدين الذين يحرمون الاجتهاد ، ويحاربون من حام حول حماه.

وكذلك ما تفوه به «النبهاني» في هذا المقام من نسبة الاختلال في العقل والدين الى مدعى الاجتهاد حتى ولو كان أهلاً لذلك ، وتضخيمه لمرتبة الاجتهاد ومبالغته فيها حتى إنه ليكاد أن يلحقها بمرتبة النبوة كل ذلك كان لا يعدو النظرة القائمة التي كان ينظر بها أهل عصره إلى الاجتهاد والمجتهدين ويمثلها أصدق تمثيل.

ومن هؤلاء «داود بن جرجيس» (المتوفى سنة ١٢٩٩هـ) الذي تصدى لمناقحة أهل الدعوة السلفية ، وكان من أشد خصومهم ، ألف رسالة أسماها «أشد الجهاد في إبطال دعوى الاجتهاد» رد بها عليهم فيما نسب إليهم من دعوى الاجتهاد. إذ كانت دعوى الاجتهاد في ذلك الزمن أم الموبقات ورأس الكبائر<sup>(١)</sup>.

وهذا الشيخ «شهاب الدين المرجاني» (المتوفى سنة ١٣٠٦هـ) «كان عالم عصره في بلاده ، أصله من قرية «مرجان» التابعة لولاية «قزاق» ودرس في بخارى وسمرقند ، وتولى الإمامة والخطابة والتدريس في الجامع الأول بقزاق سنة ١٢٦٦هـ ، وتخرج على يديه كثير من العلماء وكان مجاهراً بالاجتهاد وانتقاد بعض المتقدمين<sup>(٢)</sup> فعاداه معاصروه ، فانهزل عن منصبه ثم عاد إليه<sup>(٣)</sup>.

أما الشيخ «عبد الحق بن فضل العثماني البناصري» (المتوفى سنة ١٢٧٦هـ) فقد كان لا يتقيد بمذهب ، ولا يقلد أحداً في شيء من أمور دينية<sup>(٤)</sup> ، بل يعمل بنصوص الكتاب والسنة ، ويجتهد برأيه ، وبذلك جرت بينه وبين الأحناف مباحثات كثيرة في الاجتهاد والتقليد ، ومن مصنفاته «الدر الفريد في المنع عن التقليد» وشنع عليه المتعصبون ، وحبس «بمكة» بدعوى انتقاص الأئمة المجتهدين ، ثم اطلق وسافر إلى المدينة فوشوا به إلى القاضي ، ففر منها متخفياً!!<sup>(٥)</sup>.

وقد استمرت تلك اللوثة في معاداة المجتهدين والتصدي لكل من يحاول الاجتهاد بعد ذلك ، وكانت مناهج التعليم ضحية من ضحايا تلك اللوثة ، كما كان للأزهر دور كبير في المحافظة على

(١) الأعلام ٢/٣٢٢. وقد رد عليه الشيخ «عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ» رحمه الله بكتابه المعروف (منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود ابن جرجيس).

(٢) يعني في مخالفته لهم في بعض المسائل ، حين أثر ما رآه دليلاً على ما ذهبوا إليه.

(٣) الأعلام ٣/١٧٨.

(٤) هكذا في الأصل. ولعلها من أمور دينه وهو الأقرب.

(٥) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر ٧/٢٤٠.

إغلاق باب الاجتهاد، وحرص علمائه على أن يبقى ذلك الباب مسدوداً، وكأنهم قد أثروا الدعة والضمول من خلال عكوفهم على كتب السابقين لا يتجاوزونها أبداً.

يقول أحد الدارسين بالأزهر بعد أن تكلم على قضية الاجتهاد وإغلاق بابيه والحكم على المجتهدين بالضلال: «وهذا مسطور في كتب الفقهاء، طالعنا ذلك ونحن في المراحل الأولى من التعليم الأزهرى عند الكلام على أن لفظ الطلاق يقع ثلاثاً - ولابن تيمية» و«ابن القيم» ، أنه يقع واحدة ثم قيل عن «ابن تيمية» إنه ضال مضل. وصل الأمر إلى هذا، يرمي المجتهد بالضلال والإضلال، إنه لبلاء حل بالمسلمين وركود فقهي ساد عقول المفتين»<sup>(١)</sup>.

ولقد ترتب على إغلاق باب الاجتهاد آثار خطيرة لا تزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين الى يومنا هذا.

«فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته .. فماذا يحدث؟

يحدث أحد أمرين : إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو ، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها . وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة ، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة ، لأن هذا الظل لم يمد - بالاجتهاد - حتى يغطيها .

وقد حدث الأمران معاً ، الواحد تلو الآخر .. الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة»<sup>(٢)</sup>.

فبعد أن ساد الجمود والتخلف الحياة الإسلامية ، ونضبت الروح المتدفقة التي كان قد أطلقها الإسلام في القرون المفضلة - في سائر المجالات ، كان لا بد من وقفة صادقة للرجوع الى المنهج الإسلامي الأصيل ، والعودة السريعة الى عقيدة أهل السنة والجماعة التي تمثل ذلك المنهج في واقع الحياة ، وفتح باب الاجتهاد الذي كُنْ قد أوصده الجامدون والمقلدون ، وأحكموا إغلاقه ، حتى تبعث تلك الروح الموعودة ، وتسطع شمس الاجتهاد والعلم لتصهر ما تراكم في حياة الأمة من جمود ، وتزيل ما أصابها من تخلف وركود ، لتواكب مسيرة الحياة في العالم المتجدد الذي أخذ يشق طريقه في دنيا العلوم والتقدم والاختراع ، ولكن أمراً كهذا لم يحدث مطلقاً ، بل على العكس من ذلك تماماً . حيث كان الذي يقع أنه كلما تجددت الأحوال ، وترقت الأمم في مدارج التقدم والمعرفة أن يتسارع أهل العمى وفاسدو البصائر من الجامدين والمقلدين في رد كل جديد ، وفي زيادة الأقفال والأوصاد على باب الاجتهاد مع شدة الحاجة إليه .

(١) أحكام الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص ١٢٨ . د . «عبد الحميد ميهوب» .

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٥٩ .

ولكن عجلة الحياة كانت أسرع وأقوى من تخطيط هؤلاء الجاهلين ومقاومتهم التي سرعان ما اندفعت محطمة ما أفنوا أعمارهم في إغلاقه ، وما تواصلوا به خلفاً عن سلف من إيصاده ، ليخرج الأمر من أيديهم إلى الأبد ، ولم يعد خارجاً عن ميدان الاجتهاد فحسب ، بل عن الإسلام كله.

«وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة ، والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبداً ، فهي تلد كل يوم جديداً لم تكن تعرفه الإنسانية من قبل .. وكان من هذا أن مضى الناس من غير المسلمين - يواجهون كل جديد ، ويتعاملون معه ، ويستولدون منه جديداً .. وهكذا سار الناس - من غير المسلمين - قدماً مع الحياة ، ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذي كان عليه الآباء والأجداد من بضعة قرون»<sup>(١)</sup>.

وكان استيراد المبادئ والنظم من أوروبا أثراً عميقاً بالغ الخطورة ، نتج عن سوء الأحوال الدينية التي تحدثنا عنها ، وبوجه أخص ، بما وقع من قفل لباب الاجتهاد وحرص متواصل على عدم فتحه ، ومقاومة كل من يحوم حوله. وسيأتي بحث هذه القضية عند حديثنا عن الآثار الخارجية في الباب الثاني من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.



---

(١) سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه ص ١٤٤. «عبد الكريم الخطيب» . دار الأصاله. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

# دبب وشمس

الأثار المترتبة

على الإنجازات العقديّة والعلميّة

في القرنين

الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

الأثار المترتبة

على الإنجازات العقلية والعلمية

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين

ويتكون من فصلين :

الفصل الأول : الأثار الداخلية ( تفشي الضعف في الأمة )

الفصل الثاني : الأثار الخارجية .



## الفصل الأول

### الآثار الداخلية

### ١- تفتيح الضعف في الأمة

ويتكون من أربعة مباحث :

المبحث الأول : الضعف السياسي والحربي

المبحث الثاني : الضعف الاقتصادي

المبحث الثالث : الضعف العلمي

المبحث الرابع : الضعف الاجتماعي والأخلاقي

## تهديد

إن الدارس للانحرافات العقدية والعلمية في تلك الفترة الحالكة ليجزم بأنه لابد أن تتمخض تلك الانحرافات السيئة عن آثار خطيرة تؤثر في حياة الأمة الإسلامية ، ويرى أن ما أصابها من ضعف وهبوط في شتى نواحي الحياة ، وما تعرضت له - وما زالت تتعرض له - من تسلط الاستعمار وتبعيته ومن غزو فكري ونشاط تنصيري إلى غير ذلك لهو نهاية طبيعية لما آلت إليه أحوال المسلمين العقدية والعلمية من ضعف وانحراف ، ﴿ وما ربك بظلام للعبد ﴾ [فصلت ٤٦] ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الرعد ١١] . ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا . قل هو من عند أنفسكم ﴾ [آل عمران ١٦٥] .

وقد رأينا في الباب الأول عظم هذه الانحرافات الدينية وانتشارها وطغيانها على حياة المسلمين فضعف العقيدة الصحيحة وغربتها ومحاربتها واتساع الفكر الإرجائي ، ومحاولة القضاء على عقيدة الولاء والبراء من قبل بعض الحكام ، وتفتشي الشرك الأكبر بعبادة الأولياء وبناء الأضرحة والقباب ، وهيمنة الصوفية بطرقها وطقوسها المبتدعة على حياة الناس ، وتفاقم حدة التعصب المذهبي ، وجمود المناهج التعليمية ، ورفض إعادة فتح باب الاجتهاد ، وازدياد نشاط الفرق الباطنية وغيرها في حرب المسلمين والتآمر عليهم مع أعدائهم من اليهود والنصارى والوثنيين ، وأخيراً تقصير علماء المسلمين في أداء واجبهم ، وابتعادهم عن قيادة الأمة . وكل ذلك المزيج الهائل من الانحرافات كان له تلك الآثار الخطيرة في حياة الأمة .

ويخطئ الكثير من المفكرين خطأ فادحاً حين ينظرون إلى هذه الآثار المدمرة على أنها أسباب ضعف الأمة وانحطاطها ، وأنه إذا تم القضاء على تلك الآثار نهضت الأمة وعادت قوية من جديد ، ويتجاوزون أو يغفلون عن النظر إلى الأسباب الحقيقية التي تمثلت في الانحرافات العقدية التي كانت موضوع الباب الأول من هذه الرسالة.

إن هؤلاء المفكرين بمثابة طبيب غير حاذق في مهنته ، يعرض عليه مريض ، فلا يوجه عنايته إلا للقضاء على علامات المرض وأعراضه كارتفاع درجة الحرارة ، ولا يتجاوز باهتمامه إلى الكشف عن حقيقة هذا المرض فيحاول علاجه وقد ينجح فعلاً في تخفيض درجة الحرارة ، ولكن إلى حين؛ لأن المرض الحقيقي لا زال موجوداً .

فالحديث عن الضعف السياسي والحربي والاقتصادي والعلمي والأخلاقي والاجتماعي وكيفية القضاء على هذا الضعف والحديث عن الاستعمار والغزو الفكري والتنصير وكيفية مقاومتها لا يزيد عن محاولة القضاء على تلك الأعراض المزعجة ، ولكن لا يمكنه أبداً أن ينهض بالأمة التي أصيبت بالخواء العقدي والانحراف الديني .

وما لم يتم القضاء على الأسباب الحقيقية فإنه لا يمكن بحال من الأحوال القضاء على تلك الآثار الخطيرة . ومن هنا يأتي حديثنا عن تلك الآثار بوصفها آثاراً ناتجة عن الانحرافات العقدية والعلمية .

ولا بد أن نذكر أن هذه الآثار كانت متشابكة ومتداخلة ، يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً ، فالضعف ؛ السياسي مثلاً يؤثر في الضعف الاقتصادي ، ويتأثر به ، وهكذا ، ولكننا سنركز الحديث على تلك الآثار كل على حدة . وإنه ما لم يتم القضاء على الأسباب الحقيقية المتمثلة في الانحرافات العقدية ، فليس بالإمكان أبداً أن يقضى على تلك الآثار ، وقد رأينا جميع المحاولات التي بذلت في العالم الإسلامي في ذلك المضمار قد باءت جميعاً بالفشل ؛ لأنها لم تفكر أبداً في معالجة الأسباب الحقيقية، ولن تفلح في أي خطوات إصلاحية في المستقبل، ما دامت غافلة عن تلك الأسباب الرئيسة .

## الآثار الداخلية لتفشي الضعف في الأمة

### المبحث الأول : الضعف السياسي والحربي

إن الأمة الإسلامية في اعتقادي لم تشهد ضعفاً سياسياً كالذي شهدته في تلك الفترة. ويكفي في ذلك تسمية الدولة العثمانية الكيان السياسي الكبير للأمة الإسلامية باسم «الرجل المريض»<sup>(١)</sup> وهي تسمية توافق ما كانت عليه تلك الدولة المترامية الأطراف من ضعف وتفكك واندلاع للثورات في كثير من أجزائها.

وفي القرن الثالث عشر الهجري ، والنصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري انتشرت الفتن واندلعت الثورات في كل مكان ، وكان فقدان الأمن ، واضطراب الأوضاع السياسية طابعاً عاماً لتلك الفترة ، ولا نكاد نرى بلداً واحداً إلا وكان مسرحاً لصراعات دموية عنيفة. وكان الصراع على الحكم شيئاً مألوفاً عند الناس ، وقد يستمر الصراع سنوات طويلة ، كالصراع بين العثمانيين وبين المماليك في مصر. والصراع بين أسر الأشراف للاستئثار بالسلطة في بلد الله الحرام ، وغير ذلك.

وفي حين شاخت السلطة المركزية في الأستانة ، وضعفت قبضتها على البلدان التابعة لها ، قامت بعض الولايات بمحاولة الانفصال عنها ، ومن هذه الولايات مصر واليمن.

وكانت بعض البلدان مناطق متفجرة بالصراع الدائم كالبلقان والأناضول. وكان انتشار السلب والنهب والقتل وقطع الطريق في كافة أنحاء العالم الإسلامي سمة رئيسية لتلك الفترة. ويظهر ذلك بأدنى مطالعة لكتب التاريخ في ذلك العصر . كل ذلك يبرز لنا مدى الضعف السياسي الذي كانت الأمة غارقة فيه.

هذا بالإضافة إلى ما قامت به الفرق الباطنية من ثورات متتابة كما رأينا ذلك عند حديثنا عن الفرق ، واستنفدت به كثيراً من جهود الدولة السياسية والحربية.

«ومنذ نهاية القرن الثامن عشر (الميلادي) فقدت الدولة العثمانية القدرة على المبادرة بالهجوم والتزمت سياسية الدفاع والتنازل عن بعض ممتلكاتها الأوربية كثمان لعقد الصلح ووقف الحرب ،

---

(١) لقب أطلقه قيصر روسيا «نقولا الأول» سنة ١٨٥٣ م ، وأصبح بعد ذلك متداولاً ومشتهراً في ذلك الزمن ، لمزيد من التفصيل، انظر الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها ٨٣٠/٢.

وحال التنافس بين الدول الأوربية دون أن تلتهم دولة أوربية بمفردتها الدولة العثمانية ، الأمر الذي أعان الدولة على أن تقف على قدميها أمام التهديد الأوربي حتى الحرب العالمية الأولى»<sup>(١)</sup>.

وإذا كان التنازل عن بعض الممتلكات يعد صورة من صور الضعف الذي أصاب الدولة ، فإن الامتيازات الأجنبية صورة أخرى من صور ذلك الضعف حين «تطرق الضعف إلى الدولة العثمانية وامتد إلى أرجاء ممالكها المترامية الأطراف . وأخذت الدول الأوربية في الحصول على الامتيازات الأجنبية والمعاهدات الطائفية التي تخول لكل دولة نصرانية حماية أتباع مذهبها في بلاد الدولة»<sup>(٢)</sup>.

«وكانت الدول الأوربية الكبرى لا تتفك عن التدخل في شؤون الدولة العثمانية ، بطرق وأساليب مختلفة ، وذلك استناداً إلى «الامتيازات الأجنبية.....».

إن الامتيازات المذكورة كانت قد نشأت من الفرامين التي أصدرها ، والمعاهدات التي أبرمها سلاطين آل عثمان ، في تواريخ مختلفة في شتى الظروف والمناسبات.

إنها كانت أخذت شكل «نظم تعهدية» لم تعد الدولة العثمانية تملك حق إلغائها أو تعديلها من تلقاء نفسها ، ولا سيما بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الضعف والانحطاط فصارت الدول المذكورة تعتبر تلك الامتيازات بمثابة «حقوق مكتسبة» لها ولرعاياها وحتى لكل من تشملهم بنعمة «حمايتها» من تبعة الدولة نفسها»<sup>(٣)</sup>.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن كثيراً من هذه الامتيازات قد منحت في فترة بلغت فيها قوة الدولة العثمانية أوجها كالامتيازات التي أعطاه السلطان «سليمان القانوني» لحكومة فرنسا ورعاياها ومن يحتمي بها<sup>(٤)</sup>. ويعلق الدكتور «إحسان حقي» على ذلك بقوله : «ومن الغريب جداً أن تعقد الدولة العثمانية وهي في أوج عظمتها وقوتها ، معاهدة مع دول الغرب بمثل هذا التسامح الذي بلغ حد الذل والضعف...»<sup>(٥)</sup>.

وكانت السلطنة على غرورها بنفسها كريمة في عقد هذه المعاهدات ، ومنح هذه الامتيازات دون

---

(١) تاريخ العرب الحديث . العراق ٩٠/١.

(٢) بلاد الشام في القرن التاسع عشر ص ٢٨٥ دراسة وتحقيق د. سهيل ذكار . دار حسان للطباعة والنشر . الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

(٣) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٤٢ ساطع الحصري . دار العلم للملايين . الطبعة الثالثة ١٩٦٥ م.

(٤) تاريخ الدولة العلية ص ٢٢٣ «محمد فريد بك المحامي» . تحقيق الدكتور إحسان حقي . دار النفائس . بيروت . الطبعة السادسة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ٩٨ د. محمد حرب . دار القلم . دمشق . الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

(٥) تاريخ الدولة العثمانية ص ٢٣٠.

نظر إلى المستقبل البعيد ..... ولكن السلطنة فيما بعد وجدت نفسها امام معاهدات وامتيازات كانت تقيدت بها إبان قوتها السابقة ثم تحولت إلى سلاسل وأغلال طوقت عنقها ويديها ، وجدت نفسها أنها ليست عاجزة عن التخلص منها بل ما إن ضعفت عزائمها ، واسترخت قواها ، حتى فرضت عليها الدول الأوروبية معاهدات وامتيازات أخرى أثقل من سابقتها ، وأشدّ تقييداً لحريتها» (١).

ومن هذه الامتيازات «أن الأوروبيين الذين يؤمنون البلاد العثمانية - ويعملون فيها ، ويرتزقون منها - كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة ، تجعلهم «مفضلين» على أهل البلاد ، في ميداني القضاء والاقتصاد. وبناء على هذه الامتيازات ، ما كان يحق لسلطات الأمن والعدل أن تفتش مسكن أحد من هؤلاء الأجانب لأي سبب كان ، ولا أن تحقق معه أو تحاكمه ... إلا بحضور ممثل عن قنصلية الدولة التي ينتسب إليها.

كما أنه ، ما كان يحق للحكومة العثمانية - بناء على تلك الامتيازات - أن تجبي من الأجانب أي ضريبة مباشرة. فكانت المتاجر والمصانع والمصارف الأجنبية ، تعمل في البلاد العثمانية بكل حرية ، وتتصرف بأرباحها كما تشاء ، دون أن تدفع أية ضريبة عن تلك الأرباح للحكومة أو البلدية» (٢).

جاء في كتاب «التبشير والاستعمار» : «الامتيازات الأجنبية كما يدل الاسم ، كانت تقوم على منح رعايا الدول الأجنبية النازلين في الامبراطورية العثمانية أو السائحين فيها أو المارين بها مروراً «امتيازات» لم تكن تمنح للعثمانيين أنفسهم . ومن أشهر هذه الامتيازات إعفاء هؤلاء الأجانب من الضرائب المباشرة ومن جزء كبير من رسوم الجمارك. ثم إن السلطات العثمانية لم تكن تستطيع ولوج بيت رجل أجنبي مهما كان السبب، حتى لو أن جريمة ارتكبت في ذلك البيت لما كان للسلطة العثمانية أن تدخل للتحقيق ، بل كان الذي يقوم بالتحقيق والمحاكمة والفصل قنصل الرجل الذي يسكن ذلك البيت . إن البيت الذي كان يسكنه رجل انكليزي أو فرنسي أو يوناني أو اسوجي أو برازيلي ، كان يعتبر جزءاً من انكلترا أو فرنسة أو اليونان أو اسوج أو البرازيل.

وكذلك كان لكل أجنبي أن يتجول في البلاد العثمانية كما يشاء. فاذا اتفق أن ناله سوء - ولو قضاء وقدرًا - فإن حكومته تطالب بديته أضعافاً مضاعفه ، وقد تشدد أحياناً حتى تنال امتيازات سياسية وتجارية جديدة لم تكن لها من قبل. وكانت القوانين العثمانية لا تطبق على الأجانب النازلين في الامبراطورية العثمانية» (٣).

(١) فلسفة التاريخ العثماني ص ٨٨ محمد جميل بيهيم. شركة فرج الله للطبعات. بيروت، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

(٢) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٤٣.

(٣) التبشير والاستعمار ص ١٣٢ د. مصطفى الخالدي ود. عمر فروخ. منشورات المكتبة العصرية. بيروت. ١٩٨٣م.

وكان أحد هؤلاء الأجانب أو المحميين يتخطي القوانين ويخالف مبادئ الإنسانية فإذا تعرض له متعرض شمع بأنفه وقال : «أنا أجنبي» أو «أنا حماية أجنبية» روى «عبد الله المشنوق» شيئاً من هذا قال : «من ذلك حادثة شهادتها بأم عيني - دهست سيارة يقودها رجل أجنبي طفلاً في بيروت فأمر الشرطي السائق بالوقوف فرفض قائلاً بلغته الأجنبية : القنصلية ، لا شأن لي معك. وتابع (السائق) طريقه تاركاً الطفل المسكين يعاني سكرات الموت» (١).

«وعندما قام الباشا التركي بإغلاق حانة للخمور لرجل يوناني عام ١٨٥٦م احتج القنصل اليوناني على ذلك ثم فتحها ؛ لأن صاحبها يتمتع بحماية دولة مسيحية .... وكذلك كانت الخمر تشحن من انكلترا إلى الامبراطورية العثمانية لتفتك بالشعوب العثمانية» (٢).

وعندما وقعت أحداث الستين المشهورة ١٢٧٦هـ - ١٨٦٠م (٣) ، كان من أسبابها ما تمتع به النصارى من نفوذ في ظل تلك الامتيازات الأجنبية ، يصور ذلك لنا «الحسيبي» أحد شهود العيان من المسلمين لتلك الأحداث فيقول :

«إن نصارى الشام طالبوا برفع الجزية والخراج وما زالوا بالدولة العلية حتى استجابات ، وصار الفرنج يتدخلون في شئون سورية ، ويقولون للنصارى بأنه موجب التنظيمات الخيرة [إصلاحات ١٨٣٩م - ١٨٧٦م] الإدارية والتشريعية ، المسلم والنصراني واحد ، كلهم مخالفين لله وليس هناك ما يمنع النصارى أن يلبسوا مثل ما يلبس المسلمون ، وأدى هذا إلى شطط كبير بين النصارى ، ومن ثم صار إذا تشاجر نصراني مع مسلم مثلاً يقول له المسلم يقول النصراني وأزود ، وإذا تشاكوا إلى الحكومة تأخذ بيد النصراني ، حيث كل واحد من طائفة النصارى له أقارب داخل أحدهم تحت حماية أحد الأجانب ويعد من رعيته وكان أكثرهم تحت الحماية الفرنسية ، حتى أن كل من له شكوى على واحد من المسلمين يحولها إلى واحد من الرعايا الأجانب ، وإذا ما حدثت مشاجرة مع أحد النصارى ، كائنًا من كان المتشاجر من المسلمين يقول النصراني : أنا من رعايا الدولة الفلانية ، مع أن الحال

(١) المصدر السابق ص ١٢٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٩٩.

(٣) سميت بأحداث الستين لأنها وقعت سنة ١٨٦٠م. وتعود أسبابها في الحقيقة إلى ما كان يتمتع به النصارى من امتيازات في ظل الدول الأوروبية الكبرى. وبدأت بنزاع بين النصارى والدروز في جبل لبنان ، ثم شملت أجزاء أخرى ، واشترك فيها المسلمون مع الدروز ضد النصارى . ووقعت بعض مذابح من كلا الفريقين ، ولكنها زادت في جانب النصارى. وبالغت الدول الغربية فيها ، وطوقت أساطيل فرنسا الساحل اللبناني. واستقلت الواقعة بعد أن ضخمت في الضغط على الدولة العثمانية التي قامت بعدة إجراءات نتيجة لذلك. منها إعدام والي الشام متهمه بإياه بالتساهل حيال تلك الفتنة ، وإعدام بعض العلماء والتجار ، ونفت فريقاً كبيراً منهم.

ليس ذلك بل يكون أحد أقاربه أو أحبائه هو حاميه ، واعتاد كل قنصل أن يرسل مندوبه «القواص» إلى السجن لخراج من تثبت عليه جناية من النصارى بحجة أنه سيسجنه في بيته ، مع أن ذلك كذب. وإذا كان الحق على المسلم يطلب النصرائي «شرفية» ويحبس المسلم أكثر مما أثبتت عليه جنايته ، فلو قضى القانون أن يحبس عشرة أيام يحبس عشرين ..... واستمر هذا الحال نحو من سبع سنين أو أكثر.

ثم يتحدث عن نصارى زحلة فيقول : وازداد شغب نصارى زحلة ، وظهر منهم البغي على كافة الملل من المسلمين وغيرهم ، حتى أنه لو وجد مسلم داخل إلى زحلة راكب يحاوله عن الدابة غصباً وإذا لم يتحول يرمونه عن ظهر الدابة إلى الأرض ويسبوا نبيه ، وكان من جملة بغيهم تسميتهم لكلاهم على أسماء الأنبياء والصحابة ، وكثيراً ما حدث أن أحد المسلمين مار بزحلة ، وقد علم أهلها باسمه : عمر أو علي أو غيره ، فينادونه وعندما يلتفت الرجل يقولون له : لسنا نناديك بل نصرخ إلى الكلب (١).

وهذه الامتيازات السياسية التي منحتها الدولة العثمانية أصبحت «مشاعاً» للجميع في بلادها وتعدت حد الحقوق الدولية إلى التدخل في شؤون السلطة الخارجية حتى أفضى هذا التدخل إلى تقييد حريتها. ويكفي للتدليل على ذلك الإشارة إلى الحد من حرية تركيا (٢) في ناحية وضع الرسوم الجمركية وتوجيهها في هذا توجيهاً مضرراً بمصالحها. فالعاهدة التي عقدتها مع فرنسا ١٨٣٨م حتمت عليها أن لا تتقاضى عن البضائع الداخلية لجماركها إلا خمسة في المائة بينما حددت الرسوم على صادراتها ١٢٪. وهذا ما حدا بكامل باشا الصدر الأعظم خلال حرب البلقان أن يقول : «إن

---

(١) بلاد الشام في القرن التاسع عشر. ص ٢٨٥ - ٢٨٦. من مذكرات محمد أبو السعود الحسبي الدمشقي وقد أثبتنا النص كما هو في الأصل ، بصرف النظر عن ركافة الأسلوب ، والصيغ العامة الواردة فيه.

ومما يذكر أن اليهود في بلاد الشام كانوا أداة السياسة البريطانية القائمة على تعميق وتحريك الفتن الطائفية ، وهم الذين لعبوا دوراً بارزاً في فتن ١٨٦٠م ، وزأوا من حديثها ، وهذا ما تؤكد الوثائق المعاصرة وتقارير القناصل الأجانب ، فقامت الدولة العثمانية وقتذاك بالقبض على بعض منهم ، بعد أن علمت دورهم في هذه الفتن ، وأكد هذا الدور كل فئات الشعب من المسلمين والمسيحيين من أهل الشام ، لا سيما في مدينة دمشق ، وطلب أعيان اليهود حماية بريطانيا التي سارعت إلى تلبية طلبهم . وقد استطاع التدخل البريطاني أن ينهي هذه الأزمة لصالح اليهود ، حيث خرج من قبض عليه سوى اسرائيلي واحد لتراكم الشكوى عليه وعدم تقديم الشهود لتبرئته.

ص ٥٥ موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية . حسان علي حلاق ١٩٧٨م جامعة بيروت العربية.

(٢) هذه التسمية (تركيا) من المصطلحات الواردة من أوربا وهي بمعنى الدولة العثمانية. ولم تأخذ طابعاً رسمياً إلا عام ١٩٢٣م حين أعلن قيام النظام الجمهوري في تركيا وإلغاء الخلافة على يد مصطفى كمال أتاترك. واستخدمت هذه التسمية لإبعاد الشعب التركي عن الخط الإسلامي ونبذ تقاليدها.

انظر تفصيل ذلك في الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١١/٨ - ١٣.



تركيا هي الدولة الوحيدة التي ليس لها حرية التصرف بأموالها والسيطرة على دخلها ، حتى إن كل قرش من مواردها لا تحصل عليه إلا بعد صدور السماح من الدول» . (١) .

«وكانت هذه الامتيازات عقبة كؤوداً أمام الدولة حالت دون قيامها بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستنباط موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم؛ ولذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة مواثيق مذلة للعثمانيين حتى سقوط دولتهم عقب الحرب العالمية الأولى (٢) .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ولكنه تجاوز ذلك «الى أن الدول الأوربية تجاوزت هذه الحدود وتعدتها إلى تقرير حقوق مكتسبة في السلطنة ليس لها أساس في المعاهدات من ذلك البرد الأجنبية التي ما وسع السلطان «عبد الحميد الثاني» إلا أن يعرب عن أسفه لوجودها حيث قال في مذكراته : «أما السبب الذي أدى إلى إنشاء دور البرد الأجنبية في تركيا فهو أن أسلافي على العرش العثماني سمحوا بدون اكتراث وبنية حسنة ، لرسل السفراء الأوربيين بحمل رسائل خصوصية ، وقد انتقلت هذه العادة على ممر الأيام إلى نظام بريد أجنبي واسع ، كما هو اليوم ، وخسرت تركيا بهذه الطريقة أموالاً طائلة .....

إن بلادنا هي البلاد الوحيدة الصابرة على هذا الضيم . فللنمسا في المملكة ثلاثون شعبة بريد ، ولروسيا أربع وعشرون ، ولفرنسا عشرون ، ولإيطاليا ثمانى ، ولألمانيا خمس ، ولانكلترا أربع ، والهند اثنتان» (٣) . وللعلم فإن خسارة الأموال العظيمة ليست وحدها هي الثمرة المرة لتلك البرد الأجنبية ، إذا أخذنا بعين الاعتبار أنها غدت أوكاراً للجاسوسية ومقرات للتآمر على الدولة التي هي في مأمن منها . وقد بلغ عدد القناصل في «حلب» وحدها نحو ١٥٠٠ رجل «والسبب في ذلك أن الدولة سمحت لكل سفير في «استانبول» ولكل قنصل خارجها بشخص وترجمان استثنته من جميع التكاليف الأميرية فانفتح بسبب ذلك باب لمن أراد الدخول في الترجمانية» (٤) .

«والخلاصة فإن هذه الامتيازات الأجنبية المختلفة جعلت تركيا مستعمرة ، ولكنها ليست مستعمرة لدولة واحدة بل للدول القوية كافة ، ولا أدل على ذلك من قول «رينه بينون» الفرنسي حين أعلن صراحة (لا توجد في العالم بلاد كالمملكة العثمانية يجد فيها الغرباء ، ولا سيما الفرنسيون ، حرية العمل وثمرات الجد ..... وإن الافرنسيين لم يستعملوا رؤوس أموالهم في بلد آخر حتى ولا في مستعمراتهم مثلما استعملوها في تركيا للاستثمار ، وكانت تلك الامتيازات وبالأعلى السلطنة في

(١) «فلسفة التاريخ العثماني» ص ٩٥ .

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٧٥٠/٢ .

(٣) «فلسفة التاريخ العثماني» ص ٩٦ .

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٣١١ .

كل ناحية. ويكفي أنها جعلت الشعب العثماني غريباً في وطنه ، بينما أصبح الغرباء فيه يمشون تيهاً واختيلاً ، لا يطالهم القانون بل هم يحمون من يشاؤون من القانون»<sup>(١)</sup>.

وقد تمادى الضعف السياسي بالدولة العثمانية، وأخذ المستعمرون يتآمرون فيما بينهم لاقتسام تركة الرجل المريض الذي بات يحتضر بفعل الضربات المتتالية إلى جسده العليل. «هذا المرض الذي انتاب السلطان العثماني إنما هو تعبير دبلوماسي قصد به الضعف السياسي والعسكري بعد أن بلغا بالدولة حد الاضمحلال والتدهور في القرن التاسع عشر. حقيقة كان الجانب من الضعف الذي أصاب الدولة يرجع إليها .....

ولكن كانت الدول الأوربية الكبرى هي المسؤولة عن جانب كبير من ذلك الضعف الذي ألم بالدولة، أخذت روسيا والنمسا أول الأمر بسياسة التوسع الإقليمي على حساب ممتلكات الدولة العثمانية في وسط أوروبا وفي حوض الدانوب وعلى حدوده وعلى سواحل البحر الأسود وشبه جزيرة البلقان وتغلغت روسيا في القرم وأرمينيا وابتلعت معظم آسيا الوسطى والقوقاز. وأصبحت هاتان الدولتان في حالة حرب لم تكد تنقطع مع الدولة العثمانية حتى استنفدت قوة الدولة وحيويتها ، ولم تعطياها قسطاً طويلاً من الراحة لالتقاط أنفاسها أو لاستعادة حيويتها.

ثم انضمت فرنسا إلى ركبهما فاحتلت الجزائر ثم وضعت تونس تحت حمايتها. ونهجت بريطانيا هذا النهج فاحتلت جزيرة قبرص ثم مصر بما فيها قناة السويس. واحتلت إيطاليا جزر الدوديكانيز وولايتي برقة وطرابلس. وهكذا اتبعت روسيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا سياسة عدوانية تجاه الدولة استهدفت تمزيقها وتوزيع ممتلكاتها أسلاباً فيما بينها»<sup>(٢)</sup> حتى لقد وصل الأمر إلى إصدار مائه مشروع لتقسيم الدولة العثمانية<sup>(٣)</sup>.

وفي خضم هذه الأحداث الهائلة ، ووسط هذه الظروف الصعبة ارتقى السلطان «عبد الحميد الثاني» عرش الدولة عام ١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م ، وشمس الدولة تأذن بالأفول ، فحاول بما أوتي من حنكة وسياسة ووعي أن يبقي على ذلك الكيان المتداعي ، ودعا إلى فكرة الجامعة الإسلامية باعتباره خليفة المسلمين ، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير ولكن الانحرافات الدينية كانت تتسع دائرتها والضعف يزداد بالدولة وضغوط الدول الأوربية تشتد ، وكان ذلك جديراً بأن يجعل من الجهود الكثيرة التي بذلها السلطان «عبد الحميد» ضعيفة التأثير أو عديمة الجدوى.

(١) المصدر السابق ص ٩٦.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها ٨٣٢/٢.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ٣/٣١٧ لوثروب ستودارد. ترجمة عجاج نويهض. بتعليق الأمير شكيب أرسلان ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٣م.

فإن حجم تلك الانحرافات وثقلها كانت أكبر بكثير من الجهود التي بذلت في سبيل الإبقاء على الكيان المتداعي للدولة خصوصاً وقد كان كثير من تلك الجهود المبذولة مشوبة ببعض هذه الانحرافات ومتأثرة بها .

«وقد أفاد «عبد الحميد» من نزعتة الصوفية بدون شك فاستقطب «الدرأويش» وتقرب إلى العامة والبسطاء كما أكرم العلماء وشيوخ الطرق الصوفية ، وقرب النابغين من رجالات هذه الفرق . وكان العداء بين «عبد الحميد» والدعوة السلفية بسبب من ضراوتها في الهجوم على الطرق الصوفية» (١).

«كما يبدو أن السلطان «عبد الحميد الثاني» وجد في النظرة الصوفية الاشرافية ما يحقق حاجة الدولة العثمانية المتداعية في التغاف الرعية حول الخليفة باعتباره «ظل الله في الأرض» تعزيزاً للجامعة الإسلامية» (٢).

فتشجيع «عبد الحميد» ودولته للتصوف ورجال الطرق والالتكال عليهم في مقاومة رياح التغريب والاستعمار واتخاذ ذلك أشرة لإنقاذ الدولة من الغرق الوشيك ، لم يأخذ الدولة إلى بر الأمان ولم يتداركها من السقوط ، وإن كان قد تأخر السقوط زمناً ، ولم تجد حنكة السلطان «عبد الحميد» ودهاؤه في القضاء على الضعف السياسي الذي بلغ منتهاه ، وإنما كان قصارى جهوده العمل على تفادي مزيد من الضعف في وقت كانت الضغوط والكوارث التي تعرضت لها الدولة تؤكد باستشراء ذلك الضعف وتفاقمه وحتى تتضح الصورة نسوق واقعة مزرية تمثل فيها الضعف السياسي الذي ورثه «عبد الحميد» .

وذلك حين ولي السلطان «عبد الحميد» «أنيس باشا» على «حلب» سنة ١٣١٨ هـ «ومضى على قدميه إلى «حلب» عدة أيام ، ولم تزره قناصل الدول ، ثم شاع عنهم أنهم يطلبون من السلطان تبديله ، وأنهم لا يعترفون بولايته على «حلب» ، زاعمين أنه هو الذي أغرى الأمة في ولاية ديار بكر حينما كان والياً عليها - بالقيام على الأرمن وقتلهم ، ولما أصر القناصل على عدم الاعتراف بولايته على «حلب» ، ورد إليه أمر مرموز بأن يبقى مختبئاً في منزله لا يظهر إلى أحد !! ، حتى يأتيه أمر آخر يوضح له ما يجب عليه عمله . فبقي هذا الوالي المسكين مختبئاً في منزله كالمحبوس مدة شهرين أو أكثر لا يظهر لأحد ، وقام بأمور الولاية بدله «علي محسن باشا» القائد العام على «حلب» .... ثم ورد له الأمر بالظهور ومباشرة العمل» (٣).

(١) السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية ص ١٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٣) نهر الذهب في تاريخ حلب ٤٥٣/٣ وكان ظهوره بعد أن استرضى السلطان سفراء الدول!

«ومع بداية القرن العشرين الميلادي انتشرت جمعيات سرية كثيرة ، وخاصة في سالونيك باسم الوطن ، والحرية ، تتعاون مع جمعية الاتحاد والترقي ، لمعارضة الحكومة العثمانية ، وتمكنت هذه الجمعيات أخيراً من الثورة سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م وإسقاط السلطان «عبد الحميد» سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م ، وكان «قره صو» اليهودي واحداً من الذين اشتركوا في خلعه ، وقدم له قرار العزل» (١).

ويعتبر سقوط السلطان «عبد الحميد» هو السقوط الحقيقي للدولة العثمانية. وبعد أن تم إسقاط «عبد الحميد» على أيدي الاتحاديين من يهود الدونمة والمستغربين سارعوا بزج الدولة المتداعية في أتون الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣ - ١٣٣٧هـ / ١٩١٤ - ١٩١٨م) إلى جانب دول الوسط (ألمانيا والنمسا) ، في حين تمكن الانجليز (بمراسلات الحسين مكماهون) من جر العرب إلى جانب الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا) فسادت فكرة القومية العربية ووقع الصدام بين العرب والترك. وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب ، واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها ، ووقعت الأستانة تحت سيطرة الانجليز ، وأصبح الخليفة كالأسير فيها (٢).

وتبع خلع السلطان «عبد الحميد» وقيام جمعية الاتحاد والترقي في الحكم اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامي في معاهدة «سايكس بيكو» سنة ١٣٣٤هـ / ١٩١٦م ، وصدر وعد بلفور البريطاني عام ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م القاضي بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود.

وفي عام ١٣٤١هـ / ١٩٢٣م أعلن عن قيام الجمهورية في تركيا وانتخب «مصطفى كمال» أول رئيس لها وقصل بذلك بين السلطة والخلافة ، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتاً بالخلافة فاختر «عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خليفة» ، بدلاً من «محمد السادس» الذي غادر البلاد على بارجة بريطانية إلى مالطة ، ولم يمارس السلطان «عبد المجيد» أي سلطات للحكم.

وفي عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م ألغيت الخلافة ، وأخرج السلطان «عبد المجيد» من البلاد وأعلن الدستور العلماني في تركيا ، وبدأ حكم «كمال أتاتورك» رئيساً للجمهورية التركية رسمياً وسرعان ما قام بتنحية الشريعة الإسلامية نهائياً وألغى المحاكم الشرعية ، والتقويم الهجري وجعل العطلة الرسمية للدولة يوم الأحد بدلاً من يوم الجمعة ، وحرم الاحتفال بعيد الفطر والأضحى ، واستبدل الأحرف اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأحرف العربية ، وألغى الحجاب وأمر بالسفور ، وألغى قوامة الرجل ، وأمر أن يكون الأذان باللغة التركية ومنع الحج (٣).

(١) حاضرم العالم الإسلامي ص ١١٩ د. جميل المصري، دار أم القرى، عمان، الأردن، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٣.

(٣) المصدر السابق ص ١٢٣ - ١٣٠.

وهكذا فقد كان خلع السلطان «عبد الحميد» وإلغاء ما كان يسمى بالخلافة أبرز صور الضعف السياسي الذي غشي العالم الاسلامي.

وقد كان أعداء الإسلام يعملون على إسقاط الدولة العثمانية لتحقيق ما يلي :

أولاً : تمزيق الدولة العثمانية التي تمثل قوة إسلامية كبرى وتجدها في مسلمي الهند وأندونيسيا ومختلف أنحاء العالم الاسلامي صدى وتأيداً .

ثانياً : السيطرة على الأجزاء العربية من الدولة ووضعها تحت سلطان الاحتلال البريطاني والفرنسي.

ثالثاً : إقامة إسرائيل في فلسطين قلب العالم الاسلامي.

«ومن هنا فقد كانت خطة القضاء على الدولة العثمانية هدفاً أساسياً للقوى الاستعمارية والأقليات المختلفة الموالية للنفوذ الاستعماري وهدفاً أساسياً أيضاً للحركة الصهيونية الوليدة...»<sup>(١)</sup>.

وبعد أن قضى على الدولة العثمانية التي عاشت قروناً تلم شعث المسلمين وتوحد بينهم على كثرة الانحرافات التي وقعت فيها ازداد الضعف بالأمه ، وتفككت أجزاؤها ، وطمع فيها الأعداء أكثر من ذي قبل ، ونجحوا نجاحاً عظيماً في تقطيع أوصالها والتهاهما ، هذا ويعتبر الاستعمار الذي بدأ قبل نهاية الدولة العثمانية وكان من أسباب ضعفها واستمر كذلك بعد سقوطها من أبرز صور الضعف السياسي ، ولكننا نرجئ الحديث عنه إلى مبحث قادم إن شاء الله تعالى.

ويسبب دعاوى الوطنية والقومية التي أفرزها الغزو الفكري زاد التفرق واشتد الضعف ، حيث أضحى كل جزء يسعى إلى الاستقلال بنفسه على حساب الجزء الآخر. لقد «ظلت الصليبية الصهيونية تتآمر على الدولة العثمانية حتى قضت عليها في النهاية وأسقطتها. وفتت العالم الإسلامي إلى دويلات صغيرة هزيلة ضعيفة ، تتصارع فيما بينها وتتشاحن بما يحقق مصالح الأعداء دائماً ، ويحقق لهم السيطرة على مقدرات المسلمين»<sup>(٢)</sup>.

وكانت النتيجة لهذا الضعف هي «وقوع الكثير من الدول الإسلامية إن لم نقل كلها في براثن أعداء الإسلام يتحكمون في مقدراتها ويرسمون سياسياتها ويخططون لها ويوجهون قادتها بما ينبغي أن يأتوه أو يذروه عن طريق القوة والتهديد أحياناً وعن طريق الخداع باسم الاستشارة

(١) موسوعة مقدمات العلوم والمناهج - عالم الإسلام المعاصر. ص ٢٠ أنور الجندي. توزيع دار الانتصار - مطبعة التقدم . القاهرة ١٩٧٧م

(٢) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ١٨٣ . الشيخ محمد قطب. دار الوطن للنشر. الرياض. الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

والإفادة من الخبرات أحياناً أخرى وعن طريق استسلام القادة وخنوعهم الذليل لأولئك الأعداء بل وإعجابهم بهم وسيرهم في ركابهم والنظر إليهم بإكبار وإجلال .... إن واقع كثير من المسلمين - حكاماً ومحكومين - المناقض لصفة محمد ﷺ والذين معه هو في حد ذاته مظهر من مظاهر الانهزام السياسي المريع»<sup>(١)</sup>.

«هذا وتتصف معظم الدول الإسلامية الحالية بالتبعية السياسية في مجال الحكم والاقتصاد والفكر ، وهذا ما يجعل أوضاعها غير مستقرة وعرضة لأطماع المعسكر الشرقي والغربي على حد سواء»<sup>(٢)</sup>.

وفي ظل الأوضاع السياسية السيئة في العالم الإسلامي أمكن للغرب أن يبسط نظريته السياسية عليه ، وجعل الناس يتطلعون إلى أنمطة الحياة السياسية في الغرب ، بسبب تردي الجانب السياسي عند المسلمين.

أما بالنسبة للضعف الحربي فقد كان مواكباً للضعف السياسي وسبباً من أسبابه. لقد كان الضعف الحربي ولا شك نتيجة حتمية للجمود الذي أصاب العلوم الإسلامية وللانحرافات التي وقعت في حياة الأمة .

فبينما كانت أوروبا تتقدم في المضمار العلمي والحربي بخطوات واسعة وسريعة كان المسلمون يغطون في سبات عميق ، ماكثين على ما هم عليه من قوة حربية غير متيقظين لحركة التطور من حولهم وفي الدولة العثمانية كانت الفياق الانكشارية محور قوة الدولة، وبهذه الفياق استطاعت الدولة أن توسع حدودها بسرعة وتتوغل في البلدان الأوربية<sup>(٣)</sup> ولكنها مع الزمن تعاضمت نفوذها وتزايدت ضرورها بعد أن أصابها الخلل ودب إليها الإنحراف ، يقول «د. عبد العزيز الشناوي» عن الانكشارية «كانوا يزجون بأنفسهم في السياسة العليا للدولة ، وهي مسائل ليست من اختصاصاتهم . كانوا يطالبون بخلع السلطان القائم بالحكم بمقولة أنه ليس له نشاط حربي ، ويتدخلون في اختيار السلطان الجديد. ويأخذون عطايا يطلق عليها البخشيش - أي البخشيش - كلما ارتقى عرش الدولة سلطان جديد ، بحيث أصبحت هذه العطايا تقليداً راسخاً لا يستطيع سلطان مهما أوتى من قوة أو عزيمة أن يتجاهلها وإلا تعرض للمهانة على أيديهم ..... وامتدت ضرور الانكشارية في أوقات السلم إلى

---

(١) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ١٠٠ عبد الله بن حمد الشبابة . دار طبية للنشر. الرياض. طبعة ١٤٠٩هـ . ١٩٨٩م.

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٢٩ د. جميل محمد المصري.

(٣) لمزيد من المعرفة لهذه الطائفة انظر : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٤٧١/١ وما بعدها.

المدنيين الوادعين سواء في عاصمة الدولة أو في عواصم الولايات ، فمارسوا نشاطاً إجرامياً في السلب والنهب. كانوا يعمدون إلى إحراق أحد أحياء مدينة ييغون نهبها ، فإذا اشتعلت النيران وارتفعت ألسنة اللهب في عنان السماء انطلق الإنكشارية ينهبون الأحياء الأخرى في المدينة. فكانوا يقتحمون البيوت ، ويهتكون الأعراض ، ويهاجمون المحلات التجارية» (١).

وكان قد بلغ من نفوذهم أنهم شاركوا في عزل السلطان «أبي يزيد الثاني» ، وأجبروا السلطان «سليم الأول» على إنهاء الحرب في فارس مع الدولة الصفوية بعد أن حقق العثمانيون انتصارات كبيرة. ووصل بهم الأمر إلى عزل السلطان «عثمان الثاني» ثم إعدامه ، وأقدموا على قتل الصدر الأعظم إبان حكم السلطان «مراد الرابع».

ثم قاموا بعزل السلطان «إبراهيم الأول» وقتلوه خنقاً ، وكذلك قتلوا «الصدر الأعظم» وسبوا زوجاته أيام السلطان «سليمان الثاني» ، وطالبوا السلطان «أحمد الثالث» بقتل «الصدر الأعظم» فاستجاب لهم مرغماً ، ولما حاول السلطان «سليم الثالث» أن ينشئ النظام العسكري الجديد استطاع الإنكشارية أن يعزلوه بعد أن أجبروه على إلغاء النظام الجديد ، ونصبوا السلطان «مصطفى الرابع» عام ١٨٠٧م (٢).

وقد حاول سلاطين بني عثمان أن يقوموا بإدخال إصلاحات عديدة للجيش عامة ولفيالق الإنكشارية خاصة ، ولكنها جميعها منيت بالفشل ، لتصلب الإنكشارية ومعارضتهم الشديدة لهذه الإصلاحات ومن هؤلاء السلطان محمود الثاني الذي تمكن من القضاء على الإنكشارية فيما بعد (٣).

«وقرر «محمود الثاني» أنه لا فائدة مما يحاول تنفيذه من إصلاح وأن عليه أن يوجه ضربة قوية للإنكشارية ، لكي ينهى كل متاعبه معهم. وفي ليلة ١٣ - ١٤ يونيو ١٨٢٦م قام الإنكشارية بتمرد ، للاحتجاج على مشروع الإصلاح الجديد ، وقلبوا أواني الحساء ، وكانت تلك علامة التمرد والثورة ، التي اشتعلوا بها دائماً عند غضبهم من شيء ، أو احتجاجهم على تصرف السلطان ، أو الحكومة ، على أن «محمود الثاني» لم يفرغ من ثورتهم ، وأمر «حسين الأسود» بعبور البسفور ، بقواته الموالية للسلطان ، وعبر «حسين الأسود» بقوات كبيرة إلى القسطنطينية ، وهاجم الإنكشارية ، بمنتهى القوة والعنف ، وحطم بمدافعه القوية ثكناتهم عليهم ، وهم معزولون داخلها ، وفي خلال ساعات قليلة كان قد تم القضاء على أية مقاومة لهم» (٤).

(١) المصدر السابق ٤٩٤/١ - ٤٩٩.

(٢) المصدر السابق ٥٠٥/١ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٩.

(٣) انظر : حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني .

(٤) الدولة العثمانية والمسألة الشرقية د. محمد كمال دسوقي. دار الثقافة. القاهرة ١٩٧٦م.

وفي اعتقادي أن الأمور الحربية كانت بحاجة ماسة إلى الإصلاح ، ولكن ليس على الطريقة الغربية وإدخال العادات والنظم الحربية كما فعل السلطان «محمود الثاني» الذي ألغى بالقوة الفياقق الإنكشارية وأشاد به جمهور المؤرخين على هذا الفعل ، وسلك طريقاً تغريبياً في إصلاحاته الكثيرة التي قام بها وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد بيان لذلك عند حديثنا عن استيراد المبادئ والنظم.

لقد كان للخطوات التغريبية التي قام بها السلطان العثماني «محمود الثاني»، ومهد لها بالقضاء على ركيزة عظيمة من ركائز الجيش العثماني وهي الانكشارية آثار عميقة مما جعل بعض الباحثين يقرر «بأن انتهاء الانكشارية كان انتهاء للمجد الحربي للدولة العثمانية»<sup>(١)</sup>.

«ولعل الهزائم المتتالية هي التي أوجت إلى «دسترلكر» أن يقرر أن القضاء على الانكشارية كانت بداية النهاية للدولة العثمانية»<sup>(٢)</sup>.

ونتج عن الضعف الحربي نتائج خطيرة حيث أصبحت الدولة العثمانية تخضع خضوعاً كاملاً لأعدائها ، وتتنازل عن بعض أجزائها ثمناً لإجراء صفقة عسكرية ، كيوم تنازلت عن جزيرة قبرص لبريطانيا مقابل أخذها لمعونة عسكرية عام ١٨٧٧ م<sup>(٣)</sup>.

يقول الشيخ «أبو الحسن الندوي» :

«ولم يكن انحطاط المسلمين في العلوم النظرية والحكمية والمدنية فحسب بل كان هذا الانحطاط عاماً وشاملاً ، حتى تخلفوا عن أوربا في صناعة الحرب التي كان التركي في الزمن الأخير ابن بجدتها وأبا عذرتها ، قد أقر بفضلهم وتبريزهم العالم ، ولكن سبقتهم أوربا باختراعها وقوة إبداعها وحسن تنظيمها حتى هزمت الجيوش العثمانية هزيمة منكرة سنة ١٧٧٤ م»<sup>(٤)</sup>.

ومع ما حدث في تركيا من إصلاحات ومحاولات للنهوض بالدولة خصوصاً في المجال الحربي إلا أنك إذا قارنت ذلك بما قطعتة أوربا من أشواط في ميدان الرقي والتقدم تجد الفرق هائلاً ، فلم يكن جريهما في الميدان إلا مسابقة بين سلحفاة وأرنب ، إلا أن الأرنب ساهر دائب في عمله ، والسلحفاة قد يغلبها النوم وتغفى إغفاءة»<sup>(٥)</sup>.

(١) حركة الإصلاح العثماني ص ٢٤٩.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢.

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٨٨.

(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ١٧١ أبو الحسن الندوي. دار الأنصار. القاهرة. الطبعة الثانية عشر ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

(٥) المصدر السابق ص ١٧٢.



وكانت هزائم العثمانيين تعود بالدرجة الأولى إلى التخلف الحربي الذي كانوا يعانون منه ، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا متقدمة في المجال العسكري تقدماً أحرزت به النصر في كل المعارك التي خاضتها ضدهم. وفي المجال البحري خاصة كان ضعف البحرية العثمانية سبباً في إنهاء كثير من المعارك لصالح خصومهم.

ولعل الهزيمة البحرية الساحقة التي مني بها العثمانيون في ليبانتوسنة ١٥٧١م في عهد «سليمان القانوني» في أوج التفوق الإسلامي البري ، كانت بداية لتغير موازين القوى بين الشرق والغرب حيث «مرن الغربيون في أساليب الحرب البحرية في حين سكنت الملاحة في الشرق وقلت سفينه وأغلقت ثغوره .. وفهم الغرب ضعف الشرق في هذه الناحية فصار يهاجمه - إذا أراد - من البحار ويحصره في المياه .....»<sup>(١)</sup>.

هذا بالنسبة للدولة العثمانية التي كانت مهيمنة على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي ، ولم تكن بقية أجزاء العالم الإسلامي بمنأى عن ذلك الضعف ، فالمماليك الذين كانوا يحكمون مصر لم يستطع جيشهم الصمود أمام الحملة الفرنسية في معركة «إمبابة» سوى ثلاثة أرباع الساعة<sup>(٢)</sup> بسبب التفوق في التسليح من جانب الفرنسيين.

وكانت «المدافع المركبة في إمبابة وعددها أربعون مدفعاً ، لم تكن مركبة على عجلات بحيث تستطيع التحرك والانتقال تبعاً لتطور القتال ، بل كانت مثبتة على الأرض ، وأن المقاتلين لا يستطيعون التحرك بسهولة ومغادرة الاستحكامات التي كانوا ممتنعين بها<sup>(٣)</sup>». وعندما هجم الفرنسيون على المماليك حاولوا صد هجومهم بإطلاق النار من المدافع المركبة في استحكامات إمبابة ، لكن هذه المدافع كانت من الطراز العتيق فلم تطلق قنابلها إلا مرة واحدة ، ولم يستطع رماتها أن يعيدوا الضرب بها<sup>(٤)</sup>.

وكان جنود المدفعية يحشون المدافع في نصف ساعة ، فكان المدفع يطلق طلقة واحدة كل نصف ساعة<sup>(٥)</sup> وكتب «المسيو مور Mure» قنصل فرنسا في تقريره الذي قدمه سنة ١٧٨٣م إلى الحكومة الفرنسية يرغبها في الحملة على مصر : «إن مرافئ الاسكندرية خالية من القلاع والمدفعية والذخائر ، وليس بها من الجنود سوى الأهليين الذين انتظموا في سلك الفرق العسكرية المنشأة من عهد الفتح

(١) الشرق الإسلامي ص ٤٢.

(٢) عجائب الآثار ١٨٩/٢.

(٣) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ٢٠٩/١.

(٤) المصدر السابق ٢١١/١.

(٥) المصدر السابق ٢٠٤/١.

العثماني ، أما قلعة المنارة فهي في ظاهرها فخمة ، لكنها تكاد تكون خالية من الحامية ومن الذخائر والمدفعية ، والمدافع الباقية لا تصلح للضرب ، ولا تستعمل إلا في أيام الأعياد!!» (١)

وذكر الرحالة الفرنسي «فلي» الذي زار مصر ونشر رحلته عام ١٧٨٧م أنه لا يوجد في المدينة سوى أربع مدافع في حالة صالحة ، وليس بين الحامية التي يبلغ عددها خمسمائة من يمكنه أن يصيب المرمى ، بل جميعهم من العمال العاديين الذين لا يحسنون سوى التدخين (٢).

وفي الجزائر تمكن الأسطول الفرنسي من احتلال الجزائر عام ١٨٣٠م ، وانهارت مقاومة الجزائريين بقيادة «الداي» الذي أعلن الاستسلام بعد أربعة أسابيع من بدء القتال (٣). وكان التفوق في القوة والسلاح هو الذي حدد نتيجة المعركة.

وفي مراكش (المغرب) استطاع جيش فرنسي لا يتجاوز عدده ستة آلاف مقاتل ، أن يهزم الجيش المراكشي البالغ عدده خمسة وستين ألف رجل تحت قيادة ابن السلطان عام ١٨٤٢م وفي وادي إيسلي ، بسبب ضعف السلاح وفقد النظام (٤).

وفي مصر تمكن البريطانيون من هزيمة جيش عرابي ذي القوات المسلحة تسليحاً رديئاً في معركة التل الكبير عام ١٨٨٢م . وترتب على هذه الهزيمة احتلال مصر واستعمارها لمدة تزيد عن نصف قرن (٥). وقبل ذلك تمكن الأسطول الانجليزي من ضرب مدينة الاسكندرية والاستيلاء عليها بسهولة لضعف التحصينات الحربية المدافعة فيها وكانت بعض المدافع منذ عهد «محمد علي» وهي قديمة الصنع (٦).

لقد كان الضعف الحربي والتخلف العسكري الذي أفرزته الانحرافات العقيدية والعلمية سبباً جوهرياً في إلحاق جل الهزائم والنكبات العسكرية بالمسلمين حين لم يأخذوا بقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ [الأنفال ٦٠] فكانوا لقمة سائغة أمام أعدائهم.

(١) المصدر السابق ١/١٦٣.

(٢) الشرق الإسلامي ص ٧٤.

(٣) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٦٢١.

(٤) المصدر السابق ص ٦٢٦.

(٥) المصدر السابق ص ٥٩١.

(٦) انظر : يوم ١١ يولية ١٨٨٢م الأمير عمر طوسون ط ١٣٥٢هـ - ١٩٣٤م.

يوم أن ركن الحكام إلى ملذاتهم ودنياهم وأهملوا أمر الأمة ، وتفشت مظاهر الشرك والبدع والخرافات في حياة المسلمين ، وشغلت أوقاتهم بإحياء الموالد ، وهيمنت الأضرحة والقبور على حياتهم ، وتفاخروا بها ، وتعلقوا بالكرامات والخوارق عن تغيير الواقع وأهملوا العلوم الكونية والأخذ بالأسباب فانتابهم ذلك الضعف السياسي الرهيب ، وغشيتهم ذلك الانحطاط الحربي والعسكري الشديد الذي رأينا منه طرفاً في هذه العجالة الصغيرة.

\* \* \*

## المبحث الثاني : الضعف الاقتصادي

كان لزاماً من سوء الأحوال الدينية عند المسلمين ، وتفاقم الانحرافات العقدية في حياتهم أن يغشى الضعف الاقتصادي حياة الناس ، وأن تتدهور الأوضاع الاقتصادية «نعم لقد كانت هناك أسباب خارجية قوية أسهمت في هذا التخلف ولكنها - وحدها - لا تبرره ولا تفسره. لقد كانت أوروبا الصليبية تسعى - منذ القضاء على البوالة الإسلامية في الأندلس - إلى تطوير العالم الإسلامي ، وإضعافه بكل الوسائل. وكان من بين الوسائل التي اتخذوها السعي الدائب لتحويل التجارة العالمية إلى أيديهم ، وانتزاعها من يد الممالك ، الذين كانوا يمسون بزمامها عن طريق سيطرتهم على البحر الأحمر والبحر الأبيض فتدر عليهم أموالاً طائلة ، وعلى العالم الإسلامي كله كذلك.

ومنذ اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ، الذين كشفوه على هدي الخرائط الإسلامية وبمعاونة بحارة المسلمين بدأوا يتجهون إلى الشرق الأقصى ليستولوا على أرضه وخيراته ، وينقلوها على سفنهم عن طريق رأس الرجاء الصالح فيحرموا منها دولة الممالك ويحرموا منها العالم الإسلامي كله.

وحدث ذلك بالفعل ، وتأثرت اقتصاديات العالم الإسلامي تأثراً بالغاً بما حدث ، ولكن .. هل هذا هو التفسير؟ أو هذا هو التبرير؟<sup>(١)</sup>

لا شك أن ما سبق إirاده كان له دور في تردي الأحوال الاقتصادية وانحطاطها. ولكن الأسباب الحقيقية لم تكن سوى الأحوال الدينية السيئة التي بسطنا شيئاً منها في الباب الأول.

«فسلب التجارة من يد المسلمين ، واستيلاء أوروبا الصليبية عليها ، له أسبابه الكامنة في التخلف العقدي الذي أصاب الأمة في مجموعها ، والتقلص والضمور الذي ترتب عليه في كل اتجاه. فتضاؤل القوة الحربية الذي مكن الأعداء من أجزاء متزايدة من العالم الإسلامي هو ذاته أثر من آثار التخلف العقدي.

ولكن آثار التخلف العقدي في الميدان الاقتصادي الخاص لا تحتاج إلى تأكيد. فلنفرض أن التجارة العالمية قد سلبت من أيدي المسلمين لسبب قاهر لا يقدر على درئه ، فهل تتوقف ثروة العالم الإسلامي على التجارة وحدها في ذلك الحين أو في أي حين؟

(١) واقعنا المعاصر ص ١٨٠.

إن الأرض الإسلامية من المحيط إلى المحيط هي - بقدر الله - أغنى بقعة في الأرض وأكثرها خيرات ، وقد كانت - وما تزال حتى هذه اللحظة - لم تستثمر الاستثمار الكامل الذي يستغل كل مواردها وكل طاقاتها . فإذا ضاع جزء من الثروة لأسباب قاهرة ، فلماذا لم تسع الأمة - في مجموعها - إلى استغلال الثروات الأخرى القابلة للاستغلال ، من زراعة وصناعة ومعادن مذكورة في باطن الأرض<sup>(١)</sup> .

وإن الناظر إلى ما ذكرناه من أحوال دينية سيئة خصوصاً الأحوال العقدية منها ليدرك جيداً أن هذه الأحوال السيئة كان ولا بد أن تتمخض عن آثار خطيرة يكون الضعف الاقتصادي أحدها .

فالصوفية التي أطبقت على العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه ، وسيطرت بعقائدها الباطلة وطقوسها المبتدعة كان لها أكبر الأثر في اتساع هوة الضعف الاقتصادي . وحسبنا أن نعرف أن الشخص القاعد عن العمل والكسب بل عن أي نشاط دنيوي والمتفرغ بالكلية للذكر الصوفي في زاوية أو مسجد أو خلوة أو مغارة كان يرقى في المستوى الذي يرتفع به عن ألسنة النقد والاعتراض ، بل كان ينظر إليه بالإعجاب والإكبار والهيبة ، ويحاط بهالة وقداسة ويكون مثلاً وقدوة يتمناها الكثيرون .

وإن جموع الفقراء والطرقية الذين أسمهوا بشكل عظيم في ارتفاع معدل البطالة ، وانخفاض الانتاج ، كانوا عند الحكام والمحكومين هم أهل الله وخاصته ، يتسابق إلى الإغداق والنفقة عليهم أرباب المال والجاه والثراء .

بل لقد كانت النظرة مشوهة جداً ، فالبطالة التي تحرص كل أمة تريد النهوض على القضاء عليها ، وتعتبر اليوم من المشاكل الاقتصادية المعقدة التي تعاني أكثر الدول في العالم منها وتسعى إلى تخفيفها وإنهائها ، كانت في تلك الفترة التي ندرسها طبيعية ومنسجمة مع الأجواء التي أوجدتها الصوفية بل ومرغوبة في كثير من الأحيان ، حين نجد أن الدولة لم تفكر أبداً في القضاء على البطالة المتمثلة غالباً في جموع الصوفية ، بل إننا نجد العكس من ذلك تماماً ، حين نرى أن هذه الجموع الغفيرة تحظى بكل عون وتشجيع من قبل الدولة ، مما جعل التصوف ينتشر والبطالة تتفشى والضعف الاقتصادي يستشري .

إن «السبب هو التقاعس ، والتواكل ، والضعف العلمي ، ووهن العزائم ، والانصراف عن عمارة الأرض ، والرضى بالفقر على أنه قدر من الله لا ينبغي السعي إلى تغييره خوفاً من الوقوع في خطيئة التمرد على قدر الله»<sup>(٢)</sup> .

(١) المصدر السابق ص ١٨١ .

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٨١ .

وإذا أضفنا إلى ذلك فكرة الإنفاق من الغيب والوصول إلى الحضرة التي تهىء لصاحبها كل ما يسمو إليه ويتمناه من هبات وعطايا ، وكذلك انتشار التسول وذلك «بعد أن استهجنوا السعي وقبحوا العمل ، قائلين إن الشحاذين الذي يطوفون بالأبواب يحملون عن المحسنين ذنوبهم ، فإن هدية الله للمؤمن وقوف السائل على بابه ، وإذا كان التسول مباحاً محبوباً فذلك لأن الدنيا دار فناء ولا قيمة لما تنطوي عليه من لذات والإنسان فيها يشبه المريض الذي حانت ساعته ، فكما أن المريض لا يفكر في هذه المسألة إلا في الحساب العسير الذي ينتظره فكذا العاقل في دنياه لا يفكر في تعليم نفسه أو تحسين معيشته ، وترقية مستوى حياته ؛ لأن ذلك انصراف لأتفه المطالب واهتمام برغبات دنيوية تافهة، والإنسان الذي يعرف مكانته وصلته هو الذي لا يبيت على دينار أبداً ، وحسبه من دنياه التوكل على الله (التوكل) ، وما أخيب التاجر الذي يصرف وقته في تجارته ، والزارع الذي ينفق جهده في زراعته ، والصانع الذي يبذل نشاطه في صناعته ، وما أفشل من سافر منهم طلباً لكسب أو رغبة في مال فإن الرزق في طلب صاحبه دائر ، والمرزوق في طلب رزقه حائر ، ويسكون أحدهما يتحرك الآخر ، فالله يرزق عباده من حيث لا يحتسبون ... والإخلاص في العبادة كفيل باكتساب شتى الهبات والظفر بمختلف المطالب ، وإن العبد ليدخل الخلوة جاهلاً فقيراً ويخرج منها عالماً واسع العلم ، ثرياً طائل الثراء ، قوياً موفور القوة ..»<sup>(١)</sup>.

فليس غريباً بعد ذلك كله أن تتدهور الأوضاع الاقتصادية ، ويقل الإنتاج والاستثمار وهو ما تتادي الصوفية بتقليله بدعوى الزهد في الحياة الدنيا والتفرغ للدار الآخرة. ولا ريب «أن حصر الإنتاج في أضيق نطاق ممكن - وهو نطاق الكفاف - يجعل الدولة كلها تعيش في حالة الكفاف ، ولا يجعل لديها «الفائض» الذي تنفقه في متطلبات «التمكين في الأرض» ، فإذا عاش مجموع الناس عيشة الكفاف ، ولم ينتجوا إلا في حدود الكفاف فكيف للدولة المسلمة أن تعد ما استطاعت من قوة لإرهاب أعداء الله ، تلك القوة التي لا يستمر التمكين في الأرض إلا بها ، إنما يحتاج الأمر إلى الإنتاج الوفير والاستهلاك القليل وهذه هي المعادلة التي يتم بها التمكين في الأرض والمحافظة عليه. أما الإنتاج القليل على قدر الاستهلاك القليل فلا يؤدي إلا إلى فقر مجموع الأمة ، الفقر الذي يؤدي إلى الضعف ، والضعف يحرك شهوة الأعداء الذين ينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض»<sup>(٢)</sup>.

وفي خلال الفترة التي نقوم بدراستها والتي غشي الضعف الإقتصادي فيها العالم الإسلامي نرى كثيراً من المظاهر لذلك الضعف والتي كان من أخطرها مشكلة الديون.

(١) التصوف في مصر إبان العصر العثماني ص ٢١١.

(٢) واقعنا المعاصر ص ١٤٩.

فعندما ارتقى السلطان عبد العزيز عرش السلطنة سنة ١٨٦١م. كان أسلافه على العرش قد خلفوا وراءهم ديناً مقداره ١٥ مليون جنيه استرليني ، وقد بلغ العجز في نفس العام ٤٥٠ مليون غرش ، أي ما يعادل ١٠٣ ملايين فرنك.

وعندما اقترض الباب العالي من بريطانيا في السنة التالية مبلغاً يبلغ ستة ملايين جنيه استرليني ، اضطر ، مقابل ذلك إلى أن يوافق على تعيين مفوض بريطاني مهمته مراقبة الوجوه التي تنفق فيها أموال القرض. وبعد برهة وجيزة ارتضى السلطان تعيين ممثلين ماليين لسائر الدول العظمى ، وبناء على اقتراح الممثلين أنشئ في استنبول ديوان للمحاسبة وبك للدولة<sup>(١)</sup>.

وفي العقد الثامن من القرن التاسع عشر (١٨٧٠ - ١٨٨٠م) ، عانت الإمبراطورية العثمانية أيضاً مصاعب مالية متصلة الحلقات . وإنما بلغت هذه المصاعب أوجها سنة ١٨٧٥م . وعبثاً حاول الباب العالي أن يعقد قرضاً جديداً في باريس وأن يجعل من البنك العثماني جاكياً وخزانة في آن واحد ، في الإمبراطورية كلها . ولو قد استطاع السلطان عبد العزيز أن يوطن نفسه في ذلك الوقت على التضحية بجزء من ثروته الضخمة الخاصة أو اختصار نفقات بلاطه على الأقل إذاً لكان من الميسور تلافي ما هو أسوأ من ذلك جميعاً . ولكن مثل هذه التضحية ما كانت لتنتظر منه ، وهكذا لم يبق أمام الباب العالي إلا أن يعطى إفلاس الدولة . . .

وفي تشرين الأول أعلن الصدر الأعظم أن العجز في ميزانية الدولة سيضطر الباب العالي خلال السنوات الخمس التالية ، إلى أن يدفع نصف قيمة الفائدة نقداً ، والنصف الآخر سندات بفائدة ٥ في المئة ، ولم يستثن من ذلك إلا القرضان الأولان اللذان عقدا بسبب حرب القرم ، واللذان ضمنتهما بريطانيا وفرنسة ، والسندات المالية التي يملكها السلطان وتبلغ قيمتها نحواً من ١٤٤ مليون فرنك . والواقع أن الباب العالي كان قد عقد في العشرين السنة السابقة عشرة قروض ، آخرها ذاك الذي عقد بأبخص ما يمكن من أثمان الأصدار وبفائدة يبلغ معدلها ٩,٥ في المائة<sup>(٢)</sup>.

وقد كان لهذه القروض والديون آثار بعيدة المدى جعلت ممتلكات الدولة نفسها عرضة لأطماع الدول الأوروبية التي كانت تهاجم الدولة وولاياتها لأتفه الأسباب . ولما عجزت الدولة العثمانية مثلاً عن سداد الدين المستحق لـ «أورلاندو وتوبيني وشركاه» الذي بلغ أكثر من نصف مليون ليرة ذهبية ، وبما أن الدائنين المذكورين كانوا من تبعة فرنسا ، أخذت الحكومة الفرنسية تهتم به اهتماماً كبيراً ، وتلح على الباب العالي لتسريع تسويته ، ولكنها عندما رأت استمرار الحكومة في التسويف ، قررت

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٧٤.

(٢) المصدر السابق ص ٥٨٢.

سنة ١٩٠١م- أن تلجأ إلى القوة لتحقيق مطلبها هذا ، فقامت باحتلال جزيرة (مدالي- ميتيلن) ووضعت يدها على جماركها ، استيفاءً لما كان عليها من ديون إلى الشركة المذكورة ، عندئذ سارع الباب العالي إلى تسوية الدين المذكور ، لتخليص الجزيرة من هذا الاحتلال.

غير أن فرنسا أرادت أن تستغل هذا الحادث إلى أقصى حدود الإمكان ، وقدمت إلى الباب العالي قائمة طويلة بالمدارس والمؤسسات الفرنسية التي ظلت بدون رخصة رسمية ، أو تعرضت إلى بعض المشاكل ، وطلبت تسويتها بصورة عاجلة ، وأعلمته بأنها لن تجلو عن الجزيرة قبل تسوية المسائل المذكورة برمتها.

وقد اضطرت الحكومة العثمانية إلى تلبية جميع طلبات فرنسا المتعلقة بتلك المؤسسات <sup>(١)</sup>.

وقد وصل الأمر إلى أن طلبت الدول الأوروبية إخضاع مالية الولايات الثلاث- التي تكون ما يسمونه «ماكدونيا»- إلى مراقبة دولية، ولكن السلطان عبد الحميد امتنع عن ذلك أشد الامتناع. وعندئذ لجأت هذه الدول إلى القوة فأرسلت أسطولاً مشتركاً لاحتلال جزيرة «مدالي» الواقعة مقابل سواحل ازмир ، وعندما رأت عدم تزحزح عبد الحميد عن موقفه ، احتلت جزيرة «ليمنى - ليمنوس»- الواقعة بالقرب من مدخل الداردنيل- أيضاً ، وأظهرت بذلك أنها مصممة على توسيع نطاق الاحتلال ، إلى أن تقبل الحكومة العثمانية «مشروع المراقبة المالية» المعروض عليها. عندئذ اضطر السلطان عبد الحميد إلى الموافقة على ماطلبته منه الدول <sup>(٢)</sup>.

وما إن أشرفت الحرب العالمية الأولى على الظهور عام ١٩١٤م حتى وصلت ديون الدولة العثمانية إلى ٣٩٠٠ مليون فرنك ، كان أغلبها من فرنسا ، وألمانيا ، وبريطانيا <sup>(٣)</sup> وقد «كانت كل دولة من الدول الكبرى تسعى إلى تكثير مؤسساتها الاقتصادية والثقافية في الممالك العثمانية. وكانت تركز معظم جهودها في هذا السبيل في المناطق التي تطمح في امتلاكها في يوم من الأيام . وإن النفوذ الاقتصادي والثقافي الذي اكتسبته بعض الدول بواسطة هذه المؤسسات ، كثيراً ما كان يسبق الاحتلال السياسي والعسكري ، بل يمهد له السبيل» <sup>(٤)</sup>.

وإذا تجاوزنا تركيا واتجهنا نحو مصر التي لجأ حكامها من أسرة «محمد علي» إلى سياسة الاقتراض والتداين والتي كثيراً ما أنفقت تلك القروض في غير الصالح العام- نرى أن أزمة الديون

(١) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٤٨.

(٢) المصدر السابق ص ١٤٩.

(٣) الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ص ١٤٧.

(٤) البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١٤٧.



قد بلغت منتهاها عام ١٨٧٦م عندما وصلت قيمة هذه الديون في عهد الخديوي «إسماعيل» المتوفى سنة ١٣١٢هـ إلى مئة مليون جنيه تقريباً<sup>(١)</sup> ، مما اضطره أن يعلن إفلاسه ويتوقف عن الدفع، بل توقف حتى عن دفع رواتب الموظفين في الدولة ، وقام بمضاعفة الضريبة السنوية على الفلاحين. فقامت كل من بريطانيا وفرنسا بتعيين لجنة (مندوبية للتحقيق في مالية مصر. وفي سنة ١٨٧٨م أكرهت هذه اللجنة الخديوي وأسرتة على التنازل للدولة عن معظم ممتلكاتهم ، وعهد إلى «ولسن» البريطاني بوزارة المالية ، وإلى «دي بلينيير» الفرنسي بوزارة الأشغال العامة ، وهكذا وقعت مصر تحت الوصاية الأجنبية ، ولما عزم الخديوي على تسريح هذين الوزيرين الأجبيين ، تدخلت الدول الأوروبية وأجبرته على التنازل عن العرش لابنه الأكبر «توفيق» ، بعد أن خلع من قبل السلطان<sup>(٢)</sup>.

وعندما احتاج سلطان المغرب إلى الاقتراض من فرنسا عام ١٣٢١هـ للنفقات على الثورات المتلاحقة في بلاده ، وقع الاتفاق على أن يقوم بنك باريس بإقراض حكومة المغرب مبلغ ٦٢٥٠٠٠٠٠ فرنك مقابل رهنة لمداخل موائمه مدة ٣٥ سنة تبتدئ من يوم ١ يوليو سنة ١٩٠٦م وتنتهي ١ يوليو سنة ١٩٤١م بعد أن يكون قد أدى جميع الدين. وقد وقع العقد مندوبون عن الطرفين<sup>(٣)</sup>.

وكانت غالب بلاد المسلمين مسرحاً لتجارة الغرب ، وسوقاً كبيراً لبضائعه ومنتجاته ، وكانت الحكومات في البلاد الإسلامية تمنح الشركات الأجنبية امتيازات اقتصادية كبيرة للتنقيب عن المعادن والبتترول في أراضيها ، وكانت حرية الملاحة أمام السفن الأجنبية أمراً لم يفكر أحد في الاعتراض عليه ، أو محاولة الحد منه.

ولم يكن بمقدور أي حاكم في ذلك الوقت إلا أن يرضخ في خلافه مع دول أوربا مهما كان ذلك الخلاف جائراً من جانب تلك الدول ، نظراً لتداعي الاقتصاد في بلده ، واعتماده على اقتصاد تلك الدول. فعندما نشب خلاف بين «داود باشا» والي العراق (المتوفى سنة ١٢٦٧هـ)<sup>(٤)</sup> والوكيل السياسي البريطاني في «بغداد» المستر «ديتش» ، واضطر الأخير إلى أن يغادر البلاد نهائياً قامت بريطانيا وأوقفت التجارة مع العراق ، مما كبد خزينة «داود باشا» خسائر فادحة ، إذ كانت التجارة الهندية تمثل أهم ممول لخزانة «داود» الذي اضطر إلى أن يوقع على اتفاقية أعادت الأمور إلى ما كانت عليه ، وقيدت «داود» بالفرمانات والمعاهدات المعقودة بين السلطان وبريطانيا. وهذه الاتفاقية

---

(١) يقول عنه الزركلي : كان مسرفاً في الإنفاق على ملاذته وعلى مشروعاته ، ولي مصر وعليها من الدين ثلاثة ملايين جنيه ، واعتزلها وعليها نحو مئة مليون جنيه. الأعلام ٢٠٨/١.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٥٨١.

(٣) أعلام المغرب العربي ٢٣٥/١.

(٤) الأعلام ٣٣١/٢.

تكشف لنا على أن المصالح البريطانية كانت على جانب كبير من الأهمية ، وأن الضغط الاقتصادي البريطاني كان كفيلاً بأن يضطر الوالي إلى الخضوع للمطالب البريطانية<sup>(١)</sup>.

وهكذا نجد في «عهد جمود المسلمين تخلف نظامهم الاقتصادي كتخلفهم في جميع المجالات فكان الفقر والمرض والأمية والجهل متفشياً ، والتواكل باسم القناعة منتشراً ... ولم تتل المصالح العامة شيئاً من الإنفاق ، ومن ذلك إهمال العناية بالري والزراعة<sup>(٢)</sup> ، فكثر الفيضانات ، وأهملت الطرق وشئون الأمن ، فاستغل العيارون واللصوص الفرصة وشاركوا في نهب المحلات التجارية والبيوت ، وقام الأعراب بغارات على الريف ونهبوا المحاصيل وتربصوا بقوافل الحجاج والتجارة ، فعانى المسلمون فقدان الأمن والجوع وانتشرت الأوبئة ، وخاصة بعد أن تغيرت طرق التجارة عن بلاد الإسلام بعد حركة الكشف الجغرافية الأوربية»<sup>(٣)</sup>.

«وفي ظل هذه الأوضاع المتخلفة تمكن الاستعمار الغربي أن ييسط سلطانه على بلاد الإسلام ففرض نظامه الاقتصادي مع فلسفته ونظرياته الاقتصادية ، حتى لم تعد أبواب الرزق لتفتح إلا لمن يختار مبادئ هذا النظام الاقتصادي ، فأكل المسلمون السحت أولاً ، ثم محا من أذهانهم ما كان من تمييز بين الحلال والحرام ..»<sup>(٤)</sup>.

وفي خضم هذه الأحوال الاقتصادية السيئة ومع شيوع النظرة الصوفية المنحرفة إلى المال والاقتصاد كان الكثير من الكفار الموجودين في البلاد الإسلامية يحكمون السيطرة على جل الجوانب الاقتصادية ومجالاتها المختلفة ، فحين شغل المسلمون بما ذكرناه في الباب الأول من شرك وبدع وخرافات ، كان هؤلاء الكفار يعملون بكل وسيلة على إحكام قبضتهم على الاقتصاد والتجارة ، وحسبنا أن نرى أن كثيراً من هؤلاء كانوا يملكون ثروات ضخمة ويتحكمون من خلالها ليس في مصير الشعوب المسلمة فحسب ، بل في مصير الحكومات نفسها ، كما صنع اليهودي «نفثالي» في الجزائر الذي سيطر على البلاد وامتص خيراتها منذ سنة ١٧٧٠ م ، حتى إذا كانت سنة ١٨٠٥ م ثار عليه الإنكشارية فقتلوه مع كثير من اليهود المرابين ..»<sup>(٥)</sup>.

(١) تاريخ العرب الحديث. العراق ١٠٧/١.

(٢) ففي تونس تهادى الإهمال في الزراعة حتى لقد انتهى ثلث الأراضي التونسية الخصبة إلى أن يصبح في أواخر العقد الثامن من القرن التاسع عشر بلقاً . تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٢٩.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٤ د. جميل المصري.

(٤) المصدر السابق ص ٢٤٤.

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٦٢١.

ومع ذلك فإن يهود الجزائر يكادون أن يسيطروا على أزمة الأمور الاقتصادية في البلاد. وقد كان للتجار اليهود هناك دور في مساعدة فرنسا لاحتلال الجزائر<sup>(١)</sup>.

وفي تونس كان النائب بدار المال هو كبير أثرياء اليهود «نسيم بيشي»<sup>(٢)</sup>. واليهود على قلتهم هم المسيطرون على اقتصاديات البلاد وعلى صناعاتها وتجارتها إجمالاً وكان بمقدورهم زمن الحماية أن يشلوا حركة البلاد متى شاءوا وتظهر قدرتهم هذه في أيام أعيادهم حيث تنعدم الحركة في العاصمة. واليهود في تونس كما هي الحال في أكثر بلاد العالم يسيطرون على الصناعات والمهن الحرة وفي مدينة تونس ذاتها هم مالكو أحسن أحيائها<sup>(٣)</sup>.

وفي مصر مثلاً كان الأقباط يكادون أن يسيطروا على المجالات الاقتصادية في البلاد. وكانت مهن المحاسبة والكتابة والصرف تنحصر في أيديهم ، وإن من يقرأ في عجائب الآثار «للجبرتي» مثلاً ليرى أن المسلمين في الشؤون الاقتصادية الخطيرة كانوا عالة على هؤلاء الأقباط الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة.

وحسبك ما ذكره «الجبرتي» عن المعلم «إبراهيم الجوهري» القبطي رئيس كتبة الأقباط في مصر والذي حزن عليه كثيراً أمير المماليك وحاكم البلد «إبراهيم بك» وتأسف على فقدته تأسفاً عظيماً حيث يقول : أنه «أدرك في هذه الدولة بمصر من العظمة ونفاذ الكلمة وعظم الصيت والشهرة مع طول المدة بمصر ما لم يسبق لمثله من أبناء جنسه فيما نعلم ، وأول ظهوره من أيام المعلم «رزق»<sup>(٤)</sup> كاتب «علي بك» الكبير، ولما مات «علي بك» والمعلم «رزق» ظهر أمر المترجم ونما ذكره في أيام «محمد بك»، فلما انقضت أيام «محمد بك» ، وترأس «إبراهيم بك» ، قلده جميع الأمور ، فكان هو المشار إليه في الكليات والجزئيات حتى دفاتر الروزنامة<sup>(٥)</sup> والميري وجميع الإيراد والمنصرف (الصادر) وجميع الكتبة والصيارف من تحت يده وإشارته»<sup>(٦)</sup>.

ومن ثم لا يستغرب بعد هذا من استغلال هؤلاء الكفار لمكانتهم القوية وتوجيه الاقتصاد في خدمة دينهم ونشر باطلهم. فالمعلم «إبراهيم الجوهري» يقول عنه «الجبرتي» «وعمرت في أيامه

(١) الشرق الإسلامي ص ١١٣.

(٢) إتحاف أهل الزمان ص ١٩٢.

(٣) تونس العربية ص ١٨٧.

(٤) كاتب قبطي أيضاً.

(٥) وتعني دفاتر الخراج وضرائب الأطنان. انظر : تاريخ الحركة القومية للرافعي ٢١/٨.

(٦) عجائب الآثار ١٧٢/٢.

الكنائس ودور النصارى وأوقف عليها الأوقاف الجلية والأطيان ورتب لها المرتبات العظيمة والأرزاق الدارة والغلال»<sup>(١)</sup>.

وكذلك كان الحال في تركيا والشام وكثير من بقاع المسلمين. وتؤكد الوثائق أن كثيراً من يهود الدولة العثمانية قد سيطروا على النشاط الاقتصادي بواسطة اشتغالهم بالصيرفة والربا والتجارة الخارجية التي أقاموها بين بلاد الشام ومصر ، وأنهم نتيجة لأموالهم المتكاثرة استطاعوا تعطيل كثير من الجرائد التي كانت تعارض أهدافهم العدوانية<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كان يسيطر الكفار الموجودون بين المسلمين على الاقتصاد والتجارة ، ويخططون لخنق البلاد وإفقارها ، بينما كان المسلمون عن ذلك كله في سبات عميق يعيشون في أجواء موبوءة بالتصوف والخرافات . وإن الدارس لهذه الفترة المظلمة في تاريخ الأمة ليرى من خلال كتب التاريخ والتراجم والأخبار والرحلات مظاهر الضعف الاقتصادي الشديد وذلك في وقوع المجاعات المروعة وغلاء الأسعار غلاءً هائلاً ، وتقلبها بين برهة وأخرى لعدم وجود التوازن الاقتصادي ، وانعدام الكثير من السلع الغذائية الضرورية، وفقدان الأقوات، وانتشار الأوبئة الفتاكة والمرض والجهل والامية وتدنى مستويات المعيشة وشيوع الفقر بشكل منقطع النظير .

ولعل الصورة الآتية التي نقلها عن استانبول عاصمة الدولة العثمانية التي كانت تعاني من فوضى اقتصادية بشكل يكاد يكون مستمراً ، تكشف لنا ولو نوعاً ما عن مدى الضعف الاقتصادي المتغلغل في أحشاء الدولة. يقول المؤرخ التركي أحمد جودت باشا (المتوفى سنة ١٣١٢هـ)<sup>(٣)</sup> متحدثاً عن الوضع الاقتصادي السيئ لمدينة استانبول في السنوات الأولى من حكم السلطان عبد العزيز الذي ارتقى عرش السلطنة عام ١٢٧٦هـ :

«كانت الخزينة في وضع مالي سيء جداً ، ويزداد سوءاً مع مرور الوقت ، وفي أحد الأيام وقبل أن يصل فؤاد باشا إلى استانبول<sup>(٤)</sup> كان الذهب الذي قيمته مائة قرش بالنقود الورقية المسماة بـ«القائمة» قد طفر وأصبح بثلاثمائة قرش ، وفي اليوم التالي تجاوزت الثلاثمائة قرش ، ثم ما إن وصلت القيمة إلى أربعمائة قرش حتى أصبحت هذه الأوراق المالية لا تساوي شيئاً ، وأصبح البقال والخباز والقصاب لا يقبلها ، بينما لم يكن في أيدي الشعب سوى هذه الأوراق المالية ، لذلك فقد بقي

(١) المصدر السابق ١٧٣/٢.

(٢) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ص ٥٥.

(٣) من الوزراء في البلاط العثماني وصاحب «تاريخ جودت» بالتركية اثنا عشر مجلداً. الأعلام ١/١٠٨.

(٤) كان فؤاد باشا في الشام عندما عين صدراً أعظماً، وكان في طريقه إلى استانبول لاستلام منصبه.

الكثيرون جياً ، والذين كانوا يملكون النقد اشتروا به الخبز لثلاثة أو خمسة أيام ، لذا فقد نفذ الخبز ولم يجده الآخرون في السوق. وقد حاول البعض أخذ الخبز بالقوة من أيدي الذي اشتروه بكمية كبيرة ، وظهرت بعض أمارات الفوضى بسبب نهب الخبز في الطرقات ، الأمر الذي دعا الكثيرين لحمل السلاح والعتاد ، واستولى على استامبول جو من الرهبة ، واستولت الحيرة على الجميع...»<sup>(١)</sup>

وإذا كان هذا هو حال العاصمة التي كانت مركزاً رئيسياً للتجارة والاقتصاد ، فكيف بغيرها من الأقاليم والمدن الأخرى!

ولو نظرنا إلى أهم محاور النشاط الاقتصادي وهي : التجارة ، والزراعة ، والصناعة ، لرأينا مدى التخلف الذريع في هذه المجالات ، فالتجارة كانت مسلوية إلى حد كبير من أيدي المسلمين محلياً ودولياً كما مر معنا ، والزراعة أهملت إهمالاً شديداً وقد ساعد على ذلك الاستعمار فيما بعد بتشجيعه لزراعة محاصيل معينة ، كالقطن في مصر والسودان ، والتمر في العراق ، والزيتون في تونس والمغرب ، والمطاط في أندونيسيا وماليزيا ، وزيت النخيل في نيجيريا ، والعنب في الجزائر وغير ذلك<sup>(٢)</sup>. وأساليب الزراعة لم يستحدث فيها أي شيء جديد.

أما بالنسبة للصناعة ، فنجد أنه في حين انفجرت الثورة الصناعية في الغرب وحلت الآلات البخارية محل اليد العاملة ، وانطلقت أوربا في مضمار التقدم الصناعي ، كان المسلمون في مجال الصناعة يعانون تخلفاً مذهلاً ، لا يعرفون من الصناعة سوى بعض الحرف البسيطة ، ويعيشون حياة أسلافهم قبل بضعة قرون دون أي تغيير يذكر ، غير شاعرين بالعالم الذي بدأ يتقدم من حولهم وبالتغيرات التي حدثت في الدول ، وكان لها تأثيرات في نتائج الصراعات فيما بينها وما يعيشه المسلمون اليوم من تخلف في جميع المجالات ، والمجال الاقتصادي واحد منها لهو تخلف مزمن له أسبابه الكامنة في الانحرافات العقيدية والعلمية .

«وبالمعايير الاقتصادية السائدة ، فإن اقتصاد العالم الإسلامي بواقعه الحالي أليم فالدخل القومي في أكثر بلاد العالم الإسلامي يضع الفرد المسلم في أقل من مستوى الأدميين والواقع المشاهد يؤكد لغة الأرقام .. وتزيد الأنظمة الاشتراكية البلاد الإسلامية ضيقاً وضنكاً ، تعيشه في الطواير ، ويقضي فيها نصف يومه بحثاً عن حاجياته وأحياناً ضرورياته .. هذا إن وجد في جيبه

(١) السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده ص ٤٥ ، أورخان محمد علي . دار الوثائق . الكويت . الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٥ د . جميل المصري.

## الثمن أو التكاليف.

والإنتاج القومي هو الآخر سيء. والبلاد الإسلامية تتوزع بين أن تكون مزرعة .. تستجلب منها القوى العالمية موادها الأولية أو أن تكون سوقاً استهلاكياً توزع القوى العالمية فيها سلعها أو تجارتها، وهي بالتالي محرومة من «الصناعات الثقيلة» والإنتاج الكبير. والبلاد التي آتاه الله بسطة في الرزق - وهي قليلة - تمتص أكثر رزقها القوى العالمية بإيداعها رؤوس أموالها في بنوكها ، وتعريضها لتخفيض العملة بين الحين والحين ، ثم بتصدير السلع الكمالية الاستهلاكية والترفيهية التي تمتص ما بقى لدى تلك الدول المختلفة من رأس المال.

وميزان المدفوعات مختل لدى أكثر الدول الإسلامية؛ لأن أكثرها تستورد أكثر مما تصدر»<sup>(١)</sup>.

«إن استقرار الأوضاع الاقتصادية في العالم الإسلامي يجعلنا نقرر وعن يقين أن معظم الدول الإسلامية تعاني من ضعف في تنمية مواردها وقواها الاقتصادية ، وهذا الضعف في التنمية الاقتصادية نرى آثاره فيما يأتي :

### ١ - الديون المتراكمة.

### ٢ - الاعتماد على الغرب في الموارد الغذائية<sup>(٢)</sup>.

أما الديون الخارجية وتراكمها في كثير من الدول الإسلامية فقد عرض الدكتور «صبحي الطويل» بعض الأرقام المذهلة التي تزايدت بصورة هائلة في العقد ١٣٩٠ - ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٠ - ١٩٨٠ م بحيث شكلت في عام ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م أكثر من ٥٠٪ من إجمالي الناتج القومي. والديون في الغالب للدول الكبيرة أو المؤسسات الدولية الخاضعة لها . فيؤثر ذلك في سياسات الدول الفقيرة المدينة الداخلية والخارجية<sup>(٣)</sup>.

وأما بالنسبة للاعتماد على الغرب في الموارد الغذائية وغيرها ، فقد نتج عن ذلك وقوع المزيد من الأزمات الاقتصادية في البلاد الإسلامية ، ورضوخ الكثير من دول العالم الإسلامي وشعوبه للاحتكارات العالمية والمقايضات اليهودية والديون الربوية التي طوقت أغلالها رقاب تلك الدول والشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها<sup>(٤)</sup>.

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٩١. د. علي جريشة. دار المجتمع. جدة. الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

(٢) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٢١. د. محمد عبد القادر هنادي. مكتبة الطالب الجامعي. الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٥٠. د. جميل المصري.

(٤) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ٨٨.

وليس من نافلة القول أن نقول إن العالم الإسلامي في هذا العصر يعيش حالة على العالم النصراني والوثني واليهودي، وأن الاقتصاد الإسلامي مغلول العنق واليدين ومكبل بقيود الاقتصاد العالمي الذي تسيطر عليه القوى الثلاث الكافرة.

ولعل من أبرز ذلك هو «التكدس المريع لأموال المسلمين في البنوك والمصارف الأجنبية نتيجة تخلف العالم الإسلامي في ميدان الاقتصاد وتمثيله دور التابع الذليل لأساطين الاقتصاد العالمي والممسكين بمقوده وزمامه، وعجزه عن تصريف فائض أمواله بطريقة علمية متخصصة مدروسة بالإضافة إلى عجزه عن تخليص نفسه مما كبل به من أغلال النظام الاقتصادي العالمي وقبوده»<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك أيضاً انتشار المجاعات المروعة والفقر المدقع في طول بلاد الإسلام وعرضها حيث تصل نسبة الفقر في بعض الدول الإسلامية إلى ٨٠٪ يعيشون دون مستوى الكفاف<sup>(٢)</sup> وحسبنا أن العالم الإسلامي كله تقريباً يقبع في الزاوية المهملة في زاوية الدول النامية أو ما يسمى بدول العالم الثالث. وهذا المصطلح وهو مصطلح الدول النامية أطلقه الاستعمار عن خبث كي يبقي على تخلف البلاد الإسلامية، حيث أن الخبث في هذا التعبير يوحي بالحركة القائمة مع أن واقع هذه الدول هو العكس تماماً ، ففيه استتقاع اقتصادي إن لم نقل تراجعاً وتأخراً<sup>(٣)</sup>.

وقد أدى ذلك مع غيره من مظاهر الضعف الاقتصادي إلى الوقوع تحت غائلة ما يسمى بالمعونات الخارجية للدول النامية التي يذيعها الغرب دائماً ويملا وسائل الإعلام والأسماع بها ، والحقيقة المرة أن هذه الدول لا تنمو بل تزداد فقراً على فقر ، فهو يستهدف الابتزاز والكسب غير المشروع تحت ستار المساعدات ، ولقد عبر رئيس إحدى الشركات الأمريكية في خطبة له عن سياسة الاحتكارات اليهودية الأمريكية والاستعمار الجديد بقوله : «لقد حصلنا مقابل كل دولار أنفقناه في السنوات الخمس الماضية على مختلف الأغراض خارج الولايات المتحدة على ٦٧ ، ٤ دولاراً أي أن كل دولار ربح ٦٧ ، ٣ دولاراً أي أن نسبة الربح بلغت ٣٦٧٪ وهي سرقة وابتزاز وليست عمليات اقتصادية سليمة»<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر السابق ص ٨٨.

(٢) كما هو الحال في اندونيسيا . انظر بعض الأرقام المأساوية في حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٧ د . جميل المصري.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٩ د . جميل المصري.

(٤) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٩ . لعل أطرف الأمثلة عما تفعله المعونات الخارجية هو قصة صندوق النقد الدولي في مصر للفترة ما بين ١٩٧٨ - ١٩٨١م وكان الهدف المعلن لهذا المشروع هو إخراج مصر من أزمتها الاقتصادية ، وتقليل نسبة عجز ميزانها التجاري. وأظهرت دراسة اقتصادية قام بها الدكتور رمزي زكي الخبير الأول في معهد التخطيط القومي المصري أن الصندوق دخل مصر عام ١٩٧٨م وهي مدينة بـ ٨٠٠ مليون دولار وخرج الصندوق إياه منها عام =

وما يعيشه العالم الإسلامي اليوم من تخلف اقتصادي مذهل - حيث أن أفقر نول العالم على الإطلاق تعد جزءاً منه - ليس وليد الظروف القائمة الآن فيه فحسب ، ولكنه تخلف ضارب بجذوره في الماضي لعدة قرون ، ولا يمكن القضاء عليه بالسهولة التي يتصورها البعض ، وما دام الخلل الديني موجوداً ، فالقضاء عليه يعد ضرباً من المستحيل.



---

= ١٩٨١م وهي مدينة بأكثر من ١٨,٠٠٠ مليون دولار أي أن كل مواطن مصري كان مديوناً بـ ٤٢٢ دولار للعالم .  
والغريب أن دخل الفرد الواحد كان لا يتعدى ٤٦٠ دولاراً في السنة. المصدر نفسه ص ٢٥٠.



## المبحث الثالث : الضعف العلمي

يعد الضعف العلمي من أشد المجالات خطورة لما له من دور مباشر في تردي كثير من المجالات الأخرى لا سيما الجوانب العسكرية والحربية والاقتصادية.

وقد عرفنا فيما سبق أن المناهج التعليمية قد تعرضت لانحرافين خطيرين ؛ فالنسبة للمناهج الدينية أصابها الجمود والتقليد للسابقين ، وبالنسبة للمناهج الدنيوية رأينا أنها أهملت تماماً ، بل ربما حوربت في كثير من الأحيان ، واتهم بالتكفير من يدعو إلى تعلمها أو يحاول تعلم شيء منها ، وأغلق باب الاجتهاد ، وأخذ المسلمون يتوارثون حراسته قرناً بعد قرن ، ويعلنون النكير لمن حام حوله أو رام فتحه ، فكان هذا إيذاناً بحجر العقول وتكبيها ، ومدعاة إلى السبات والاسترخاء والخمول ، وكان ذلك بعد أن استفحل داء التقليد وهيمنت روح التعصب المذهبي وقد نتج عن ذلك تخلف علمي مذهل في شتى مجالات الحياة ، هذا في حين كانت أوروبا تواصل تقدمها العلمي والصناعي وتعمل بدأب ونشاط على تقوية نفسها من أجل فرض سيطرتها على العالم الإسلامي.

وقد كان لهذا الضعف العلمي عدة مظاهر منها : الجمود في كثير من أنشطة الحياة عند ماعاش عليه المسلمون قبل عدة قرون وعدم التجديد وفقدان الابتكار والاختراع والاكتشاف ، ولم يكن ذلك بالطبع غريباً حين أهملت العلوم التجريبية وحوربت وانصرف الناس عنها . لقد ركن المسلمون إلى الماضي دون أي محاولة بذلها لتحسين مستوى معيشتهم ، وتركوا الأخذ بالأسباب ، واعتبروا ذلك زيادة في التوكل والإيمان بالله كما عرفنا ذلك من قبل ، وأهملوا العلوم التجريبية بل حاربوها ، وشنعوا على من يدعو إليها ، وخيم الجهل والظلام على أرجاء البلاد الإسلامية . وكانت النظرة السائدة في المجتمعات الإسلامية صوب كل جديد يطل عليها من مخترعات أوروبا ، هو القصور والسذاجة الممزوجة بالخوف والتردد والحذر تجاه كل قادم مهما كان نافعاً ومفيداً .

يذكر السلوي أن بعض الفرنسيين تكلموا مع سلطان المغرب الحسن بن محمد في شأن بابور البر<sup>(١)</sup> والتلغراف وإجرائهما بالمغرب كما هما في سائر بلاد المعمورة . ثم يقول معلقاً على ذلك : «وزعم أن في ذلك نفعاً كبيراً للمسلمين والنصارى ، وهو والله عين الضرر!! وإنما النصارى أجربوا سائر البلاد فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم...»<sup>(٢)</sup> وليس لدينا على ذلك أي تعليق.

(١) هو القطار.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢٥٤/٤.

ويذكر الغزي أن التلغراف قد دخل إلى حلب سنة ١٢٧٨ هـ ، وحين مدت أسلاك البرق ، وقيل للناس إنه ينقل الأخبار من بلد إلى آخر مهما كان بعيداً في لحظة كطرفة عين ، أنكروا ذلك ، وقالوا : لا شك أن الذي ينقل هذا الخبر شيطان مارد منبث في التيل<sup>(١)</sup> . وحين ظن بعض الناس أن الساعة عبارة عن سحر ، قام العلامة الشيخ سليمان بن سحمان رحمه الله بتأليف رسالة يبين فيها أنها صناعة وليست سحراً<sup>(٢)</sup> .

«ومما ينبئ عن مقدار خمول تركيا في ميدان العلوم والصناعات أن صناعة السفن لم تدخل في تركيا إلا في القرن السادس عشر المسيحي ، ولم تدخل المطابع والمحاجر الصحية في هذه النوبة إلا في القرن الثامن عشر ، وكذلك مدارس الفنون الحربية على النسق الأوربي . وفي آخر هذا القرن كانت تركيا بمعزل عن الصناعات والاكتشافات ، حتى لما شاهدوا بالوناً يحلق فوق العاصمة ظنوه من أعمال السحر والكيمياء...»<sup>(٣)</sup> .

وذكر الجبرتي ضمن أحداث شهر شعبان لسنة ١٢١٣ هـ المنطاد الذي عمله الفرنسيون فقال : «وفي يوم الأربعاء كتبوا أوراقاً بتطير طيارة ببركة الأزيكية مثل التي سبق ذكرها وفسدت ، فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر ، وطيروها وصعدت إلى الأعلى ومرت إلى أن وصلت تلال البرقية وسقطت ، ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لامت الحيلة ، وقالوا إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم!!»<sup>(٤)</sup> .

وكل هذا يدلنا على مبلغ الجهل الذي أطبق على المسلمين في القرون المتأخرة ، حتى جعلهم يستوحشون من كل مخترع حديث ، ولا يصدقون به ، وينسبونه إلى الجن والسحر .

وحين كان يوجد بعض أفراد منهم لهم شيء من الإلمام ببعض تلك العلوم كان نصيبهم هو التجاهل والإهمال على أقل الأحوال ، فهذا الشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري من علماء طرابلس الغرب كان «يبحث في الخلطات والمواد وطبائع الأشياء وخصائص المعادن وطبقات ودراسة الجيولوجيا ويصل من هذه المحاولات والتجارب إلى أشياء مفيدة ، ولكنه لم يستطع أن يجد من يستفيد منها . وكان هذا يغيظه ويحرقه حرقاً العالم الغريب في محيطه ، ويأسف لهذا .

ويقول أحمد بن عبد الدائم عن نفسه ، ومبيناً المجتمع الذي كان يعيش فيه وإعراض الناس عن تجاربه : «لي معرفة بسبعين حكمة ، وعمري الآن ماينيف عن الخمسين ، ولم يسألني أحد من أهالي طرابلس عن واحدة منها» .

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٣٩٠ .

(٢) الأعلام ٣/١٢٦ .

(٣) ماذا خسر العالم بالتحطاط المسلمين ص ١٧٠ .

(٤) عجائب الآثار ٢/٢٤٤ .

ومن تلك التجارب التي نجح فيها ابن عبد الدائم طريقة لاستخراج الماء من الأرض بغير عناء وكثير مشقة. «وكان ابن عبد الدائم بصنيعة واستنباطه يستطيع إخراج الماء بلا مضخات ولا آلات ضخمة ، ولا شك أنه توصل إلى هذا بعد كد فكر وإجهاد نظر وتجارب تفشل حيناً وتصل إلى مرتبة النجاح أخيراً»<sup>(١)</sup>.

وقد عرفنا أن معاهد المسلمين الكبرى ساهمت في استشراف ذلك الضعف بإهمالها للعلوم التجريبية بعد أن أصبحت خاوية من هذه العلوم.

وقد رأينا أن الأزهر حين أراد بعض دعاة الإصلاح إدخال بعض هذه العلوم فيه لم يستطيعوا ذلك إلا بعد استصدار فتوى من شيخه بجواز ذلك.

وإذا كان هذا هو حال الأزهر وغيره من المعاهد العتيقة في العالم الإسلامي<sup>(٢)</sup> فمن الطبيعي أن يكون ذلك موقف دور العلم في الأقطار الأخرى.

ففي المدينة المنورة «أقام الشيخ حسن بن حسين الأسكوبي على سطح منزله مرصداً فلكياً ، جلبه من أوروبا فثار عليه علماء المدينة ، ونظم أحدهم (عبد الجليل برادة) رجلاً فيه ، أوله :

ماقولكم في شيخنا الأسكوبي      يبيت طول الليل في الراقوب  
يرقب منه الفلك الدوار      مشابهاً في فعله النصارى

وهاجموا بيته فأنزلوا ما على سطحه من مناظير وأسطرلابات وزوايا ، فاعتزل الناس ومريض حتى توفي عام ١٣٠٣هـ<sup>(٣)</sup>. لقد كان حرياً بعد هذا أن يخيم الجهل والتخلف ، ويختفى الابتكار والنبوغ ، وتظل الحياة جامدة لا تتحرك ولا تتغير إلا إلى الأسوأ.

على أن ما قام به «الأسكوبي وابن عبد الدائم» من محاولات وتجارب علمية يعد أمراً نادراً بالنسبة لأحوال ما عاشا فيه من حقبة زمنية. ونود أن نشير إلى مجال علمي واحد هو الطب لنرى شيئاً من الآثار المروعة التي كانت تقع نتيجة للتخلف العظيم في ذلك المجال. فقد رأينا ما آل إليه علم الطب من جهل وخرافة ودجل ، فليس بغريب بعد ذلك أن تنتشر في المجتمعات الإسلامية الأمراض

(١) أعلام من طرابلس ص ١٩٤ علي مصطفى المصراطي. دار الفكر. طرابلس. ليبيا. الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢. وقد عاش ابن عبد الدائم في منتصف القرن الثاني عشر الهجري .

(٢) وعلى رأسها الزيتونة بتونس والقرويون بفاس بالمغرب.

(٣) الأعلام ١٨٩/٢ من آثاره كما يقول الزركلي : «مزولة» كانت في المسجد النبوي وكتب في علم الهيئة والميقات وطريقة استعمال آلات المراصد الفلكية.

الخطيرة والأنواء الخبيثة ، ويعجز الناس عن علاجها . وكم تذكر كتب التاريخ لتلك الحقبة الزمنية أخباراً للأوبئة الفتاكة التي كانت تجتاح البلدان الإسلامية فيسقط ضحيتها الآلاف ، ويسبب بعضها عاهات مستديمة .

وهذه بعض الأمثلة البسيطة : ففي عام ١٨١٣م حل الوباء العظيم في بغداد ، وأخذ يغتال أهلها ويتفاقم بينهم بدرجة بعثت الرعب في النفوس ، فكان يموت منه في الأيام الأولى مائة وخمسون في اليوم ، ثم اشتدت وطأة الوباء في الأيام الأخيرة من الشهر حتى مات في نصفه الثاني سبعة آلاف ، وضاعف المرض قوته بعد قليل حتى ارتفع عدد الوفيات في اليوم الواحد إلى خمسة آلاف ، وهنا خيم على دار السلام سكون الموت ، وشملتها رهبة الرعب ، وانتابها فزع شامل ، ومضى الناس ولا هم لهم إلا تجهيز موتاهم للدفن ، وتجهيز أنفسهم للمرض ، ووقفت الأعمال ، فلم يبق سقاء ولا عامل في متجر ولا في طريق حتى لقد طلب داود (حاكم العراق) قارباً فلم يجد نوتياً يقوده ، وغصت الشوارع بالأطفال الذين شردهم الوباء وأتى على أهلهم فأصبحوا لا يجدون مأوى ولا طعاماً ، وبعد قليل كف الناس عن دفن الموتى ، فأصبحت جثثهم ملقاة في الطريق تعيث فيها الكلاب بمرأى من البقية الباقية من السكان الذين أنهمك المرض قواهم<sup>(١)</sup> .

وذكر الجبرتي الطاعون الذي وقع سنة ١٢٠٥هـ في القاهرة ، والذي هلك به خلق لا يحصيهم إلا الله ، « ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه ، فلا تجد إلا مريضاً أو ميتاً أو عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن أو مشغولاً في تجهيز ميت أو باكياً على نفسه . . . ومات في أثناء ذلك الأغا<sup>(٢)</sup> والوالي في أثناء ذلك ، فولوا خلفهما ، فماتا بعد ثلاثة أيام ، فولوا خلفهما فماتا أيضاً ، واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات في جمعة واحدة . . . »<sup>(٣)</sup> .

وفي سنة ١٢٨٢هـ هلك من الحجاج وغيرهم بالهواء الأصفر نحو مئة ألف نسمة . . . ثم في هذه السنة وصل هذا المرض إلى حلب ، وبلغت وفياته اليومية ثلاثمائة نسمة . . . وكان الناس يدورون في الأزقة يستعينون بالله ، ويخرج بعض القراء إلى المآذن ، ويقرؤون سورة الدخان<sup>(٤)</sup> .

ويذكر الجندي أنه في أول ذي الحجة سنة ١٣٠٨هـ عاد إلى المعرة داء الهیضة «الكوليرا» وضرب عليها الحجر الصحي عشرة أيام ، وظل هذا الداء يفتك في البلدة من أول ذي الحجة إلى

(١) الشرق الإسلامي ص ٣٧٥ .

(٢) الاغا هو المحتسب .

(٣) عجائب الآثار ٩٥/٢ .

(٤) نهر الذهب في تاريخ حلب ٣/٢٩٢ .

وأواخر صفر لجهل الناس بمداواته وبأسباب التوقي منه ، وجهل الحكومة وقلة عنايتها بذلك<sup>(١)</sup>. وفي سنة ١٢١٢هـ تفشى مرض الجدري في المعرة وذهب بعيون كثير من الناس ، وعمي كثيرون بسببه لفقد الأطباء<sup>(٢)</sup>. وفي عام ١٨٨٣م هلك أكثر من ستين ألفاً من المصريين بسبب داء الكوليرا<sup>(٣)</sup>. ولم يكن الناس فقط هم ضحايا الأوبئة الفتاكة ، بل لقد كانت الحيوانات تتعرض هي الأخرى إلى أوبئة قاتلة تفنى بسببها أعداد هائلة منها ، ويحدث نتيجة لذلك أزمة إقتصادية في البلاد.

ومثال ذلك ما ذكره الجبرتي من داء أصاب الأبقار سنة ١٢٠١هـ ، فتساقط المئات منها حتى جافت الأرض ، وبيع اللحم البقري بأبخس الأثمان ، ومع ذلك فلا يشتريه أحد من الناس ، وغلت أسعار السمن واللبن والأجبان غلاءً فاحشاً<sup>(٤)</sup>.

فبعد أن كانت الأمة تولي اهتمامها ورعايتها لمثل هذه العلوم من أجل أن تتقوى وتصبح قادرة على أداء رسالتها ، وحين كان الانصباب على هذه العلوم أمراً معتاداً عند المسلمين والتنافس بين العلماء على البحث في شتى فروعها المختلفة من طب وهندسة وفلك ورياضيات وكيمياء وفيزياء وغير ذلك سمة بارزة من سماتهم - أصبح الإقبال عليها ضعيفاً أو نادراً ، وحسبك أن تقرأ العشرات من كتب التراجم والرجال ثم لا تجد في خضم هذه التراجم الغفيرة التي تبلغ الآلاف ترجمة لواحد منهم عني بهذه العلوم ، أو قام باكتشاف وابتكار فيها .

وهذا دليل واضح على انصراف الأمة عن هذه العلوم وتقاعسها عن واجبها في إعداد القوة التي لا تقوم بغير هذه العلوم ، وحتى إن وجد نفر يهتمون ببعضها فإنهم كانوا يقفون عند ما وصلت إليه هذه العلوم في الماضي ، وعند فكر الأقدمين وبحوثهم ، وهو ما تجاوزه أوروبا بمراحل معتمدة عليه في بادئ الأمر ، وأصبح بالنسبة لعلوم العصر الحديث ومخترعاته يعد أمراً متأخراً تجاوزه الزمن، وفاتته عجلة العلم والحضارة والرقى.

«وكان العلماء في تركيا العثمانية على الضد من ذلك ، فلم يعنوا باكتساب العلوم الحديثة ، بل منعوا الأفكار الجديدة من أن تدخل في منطقتهم ، وإذا كانوا متصرفين بزمam تعليم الأمة الإسلامية ولم يسمحوا لشيء طريف بأن يقرب منهم ، فإن الجمود قد تغلب على نظامهم التعليمي ، وكانت مشاغلهم السياسية قد طفت في دور الانحطاط وكانت لاتسمح لهم بأن يتحملوا متاعب المشاهدة

(١) تاريخ معرة النعمان ٢٠٨/١.

(٢) المصدر السابق ٢١٠/١.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١٦٠/١.

(٤) عجائب الآثار ١٩/٢ ..

والاختبار ، فلم يكن لهم إلا أن يلحوا على فلسفة أرسطاطاليس ويبنوا علمهم على الاستدلال ، فلم تزل المدارس الإسلامية في القرن التاسع عشر المسيحي ، كما كانت في القرن الثالث عشر المسيحي<sup>(١)</sup>.

يقول الأمير شكيب أرسلان : «ونحن مع الأسف نرى المسلمين اليوم أقل الأمم اعتناء بالميكانيكيات والطبيعيات والكيمياء وجميع العلوم التي يكفل لهم إتقانها الحيل الحربية وجر الانتقال واختراع الآلات التي توفر دمائهم وتصون دهمائهم ، ونرى جمهور علمائهم نافرين من هذه العلوم والفنون كأنها من عمل الشياطين ، يقضون الأعمار الطويلة في درس علوم مخصوصة لا يتعدونها ، من نحو وصرف وحديث وتفسير وما أشبه ذلك مما لا شك في ضرورته ، لأنه به قوام اللغة والعقيدة ، ولكنه ليس يغنى أصلاً عن العلوم الطبيعية التي هلك اليوم من أهمها ، وعن الميكانيكيات التي لو أفرغوا لها من الوقت ربع ما أفرغوه للحديث والتفسير والفقه والنحو والصرف لكانوا من الصناعة ومن ثم من التجارة والثروة على حظ يضاهي حظوظ الأمم الأوربية ، ولكننا قد أهملنا علوم هذه الدنيا وحصرنا جميع عنايتنا بعلوم الآخرة غير ذاكرين أن الإسلام إنما هو شرع دنيا وآخرة وإن من أهمل أحد الشقين فهو آثم ، كما لو أهمل الشق الآخر<sup>(٢)</sup>.

لقد أهمل المسلمون هذه العلوم ، واكتفوا بدراسة فلسفات عقيمة ، وعلوم سقيمة «يصرفون فيها أوقاتهم ، ويضيعون فيها جهودهم ، لنضوب معين علومهم وجمود قرائحهم وعجزهم عن الاجتهاد والتفكير وقوة الاكتشاف والإبداع ، ولما منى به علماؤهم من جمود وركود فلا يضيفون للعلم جديداً ، ولا يفتحون للعقل أبواباً ولا ينظرون في علوم الطبيعة والكون» «وإنما قصاراهم شروح وحواش يذيلون بها ماكتبه أسلافهم حتى طغت الشروح على المؤلفات وزادت الحواشي على المتن. إنك في قرون عديدة مرت على المسلمين لا تكاد تعثر على أثر فكرة مبتكرة واختراع مبتدع واكتشاف جديد ؛ ولذلك طراً عليهم جمود فكري وغشيت أجواءهم العقلية سحابة سوداء من العقم والتبلد»<sup>(٣)</sup>.

وها هو العالم الإسلامي في هذه الأيام مايزال قابعاً في زاوية التخلف والجهل ، بعد تفريط وإهمال وجمود دام قروناً.

ومن أبرز وجوه الضعف العلمي تفشي الأمية بين أفراد المجتمعات الإسلامية. إن نسبة الأمية لترتفع في العالم الإسلامي بشكل يدعو إلى القزع ، وليس أدل على ذلك من أنه في العصر الحاضر ،

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين من ١٦٧.

(٢) الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى أقدس مطاف من ١٩٣. الأمير شكيب أرسلان. تعليق : الشيخ محمد رشيد رضا.

(٣) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ١٤١ والكلام للندوي والمودودي بشيء من التصرف.

وبعد جهود مكثفة لمحاربة الأمية والقضاء عليها ماتزال نسبتها مرتفعة جداً . حتى إن نسبة المتعلمين لتصل في الانخفاض إلى ٢٪ في بعض المجتمعات كآفغانستان مثلاً<sup>(١)</sup> . وقد ذكرت إحصائيات هيئة اليونيسكو أن العالم سيضم عام ٢٠٠٠ ما يقرب من ١٠٠٠ / مليون أُمي أكثرهم من العالم العربي والإسلامي.

ففي مصر مثلاً تشير التقارير إلى أنه يوجد ٢٠٠ ألف طفل مصري ينضمون إلى الأمية سنوياً نتيجة قصور الاستيعاب في المدارس<sup>(٢)</sup> . وتبلغ نسبة الأميين في مصر حوالي ٧٠٪ من عدد السكان<sup>(٣)</sup>.

ولا يخفى ما للأمية من آثار وخيمة في البلاد الإسلامية ، ومن ذلك شيوع الجهل وانتشار الخرافة والدجل والبدع .

وكذلك ضعف التنمية الاقتصادية التي تعتمد على زيادة الإنتاج الزراعي والصناعي وتحسينه ، وزيادة الإنتاج كمّاً ونوعاً تتوقف على وجود قوة منتجة متعلمة ، ولقد ثبت أن العامل الأمي لا يمكنه أن يحسن إنتاجه إلا بمقدار ضئيل.

وهذه الأمية التي أصبحت ظاهرة في العالم الإسلامي ترجع إلى إهمال الفريضة التي ألزم الله بها المسلمين وهي فريضة القراءة ، وهي أسبق من فريضة الصلاة والزكاة والصيام وسواها من الفرائض<sup>(٤)</sup>.

وليس بغريب أن تنتشر الأمية ذلك الانتشار المذهل في الأوساط الإسلامية التي كانت خاضعة لعقائد الصوفية ومبادئها المنحرفة ، ومن ذلك إهمال العلوم جملة وتفصيلاً ، وبالتالي إهمال القراءة والكتابة ، وقد مر معنا أن جملة من مشايخ الصوفية كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون كما وقع لبعض شيوخ الشعرائي . «وحيثما ننظر إلى واقع العالم الإسلامي نجده عالة على المجتمعات الغربية والشرقية الشيوعية في كل ما يتصل بالمخترعات والابتكارات سواء في المجالات الصناعية أو الزراعية أو الطبية أو العسكرية ، أو الهندسية ... ولعل هذا الواقع المؤلم يمثل صورة بارزة من صور التحديات الحضارية التي تواجهها الأمة الإسلامية في القرن العشرين»<sup>(٥)</sup>.

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٦ ، هذه النسبة المذكورة أظهرها باحث هندي قام برحلة إلى أفغانستان عام ١٩١٥م وعاش فيها عدة سنوات ورأى هناك التخلف المذهل والجهل المطبق .

(٢) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١٥ .

(٣) تاريخ ونظام التعليم في جمهورية مصر العربية ص ٢٩٨ منير عطا الله سليمان وآخران . مكتبة الانجلو مصرية ١٩٧٢م .

(٤) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١٥ .

(٥) المصدر السابق ص ١٤ .

ولعل الظاهرتين الخطيرتين الآتيتين اللتين ماتزالان تسيطران على العالم الإسلامي إلى أيامنا هذه توضح لنا حجم هذا الضعف العلمي ، ومدى الانحطاط الذي تعيشه الأمة وهاتان الظاهرتان هما :

الأولى : أن العالم الإسلامي أصبح عالة على الغرب «متطفلاً على مائدته حتى في اللغة العربية وآداب اللغة وعلومها ، وحتى في علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه ، وأصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين في البحث والتحقيق ، والدراسة والتأليف ، وهم المنتهى والمرجع والحجة في الأحكام والآراء الإسلامية والنظريات العلمية والتاريخية ، وهم الأسوة في النقض والإبرام»<sup>(١)</sup>.

وخضع العالم الإسلامي للنظام التعليمي الأوربي بطبيعة الحال» إذ كان مصاباً بالإنحطاط العلمي والشلل الفكري من زمان ، وكان لا يجد المدد والغوث إلا في أوروبا - فقبل هذا النظام التعليمي على علاقته ، فهو النظام السائد اليوم في أنحاء العالم الإسلامي»<sup>(٢)</sup>.

الظاهرة الثانية : ما تمثل في هجرة العقول المسلمة.

كان طبيعياً لما وقع من ضعف علمي أن يهاجر العقل الواعي المسلم من بيئته الجاهلة التي لا يوجد بها أدنى احتفال حقيقي بالعلوم إلى الغرب الذي فتح أبوابه لكل قادم «ويعاني العالم الإسلامي في هذا العصر من نزيف يكاد ينخره وهو نزيف العقول الإسلامية المهاجرة التي تضم كفاءات علمية وأكاديمية أصبح العالم الغربي يعتمد عليها في بناء حضارته»<sup>(٣)</sup>.

يقول الأستاذ الدكتور «محمد عبد العليم موسى»:

«إن عدد الأطباء المسلمين الموجودين في باريس وحدها أكثر من الأطباء الموجودين على التراب الجزائري كله ، وفي لندن الباكستانيون بالذات بالآلاف ، ويشير تقرير رسمي للحكومة الباكستانية عام ١٩٧٠م إلى دراسة قام بها اثنان من الأساتذة إلى أنه في اليوم التالي لإعلان نتائج كليات الطب في باكستان فإن ٩٠٪ من الخريجين قد تقدموا بطلبات الهجرة إلى السفارة الأمريكية والبريطانية . أما الدراسة التي أعدتها من مصر وهي دراسة محدودة بالنسبة لبلد واحد مسلم من سنة ١٩٧٠ - ١٩٨٠م وعلى مدار عشر سنوات امتنع (٩٥٠) ممن حصلوا على الدكتوراه من العودة إلى مصر ، وحينما نترجم هذا إلى أرقام تصبح مصر كأنها هي التي تعطي معونة إلى أمريكا.

(١) ماذا خسر العالم بالانحطاط المسلمين ص ٢٩٣.

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٦.

(٣) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١٨.



ويبلغ عدد المسلمين المهاجرين من مهندسين وخبراء وأطباء في أوروبا وأمريكا وكندا وأستراليا ١٠٠ ألف عالم من أصحاب الكفاءات العالية ، وهؤلاء العلماء والمهندسون والأطباء لو كانوا موجودين في العالم الإسلامي ، ولو أن كل واحد أنتج بحثاً على مدار العام لأصبح في عالمنا الإسلامي مائة ألف بحث ، فكم من مشكلة تحلها هذه البحوث؟ وكم من إبداع يبده هؤلاء الباحثون ...

ولقد شهد الغربيون بهذه الظاهرة ، ظاهرة هجرة العقول المسلمة ، فهذا رئيس جامعة كورنيل الأمريكية يصرح أمام الكونجرس بأن المهاجرين المسلمين من الأطباء وفروا على الولايات المتحدة إنشاء ٣٠ كلية طب سنوياً<sup>(١)</sup>.

وهكذا غشي الضعف العلمي على حياة المسلمين ونتج عنه تخلف مذهل في شتى المجالات ، ولم يكن هناك ثمة تقدم في أي مجال ، فلم تظهر أية مكتشفات ومخترعات ، وبقيت الحياة رتيبة كما هي من قرون تسير ببطء دون أي تغيير يذكر ، والعالم بدأ يتقدم ويغتني ، والمسلمون يتخلفون ويفتقرون. فأوروبا تقطع أشواطاً بعيدة في التقدم العلمي والصناعي وتأخذ بالأسباب المؤدية إلى القوة والسيطرة على العالم، والمسلمون في غفلة عن ذلك.

ولا شك أن المسلمين قد فرطوا في ذلك تفريطاً عظيماً بتخليهم عن الأخذ بالأسباب وبالتالي حدث التقاعس عن المهمة الكبرى الملقاة على عواتقهم وهي الوصاية والشهادة على العالم أخذاً من قوله تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ (١٤٣) البقرة. ومن مقتضى الشهادة على الناس أن تكون الأمة قوية غنية ، إذ لو كانت ضعيفة لم يتح لها أن تقوم بالشهادة ، ولا تكون القوة إلا بالأخذ بالأسباب وإحراز التقدم في العلوم والمكتشفات والصناعات.

وفي فترات الانحطاط التي عاشها المسلمون خصوصاً تلك الفترة التي نعى بدراستها وهي القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان حدث الانحراف الخطير في تخلي الأمة عن قيادة العالم لتهاونها في الأخذ بأسباب القوة والتقدم ، واعتقادها الخاطئ أن ما فعلته يتلاءم مع دينها ، وأنها بتخليها عن الأخذ بهذه الأسباب كانت تخدم هذا الدين ، وهذا في الحقيقة خطأ عظيم ، وانحراف خطير تولد من سوء الأحوال الدينية ، وهو خطأ من جانبين كما سبق وبيننا ذلك : خطأ من جانب الدين نفسه الذي يأمر باتخاذ الأسباب وإعداد القوة. كقوله تعالى ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ [ الأنفال ، ٦٠ ] والعدو دائماً متربص بالأمة الدوائر، ينتظر أدنى فرصة للانقضاض عليها. وهذا ما وقع فعلاً حين غفت الأمة الإسلامية وتخلت عن اتخاذ أسباب

(١) المصدر السابق ص ١٩.

القوة ، وخالفت الأوامر الربانية في ذلك. فانتهزت أوروبا القوية المتقدمة المتربصة هذه الفرصة ، وفرضت سيطرتها وحكمها فيما يعرف بالاستعمار.

وكذلك من جانب الواقع التاريخي للأمة ، حيث كان المسلمون حريصين على أن يكونوا أقوياء ، وكان ذلك الأمر واضحاً عندهم وقت تمسكهم بالدين حيث سادوا العالم وقادوا البشرية ، ثم حدث ما حدث من تخلف وانحطاط للأسباب التي ذكرنا ، وذهبت هذه المعاني من نفوسهم كأنها لم تكن في كتاب الله عز وجل ولا في سنة رسوله ﷺ ولم تمارس في تاريخ الأمة.

وجهل المسلمون أن أوروبا قد أخذت تلك العلوم عن المسلمين وأن المسلمين كانوا متقدمين فيها ثم تخلفوا . يقول الاستاذ «أنور الجندي» في كتابه «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا» : «ومن هنا وجد خير الدين التونسي<sup>(١)</sup> الإجابة عن التساؤل الحائر الذي كان يعم العالم الإسلامي إذ ذاك وهو : « هل من حق المسلمين اقتباس هذه الحضارة ، وهل يتعارض ذلك مع الإسلام »<sup>(٢)</sup> وهذه محاولة من خير الدين التونسي لإزالة ذلك الجهل التاريخي الذي خيم على الأمة ، وإقناع منه لعلماء الزيتونة الذين هجروا العلوم الكونية وبالغوا في رفضها شأنهم في ذلك كشأن بقية العلماء في العالم الإسلامي أن ينظروا في التاريخ ليرى أنهم قد حادوا عن طريق أسلافهم في الماضي بإعراضهم عن هذه العلوم.



---

(١) وزير تونسي شركسي الأصل ، اتصل بالسلطان عبد الحميد فوله الصدارة العظمى التي تعادل منصب رئيس الوزراء ، لكنه ما لبث أن استقال. نعتة الزركلي في الاعلام بأنه من رجال الإصلاح الإسلامي. له كتاب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك». توفي سنة ١٣٠٨ هـ. الاعلام ٢/٣٢٧. ومما لا شك فيه أن كثيراً ممن نعتهم الزركلي برجال الإصلاح الإسلامي كانوا متأثرين بالحضارة الغربية ومنهزمين منها ، ومن هؤلاء خير الدين .

(٢) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا ص ٢٨.

## المبحث الرابع : الضعف الاجتماعي والأخلاقي

ذكرنا في الفصل الأول من هذا البحث أن مفهوم العبادة في الإسلام قد انحصر في الشعائر التعبدية فقط ، حيث أصبحت العبادة في حس القرون المتأخرة عبارة عن القيام بالصلاة والصيام والحج وغيرها . وأخرجت بقية الأعمال من مفهوم العبادة ، وكان هذا جديراً بتطرق الضعف إلى الجوانب الاجتماعية والأخلاقية مادام أنها قد زحزحت إلى خارج دائرة العبادة ، وأمست غريبة عنها . وقد زاد من حدة هذا الضعف الذي تطرق إلى المجتمع والأخلاق ما تمثل في الفكر الإرجائي الذي يخرج الأعمال كلها من حوزة الإيمان ، ويضفى الطمأنينة على الفرد بأن إيمانه كامل ولو لم يعمل أدنى عمل ، لأن الإيمان هو التصديق لا غير .

هذان العاملان مع ماوقع من انحرافات أخرى وعلى رأسها الشرك الأكبر المتمثل في عبادة الأولياء والأضرحة ، وهيمنة الصوفية بطقوسها وعقائدها على حياة الناس وانشغال الناس بالبدع والخرافات ، وازدياد التعصب المذهبي ، وإذا أضفنا إلى ذلك ما جبل عليه الإنسان من ضعف وتقلت إزاء ما أمر به من تكاليف وأوامر مع قلة التذكير من جانب العلماء نجد أن كل ذلك على توالي القرون كان يعمل على إضعاف الجوانب الاجتماعية والأخلاقية .

وفي تلك الفترة التي تقوم بدراستها فشا الظلم والجور ، وطغت الضرائب والمكوس والمصادرات ، وكانت الشعوب المسلمة ضحية لحكوماتهم المستبدة التي لم تكن تقوم في كثير من الأوقات إلا على مثل تلك المظالم . ولسنا بحاجة إلى التدليل على ماوصلت إليه الحالة الاجتماعية في ذلك الجانب من ترد وانحطاط . ولا نكاد نقرأ كتاباً من كتب التاريخ لتلك الفترة المظلمة إلا ونجده مشحوناً بذكر الظلم والعسف والإرهاب ، ويشكو مؤلفه من كثرة الضرائب والمكوس ، ويصف معاناة الناس وعنتهم وضيق عيشهم ويؤسهم .

لقد كانت أيضاً هناك بعض الظواهر الاجتماعية السيئة كمنع تعليم المرأة واعتقاد أن ذلك يضر ولا ينفع (١) ، واحتقارها وامتهانها ، ومصادرة حقها في إبداء رأيها في مسائل تخصها كاختيار زوجها مثلاً واعتبار ذلك كله من كمال قوامه الرجل ، وحرمانها من الميراث .

ظاهرة أخرى كان لها نصيب كبير في اتساع شقة الخلاف بين أفراد المجتمع الواحد . تلك هي

---

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخور ص ١١ زينب بنت فواز العاملي ، دار المعرفة . الطبعة الثانية .

ظاهرة التعصب المذهبي ، وقد رأينا عند حديثنا عنها أنها كانت من عوامل الفرقة وانتشت بين أفراد المجتمع.

ظاهرة ثالثة كانت تتكرر باستمرار وهي الاستيلاء على الأوقاف وأكل أموالها بالباطل «وهذه شنشنة قل أن يخلو منها بلد من بلدان الإسلام» (١) كما يقول الأمير «شكيب أرسلان» رحمه الله.

ظاهرة رابعة : ما كان يحدث من فسق وفجور واختلاط في بعض الاحتفالات الدينية كالموالد وغيرها ، وما كان يمارسه بعض الدجالين من أدعياء الطريق من هتك للحرمة وتعد على الأخلاق وظهور الفواحش كشرب الخمر والزنا ، والسماح لبيوت الدعارة والبغاء بممارسة تلك الجريمة . كما ذكر الغزي عن انتشارها في حلب (٢) ، وما ذكره «حسين بن محمد نصيف» (٣) عن كثرة مراتع الخمر والبغاء في جدة ، بل في مكة شرفها الله ، ولم تخف هذه الحالة إلا في عهد الشريف «حسين» (٤) الذي عمل على القضاء على تلك المنكرات العظيمة بكل صرامة (٥) . وما ذكره الشيخ «محمد رشيد رضا» عن انتشارها في مصر ، وما كان يقع من تهتك البغايا حتى أنهن يقعدن على قارعة الطريق لإغراء الناس بالزنا ، وما فعله شيخه «محمد عبده» من مكافحة لها حين كان قاضياً يعمل في المحاكم الأهلية (٦) .

ظاهرة خامسة تتمثل في انتشار الغناء في تلك الفترة ، وإقبال الناس على سماع المعازف والقيان واحتفاء الحكام وعلية القوم بالمغنين والمغنيات فهذه المغنية المصرية «ألمس» التي «حازت شهرة عظيمة لا مزيد عليها ، وقد جمعت أموالاً كثيرة حتى قيل فيها: إنها سلبت أموال القطر المصري» وكانت ثرواتها تقدر بعشرات الألوف من الجنيهات (٧) !! وكيف ترجو النهوض أمة ، يكرم فيها المغنون والمغنيات وتغدق الأموال عليهم ، ليشيعوا فيها الفجور والنفاق والتحلل.

هذه بعض المظاهر الاجتماعية السيئة على سبيل المثال :

ولكن الذي يهمنا في هذا الحديث أمران هما :

(١) الارتسامات اللطاف ص ٣٢. وانظر حول ذلك : منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ص ٥٣.

(٢) نهر الذهب في تاريخ حلب ٦٨١/٣ وما بعدها.

(٣) الأعلام ٢/٢٥٩.

(٤) هو الحسين بن علي آخر من حكم مكة من الأشراف. توفي سنة ١٣٥٠ هـ الأعلام ٢/٢٤٩.

(٥) ماضي الحجاز وحاضره ص ١١٤ وما بعدها حسين محمد نصيف. الطبعة الأولى ١٣٤٩ هـ.

(٦) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٤٢٢.

(٧) الدر المنثور في طبقات ربات الخدود ص ٧٨.

الأول : أن الجوانب الاجتماعية والأخلاقية قد آلت مع مرور الأعوام إلى عادات باهتة وتقاليد خاوية ، ولم تعد ذات صلة وثيقة بالعقيدة كما ذكرنا .

فترى الناس يتوارثون الحفاظ عليها على أنها عادات الآباء والأجداد التي لا يجوز المساس بها أو التفريط فيها ، وقد ظل ذلك الحال إلى أوائل النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري حيث كان الجانب الاجتماعي والأخلاقي على شيء من التماسك الهش . ولنضرب على ذلك مثلاً واحداً هو الحجاب وما يتبعه من قضايا تخص المرأة<sup>(١)</sup> . فلقد كان سائداً في ذلك الوقت ، وكان تقليداً مرعياً ، وعادة محترمة ، لا يمكن التهاون في ارتدائه أو التجرؤ على مهاجمته أو خلعه ، ولكنه مع الزمن فقد قيمته الحقيقية في نفوس الكثيرين ، واستحال إلى عادة موروثية ليس لها من الإيمان رصيد . فإذا المرأة ترتديه لأنه عادة ورثتها عن أمها ، وليس لأن الله أمرها به ، وافترضه عليها .

وفي تلك الفترة كانت تتسم هذه العادات والتقاليد الاجتماعية بالصرامة والشدّة ، ولم يكن الإخلال بشيء منها يغتفر في كثير من الأحوال ، ومن ذلك الحجاب .

فحين جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٢١٣هـ ، جاء «نابليون» بفريق من البغايا ليقمن بدور مرسوم في إفساد المرأة المسلمة في مصر ، حيث يذكر «الجبرتي» بعض ما كن يقمن به من تبرج وسفور ، وخلاعة ومجون ، ومخالطة للرجال ، وما كان يعمل به الفرنسيون خصوصاً في احتفالاتهم برأس السنة الميلادية ، من خروج إلى النيل ومجاهرتهم بالتهتك والانحلال على مرأى من الناس ، مما أغرى بعض النساء من المسلمات بإظهار الفساد والتبرج<sup>(٢)</sup> .

ووصل الأمر إلى قيام بعض النساء من الأعيان بمشاركة الفرنسيين في تلك الاحتفالات المخلة بالدين والآداب ، ومن هؤلاء النساء ابنة الشيخ «البكري» شيخ السجادة البكرية ، وهو من الشخصيات الدينية والبارزة في مصر أيام الحملة الفرنسية . فما كان من والدها إلا أن أعلن البراءة منها على الملأ . وما إن بارح الفرنسيون القاهرة ، وخلفهم العثمانيون حتى سارع بعض قوادهم إلى القبض عليها وعلى بعض من كن معها في مشاركة الفرنسيين في احتفالاتهم ، وحكموا عليهن بالقتل ، ونفذت الأحكام<sup>(٣)</sup> .

---

(١) أعجبني قول الشيخ محمد بن إسماعيل في كتابه القيم «عودة الحجاب» وهو : ليس الحجاب الذي نعنيه مجرد ستر لبدن المرأة .. إن الحجاب عنوان تلك المجموعة من الأحكام الاجتماعية المتعلقة بوضع المرأة في النظام الإسلامي ، والتي شرعها الله سبحانه وتعالى لتكون «الحصن الحصين» الذي يحمي المرأة و«السياج الواقى» الذي يعصم المجتمع من الافتتان بها و«الإطار المنضبط» الذي تؤدي المرأة من خلاله وظيفة «صناعة الأجيال» و«صياغة مستقبل الأمة» وبالتالي المساهمة في نصر الإسلام والتمكين له . من خاتمة كتاب «عودة الحجاب» .

(٢) عجائب الآثار ٤٣٦/٢ .

(٣) عجائب الآثار ٤٨٦/٢ .

وإذا كانت هذه الواقعة في أوائل القرن الثالث عشر الهجري توحى لنا بمدى شدة تمسك الناس بتلك العادات المرعية في جانب المرأة ، فإننا ننتقل إلى أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر لنذكر واقعة أخرى على المنوال ذاته (١) .

فقد روت وصيفة «الملكة نازلي» عن شدة معاملة «الملك فؤاد» (٢) لها - قالت : وفي السبع عشرة سنة التي عاشها الملك مع الملكة لم يسمح لها بالسفر إلى أوروبا سوى مرة واحدة عندما أجمع الأطباء على ضرورة سفرها إلى إحدى مدن المياه المعدنية بفرنسا لتعالج فيها ، وذلك عام ١٩٢٧م ، وكان الملك مسافراً لبعض دول أوروبا زيارة رسمية ، ورفض أن يصحبها معه في هذه «الزيارات» ، واشترط أن تبقى في أوروبا محجبة ، ورفض أن تكون معه على نفس الباخرة ، وأمر أن تسافر باليخت (المحروسة) ليتفادى سفرها بالبواخر العادية حتى لا تختلط بالرجال ، وأمر الملك أن يكون هناك (ديديان) طوال الليل يمشي أمام الجناح الخاص بالملكة في اليخت ، وعندما بدأت الرحلة ، وخيم الظلام في الليلة الأولى رأت الملكة الديديان ، فغضبت وهاجت وماجت وأمرت قبطان اليخت المحروسة بسحب الديديان فوراً ، وقال لها القبطان في احترام «إنني أنفذ أوامر جلالة الملك شخصياً وقالت الملكة «ولكن وجوده هنا يضايقني ، وصوت حذائه يزعجني ويقلق نومي» ولم يستطع القبطان أن يقول إن صوت الحذاء لا يسمع مع وجود (البساط) المفروش على الأرض ، بل قال للملكة : إذا كان صوت حذاء الديديان يزعج جلالته فإنني سأمره أن يخلع حذاءه ، وفعلاً كان الجنود الذين يتناوبون الحراسة ليلاً أمام جناح الملكة يخلعون أحذيتهم ويقفون حفاة تنفيذاً لأمر الملك من جهة ، وإرضاء للملكة من جهة أخرى.

وحدث في تلك الايام أن نشرت مجلة (روز اليوسف) صورة للملكة «نازلي» ووجهها مكشوف فقامت قيامة الملك «فؤاد» ، وطلب من «توفيق نسيم باشا» رئيس الديوان الملكي أن يطلب من «عبد الخالق ثروت» رئيس الوزراء إغلاق مجلة روز اليوسف بتهمة العيب في الذات الملكية) .. وحقق مدير المطبوعات مع «روز اليوسف» فقالت : إن الصورة منقولة عن جريدة فرنسية وزعت في مصر . واكتفى مدير المطبوعات بتوجيه توبيخ شديد اللهجة إلى روز اليوسف.

---

(١) ذكرنا تلميحاً أن الجوانب الاجتماعية والاخلاقية كانت متماسكة نوعاً ما من أوائل القرن الثالث عشر الى أواخر النصف الأول من القرن الرابع عشر تقريباً ، ثم ظهرت آثار الدعوة الى تحرير المرأة.

(٢) الأعلام ١/١٩٦.

وكان «الملك فؤاد» يحرص أن لا تبدو الملكة سافرة أمام رجل ، حتى أنها كانت لا تستطيع أن تنتزه في حدائق القصر الملكي إلا إذا حجبت نصف وجهها ، وبعد ما يتحقق بوليس القصر من عدم وجود رجل في المنطقة التي ستنتزه فيها الملكة ، يصدر الأمر إلى جنود الحرس الملكي الذين يقفون فوق جدران القصر بأن يديروا ظهورهم إلى حديقة القصر طول مدة سير الملكة في الحديقة ، وعندما أراد ملك أفغانستان «أمان الله خان» زيارة مصر وهو في طريقه إلى أوروبا قام باصطحاب الملكة «ثرثيا» زوجته ، ورحب الملك « فؤاد » بملك أفغانستان ، ثم سمع أن الملك « أمان الله » ، دعا نساء أفغانستان إلى نزع الحجاب اقتداء بالغازي (كمال أتاترك) الذي ألقى الحجاب في تركيا ، وجاءت البرقيات تقول إن الملكة (ثرثيا) سترافق الملك سافرة في رحلته ، وعندئذ ألقى الملك «فؤاد» استضافته ملك أفغانستان في قصر عابدين ، بحجة أن التقاليد تحول دون اشتراك الملكة «ثرثيا» في الزيارة الرسمية ، وعرف أن الملك «فؤاد» لا يريد أن تقيم «ثرثيا» في قصر عابدين حتى لا تسمم أفكار الملكة «نازلي» ، ووافق الملك «أمان الله» على أن تكون إقامة «ثرثيا» في مصر إقامة غير رسمية ، فلا تشترك في الحفلات والاستقبالات التي يدعى إليها ، ولم يكتف الملك «فؤاد» بذلك ، بل أبلغ الملك «أمان الله» أنه يرجو ألا تظهر زوجته سافرة أثناء إقامتها في مصر مراعاة لتقاليدها ، وخضعت «ثرثيا» لرغبة الملك ، وأصدر الملك «فؤاد» أمره إلى وزارة الداخلية بعدم محاولة تصوير ملكة أفغانستان ، وفعلاً لم تظهر صورة واحدة للملكة «ثرثيا» في الصحف المصرية طوال مدة إقامتها ، وعندما انتهت الزيارة ، وصعدت ملكة أفغانستان إلى الباخرة الإيطالية التي أقلتتها إلى أوروبا أسرع ، ونزعت الحجاب بحركة عصبية ، وقالت للصحافيين : «أظن أننا لم نعد مقيدين بأوامر الملك «فؤاد» هنا» (١) .

وهذا ملك أفغانستان «أمان الله» الذي سبق ذكره خلعه العلماء وحرم عرش آبائه ، وأجلي عن البلاد ؛ لأنه سمح لعقليته بأن تخرج سافرة ، ودعا النساء المسلمات إلى نبذ الحجاب.

ولكن كل ما ذكرناه من أمثلة ووقائع على مراعاة الناس لهذه العادات ، لم يخرج عن كونه واقعاً ضمن دائرة العادات والتقاليد ، تلك التي لم يعد لها رصيد من العقيدة في كثير من الأحوال. وما قيل عن الحجاب والعادات المتعلقة بالمرأة يمكن أن يقال عن بقية الجوانب الاجتماعية والأخلاقية الأخرى ، وأنها جميعها قد فقدت قيمتها وأصالتها يوم أن فقدت قاعدتها الإيمانية ، وتحولت إلى عادات موروثة وتقاليد خاوية.

---

(١) من مقالات بعنوان : (من عشرة لعشرين) للصحافي مصطفى أمين - أخبار اليوم ٩ يناير ١٩٨٢م نقلاً عن عودة الحجاب ٧١/٨.

وهنا جاءت النتيجة الخطيرة ، فلم يكن يمكن للعادات الموروثة والتقاليد الخاوية أن تصمد طويلاً في وجه حملات التغريب المنظمة وهجمات الغزو الفكري المخططة ، فإذا بتلك العادات والتقاليد تتهاوى سريعاً تحت معاول العلمانيين وضرباتهم المتتابعة ، وإذا بال جماهير الغفيرة تسرع بهجرها والتخلي عنها وتتبرم منها حتى كأنها لم تكن في حياتها يوماً من الأيام .

فالبنسبة للحجاب سقط في المعركة بعد أن اشتدت ضراوتها ، وصويت سهام الأعداء إليه من كل جانب ، وأتت حركة تحرير المرأة كما يسمونها أكلها ، وظهرت نتائجها سريعاً في كثير من بلدان العالم الإسلامي ، تلك التي بدأت تتسابق فيما بينها للقذف بمجتمعاتها في تيارات العلمنة والتغريب والغزو الفكري ، وعندما أصدر «قاسم أمين» كتابيه المعروفين «تحرير المرأة» عام ١٨٩٩م ، و«المرأة الجديدة» عام ١٩٠١م قامت الدنيا من أجلهما ، وهوجم مؤلفهما هجوماً شديداً ، واتهم بالكفر ، ومنع من دخول قصر خديوي مصر بدعوى أنه يدعو إلى الإباحية (١) .

وتعالت صيحات المستنكرين في كل مكان ، في مصر خاصة ، وفي معظم البلاد الإسلامية الأخرى وتوالت الردود العنيفة عبر المقالات الصحفية والكتب التي بلغ عددها وحدها مائة كتاب (٢) ولكن هذه الحشود الكبيرة من الردود الصحفية والكتب المعارضة قد تلاشت أمام دعوة «قاسم أمين» التي أودعها في مؤلفيه السابقين ، واستطاع ما انطوى عليه هذان المؤلفان من فكر دخيل أن يشق طريقه وأن ينفذ من بين هذه المائة كتاب التي لم تكن الأوضاع الاجتماعية في صالحها ، ليستقر معمولاً به في أرض الواقع ، واستطاعت دعوة «قاسم أمين» أن تجد لها تربة خصبة في الحياة الإسلامية التي كانت تعاني من انحرافات فصلنا القول فيها .

فلم يكن بإمكان مائة كتاب أو ألف مقال أن تتصدى لإصلاح أوضاع فاسدة ، وأخلاق هشة ، ومجتمعات ضعيفة . ومن ثم فلم يمكنها الوقوف في وجه الحملات العدائية وفي مقدمتها دعوة «قاسم أمين» التي تولت كبر ما يسمى بحركة تحرير المرأة . وكان الحجاب مما سقط ، فالبرغم من ضراوة المعركة ، وتوالي الهجمات الشرسة ، على الحجاب فقد كان بالإمكان أن يبقى لو لم يكن قد تحول إلى عادة موروثة وتقليد خاو . و«لبيان ذلك نقول : إن هذه الوسائل ما تزال مستخدمة حتى هذه اللحظة ويعنف أشد مما كان قبل خمسين عاماً دون شك ، وقد أحدثت هذه الوسائل في خلال ما يزيد على نصف قرن تياراً هائلاً نافراً من الإسلام منسلخاً منه ، ومع ذلك توجد فتيات محجبات ، جامعات مثقفات ، لا يتنازلن عن حجابهن ولو دخلن من أجله السجون والمعتقلات» .

(١) عودة الحجاب ٤٧/١ .

(٢) المصدر السابق ٥٠/١ انظر بعض أسماؤها ص ٥٠ من نفس المصدر .



«وبعبارة أخرى نسأل : هل كان الحجاب الذي سقط عقيدة أم تقاليد؟ والأخلاق التي سقطت .. هل كانت ذات رصيد إيماني حقيقي أم كانت تقاليد؟ .....

حين يكون الحجاب عقيدة فإنه لا يسقط .. مهما سلط عليه من أدوات التحطيم.

وحين تكون الأخلاق ذات رصيد إيماني حقيقي ، فليس من السهل أن تسقط - ولو سلطت عليها عوامل الإفساد - إلا بعد مقاومة شديدة وزمن مديد.

أما التقاليد الخاوية من الروح ، وأما العنجهية الفارغة .. فهي عرضة للسقوط إذا اشتد عليها الضغط ، وقد كان الضغط عنيقاً بالفعل ، بل كان شيطانياً بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ (١) . وقد لاقى الحجاب حملة شديدة استهدفت القضاء عليه ومحوه من الحياة الإسلامية إلى الأبد ، ولعل أجراً الخطوات وأشدها جرماً ما قام به «مصطفى كمال أتاترك» في تركيا بعد أن مهد لذلك بإلغاء الخلافة العثمانية ، وعمل على سلخ تركيا من الإسلام وقد أصدر قانوناً بنزع الحجاب ومعاقبة مخالفه وشنق معارضيه في ذلك (٢) .

وكذلك فعل ملك أفغانستان «محمد أمان» حين أصدر قانوناً بنزع حجاب المرأة.

وفي ألبانيا حارب «أحمد زوغو» الحجاب بقانون ، ثم عادت المرأة المسلمة الألبانية إلى الحجاب أيام الحرب العالمية الثانية ، ثم عاد «أنور خوجا» مرة ثانية وشن حرباً شعواء على الحجاب في ألبانيا (٣) .

وفي الجزائر تمكن «أحمد بن بيللا» من سرقة الثورة الإسلامية ، وتحويلها إلى ثورة اشتراكية بعيدة عن الإسلام ، ودعا المرأة الجزائرية إلى خلع الحجاب بحجة عجيبه حين قال : إن المرأة الجزائرية قد امتنعت عن خلع الحجاب في الماضي لأن فرنسا هي التي كانت تدعوها إلى ذلك ، أما اليوم فأني أطالب المرأة الجزائرية بخلع الحجاب من أجل الجزائر (٤) .

ولسنا بحاجة لتتبع ما قام به أعداء الإسلام في الداخل والخارج في هدم الأسس الأخلاقية والاجتماعية عند المسلمين ، وتقويض معالمها ، ونجاحهم في ذلك نجاحاً مذهلاً ، وبسرعة مذهلة وزمن قصير ، بعد أن ارتفعت هذه الأسس قروناً كثيرة ، وذلك بعد أن ضعف ارتباطها بالدين ، ونضبت في داخلها العقيدة والصلاح.

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٦٤.

(٢) عودة الحجاب ٢٠٥/١.

(٣) المصدر السابق ٢١٦/١.

(٤) واقعنا المعاصر ٢٦٠.

ولعل ما ذكره الشيخ «أبو الحسن الندوي» في كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» عن أفغانستان ذلك البلد الإسلامي يعطي صورة واضحة عن سرعة انهيار الجوانب الاجتماعية والأخلاقية في كثير من البلدان الإسلامية. يقول «الندوي» :

«وقد كانت هذه الحال في أفغانستان حين طمرت طفرة واسعة إلى الحضارة الغربية ، ورفعت الحجاب بينها وبين الحضارة أخيراً ، وبدأت تهجم على الحضارة الغربية وعاداتها وتأخذها بنهامة وشغف. وقد حدثت هناك ثورة في الأوضاع في خلال ٣٢ سنة . فالمجتمع الأفغاني الذي ثار على «أمان الله خان» الأمير العريق في الملك والشرف لأجل إصلاحات وتطويرات قام بها ، اضطرت تلك الثورة إلى التنازل عن العرش والجلء الدائم، وأصبح هذا المجتمع الأفغاني يقبل إلى المدنية الحديثة وأوضاعها المخالفة للتقاليد الإسلامية الأفغانية بغطى سريعة واسعة، وأصبحت أفغانستان المحافظة المصون تتطور تطوراً سريعاً لا يعرف أحد مداه ونهايته» (١) .

ثم ينقل كلاماً لأحد الصحفيين الأوربيين المراسلين لإحدى الصحف الهندية الانجليزية «بدأت نساء الأفغان يخرجن سافرات من آب ( أغسطس ) عام ١٩٥٩م ، أثر منشور ملكي سمح للنساء بالسفور ، ولم يفرض ذلك عليهن فرضاً ، سألت السيدة «معصومة الكاظمي» وكانت تخرجت من جامعة كابل بشهادة الليسانس الداخلية في الطب ، وكانت صورة حية للظرف وخفة الروح مليئة بالحياة : ماذا فعلت بعد صدور هذا المنشور؟

قالت : إنني وأختي طرحنا الملاعة وأردية القناع في التنور وسجرناها وحلفنا أننا لا نرجع إليها أبداً» (٢) .

ويقول المؤلف حين قام بنفسه بزيارة إلى أفغانستان عام ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) : لاحظنا أنا المدنية الغربية قد قطعت شوطاً بعيداً في هذه البلاد، وأن الثقافة الغربية قد أتت أكلها يانعة ناضجة، وأن المسافة بين الفترتين ١٩٢٨ - ١٩٧٣م كانت واسعة بعيدة . فقد كان الشعب الأفغاني إلى عهد «أمان الله خان» متمسكاً بالتقاليد الإسلامية الأفغانية عاضاً عليها بالنواجذ ، حتى بلغ في ذلك حد التطرف والمغالاة ، وكان نتيجة ذلك أن خروج الملك «أمان الله خان» عن بعض هذه التقاليد أحدث ثورة أطاحت بعرشه ، أما الوضع الآن فمختلف جداً ، إنها مسافة قصيرة بالحساب الرياضي ، وهي

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ص ١٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١ .

مدة خمس وأربعين سنة ولكن المسافة الفكرية والثقافية ، هي مسافة شاسعة يقطعها بعض الشعوب في قرن ، فقد أصبح الحجاب الآن رمزاً للتخلف والجهل والفقر ، ولذلك انكمش ولجأ إلى القرى والأرياف وبيوت بعض العلماء المحافظين والفلاحين البعيدين عن العاصمة ...» (١) .

وليست أفغانستان سوى مثل تكرر على منواله ما جرى في أكثر الأقطار الإسلامية من سقوط للأسس الأخلاقية والاجتماعية وتهاويها السريع بصورة مذهلة.

وهكذا تكون مصائر العادات والتقاليد الجوفاء الخالية من العقيدة ، مهما اتسمت بالصرامة ، وامتزجت بالمغالة والتطرف.

هذا هو المرتكز الأول الذي رأيناه جديراً بالتسجيل والحديث حول الضعف الاجتماعي والأخلاقي في الفترة التي نعتى بدراستها ، ألا وهو تحول كثير من الجوانب الاجتماعية والأخلاقية إلى عادات وتقاليد لا تقوم على قاعدة متينة من العقيدة الصحيحة ، والإيمان القوي وأن هذه العادات والتقاليد ما كان لها أن تظل صامدة أمام الهجمات الشرسة من قبل أعداء الإسلام. وقد استغل أعداء الإسلام في أثناء هجومهم على الأخلاق والتقاليد الخاطئة الموجودة في المجتمع الإسلامي ، وهاجموا معها العادات المستمدة من الدين من حجاب واستقرار في البيت وغير ذلك ، وجعلوا كل ذلك من التقاليد العتيقة التي عفى عليها الزمن ولم يعد يستساغ وجودها في العصر الحاضر (٢) .

أما المرتكز الثاني : فهو ما أصيبت به الأمة الإسلامية في هذه الفترة وخاصة القرن الرابع عشر الهجري من انهيار مهول في الجوانب الاجتماعية والأخلاقية ، وتحلل وفوضى فيها ، ومع ذلك فإنه يعد أمراً هيناً بجانب الأمر الخطير الذي وقع لأول مرة في تاريخ الأمة وهو انتقاص القيم الإسلامية ومهاجمتها بشدة ومحاولة القضاء عليها من أبناء الأمة نفسها وذلك بفعل الغزو الفكري .

إن وقوع التحلل والترذل الخلقي أمر محتمل الوقوع ، بل متحقق في حياة الناس ، وقد وقعت بعض مظاهره في طول تاريخ الأمة ، وليس هذا غريباً . ولكن الغريب حقاً أمران وقعا في تلك الفترة التي ندرسها .

الأمر الأول : هو حجم الفساد وتفشيهِ العظيم في أوساط المجتمعات الإسلامية فلم يطغ مثل هذا الحجم الهائل من الفساد على الحياة الإسلامية إلا في تلك الفترة. ولم يصل إلى ما وصل إليه بذلك الشكل الخطير في أي عصر مضى. وبالتالي تسبب هذا الانتشار في ضعف إحساس الناس

(١) المصدر السابق ص ٢٢.

(٢) انظر : واقعنا المعاصر ص ٢٨٦.

بمخالفة الأخلاق. فلم تعد مخالفتها تثير في نفوسهم من الكره والاشمئزاز ما كانت تثيره من قبل. أو بعبارة أخرى فقد طغى الفساد والتحلل على المجتمعات الإسلامية، وأصبح هو الغالب عليها، والمسير لحياتها، وانحصرت القيم الخلقية والمثل الاجتماعية في أضيق نطاق، فكأن الفساد هو الأصل، والصالح هو الشاذ والغريب، كما يبدو ذلك واضحاً من خلال النظرة إلى تلك المجتمعات. «فهناك فارق ضخم بين مجتمع لا تقع فيه الجريمة إلا شذوذاً يستنكر، وتعال عقوبتها الرادعة حين تقع، ومجتمع يعج بالفاحشة حتى تصبح العفة فيه هي الشذوذ المستنكر» (١).

الأمر الثاني: وهو الأشد خطورة، ولا أظنه حدث أبداً في تاريخ الأمة كما قلنا من قبل، ألا وهو الهجوم الشديد على الروابط الأخلاقية والاجتماعية، وانتقاصها، واعتبارها رمزاً للتخلف والرجعية، فلم يكتف بالتخلي عن هذه الروابط والتهاون فيها، بل تعدى ذلك إلى مهاجمتها وإلقاء اللائمة عليها فيما أصاب المسلمين من ضعف وتخلف، وهجوم الدين في أثناء ذلك هجوماً عنيفاً، ونودي بفصل الدين عن الحياة، وأن الأخلاق لا علاقة لها بالدين!!

وسوف ندمج الحديث عن هذين الأمرين بصفتيهما متلازمين، ومتأثر كل منهما بالآخر فلقد حدث الأمران معاً، فوقع فساد عظيم في الدين والأخلاق، صاحبه هجوم شديد ومتواصل عليهما، وارتبط ذلك كله بعجلة التطور، ومفهوم التخلف والرجعية.

فاعتبرت الأخلاق الإسلامية علامة على التخلف والرجعية، واتهمت الروابط الاجتماعية أنها تقف في طريق تقدم المجتمعات ورفقيها، «وانحرف الناس عن نهج الدين واستهوتهم مظاهر الحياة الغربية، فأقبل كثير منهم على الخمر والفجور والقمار والربا ونحو ذلك، ثم دب دبيب التهاون في الدين فتناول العبادات والعقائد وغيرها من أنواع الانحلال، فتكاسل الناس عن أداء العبادات وانتشرت في الجو ضروب من الفلسفة والمذاهب الضالة، واستمالت الشباب وغير الشباب، وصارت العلاقة الجنسية والنزعة الإباحية الشغل الشاغل للسينما وكثير من المجلات والصحف ابتغاء وفرة الربح والدخل، فانحرف الشباب وفسدت روابط الأسرة، ثم عم السيل وطم وانهارت الفضائل الاقتصادية والاجتماعية» (٢).

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٩٤.

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ٢١٢ د. جميل المصري من كتاب «الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام» للدكتور عبد الستار فتح الله السعيد.

ولعل من الأحداث البارزة التي شن فيها الهجوم على بعض المثل الإسلامية ما تمثل في مظاهرة النساء المصريات <sup>(١)</sup> في ميدان قصر النيل (ميدان الإسماعيلية) <sup>(٢)</sup> أمام ثكنات الجيش الإنجليزي سنة ١٣٣٨هـ - ١٩١٩م بقيادة «صفية هانم زغلول» ، و«هدى شعراوي» وقيامهن في وضوح النهار وأمام الملأ بخلع الحجاب وإشعال النار فيه <sup>(٣)</sup> .

فكان هذا الهجوم السافر إعلاناً باستشراء الفساد وغلبة الباطل ، ودليلاً على انزواء الصلاح وضعف الحق وهوانه بين الناس .

فكانت الأحداث تتوالى سريعاً في صورة صراع مرير بين القديم والجديد ، أو إن شئت فقل صراعاً بين الإسلام الذي انقلب في أكثره إلى رسوم وعادات جوفاء وبين الباطل في صورة حضارة قوية أخاذة وغالبة ، هجمت عليه من كل جانب .

وفي موضوع المرأة كانت دعوة «قاسم أمين» هي فاتحة الشرور التي أطلت على المسلمين بعد ذلك ، وعلى الرغم أن «قاسم أمين» لم يدع قط إلى اختلاط المرأة بالرجال ومراقصتهم ولم يدع قط إلى أن يتجاوز كشف النقاب إلى الكشف عن الأذرع والسوق ، والصدور والظهور . ولم يدع قط إلى اتخاذ الملابس الضيقة التي لا تخفي عورات الجسم إلا لتبرز مواضع الفتنة والإغراء منها ... فإنه هو الذي فتح الباب لمثل هذه الدعوات ، وهو الذي خطا الخطوة الأولى في طريق كان لا بد أن يسير الناس فيه من بعده خطوات لم يعد الذي دعا إليه «قاسم أمين» هو شغل الناس بعد الحرب <sup>(٤)</sup> ، فقد أخذت الأمور تتطور تطوراً سريعاً ، حتى أصبحت دعوة «قاسم أمين» وقد استنفدت في وقت وجيز كل أغراضها واندفع الناس إلى ما وراءها في سرعة غير منتظرة .

فقد خلعت المرأة النقاب ، ثم استبدلت المعطف الأسود بالحبرة <sup>(٥)</sup> ، ثم لم تلبث أن نبذت المعطف وخرجت بالثياب الملونة ، ثم أخذ المقص يتحيف هذه الثياب في الذيل وفي الأكمام وفي الجيوب <sup>(٦)</sup> ، ولم يزل يجور عليها فيضيئها على صاحبها حتى أصبحت كبعض جلدها ، ثم إنها تجاوزت ذلك كله

(١) كن خليطاً من المسلمات والنصرانيات واليهوديات .

(٢) هو ميدان التحرير حالياً .

(٣) انظر حول ذلك : واقعنا المعاصر ص ٢٥٨ . الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/٢٥٠ .

(٤) هي الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م .

(٥) الحبرة : هي إزار كانت المرأة تلتحف به إذا برزت للطريق ، وقد كان يتخذ من قماش أسود ويتكون من قطعتين ، تدور إحداهما حول الخصر وتنسدل إلى أن تغطي الساقين ، وتنزل الأخرى من فوق الرأس فتغطي الصدر والكفين وتنتهي إلى ما تحت الخصر ، وقد اختفى هذا الزي الآن أو كاد .

(٦) جيب الثوب هو طوقه الذي يحيط بالرقبة ، والفتحة التي يدخل فيها اللباس رأسه حين يلبسه . من هوامش د . محمد محمد حسين رحمه الله .

إلى الظهور على شواطئ البحر في المصايف بما لا يكاد يستر شيئاً، ولم تعد عصمة النساء في أيدي أزواجهن، ولكنها أصبحت في أيدي صانعي الأزياء في باريس من اليهود ومشيعي الفجور ، وقطعت مرحلة التعليم الابتدائي والثانوي واقتحمت الجامعة ، مزاحمة فيما يلائمها. وفيما لا يلائمها من ثقافات وصناعات ، وشاركت في الوظائف العامة ، ثم لم تقف مطالبها عند حد في الجري وراء ما سماه أنصارها «حقوق المرأة» أو «مساواتها بالرجل» وكأنما كان عبثاً أن خلق الله - سبحانه - الذكر والأنثى ، وأقام كلاهما فيما أراد وامتلات المصانع والمتاجر بالعاملات والبائعات ، وحطم النساء الحواجز التي كانت تقوم بينهن وبين الرجال في المسارح وفي الترام وفي كل مكان ، فاختلفت المقاعد التي جرت العادة على تخصيصها، بعد أن أصبح يفضلن مشاركة الرجال»<sup>(١)</sup> .

«كتب «أنيس منصور» في إحدى مقالاته في أخبار اليوم : إنه زار إحدى الجامعات الألمانية ورأى هناك الأولاد والبنات أزواجاً مستقلين على الحشائش في فناء الجامعة ..... قال : فقلت في نفسي : متى أرى ذلك المنظر في جامعة أسيوط! لكي تراه عيون أهل الصعيد ، وتتعود عليه!

هذا وغيره فضلاً عن آلاف بل ملايين الصور العارية .. والأغاني العارية ... والأفكار العارية ... والنكت العارية ... التي تملأ الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون ..... وآلاف بل ملايين الأجساد العارية في كل مكان : في الشوارع والمكاتب ووسائل المواصلات والشواطئ العارية في فصل الصيف...»<sup>(٢)</sup> .

«فهذه صحيفة السياسة الأسبوعية تكتب مقالاً عن فتاة تركيا ١٩٢٦ م ، تصف فيه سفر باخرة اتخذتها وزارة التجارة التركية معرضاً عاماً ، في رحلة على نفقة الحكومة ، تنتقل فيها بين موانئ أوروبا الشهيرة فتقول إن هذه الباهرة كانت تقل (خمساً وعشرين فتاة من فتيات تركيا الجديدة كلهن جميلات مقصوصات الشعور ، لا يكاد يميزهن الرائي من فتيات لندرة وباريس) .

ويقول مراسل الصحيفة : إن أكثر الفتيات يتكلمن الإنجليزية بإتقان يدعو إلى الدهشة ، وأن بعضهن قد تلقى العلم في الكلية الأمريكية في القسطنطينية، ويروى بعض ماصرحت به الفتيات ، من مثل قول إحداهن في بعض الموانئ الإنجليزية : (إن المرأة التركية اليوم حرة، فلن تسير في الطرقات في ظلام ، وإننا نعيش اليوم مثل نسائكم الإنجليزيات ، نلبس أحدث الأزياء الأوروبية والأمريكية ، ونرقص وندخن ونسافر وننتقل بغير أزواجنا)<sup>(٣)</sup> .

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/٢٤٩.

(٢) واقعنا المعاصر ص ٢٩٥.

(٣) الاتجاهات الوطنية ٢/٢٥٥.

بل لقد حظي هذا الهجوم الأثم بمساندة الأنظمة الحاكمة له في كثير من بلاد الإسلام. ومحاولة هذه الأنظمة العلمانية الجائرة القضاء على الجوانب الخلقية والاجتماعية وفرض نقائضها وما يخالفها بالقوة على المجتمع، وسن القوانين التي تهدف إلى إلغائها . وقد ذكرنا ماقام به كل من : «كمال أتاترك» في تركيا . «والملك أمان الله » في أفغانستان «وأحمد زوغو» في ألبانيا ، و«أحمد بن بيل» في الجزائر في سبيل تحقيق ذلك ، ووصل الأمر في بعض تلك الدول إلى اعتقال بعض النساء المسلمات بتهمة ارتداء الحجاب !! (١) . وتم فصل بعض المدرسات من أعمالهن بسبب إصرارهن على لبس الحجاب في إحدى تلك الدول (٢) . وأصدر في بعضها قانون يمنع تعدد الزوجات ، ويعتبر أن التعدد جنحة يعاقب مرتكبها بالسجن لمدة سنة ، وبغرامة مالية تقرب من (٢٤٠) ديناراً .

وعندما ضبط أحد الذين تزوجوا ثانية ، وسيق إلى المحاكمة ، تبرأ من عمله بأن هذه ليست زوجته الثانية ، وإنما هي خليلته ، فعفى عنه (٣) .

وقام آخر من هؤلاء العلمانيين المارقين بإصدار قوانين تساوي بين الرجل والمرأة في الميراث وتمنع تعدد الزوجات ، وعلق معارضيه من العلماء على أعواد المشانق بعد أن حكم عليهم بالإعدام (٤) . وأنزلت المظليات والمظليون إلى شوارع إحدى العواصم الإسلامية لينتزعوا بالقوة والإرهاب حجاب النساء المسلمات في هجوم سافر على فريضة شرعية . «وافتحت الخمارات في كل مكان ، حتى تغلفت إلى الريف وإلى أحياء العمال. وافتحت نور البغاء المرخصة من الحكومة في كل العواصم. وتجراً الناس على ارتكاب الموبقات والجهر بها باسم الحرية الشخصية التي لم يفهموا منها إلا أن يحل الناس أنفسهم من كل قيد لا يبالون ديناً ولا عرفاً ولا مصلحة» (٥) .

ويسرت سبل الإفساد ، وسهلت وسائل الرذيلة وإشاعة الفاحشة عبر وسائل الإعلام ، وبما تقوم الأنظمة العلمانية برعايته من كل مامن شأنه شرخ العقيدة الإسلامية ، وهدم الأخلاق والفضائل ، «ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك تيسير استخدام موانع الحمل وإنتاجها على نطاق واسع أكبر بكثير جداً من حاجة البشرية الراشدة ، وتخفيض أسعارها حتى تصبح في متناول أي فتاة تريد أن تحصل عليها ، وإخراجها من دائرة المراقبة الصحية التي يمكن للأطباء أن يمارسوها ، وذلك ببيعها دون

(١) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٦٥ .

(٢) المرأة بين الجاهلية والإسلام ص ٢٨٥ محمد الناصر . خولة درويش . دار الرسالة . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨٥ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٨٦ .

(٥) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/٢٦٤ .

حاجة إلى تذكرة الطبيب ، على الرغم مما يقوله الأطباء أنفسهم من خطورة استخدامها بغير رقابة صحية. والهدف من ذلك واضح. فحين تأمن الفتاة نتائج اتصالاتها غير المشروعة ، فما الذي يمنعها - في الفوضى الخلقية الضاربة أطنابها في الجاهلية المعاصرة - أن تغرق في هذه العلاقات إلى آخر المدى ، ويتحقق للشياطين ما يريدون من إشاعة الفاحشة على أوسع نطاق»<sup>(١)</sup>.

وما زالت المعاول الهدامة تدك صروح الأخلاق الإسلامية ، وتدهمها الدعوات المشبوهة هازئة بها ، ومتخفية إياها حتى قوضتها ، وأزالتها من النفوس واستبدلت بها أردية التحرر والتحلل والانفلات من الضوابط ، فنشأت مجتمعات تستمرى الرذيلة وتآلف الفاحشة ، وتستروح الفساد ، في الوقت الذي نبذت فيه الفضيلة ، واستوحشت من الطهر والصلاح ، ونظرت إلى ذلك بعين الإزدراء. وظهرت فتنة الموضة والأزياء مبكراً ، كمؤشر على الخواء الروحي الذي أصاب نساء المسلمين.

تقول إحدى الكاتبات التي عاصرت غزو الموضة إلى العالم الإسلامي في بواكير القرن الرابع عشر الهجري : «ولكن لم تلبث أن تقدمت نحونا تلك المناظرة بخيلها ورجلها ، ودخلت بلادنا ضيقاً غير محتشم ، واستمالت قلوب النساء والبنات إلى الأخذ بها ، فتغيرت الحالة الأولى بضدها ، واستحالت عوائدنا القديمة إلى عكسها وارتفع علم المودة (أي الزي الجديد) في ربوعنا حتى راجت بضاعته ، ونال من أفئدتنا بغيته...»

إلى أن قالت : «أما الآن فترى المسئلة معكوسة من جميع وجوها حيث نجد المثریات منا اللواتي ينبغي أن يكن قدوة لجمعيات يتسابقن إلى ميدان المودة ، ويبرزن بحللهن وحليهن تيهاً وإعجاباً ، ويتفاخرن كل يوم بثوب جديد إعلاماً ببذخهن وإسرافهن إلى غير ذلك ، مما يجدد في نفوس عامة النساء روح الغيرة والافتتان ، ويحملهن على إقدامهن على نحو هذا التقليد المضر بصالحهن المادي والأدبي ، فضلاً عن إضراره بصحتهن وراحتهن...»

وتقول أيضاً : «وكم من امرأة قد باعت ما لديها من الحلي والعقار وابتاعت بقيمته قبعات وأثواباً ومراوح إلى غير ذلك من لوازم المودة العائدة بخراب بلادنا والمنفعة لغيرها من البلاد التي تختلق لنا لزوم ما لا يلزم فنتهاقت إلى ابتياعه ولا تهافت الجياح إلى القصاع...»<sup>(٢)</sup>.

ومع دلالة الموضة على الجهل والخواء الروحي ، فإنها لتدل على غياب القدوة في حياة المرأة المسلمة والمتمثلة في أمهات المؤمنين ونساء الصحابة الأبرار ، ومن جاء بعدهن ممن ترسمن خطاهن ، واقتدين بهن في القرون المتقدمة.

(١) واقعنا المعاصر ص ٩٧.

(٢) الدر المنثور في طبقات ربات الخنور ص ١٤ وما بعدها.



وما من داع أن نخوض حول عبودية المودة في هذا العصر، وانتشارها بين النساء في المجتمعات الإسلامية، فإن الواقع الأليم قد كفانا مؤنة ذلك.

كما أصيبت تلك المجتمعات بالتفكك، وسادت فيها الأخلاق النفعية، والعلاقات الانتهازية، وطفئت فيها أنانية الفرد، وحب التسلط على الآخرين.

«وإنه لأمر مؤلم أن تسود النفعية كثيراً من مجتمعاتنا المسلمة في العصر الحاضر، فبعد أن كان الإخلاص والأمانة والصدق والإيثار، من أهم خصائص أخلاق المسلمين، إذا بالغش والكذب، والأنانية والخيانة محل تلك الفضائل عند كثير من الناس، ومن هنا باتت الشكوى مريرة والانهيأ خطيراً» (١).

وانتشرت الغيبة والنميمة والكذب وأصبحت من أخلاق الكثيرين وطباعهم، وطفئت الرشوة وأساليب المكر والاحتيال حتى عد ارتكابها من الذكاء وبعد النظر.

وتصدعت الأسرة المسلمة بعد أن استجابت الأم والزوجة لدعاة خروج المرأة إلى العمل زاعمين أن بقاءها في البيت «انتقاص لحقوقها وقتل لشخصيتها واعتداء على كيائها» (٢). فأصيب الأطفال بالضياح والتشرد الأسري نتيجة لما يسمى بالخروج إلى العمل، وفسدت تنشئتهم حين وكل بتربيتهم إلى الخدم ودور الحضانة، ولجأت الأم إلى الوسائل الصناعية في إرضاع طفلها خيانة للأمانة وتفريطاً فيها وتعطيلاً لسنة الله، لأن الله سبحانه لم يخلق ثدي الأم لتبرزه في السهرات وتكشف عن جماله وتنصبه شركاً في الطرقات، ولكنه أوجده أصلاً للإرضاع. والرضاعة مع ذلك ليست عملية عضوية آلية فحسب، ولكنها حنان متبادل وميثاق غليظ. وليس لنا أن نتوقع بعد شيوع الرضاعة الصناعية إلا السعي لاختراع وسيلة للحمل الصناعي بعيداً عن بطن الأم. إن أمكن - توفيراً لجهدا وصيانة لجمالها (٣).

«والأسرة المسلمة دب فيها الوهن بعدما بعدت عن أحكام الإسلام فالعلاقات بين الزوجين متوترة وعلى الأحسن فاترة، والعلاقات بين أفراد الأسرة الآخرين تفككت تقليداً للغرب الصليبي، ومظاهر قطع الرحم والخصام تزيد عن مظاهر الوثام والسلام، ومظاهر التظالم بين أفراد الأسرة

(١) أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام ص ٣٣٣.

(٢) حصوننا مهددة من داخلها ص ١٠٤ د. محمد محمد حسين دار الرسالة. مكة المكرمة. الطبعة الثانية عشرة ١٤١٣هـ - ١٩٩٤م.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٣.

الواحدة والتشاحن على الميراث وعلى غيره من أغراض الحياة الدنيا كثيرة وكبيرة وعميقة. والمجتمع المسلم لم يعد جسداً واحداً ؛ تقطعت أوصاله وأجزأه على مستوى الأمة الإسلامية ، فلم تعد واحدة، وتقطعت أوصاله وأجزأه داخل البلد الواحد إلى أحزاب وفرق وعصبية وساد الفكر الصليبي ، أو الصهيوني، أو ما يريده هذا وذلك أن يسود ، وانتفى فيه التكافل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وانهار خلقاً بترك الصدق والأمانة والعفة .

وعاون على ذلك إعلام فاجر لا يراعى الله ولا الأخلاق ولا القيم ، ويحقق للصهيونية أو الصليبية كل ما تبغيه ، عقيدة وخلقاً وسلوكاً كما ساعد على ذلك تعليم ثقلت أو يتقلت من قيم الإسلام ، ليعطي قيماً غير إسلامية ، وليقرر مناهج غير إسلامية في مجال الطبيعيات والعلوم الإنسانية والاجتماعية وليزري عن عمد أو عن جهل بالدين ورجاله وعلمائه فيزري بالتالي بقيمه وأحكامه» (١) .

والأم «أصبح دورها ضعيفاً في توجيه الأبناء بسبب الجهل ، أو غلبة المفاهيم الغربية على كثير من المتعلمين والمتعلمات من أبناء أمتنا . وكانت محاولات المرأة للخروج (كما ذكرنا) من منزلها للعمل من أهم أسباب إهمال الأطفال ، أو تسليمهم لأيدي الخادمت ، وربما كن غير مسلمات - لقد بدأت الصيحات تتعالى لتقليد المرأة الغربية ، مما نجم عنه خطر داهم في تفكك روابط الأسرة المسلمة ...» (٢) .

ولا عجب بعد ذلك إذا سمعنا عن جرائم اجتماعية في العالم الإسلامي تضاهي التي في أوروبا وأمريكا من قتل واختطاف واغتصاب وتشرد ، ولا عجب أن تنتشر الأمراض الاجتماعية الفتاكة الناشئة عن فقد كل من الجنسين خصائصه المميزة ، وليس ما نشاهده من تخنث الرجال وترجل النساء إلا صورة من ذلك .... وأن تنتشر ظاهرة تعاطي المخدرات بين الشباب خاصة، مما ترتب على ذلك كثرة جرائم القتل والسرقة والتهريب (٣) .

وقد بلغ الفساد والانحلال بكثير من البلاد الإسلامية أنك لم تعد تستطيع أن تفرق بينها وبين البلاد الغربية وما تعج به من مظاهر الفساد والتحلل ، حيث تطفئ هذه المظاهر على جميع ميادين الحياة في الشوارع والأسواق والأعمال والمستشفيات والمنتزهات والمؤسسات التعليمية من معاهد ومدارس وجامعات ، وانعدم الأمن بسبب ذلك ، وفقدت الثقة والاحترام ، وانتهكت الأعراض بل استحلّت في حقيقة الأمر ، ولم يعد الصالحون يأمنون على أعراضهم وأنفسهم وسط تلك المجتمعات المتحللة من الفضيلة والأخلاق .

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٨٨ د. علي جريشه.

(٢) المرأة بين الجاهلية والإسلام ص ٣٢٥.

(٣) حاضر العالم الإسلامي ص ٢٢٤ د. جميل المصري.

ومن المتناقضات الاجتماعية الصارخة التي أوضحت من سمات المجتمعات الإسلامية المعاصرة التفاوت المادي الشديد بين فئات المسلمين ، فبينما ترى في البلد الواحد عدداً كبيراً من الأثرياء وأصحاب الأرقام الفلكية من الأموال، تجد ألوفاً بل ملايين من الأدميين الذين أهدرت آدميتهم بسبب الحالة المدقعة التي تدنو إليها، حيث تصل هذه الحالة في بعض البلدان إلى دون مستوى الحيوان<sup>(١)</sup>

يقول الدكتور «نبيل صبحي الطويل» متحدثاً عن ذلك التفاوت العجيب بين مجتمعات المسلمين : «لقد زرت وعشت أياماً وأشهرراً في كثير من الحواضر الكبرى في ديار المسلمين «لاغوس» في نيجيريا و«دكا» في بنغلاديش ، ورأيت فيها جميعاً التناقض المخيف بين من يملكون الملايين ومن لا يملكون شروى نقيير ، بين البيوت الفخمة والشوارع العريضة وبين الأكواخ الخشبية والطرق الضيقة ، بين الحداثق الغناء في الأحياء السكنية الراقية وبين أكوام القمامة والأوساخ وتجمعات المياه الراكدة والحفر والحشرات والفئران على حواشي الحواضر الكبرى هذه ، وفي أحيائها القديمة بين نظافة الثياب الأنيقة للفتية في الأماكن الموسرة والأجسام الممتلئة بل وربما المترهلة شحماً ودهناً من التخمّة ... وبين الأسماك والخرق البالية على الأجساد الضعيفة الهزيلة المريضة الجائعة - بين الفنادق الفخمة ذات النجوم الخمسة ، وكثير منها للأجانب ، وبين المقعدين المعوقين من الشحاذين الفقراء صفاراً وكباراً ... على أبواب هذه الأبنية الرائعة يحدث كل هذا في ديار المسلمين»<sup>(٢)</sup> .

وما ذكره الدكتور «الطويل» يكاد يتكرر في كل بلد إسلامي حيث تبرز الطبقة الكريهة واضحة بلا خفاء- وأصبح التعامل والعلاقات على ضوء هذه الطبقة التي تزيد الفجوة أصلاً بين أفراد المجتمع اتساعاً ، وهل كان يحدث مثل هذا التمييز الواضح لو أن المسلمين كانوا متمسكين بدينهم ، وأخرج الأثرياء منهم زكاة أموالهم ؟ في الواقع لم يحدث مثل ذلك على الإطلاق ، وظلت الأحوال تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، وتتفاقم هذه الطبقة وتستشري مع مرور الزمن.

---

(١) في خطاب للإمام حسن البنا رحمه الله تعالى ألقاه في المؤتمر السادس للإخوان المسلمين في القاهرة عام ١٩٤١م تحدث فيه رحمه الله عن فساد النظام الاجتماعي في مصر فكان مما ذكره : أن أربعة ملايين من المصريين لا يحصل أحدهم على ثمانين قرشاً في الشهر إلا يشق النفس ، فإذا فرضنا أن له زوجة وثلاثة أولاد وهو متوسط ما يكون عليه الحال في الريف المصري بل في الأسر المصرية عامة .. كان متوسط ما خص الفرد في العام جنيهين ، وهو أقل بكثير مما يعيش به الحمار ، فإن الحمار يتكلف على صاحبه (١٤٠ قرشاً خمس فدان برسيم و٣٠ قرشاً حملاً ونصف الحمل من التبن و١٥ قرشاً أردب فول و٢٠ قرشاً أربعة قراريط عفش ذرة ومجموعها ٢٤٠ قرشاً) وهو ضعف ما يعيش به الفرد من هؤلاء الأدميين في مصر. وبذلك يكون أربعة ملايين مصري يعيشون أقل من عيشة الحيوان. الإخوان المسلمون ، أحداث صنعت التاريخ ٢/٣٧٩ محمود عبد الحليم . دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع. الاسكندرية. ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٢) الحرمان والتخلف في ديار المسلمين ص ٤٢ نقلاً عن حاضر العالم الإسلامي ص ٢٤٨ د. جميل المصري.

لقد كان خروج الأخلاق من دائرة العبادة الواسعة في الإسلام سبباً في سهولة تحطيمها وإضعافها ، «وحين يخرج الصدق من دائرة العبادة لم يعد الصدق في حس الناس لازماً .. وإنما أصبح شيئاً جميلاً إن وجد ، فإن لم يوجد فلا بأس!

وحين خرجت الأمانة من دائرة العبادة لم تعد لازمة في التعامل! إنما هي جميلة إن وجدت في شخص بعينه ، فإن لم توجد فلا بأس! وحين خرج الوفاء بالوعد من دائرة العبادة لم يعد لازماً! إنما هو موعظة جميلة يلقي بها الخطيب في خطبة الجمعة ، فإن لم يمارسه أحد فلا بأس!» (١) .

وهكذا خرجت العفة والحشمة والإيثار والتوقير وغيرها من الأخلاق من دائرة العبادة «وهكذا صار عند الناس إسلام بلا أخلاق .. إسلام لم ينزله الله تعالى ولم يأمر به، إنما أمر بضده تماماً .... ويجيء الفكر الإرجائي فيواكب هذا التخلف العقدي المهلك ، ويتسع تدريجياً مع كل تخلف جديد على أساس قاعدته «العظمى» أنه لا يضر مع الإيمان شيء، وأن الإيمان هو التصديق ، أو هو الإقرار والتصديق ، وأن العمل خارج من مسمى الإيمان ..» (٢) .

لقد رأينا في الباب الأول مزيداً من التدني في الأحوال العقدية ، وتفاقماً في الانحرافات الدينية، فالكل لم ينج من لوثات هذه الانحرافات ، فأنى لمجتمعات تضافرت على الشرك والبدع والخرافات ، وملاحقة المجانيب ، والتعلق بالخوارق والكرامات ، والركون إلى عالم الغيب كما يفهمونه هم ، والإعراض أو الاستهانة بعالم المحسوسات ، والرضوخ والرضا بسيادة المتصوفة والممخرقة ، والخنوع للواقع المرير المؤلم المليء بكافة صور الفقر والحرمان والمرض والجهل والتخلف ، والجري وراء إقامة الموالد وتقديم القرابين والذبائح والهدايا والنذور إلى سدنة الأضرحة والمشاهد ، وتكاتفهم أحزاباً لنصرة مذاهبهم وطرقهم ، وتفرقهم بسبب ذلك . أقول بعد ذلك أنى لمثل هذه المجتمعات أن ترعى الأخلاق أو أن تظل محافظة عليها ، ساهرة على حمايتها ضد كل سهم يصوب إليها .

لقد كانت هذه المجتمعات التي وصفنا بعض حالها في غفلة تامة عما أريد بها من شر وفساد بسبب انشغالها بما ذكرنا من انحراف وباطل.

حتى إذا بدأت دعوات التغريب والعلمنة في تصويب سهامها القاتلة ضدها وجدت الحدود خالية من حراسها الذين كانوا غارقين في حمأة الوجد والتصوف، مما عجل بنهاية المعركة وارتفاع رايات العلمنة والتغريب فوق تلك المجتمعات التي لم تفق من وجدها وهياماتها وانحرافاتهما إلا على أنظمة العلمانيين ومؤسساتهم تقرر رؤوسهم وتحكمهم وتسير بهم إلى هاوية التفرنج والانسلاخ من الدين.

(١) واقعنا المعاصر ص ١٧٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٧١.

قضية أخيرة لا بد من الإشارة إليها بعد أن حاولنا أن نكشف الغطاء عن الضعف الأخلاقي والاجتماعي الذي أصاب الأمة الإسلامية في الفترة الأخيرة، ذلك هو غياب فريضة إسلامية عظيمة كان من الممكن لو أنها مورست ولو على نطاق ضيق أن تخفف بعض الشيء من حدة ذلك الضعف. هذه الفريضة هي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تلك الفريضة التي كانت شبه غائبة عن حياة الأمة ولم يكن أسوأ من هذه القضية سوى تقاعس العلماء وطلبة العلم عن القيام بواجبهم الذي يتركز أساساً في فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأين كان العلماء من هذه الفريضة العظيمة وقت توالي الفساد وتتابع الشرور والفتن على الأمة ؟ ماذا كان موقف العلماء من التعالين بالمنكرات والجهر بها ، ومن تفشى الرذائل وألوان الإباحية والتحلل ، ومن طمس الفضائل ومحاربتها . لقد كان موقف العلماء الذي كان مفترضاً عليهم أن يحموا الأمة من عاديات الشرور، ومضلات الفتن ، ضعيفاً لا يكاد يذكر.

وكيف يمكن لعلماء حشيت عقولهم وأذهانهم بمصطلحات علم الكلام العقيم ، وأوغرت صدورهم بتعصب مذهبي مقيت وتقليد أعمى ، وهامت أرواحهم في خيالات التصوف أن يتصدوا لذلك الزحف العنيف والهجوم المتواصل من قبل شرانم العلمانيين على الدين والأخلاق.

إن غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى انتشار الفساد في المجتمعات وإلى الجرأة على اقتراف المنكرات ، وإلى صعوبة الإصلاح والتغيير (١) .

وهو ما حدث بالفعل في العالم الإسلامي.



---

(١) مجتمعنا المعاصر. أسباب ضعفه ووسائل علاجه ص ١٨٥ د. عبد الله سليمان المشوخي، مكتبة المنار. الأردن. الزرقاء. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

## الفصل الثاني الآثار الخارجية

ويتكون من ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الاستعمار

المبحث الثاني : الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم

المبحث الثالث : النشاط التصيري

## المبحث الأول : الاستعمار (١) :

لم ينقطع الصراع بين الإسلام وخصومه يوماً من الأيام. وما إن صدع النبي ﷺ بدعوته بين ظهرائي المشركين في مكة ، حتى توالى سلسلة العدوات والمؤامرات والتربصات بهذا الدين الجديد ، وما فتئ المشركون ومن وراءهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى منذ أول وهلة بلغتهم دعوة الإسلام في الكيد والمكر والعمل الدؤوب على محاولة إطفاء نور الله ، وإزالة الفئة المؤمنة من الأرض. ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [التوبة ٣٢].

ولكن المسلمين في الصدر الأول استطاعوا التغلب على تلك المؤامرات والهجمات بسبب تمسكهم بدينهم وحيطتهم وصبرهم خلال ذلك الصراع المرير. كما أخبر الله سبحانه وتعالى : ﴿ إن تمسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها . وإن تصبروا وتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً . إن الله بما يعملون محيط ﴾ [آل عمران ١٢٠].

ولم ينقطع كيد الأعداء وتخطيطهم للقضاء على الإسلام والمسلمين في يوم من الأيام ، فليس ذلك هو العلة الحقيقية في انهزام المسلمين ووقوعهم تحت أقدام الغزاة المحتلين ، ولكن العلة الأولى هي مدى اتقاء المسلمين وصبرهم خلال مبارزة ذلك الكيد ومقاومته ، فبمقدار تقوى الأمة وتمسكها بدينها وصبرها تكون مغالبة لما يدبرها أعداؤها من كيد وحرب. فحين فرطت الأمة في ذلك التوجيه الرباني ﴿ وإن تصبروا وتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ وغيره من التوجيهات والأوامر الأخرى التي تندرج ضمن هذا التوجيه الشامل العظيم، أصابها ما أصابها من وقوعها فريسة سهلة ولقمة سائغة لجحافل المستعمرين وجيوشهم .

لقد رأينا في الباب الأول ما آلت إليه الأحوال الدينية عند المسلمين من سوء وانحراف ، وكيف أن المسلمين شغلوا بهذه الانحرافات عن الالتفات للخطر الصليبي الداهم . وفي القرون المتأخرة وخصوصاً القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين ازدادت فجوة هذه الانحرافات كما رأينا ،

---

(١) هذه اللفظة وما توحىه من معنى مجانبية للصواب في حقيقة الأمر. إذ جاء في القرآن [ هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها ] . بمعنى طلب منكم عمارة الأرض. وهكذا ادعى هؤلاء الغزاة الصليبيون حين وطئوا البلاد الإسلامية أنهم جاؤوا لتعمير البلاد وتطويرها ، إذن فلفظة الاستعمار خاطئة بهذا المعنى ، ولكننا أثرتنا استخدامها لشهرتها في هذا الميدان .

حيث عم الشرك وضرب بأطنابه في أرجاء العالم الإسلامي وفشت البدع والخرافات ، وساد التواكل والاستسلام القاتل لما يحدث في الواقع من ضعف وتخلف ، وانتشرت الطرق الصوفية فلم تدع قطراً إلا دخلته ، ولا فجاً إلا سلكته ، وانشغل العلماء بمسائل لا فائدة منها ، وحرصوا على سد باب الاجتهاد وإنكاء جذوة التعصب المذهبي ، وانطوى المسلمون على أنفسهم ، وأوصدوا الأبواب دونهم ، فلم يكونوا واعين بحركة العالم من حولهم ، ولم يستيقظوا من سباتهم العميق إلا على أصوات أقدام العدو يغزوهم في عقر دارهم.

لقد كان القرنان الثالث عشر والرابع عشر الهجريان هما العصر الذهبي للتقدم الأوربي حيث انطلقت أوربا تعد القوة لتتقوض على العالم الإسلامي الذي كان يعيش في حالة يرثى لها من الضعف والشتات والتخلف.

بدأت محاولات الغزو الصليبي الحديث في الحقيقة منذ بدايات القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) بعد طرد الإسلام من الأندلس ، فحين سقطت آخر دويلة إسلامية في الأندلس - وهي دويلة غرناطة - عام ١٤٩٢م بعد معارك وحشية طويلة ، بارك البابا الانتصار الصليبي ، وشجع الصليبيين على متابعة المسلمين لطردهم من بقية بلاد الإسلام<sup>(١)</sup>.

ويمكن أن يقال إن بداية الاستعمار الحديث بدأ بقيام هولندا تلك الدولة الأوربية الصغيرة باحتلال جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) في بداية القرن السابع عشر عن طريق شركة الهند الهولندية التي تأسست في سنة ١٦٠٢م<sup>(٢)</sup>.

ثم بدأ التسلسل الانجليزي إلى الهند في نفس الفترة حينما منحت ملكة بريطانيا «اليزابيث الأولى» شركة الهند الشرقية امتيازاً عام ١٦٠٩م - ١٦٠٠م للتجارة الانجليزية في الهند والأقطار المجاورة، ثم لم يلبث ذلك التسلسل حتى صار احتلالاً على كامل تراب الهند.

ثم قاد «نابليون بناپرت» الحملة الصليبية الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م ولكنها فشلت بعد ثلاث سنوات من مقاومة المسلمين في مصر ، وضغوط العثمانيين والانجليز من الخارج .

«في بداية منتصف القرن التاسع عشر - وعلى التحديد في سنة ١٨٥٧م - تم للإنجليز الاستيلاء على الهند سياسياً ، وانتقلت سلطة الحكم رسمياً من شركة الهند الشرقية (التي تأسست في ٣١ ديسمبر سنة ١٦٠٠م، والتي انضمت إلى شركة أخرى جديدة في سنة ١٦٨٩م) إلى التاج البريطاني، وزالت بذلك إحدى الدول الإسلامية الكبرى التي قامت في مستهل القرن السادس عشر الميلادي ، وهي دولة المغول في الهند....»

(١) واقعنا المعاصر ص ٨٦.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٩ الدكتور محمد البهي. دار المعارف. مصر. الطبعة العاشرة ١٩٨٩م.



كما تم في السنة نفسها - وهي سنة ١٨٥٧م - استيلاء الفرنسيين على الجزائر كلها إلى الصحراء ، بعد أن ابتدأوا غزوها سنة ١٨٣٠م»<sup>(١)</sup>.

ثم استولت فرنسا على تونس بعد أن فرضت حمايتها عليها ، ثم أخضعت المغرب الأقصى ، بعد أن تركت الريف المغربي لأسبانيا. واتجهت إلى الشرق لتحل سوريا ولبنان. أما انجلترا فبعد أن ثبتت أقدامها في الهند قامت باحتلال مصر وقناة السويس عام ١٨٨٢م، وقبل ذلك احتلت قبرص، ثم عادت فقامت باحتلال كل من العراق وفلسطين والأردن.

ولم تدع إيطاليا الفرصة تفوتها ، فأقدمت على احتلال ليبيا.

وتغلغت روسيا في القرم وأرمينيا وابتلعت معظم آسيا الوسطى والقوقاز. «وقد بدأ الهجوم الروسي على المناطق القديمة المتحضرة في منطقة الفولغا سنة ١٥٥٢م ، وبعد أن استولى الروس ، حرباً على مدينة قازان عاصمة خانات التتر التي كانت مركزاً لحضارة إسلامية عريقة زاهرة، ودمروها وقلبوا عاليها سافلها ، وقضوا على الدولة التترية ، وهكذا فقد جاء دور مسلمي روسيا الشرقية لكي يعيشوا أربعة قرون تحت سيطرة الكفار»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا سقطت معظم الأقطار الإسلامية تحت برائن الاستعمار الصليبي ولم يبق سوى أجزاء لا تكاد تذكر مقارنة بما سقط من تلك الأقطار.

إن وقوع العالم الإسلامي تحت وطأة الاستعمار كان أمراً متوقعاً بل ومؤكداً لمن طالع أحوال المسلمين في تلك الفترة. فإن الغرب الصليبي ما طفق يتقوى حتى بادر بالانقضاض على عنوه الأبدي - العالم الإسلامي - الذي كان في غفلة عما يدبر له في الخفاء.

وإن تلك الفترة المظلمة من تاريخ أمتنا التي غشيت على الحياة الإسلامية قبل مجيء الاستعمار كانت فترة مهينة للخضوع لذلك الزحف الاستعماري بسبب ما أسلفنا الحديث عنه من أحوال دينية سيئة.

لقد استطاعت جيوش المستعمرين وجحافلهم إلحاق هزائم مروعة بكل الجيوش الإسلامية التي اصطدمت بها ، وتكبيدها خسائر فادحة في الأموال والأرواح.

وعلى الرغم من بسالة المقاومة وضراوة المعركة التي خاضتها الجماهير المسلمة وقياداتها في كل قطر وطنه المستعمرون بأقدامهم إلا أنه قد قضي عليها في كثير من الأحيان.

(١) المصدر السابق ص ٢٩.

(٢) المسلمون في الاتحاد السوفيتي ص ٢٧ «شانتال كلجي» و«الكسندر بينفسن». تعريب الدكتور إحسان حقي. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

لقد فوجئ العالم الإسلامي حقاً بجحافل المستعمرين تطرق أبوابه ، وتجتاح دياره حين كان غارقاً في تلك الانحرافات التي فصلنا القول عنها في الباب الأول. ولم يستيقظ من سباته العميق حتى بعد أن كشر الاستعمار الصليبي عن أنيابه وبدأ في تقطيع أجزائه وبلاده بكل وحشية ويطش. وظل لائباً في غفوته تلك حتى أحكم الاستعمار قبضته عليه فحاول الإفلات والتخلص ولكن أنى له ذلك. وهذه قضية لا بد من معرفتها حتى يتم لنا وضع الأمور في نصابها ، والحكم عليها من منظور صحيح.

إن الأجيال المسلمة مطالبة بمعرفة حقيقة الصراع مع الغرب وجوانبه المتعددة . مطالبة أولاً بمعرفة أسبابه ودوافعه، ومطالبة ثانياً بمعرفة تاريخه الطويل ، ومطالبة ثالثاً بإدراك نتائجه وآثاره، ومطالبة رابعاً بتقييم موقف الأمة ودراسة أحوالها خلال ذلك الصراع، ومطالبة أخيراً باتخاذ الأسباب والعمل على دفع ذلك الصراع في صالح الأمة.

وما يهمنا في هذا المقام هو القضية الرابعة التي تحدد موقف الأمة وتقيم أحوالها أثناء هذا الصراع، والتي تبين أن الأمة في تلك الفترة التي ندرسها لم تكن مستعدة لأن تخوض حرباً مع الغرب المستعد المتربص ، وأنها كانت في أخرج أوقاتها وأضعف أحوالها بسبب ما وقعت فيه من انحرافات دينية وعقدية. فهذه القضية لو كانت قد حظيت بشيء من الوعي والنظر لكان من الممكن أن تعيد الثقة إلى النفوس ، وأن تقي الأمة بعض ما أصيبت به من هزيمة نفسية نتيجة ذلك الصراع.

لقد كانت الهزيمة الروحية والنفسية أخطر ما أثمره الاستعمار في البلاد الإسلامية ، ولقد كانت هزيمة قاسية نزلت على القلوب والعقول فخلفت فيها أثراً عميقاً ما يزال عالقاً بها حتى وقتنا الحاضر.

إن الواقع السيئ المليء بالإنحرافات الدينية والعقدية الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية هو الذي أنشأ في الحقيقة تلك الهزيمة الروحية العنيفة.

وما من شك أن الهزيمة الروحية كانت تابعة للهزيمة العسكرية والحربية وناشئة منها. فبعد أن هزم المسلمون في المجال العسكري هزائم نكراء ، ورأوا بأعينهم التفوق الكبير في السلاح والعتاد والتنظيم بما لا قبل لهم به ، دبت فيهم بوادر الهزيمة الروحية التي كانت تزداد مع كل هزيمة عسكرية. فمع كل هزيمة كانت تقع في الميدان كانت هناك هزيمة أشد وأنكى تقع على العقول والنفوس تتلاشى أمامها هزائم الميدان .

ولم يكن بالضرورة وقوع مثل تلك الهزيمة الروحية والنفسية نتيجة للهزيمة العسكرية والحربية لو لم تكن تلك الانحرافات غاشية على حياة الأمة ومؤثرة فيها.

يقول الشيخ «أبو الأعلى المودودي» رحمه الله تعالى :

«في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر فوجئت الممالك الإسلامية بطوفان من الاستعمار الغربي. وبينما المسلمون في هجود الكرى ، لم يستيقظوا بعد كل اليقظة <sup>(١)</sup> ، جعل هذا السيل يمتد من قطر إلى قطر ، حتى شرق العالم الإسلامي وغرب ، وما إن انتصف القرن التاسع عشر حتى غدت معظم الأمم المسلمة عبيداً للغرب الأوربي وخولاً له ، والتي لم تدخل منها في عبوديته ، لم تسلم من الخضوع لسلطانه ورهبة بأسه ونجدته. ولما بلغ هذا الانقلاب تمامه ، بدأت في المسلمين آثار اليقظة والحركة ، فلما فتحوا أعينهم على الحال التي قد صاروا إليها ، فشلت ريحهم وزال عنهم بغتة ذلك الفخار القومي الذي طالما تأصل فيهم ببقائهم في عز الغلبة ومجد السيادة من قرون متوالية. فعادوا يفكرون في أنفسهم كالسكران يصحبه توالي الضربات من عدو شديد ، ويبحثون عن الأسباب التي هبطت بهم وغلبت الافرنج عليهم ، غير أن عقولهم لم تكن ثابت بعد إلى رشددها ، إذ كان السكر لاريب قد ذهب عنهم ولكن ميزان الفكر كان بعد مختلاً فيهم ، فبجانب كان يلح بهم شعور بالذلة والهوان ويؤزهم أژاً على تبديل ما هم فيه من الحالة ، وبجانب يغلبهم من حب الراحة وإيثار الدعة والارتخاء ما يحملهم على توخي أقرب الطرق وأسهلها لتبديل تلك الحالة. وقد خارت فيهم من جهة ثالثة قوى الفكر والعقل وصدئت ملكات الفهم والذكاء ، بطول تعطلها عن العمل . زد على ذلك كله ما أخذ بمجامع نفوسهم من الدهشة والروعة التي تعتري بالطبع كل أمة منهزمة مستعبدة.

وتفاعلت هذه الأسباب في محبي الإصلاح من المسلمين وأوقعتهم في كثير من الضلالات العقلية والعملية، فأكثرهم ماكانوا يفتنون للأسباب الحقيقية في ارتقاء أوربة وانحطاطهم. وأما الذين فهموها منهم وأدركوها ، فأعوزهم من بعد الهمة والعزيمة والروح المجاهدة ما يتشجعون به على اختيار الطرق الوعرة للرقي والتقدم ، وكان من وراء ذلك كله الروعة والدهشة التي تشترك فيها كلتا الطائفتين على السواء، فلما مضوا بهذه العقلية المريضة الزائفة يريدون الإصلاح لم يروا أضمن للرقي ولا أدنى للوصول إليه من أن يحاكوها في حياتهم اليومية كل مظاهر التمدن والحضارة الغربية ، فيعودوا كالمرآة الصافية يرى فيها خيال الروضة والأزهار والرياحين ، وليس فيها من حقيقة هذه المناظر شيء» <sup>(٢)</sup>.

(١) حيث كانت أحوالهم كما ذكرنا من الانحراف والتخلف.

(٢) الحجاب ص ٢٨ أبو الأعلى المودودي، دار الفكر، بيروت .

«إن الهزيمة النفسية شعور بالهوان والضعف والعجز عن مجاراة الأعداء بله التفوق عليهم. إن الهزيمة النفسية في أدق صورها وأجلى معانيها ذوبان في الشخصية ، وتحلل من التبعات ورخاوة في تناول شئون الحياة وإخلاق إلى الدعة والسكون في ذلة وخور وإقبال على المتاع الغليظ يعب منه المهزوم فلا يكاد يفيق. إنها ذل يعيش في سويداء القلب ورضى بالدونية يجعل صاحبه لا يرفع رأسه ولا يفتح عينيه.

إنها واقع مريض أسود يصم صاحبه بكل قبيح من الصفات التي يكفي منها أن يستبدل العبودية بالحرية وأن يتحول إلى ظل لهازمه الذي ملأ عليه كل فراغ وسد عليه كل منفذ فلا يستنشق إلا الهواء الذي يستنشقه هازمه الذي يسير في ركابه ويسيطر على عقله وقلبه وكيانه كله ولا يسلك إلا الطريق الذي يسلكه ولا يرى إلا ما يراه ولا يسمع إلا ما يسمعه. إن الهزيمة النفسية بعبارة أخرى تحول إلى «نسخة كربونية» - إن صح التعبير - عن ذلك السيد الهازم المطاع»<sup>(١)</sup>.

ولا شك أن الهزيمة النفسية تمر بعدة مراحل وأطوار:

الأولى - هي الشعور بالضعف والذلة والهوان.

والثانية - هي الانبهار والاعجاب والتعلق.

والثالثة - هي التقليد والمتابعة والمحاكاة.

وقد وقع كل ذلك في حياة المسلمين تقريباً . فقد ساد الشعور بالضعف والذلة والهوان بعد الاحتكاك العسكري وغلبة العدو لهم، ثم أعقب ذلك شعور بالانبهار والإعجاب بعد أن خفت وطأة الهزيمة في نفوسهم ، وبارحت أثارها جوانحهم ، ثم جاء دور التقليد والمتابعة والمحاكاة ، ووقع ما أخبر به المصطفى ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه. قلنا يارسول الله ، اليهود والنصارى؟ قال : فمن»<sup>(٢)</sup>.

هذه عقدة «الرجل الأبيض» كما سميت. وإنه لتصوير نبوي عجيب من المصطفى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. فماذا يكون ياترى في جحر الضب حتى ينساق فيه المنهزمون. ولكن الضباب من المنهزمين لا ينظرون في الجحر وعدم فائدته فضلاً عن خطورته. فليس ذلك هو المهم ، ولا يعنيه في شيء البتة ، إنما المهم عندهم متابعة الأسياد وتقليدهم أينما كانوا ،

(١) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ٣١.

(٢) رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، برقم ٣٤٥٦ (الفتح ٤٩٥/٦) .  
ورواه مسلم بنحوه برقم ٢٦٦٩ كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٢٠٥٤/٤.

ومهما فعلوا ، الأمر الذي يعنى به هؤلاء الضباب من المنهزمين هو ملاحقة هازمهم ومحاولة تقليدهم في كل شيء وعدم تفويت أية حركة أو سكة لهم . حتى ولو دخلوا جحر ضب لدخلوه على إثرهم .

ويرى أحد هؤلاء الضباب ممن كان له منصب وجاه وصيت في دنيا الهزيمة النفسية أن سبيل النهضة (واضحة بيئة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ، وهي : «أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم ، لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب»<sup>(١)</sup>).

ولا أدري كيف يمكن لعاقل يخاطب العقلاء أن يقول أنه يجب علينا أن نأخذ الخير والشر ، والحلو والمر ، فضلاً عن أن ينصب عميداً للأدب العربي . ولكنها الهزيمة النفسية التي تسيطر على كاتب هذه الكلمات التي تتجافى مع العقل الصريح والفطرة السليمة .

وإذا كان . «الخدوي اسماعيل» حاكم مصر وهو يمثل قمة الهزيمة النفسية في عالم السياسة ودنيا الحكام كانت أمنيته وما دأب عليه طوال سني حكمه هو أن يجعل مصر قطعة من أوروبا - فإن عميد الأدب العربي بعد ذلك بحين يرى أن ما قاله الخديوي هو عين الحقيقة أصلاً وليس غير ذلك فيقول : «ولا ينبغي أن يفهم المصري أن الكلمة التي قالها إسماعيل وجعل بها مصر جزءاً من أوروبا قد كانت فناً من فنون التمدح ، أو لوناً من ألوان المفاخرة ، وإنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا ، في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وألوانها»<sup>(٢)</sup> .

ولا يستحيي بعد ذلك أن يتفوه بمثل هذا الكذب العاري في أن مصر كانت دوماً جزءاً من أوروبا في ثقافتها وعقليتها على اختلاف فروعها . إن كان يقصد بذلك تاريخ مصر قبل الإسلام فلعل الخطب يهون ، ولا يفهم ذلك القصد من قوله : كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا . وإن أراد بذلك تاريخ مصر الإسلامي وهو ما يتفق مع قوله : دائماً ، فإنه ليلغي بذلك فترة بلغت حوالي اثني عشر قرناً على الأقل كانت مصر خلالها لا تزال بهويتها الإسلامية ، وثقافتها الإسلامية ، وعقليتها الإسلامية . والأزهر خير شاهد ودليل<sup>(٣)</sup> .

---

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢٢٩/٢ ويقول د . محمد حسين معلقاً : وهو شبيه بقول : «أغا أوغلي أحمد» أحد غلاة الكماليين من الترك في أحد كتبه : «إننا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين ، حتى الالتهايات التي في رئيهم والنجاسات التي في أمعائهم» نقلاً عن موقف العقل والعلم والعالم لمصطفى صبري ج ١ هامش ص ٣٦٩ . نعوذ بالله من الكفر والزيغ والضلال .

(٢) المصدر السابق ٢٢٢/٢ .

(٣) لا نعني بذلك أنها إسلامية مائة بالمائة ، لأن انحرافات كثيرة كما عرفنا شابيت حياة جميع الأقطار ، وليس مصر وحدها . ولكنها إسلامية على أية حال . المهم أنها لم تكن كما أراد طه حسين من صبغها باللون الأوربي واتهامها بذلك . بل لقد عادت ذلك ووقفت منه موقفاً يشرقها ويحض هذه الدعاوى العارية من أي دليل .

وهل يلام عميد الأدب العربي على المجازفة بكذب كهذا بعدما نادى بأخذ شر أوروبا ومرها وعيوبها؟ أليس من شرور أوروبا وعيوبها عموماً وكتابها خصوصاً ممن تتلمذ عليهم العميد وأشرب قلبه بمحبتهم - عدم الموضوعية في الرأي والبحث ، واستخدام الكذب والافتراء تمشياً مع المنطق الأوربي الشهير «الغاية تبرر الوسيلة» .

ومصيبتنا في هؤلاء الضباب المنهزمين - وما أكثرهم - أنهم لم يأخذوا من أوروبا إلا أسوأ ما فيها ، وأنهم لم يفتشوا ويبحثوا وينابوا إلا على شرورها وأثامها وعيوبها . ولا نستطيع في هذه العجالة أن نأتي على جوانب هذه الهزيمة النفسية المريعة التي أصابت المسلمين بعد حلول الاستعمار ولا أن نزيد في إيراد الأمثلة عليها .

ومع ذلك فيمكن اعتبار حاضر الأمة وواقعها السيء وما دار في تاريخها الأخير من دعوات للتغريب والعلمنة داخلاً في دائرة تلك الهزيمة وصدى من أصدائها . ونرى أن نختم الحديث حول ذلك الموضوع الخطير بكلام للشيخ «أبي الأعلى المودودي» رحمه الله تحت عنوان «العبودية الفكرية» حيث يقول :

« وهذه هي الفترة البحرانية؟ التي غدت الأمم المسلمة فيها تحاكي أمم الغرب في الزي واللباس ، وتتشبه بها في مظاهر الاجتماع وفي آداب المجالس وأطوار الحياة ، حتى في الحركة والمشى والتكلم والنطق . وحاولوا تشكيل المجتمع المسلم على الصيغة الغربية . وقبلوا الإلحاد والذهرية والمادية في نشوة التجدد ، بدون حيلة أو شعور بالعواقب . وعدوا من لوازم التنوير الفكري إيمان العرب بكل ما بلغه من قبل الغرب من فكرة ناضجة أو فجة والإفاضة فيه في مجالسه . ورحبوا بالخمير والقمار واليانصيب وسباق الخيل <sup>(١)</sup> ، وما إلى ذلك من ثمرات الحضارة الغربية ، ثم سلموا بجميع معتقدات الغرب وأعماله في الأخلاق والآداب والاجتماع والمعاش والسياسة والقانون حتى في العقائد الإيمانية والعبادات ، سلموا بكل ذلك من غير فهم وشعور أو نقد وتجريح كأنه تنزيل من حكيم حميد ، ليس لهم قبله إلا أن يقولوا : آمنا . وأصبح المسلمون بأنفسهم يستحيون من كل ما نظر إليه أعداء الإسلام القدماء بعين التحقير أو التعيير ، من وقائع التاريخ الإسلامي ، وأحكام الشرع الإلهي وآثار الكتاب والسنة ، وطفقوا يحاولون أن يمحووا تلك السيئة عن أنفسهم ..... اعترض أهل الغرب على ما عندهم من الجهاد . فقال هؤلاء : ما لنا والجهاد يا سادة : إنا نعوذ بالله من هذه الهمجية <sup>(٢)</sup> . واعترضوا على

(١) لعله يقصد سباق الخيل عن طريق المقامرة .

(٢) وقال جمع منهم الجهاد دفاع فقط...

الرق. فقال هؤلاء : إنما هو حرام عندنا أصلاً. وأطالوا لسان القدح في تعدد الزوجات. فجاء هؤلاء ينسخون آيات القرآن ويحرفون الكلم عن مواضعه. ثم قال أولئك : لا بد من مساواة الرجل والمرأة في جميع نواحي الحياة. فوافقهم هؤلاء بقولهم : هذا هو الذي يعلمه ديننا أيضاً. وطعن القوم في قوانين الزواج والطلاق في الإسلام . فقامت طائفة من المسلمين تعالجها بالاصلاح والتعديل . ولما عابوا الإسلام بأنه عدو للفنون الجميلة ، استدرك هؤلاء قائلين : لا بل ما زال الإسلام، مذ كان ، يُشرف على الرقص والموسيقى والتصوير ونحت التماثيل» (١).

ولا شك أن هذه الهزيمة النفسية قد جنت الأمة ثمارها المرة في كافة الميادين والمجالات، سواء منها العلمية والثقافية أو السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية والأخلاقية أو العسكرية والحربية. فقلما وجد مجال من هذه المجالات في أي مكان إلا وأعاصير هذه الهزيمة تهب عليه فتجعله حصيداً خامداً.

لقد قتلت هذه الهزيمة روح الاستقلال والحرية والإباء والأنفة والشجاعة والمروءة وكل خصال الخير ، لقد وأدت الإبداع والابتكار والتقدم ، حين دبّت في النفوس، ورائت على القلوب ، وغشيت على الأذهان.

لقد رحل الاستعمار (٢) عن بلاد المسلمين ، ولكن تلك الهزيمة النفسية أبت الرحيل، وأثرت البقاء بعد أن تمكنت منها ، فليس رحيل الاستعمار هو الذي يزيلها ويمحو آثارها. وإن كان هذا فرصة للعمل على إزالتها، إنما كان الجدير بإزالتها والقضاء عليها هو إزالة الضعف العقدي وتدارك الأحوال الدينية السيئة، وهو أمر لم يحدث آنذاك ، فكان بقاؤها هو المتوقع.

وفي ظل حكم الاستعمار ذاق المسلمون النكبات ، وجنوا الويلات ، واكتووا فيه بناره وعانوا من آثاره فألى جانب تلك الهمجية والوحشية التي طبع عليها هؤلاء المستعمرون في معاملة المسلمين والتي لم تخل بلدة من جرائمهم ومذابحهم واعتداءاتهم. وفي كل شبر وطأته أقدام المستعمرين جرح لا زال يثخن بالدم، شاهد على إجرامهم ووحشيتهم. إلى جانب ذلك كله هناك الآثار الفادحة ، والبصمات الواضحة لهذا الاستعمار في السياسة والاقتصاد والاجتماع وغيرها.

ولعل أفدح هذه الآثار على الإطلاق هو تنحية الشريعة الإسلامية التي دأب المستعمرون على إزاحتها وإلغاء العمل بها ، وقد تم لهم ذلك ، ولن أطيل حول هذه القضية الخطيرة ، فسوف أتناولها

(١) الحجاب ص ٣٩.

(٢) رحل ظاهرياً كما سنبين ذلك إن شاء الله.

بشيء من الإسهاب في المبحث القادم المعنون بـ «الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم من الغرب».

«لقد أحكم أعداء الإسلام قبضتهم على المسلمين من خلال هذا النظام أعني النظام السياسي إثر تخطيط رهيب طويل لحلقات ذلك الإحكام التي من أهمها وفي مقدمتها عزلهم عن نظامهم السياسي الفريد<sup>(١)</sup> وغزوهم بأنظمة الغرب والشرق السياسية وقوانين الشرق والغرب الوضعية ودمائيرهم وإقناعهم بأن البديل خير من المستبدل ، وأن الجديد خير من القديم ، وأن نظامهم من ذلك القديم الذي أكل عليه الدهر وشرب فلا يصلح لتطبيق ولا تقوم به حياة ، وهو إقناع لا قيمة له في الواقع ؛ إذ أن ركوب المسلمين لقطار نظم الغرب السياسية والاقتصادية وغيرها إنما تم بالإكراه والقوة والحديد والنار فيما اصطلح على تسميته بـ «الاستعمار» الذي ابتليت به أكثر أقطار المسلمين ففرض عليها نظمه وأفكاره ولغته ، بل وحاول فرض معتقداته أيضاً عن طريق «التنصير» الذي يسمونه اصطلاحاً «بالتبشير»<sup>(٢)</sup>.

«وقد غلب الاحتلال الصليبي الأمة على نفسها ، فنحى شريعته ، وأجمها بالحديد والنار والعسف والتسلط ولكنه - كما قلنا - لا يأمن أن يحدث رد الفعل ، وأن تحدث الثورة على هذا الأمر في يوم قريب أو بعيد ... فلا بد من العمل الجاد للحيلولة دون وقوع رد الفعل المرهوب ... وهنا تقدم عملاؤه لمعاونته في زحزحة الأمة عن عقيدتها في عالم السياسة ، كما عاونوه آخرون في مجال الفكر والأدب ، ومجال المرأة ، ومجال الأخلاق وكل مجال عمد فيه إلى محاربة الإسلام...»<sup>(٣)</sup>.

ومع ذلك فإنه لا يمكن أن نعفي المسلمين أبداً من مسؤوليتهم تجاه ما وقع من تنحية للشريعة بإلقاء اللائمة على الاستعمار وتحمله المسؤولية في ذلك.

إن الأحوال العقدية والعلمية السيئة كانت هي السبب في تقبل المسلمين لما فرضه الاستعمار عليهم بالقوة من تنحية للشريعة الإسلامية.

فكيف يمكن لأناس ملأ الشوك حياتهم ، وشغلوا بالموالد والبدع والخرافات ، وتمكن الإرجاء من قلوبهم<sup>(٤)</sup> ، وألفوا الذل والخنوع في رحاب المتصوفة - أن يقاوموا عملاً مثل ذلك . وقد ثار المسلمون في بعض البلاد كما حدث في الهند. «فقد حدثت هزيمة المجاهدين المسلمين في الهند أمام الغزو

(١) يعني الشريعة الإسلامية.

(٢) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ٩٥.

(٣) واقعنا المعاصر ص ٣٠٦.

(٤) قد ذكرنا بعض كلام المرجئين عند حديثنا عن الإرجاء وهو كلام يهدم أركان الدين ويقوض دعائمه.



الإنجليزي ، ولكن تنحية الشريعة الإسلامية هناك وإحلال القانون الإنجليزي محلها ، أثارت المجاهدين مرة أخرى - رغم هزيمتهم - فقاموا بثورات متعددة ما بين عام ١٨٢٦ وعام ١٨٥٧ م كبدت الإنجليز خسائر كثيرة في الأرواح ، ولم تسمح لهم بالاستقرار حتى قضوا عليها بوحشية بالغة»<sup>(١)</sup>.

وعندما حاول «نابليون» تنحية الشريعة عندما قام بغزو مصر سنة ١٧٩٨ م ، لم يحالفه النجاح واندلعت الثورات تقاوم جيشه في كل مكان حتى اضطر إلى الانسحاب دون تحقيق شيء من ذلك ، ولكن الإنجليز حين جاؤا إلى مصر عام ١٨٨٢ م نحو الشريعة الإسلامية ، وحكموا بدلاً منها قانون «نابليون» دون ثورة من جانب الشعب .. ولقد يعجب الإنسان اليوم من تبدل الموقف تجاه الأمر الواحد ما بين عامي ١٧٩٨ و ١٨٨٢ م ، ولكن عوامل عدة كانت تعمل في ساحة الأحداث وفي داخل النفوس.

فلاشك أن ما يزيد على ثمانين سنة من الزحزحة المستمرة عن الإسلام كان لها أثر ملموس في عالم الواقع. فسياسة «التغريب» التي اتبعتها «محمد علي» ، وورثها من بعده أبنائه ، وكان قوامها الأول سياسة الابتعاث التي اتبعتها «محمد علي»<sup>(٢)</sup> ، ثم سياسة «الفرنجة» التدريجية التي اتبعتها أبنائه وبخاصة الخديوي «اسماعيل» ، كان لها أثرها التدريجي في تقبل الأفكار الغربية وأنماط الحياة الغربية ، وتضاؤل الاستنكار لها كلما تقدم الزمن.

وجود المدارس التبشيرية التي نشطت في عهد أبناء «محمد علي» ، وكان يتعلم فيها مسلمون ومسلمات ، يتزايد عددهم على الدوام ، ويبرزون بالتدرج على ساحة المجتمع ، وينشرون التفرنج سواء في أزياء الملبس أو أزياء الفكر أو أزياء السلوك .. كان له أثره التدريجي في زحزحة المجتمع .....

وربما كان العامل المباشر الذي حدد موقف الأمة الإسلامية في مصر من تنحية الشريعة الإسلامية هو فشل الثورة التي قام بها «عراي» في صد الإنجليز ، ودخول الإنجليز منتصرين واحتلالهم البلاد بعد القضاء على قوة الجيش المصري ، ولكن هذه - وحدها - لم تكن لتؤدي إلى سكوت الأمة عن هذا الأمر الخطير .... لولا الخواء الشامل الذي أصاب حياة الأمة من تخلفها العقدي»<sup>(٣)</sup>.

وفي عام ١٩٣٠ م أجبرت فرنسا سلطان مراکش الشاب على أن يصدر ظهيراً (مرسوماً) عرف

(١) واقعنا المعاصر ص ٣٠٦.

(٢) بالإضافة الى ما ذكرناه من قبل من قيامه بإنشاء نظام تعليمي كامل على النمط الأوروبي.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٠٦.

باسم «الظهير البربري» ينص على أن يكون للقبائل المراكشية التي هي من أصل بربري نظام قضائي خاص ، أو على الأصح نظام شرعي خاص ، فلا تسري عليهم قوانين الشرع الإسلامي ، بل قواعد العرف العشائري البربري»<sup>(١)</sup>.

«هذا وقد ظل المسلمون في تاريخهم كله يتحاكمون إلى شرع الله، ولا يحدون عنه اعتقاداً منهم بأن هذا هو مقتضى كونهم مسلمين ، ولم يفرض عليهم تشريع مخالف لشرع الله إلا مرتين : أولاًهما : في عهد التتار حين غلبوا على بلاد المسلمين ، ولكن المغلوبين لم يخضعوا لتشريعهم وما أراؤا به حكم المسلمين ، وسرعان ما انقضت الغمة ، وغلب الإسلام التتار ، ومزجهم بالمسلمين، وأدخلهم في لوائه»<sup>(٢)</sup> ، فزال أثر التشريع المتقلب بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم.

والمرة الأخرى في عهد الاستعمار الغربي منذ استيلائه على بلاد المسلمين، وما تزال هذه ممتدة إلى اليوم ، وتختلف عن الأولى بانخراط المسلمين في التشريعات غير الإسلامية لأول مرة في تاريخهم واندماجهم في الغزاة والمتغلبين ، ومد يد العون إلى التشريعات الواردة تعليماً وتعليماً وتنفيذاً وابتكاراً...»<sup>(٣)</sup>.

إذ لم تكن الإنحرافات في المرة الأولى قد اتسعت وتعمقت كما هو الحال في المرة الثانية حين غلب الاستعمار الصليبي على البلاد الإسلامية، وقام بتنحية الشريعة الإسلامية وأحل مكانها القوانين الوضعية.

فلا مناص من تحمل المسلمين مسؤوليتهم كاملة فيما وقع من تنحية للشريعة الإسلامية وتحكيم القوانين الوضعية في المرة الثانية ، وقد كان لهم أسوة في أسلافهم زمن التتار المتغلبين حين لم يخضعوا لعدوهم ، ولم يستكينوا لشريعته الباطلة. ولكنهم في المرة الثانية لم يعودوا قادرين على مقاومة ذلك الفعل الخطير بسبب انحرافاتهم التي بددت طاقاتهم ، وبعثرت جهودهم . وسهلت خضوعهم ، وأسلمت زمامهم إلى عدوهم يقودهم إلى حيث يشاء.

إن التنازل عن الشريعة الإسلامية الذي وقع في القرنين الماضيين أمر لا يمكن توقعه فضلاً عن حدوثه ، وهو من الفداحة والخطورة بحيث لا يمكننا تحميل الاستعمار وحده مسؤولية هذا الجرم الفظيع.

إنها جريمة كبرى يوم رضيت الأمة الإسلامية بالتخلي عن الشريعة الإسلامية ، ورضخت أو

(١) التبشير والاستعمار ص ١٥٨. الاستعمار الفرنسي في مراكش (المغرب الأقصى) ص ٤٦ ، ص ٧١ محمد عبد العالي جلال. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة.

(٢) هكذا في الأصل ، والأجود تحت لوائه.

(٣) أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية ص ٢٢٣ خادم حسين إلهي بخش. دار حراء للنشر والتوزيع. مكة المكرمة. الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

بادرت إلى تحكيم القوانين الوضعية. إنها جريمة شنعاء اشترك فيها الحكام والعلماء والناس ، كل حسب مسؤوليته، وبمقدار رضاه. فليس المقر بها والمحتكم إليها المسلم بحكمها كالمجتافي عنها الذي لم يرض بها ، وإن كان سكوت الأمة على ذلك جريمة أيضاً. ولا يمكننا تفسير كيف وقعت الأمة في هذه الهوة السحيقة إلا حين نعرف أحوالها العقدية ، فحين نعلم أن الإرجاء قد نخر في عقيدة الأمة على مدى قرون حتى أحالها إلى خواء لا روح فيه . وأنه في ظل الإرجاء لا يساور المرء القلق على إيمانه فمهما عمل من أعمال تخالف الإسلام ، ومهما فرط في تكاليفه وواجباته فلا خوف عليه أبداً ما دام مصدقاً ومؤمناً بقلبه! وفي الوقت نفسه لا يحق له اتهام غيره بالكفر حتى ولو كفر فعلاً ، ونحى الشريعة الإسلامية وأحل القوانين الوضعية محلها. لأن الإيمان في القلب ، ولا يطلع أحد عليه إلا الله! وهذا الذي استبدل القانون الوضعي بالشريعة الربانية يقول لا إله إلا الله ويتظاهر بحب الإسلام وبالتالي يكون مؤمناً بالطبع (١) !.

فإذا بارحنا ظل الإرجاء واتجهنا إلى رحاب الصوفية، تلك الرحاب التي يجد الهارب إليها الأمن والطمأنينة ، ويلقى فيها متنفساً مما يعانیه في هذه الحياة من غصص وكربات بالولوج في خيالاتها وأوهامها. رأينا أن الأمر عندهم يسير والخطب هين ، فالخير كل الخير عندهم في اعتزال الدنيا والإعراض عنها ، والخلو للذكر حتى الوصول إلى الحضرة !

فلا يهم إذن أي شريعة تحكم الدنيا ، إن كانت الشريعة الإسلامية هي التي تحكم فنعمنا هي ، وإن كان غيرها هو الحاكم فلا ضير من ذلك فلتحكم هي الدنيا وتدع لها الآخرة. ثم تزداد هذه النظرة انحرافاً حين يترك للصوفية كامل الحرية ، فلا يتعرض المستعمر لعقائدها وطقوسها ، بل ربما حظيت بالرعاية والعناية والتشجيع في رحاب تلك الحكومات التي لا تحكم بشرع الله. فلم الامتعاض من تحكيم القوانين إذن ، والأسف على فوات الشريعة الإسلامية وتحتيتها .

وإذا عرفنا مما سبق أن الدين عندهم قد أصبح عبارة عن عبادة الأولياء والأضرحة وعن إقامة الموالد التي يصعب إحصاؤها ، وعن الاحتفال بالمحمل وإحياء ليالي السنة بالحفلات والذكر ، وعن اتخاذ طريقة للسير عليها ، وشيخ للتبرك به والسلوك على يديه ، وعن سيل من البدع والخرافات تملأ على المرء منهم يومه وليلته ولا تدع عنده وقتاً للتفكير في غير ذلك.

وباختصار صار الدين عندهم هو التصوف ، وهذا التصوف لم يمس بشيء ولم يتعرض له أحد بسوء بل شجع كما رأينا وروعي مراعاة عظيمة ، فلا عليهم بعد ذلك أن تنحى الشريعة وتستبدل

---

(١) نقول هذا لأن الاستعمار في كل بلد عزل فيه الشريعة الإسلامية جانباً كان له من الحكام المحطين من ينفذ سياسته والمرجئة مع ذلك يسلكونه في عداد المؤمنين ، على أساس أن عمله هذا معصية ، والمعصية لا تضر مع الإيمان!.

بالقانون الوضعي، ما داموا آمنين على دينهم أو قل على تصوفهم! وإرجائهم أيضاً.

ولا يخفى ما ترتب على تنحية الشريعة الإسلامية من فساد عظيم في كل مجالات الحياة ، ومن تدهور في الأوضاع ، وهيمنة للمذاهب والحركات الهدامة كالعلمانية والقومية والاشتراكية والبعثية ، وباختصار فقد ظهر الفساد في البر والبحر واستحالت الحياة إلى عنت لا يكاد يطاق.

لقد بدأ الضعف والتخلف والفساد يغشى الحياة عند المسلمين ويهيمن عليها يوم أن فشلت الانحرافات العقدية ، وساعت الأحوال الدينية ، ثم جاء الاستعمار نتيجة لذلك بعد أن وجد الفرصة سانحة ، والأمة غارقة في الشرك والبدع والخرافات ، وبعد أن وطد أقدامه أخذ يعمل على إضعاف الأمة وإفقارها وتخلفها وإفسادها بعد أن تم له تنحية الشريعة الإسلامية، واستبدال القانون الوضعي بها.

وقد حاول الاستعمار بجميع الوسائل المتاحة له القضاء على الإسلام نهائياً ، وسلك في ذلك أساليب كثيرة غير مباشرة ولكنها أشد أثراً وأبعد خطراً من الصدام المباشر ، وأخذ في تشجيع دعوات التغريب والغزو الفكري ، كالدعوة إلى الارتقاء في أحضان الغرب ، وإلى احتقار الماضي الإسلامي ، وإلى فصل الدين عن الدنيا وهذه هي العلمانية ، والهجوم على اللغة العربية والدعوة للعامة ، ولا ننسى أن نقول: إن الاستعمار كان كثيراً ما يفرض لغته الأصلية لغة رسمية على البلاد التي يستعمرها ، كما فعل الاستعمار الفرنسي في الجزائر ، والاستعمار الإنجليزي في الهند على سبيل المثال.

وفي المجالين الاجتماعي والأخلاقي رأينا كيف هوجم الدين وهوجمت الأخلاق ، وسخر منها ، واعتبرت علامة على التخلف والرجعية ، ورعى الدعوة إلى تحرير المرأة تلك التي انتشرت آثارها الخطيرة في كل جزء من المجتمع وقد «شجع الاستعمار قيام نظام طبقي أساسه وجود فئة من الإقطاعيين والاحتكاريين يستأثرون بالثروة ، على غرار النظام الإقطاعي في أوروبا في العصور الوسطى ، وباقي الناس في ذل وفقر وجهل - بمعنى آخر - أوجد التفاوت الطبقي الكبير الذي لم يعرفه المسلمون في تاريخهم ... فأصبحت علاقات المجتمع عدائية بدل الحب والتعاون والتكافل في المجتمع الإسلامي» (١)

وفي المجال السياسي استطاع الاستعمار كما عرفنا تنحية الشريعة ، وإقامة حكام دمي يحكمون بلادهم بالقوانين الوضعية. «وانتزع المستعمرون أقساماً من العالم الإسلامي ، وسلموها

(١) حاضر العالم الإسلامي ص ٢١٣ . د. جميل المصري .

لغير المسلمين مثل فلسطين ، وأريتريا ، وصومال أنفدي ، والصومال الغربي ، وقبرص ، ولبنان وكثير من الأقطار الإسلامية الواسعة داخل الاتحاد السوفيتي ، وأوروبا الشرقية. وقد «جزأ الاستعمار العالم الإسلامي ، وأقام الحدود المصطنعة ، وأبقى لكل قطر مشكلة مع جيرانه بعد رحيله ليحول بين المسلمين والتعاون فيما بينهم ولن تعوزنا الأمثلة لذلك : الصومال مع جيرانه ، العراق وإيران ، سوريا وتركيا ، مصر وليبيا ، السودان وجيرانها التسعة<sup>(١)</sup> ، المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا ، وتنزانيا ، نيجيريا ، أندونيسيا وماليزيا ، الهند وباكستان ، ثم بنغلاديش والهند ، وكشمير ، اليمن الشمالي والجنوبي وعمان ، ومشكلة كل قطر مع الآخر مستعصية لا يحلها إلا الإسلام الذي أقصي عن الساحة»<sup>(٢)</sup>.

بل يغلب على الظن أنه لا توجد دولتان متجاورتان إلا والخلاف على الحدود قائم بينهما ، والغريب أن كثيراً من تلك الحدود لم تسو بعد في كثير من الأقطار. وفي هذا مدعاة لدخول أطراف أخرى لتفجير النزاع في أية لحظة لتكسب هذه الأطراف نتيجة النزاع لصالحها. وأما الحدود التي قد سويت فإن النزاع لا يزال قائماً من أجلها لأن كلا الطرفين غير راض بهذه التسوية. والواقع المعاصر خير دليل على ذلك.

وفي المجال الاقتصادي «وجه الاستعمار موارد البلاد الإسلامية إلى مصالحه الخاصة ، فشجع رؤوس الأموال الأجنبية على غزو البلاد واستثمار خيراتها ، وأصبحت معظم الشركات أجنبية تدار لمصالح استعمارية ، فقد أقام المؤسسات الاقتصادية والبنوك لتوظيف ذهب أوروبا الذي طفحت به خزائن بنوكها في أواخر القرن التاسع عشر ، وفتح الأسواق لمصنوعاتها ومنتجاتها وخاصة الاستهلاكية والترفيهية والكمالية ، فأصبح لأفراد العالم الإسلامي ولع خاص بالاستهلاك التفاخري ، ولهم جراءة عجيبة على الإنفاق الاستهلاكي والتطرف فيها ، وهذه نقطة قاتلة لاقتصاد المسلمين.

ثم عمد الاستعمار إلى إقراض الحكومات للسيطرة عليها ، وتكبيها بالنفوذ الغربي ، وإيقاع ذوي اليسار في الديون ، للاستيلاء على أملاكهم ، وتحويل مختلف الأراضي والتجارات والأموال إلى البنوك الأجنبية ، فأنتج أجيالاً تفكر في الحصول على منتجات الغرب ، ولا تفكر كيف تنتج هذه الأشياء...»<sup>(٣)</sup>.

(١) في الأصل : وجيرانها التسع وهو خطأ. ولو قال : وجاراتها التسع لصح.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٤.

كما قام أيضا باحتكار «التجارة الخارجية للبلاد الإسلامية ومعظم التجارة الداخلية ، وعمد إلى توطين الأوربيين في البلاد الإسلامية عن طريق التجارة كما فعل في الجزائر والهند وأنونيسيا وأفريقيا وتركستان ، وأوفد إلى البلاد العربية خاصة مئات الألوف من الأوربيين ومعظمهم من اليهود فاستوطنوا فيها وتحكموا في اقتصادها وخاصة في أقطار المغرب العربي» (١) .

كما حارب الاستعمار الصناعة الوطنية في العالم الإسلامي واكتفى بتوجيه المسلمين إلى الاشتغال بالزراعة ، وفي محاصيل معينة كما ذكرنا من قبل (٢) .

واحتكر ثروات العالم الإسلامي المعدنية والبتروولية ، كما شجع نظام الإقطاع الزراعي والطبقية ، وحرّم السواد الأعظم من المسلمين أن يعيش في مستوى لائق ، لذا شاع الفقر والبؤس والتخلف والمرض في عالم الخيرات الوفيرة والموارد الكثيرة ، فأفقر دول العالم مسلمة حالياً (٣) .

ونعود فنقول إنه مع كل هذه الآثار السيئة التي خلفها الاستعمار والتي ما زالت تجثم على حياة المسلمين فإن ذلك لا يعفي الأمة أبداً من تحمل مسؤوليتها ، والقيام بواجبها في إزالة تلك الآثار السيئة.

أمر آخر له صلة بالاستعمار لا بد من الإشارة إليه وإن كنا سنتعرض له في مبحث قادم ، ذلك هو تشجيع التنصير ورعايته من قبل المستعمرين. حيث أن «المبشرين منذ القرن التاسع عشر أحبوا أن يتقدم الجيش أولاً ، لأن ذلك يسهل مهمتهم» (٤) .

وبعد أن انحسرت شمس الدولة العثمانية عن كثير من البلاد الإسلامية ، وجاء الاستعمار ليحكم تلك البلاد ، ويفتح أبوابها ومدنها لسيل هائل من المنصرين لم يكونوا ليصلوا إلى ما وصلوا إليه في يوم من الأيام لولا مساندة الاستعمار لهم.

ولم تخيب هذه الدول الاستعمارية ظن هؤلاء المنصرين ، فقامت بتمهيد السبل في طريقهم وظلت تكلوهم وترعاهم لتحقيق مآربهم وأهدافهم التنصيرية.

ويقول المنصر «كنيث لاتورت» في مقال له في «المجلة الدولية للإرساليات» : «ولكن يجب أن نذكر على كل حال أنه لم يحدث انتقال واسع من الإسلام إلى النصرانية في قطر ما إلا بعد أن تبدل ذلك القطر بحكومته الإسلامية حكومة غربية مسيحية..» (٥) .

(١) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٢) راجع الضعف الاقتصادي من هذا البحث.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(٤) التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص ١٤٤ .

(٥) المصدر السابق ص ١٤٧ .

وبعد أن تم للإنجليز احتلال مصر عام ١٨٨٢م هيئت الأجواء أمام طوائف المنصرين «ولقد اتهم بعض المبشرين» اللورد كرومر» ، المعتمد (الأول) البريطاني في مصر ، بأنه كان يحابي المسلمين ، مع أنه كان يشجع التبشير بين المسلمين ويحمي القسس الأجانب والمبشرين» (١).

ولعل مرد ذلك الاتهام هو قول «اللورد كرومر» واصفاً سياسته في مصر : «إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد (يعني مصر) هو تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن؛ بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس، وإن كان من الواجب - منعاً من إثارة الشكوك - ألا يعمل على تنصير المسلمين ، وأن يرعى من منصبه الرسمي المظاهر الزائفة للدين الإسلامي ، كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك» (٢).

«وحين بدأ حكمه في مصر شكاه المبشرون إلى الحكومة البريطانية بدعوى أنه يضيق عليهم ، فلما أرسلت الحكومة البريطانية الشكوى إليه ليرد عليها ، جمع المبشرين وقال لهم : هل تتصورون أنني يمكن أن أضيق عليكم؟ ولكنكم تخطفون الأطفال من الشوارع ، وتخطفون الرجال لتنصيرهم ، فتستفزون المسلمين فيزدادون تمسكاً بدينهم ، ولكني اتفقت مع شاب تخرج قريباً في كلية اللاهوت بلندن ، ليضع سياسة تعليمية ستحقق جميع أهدافكم» (٣).

إذن فكرومر كان يرمي إلى سياسة أدهى في التنصير وأهدى في التخطيط والعمل. جرياً على الأسلوب الإنجليزي البارد في تحويل الناس عن الإسلام ، وذلك الأسلوب الذي يتفق مع منتهى المشهور (Slow but sure) بطيء ولكنه أكيد المفعول» (٤).

ولعل في ذلك إجابة على من يهونون من شأن الصلة بين الاستعمار والتنصير أو ينفونها ، فنقول : إن الاستعمار والتنصير (٥) وجهان لعملة واحدة هي الصليبية ، فالاستعمار منصر ، والمنصر مستعمر. ولكن الأقنعة تختلف ، فأحدهما يتقنع بقناع الاستعمار ، والآخر بقناع التنصير وكلاهما صليبي حاقد. وفي السودان لم يبدأ التبشير الفعلي إلا بعد مجيء الجنرال «غوردون» حاكماً عليه ، وهدأت هذه الجهود أيام الثورة المهدية ، ثم عادت أكثر مما كانت عليه من قبل ، بعد سقوط المهدية ، وعودة الحكم الإنجليزي . وبلغ من تدخل المبشرين في شئون السودان ومن دالتهم على المعتمدين البريطانيين في مصر أنهم كانوا يبدون آراءهم في تعيين الموظفين في السودان ، ولكنهم لم ينجحوا دائماً» (٦).

(١) المصدر السابق ص ١٤٨.

(٢) مصر الحديثة. اللورد كرومر نقلاً عن واقعنا المعاصر ص ٢١٦.

(٣) واقعنا المعاصر ص ٢١٦.

(٤) المصدر السابق ص ٢١٦.

(٥) ويضاف إليهما الاستشراق.

(٦) التبشير والاستعمار ص ١٤٩.

وعلى العموم فقد رعى الاستعمار التنصير والمنصرين في كل بلد استعمرها ، فالإنجليز والفرنسيون والإيطاليون والأسبانيون والهولنديون والروس كل منهم قد عني بالتنصير عناية فائقة ، وأفسح لهم المجال في البلاد التي كان يحتلها . وفي اعتقادي أن الاستعمار كان البوابة الكبرى والوسيلة العظمى التي سلك من خلالها المنصرون لغزو العالم الإسلامي عقائدياً ، وأنه لولا الاستعمار في كثير من الأحيان لما نجحت إرسالية تنصيرية في مهمتها وما دما قد تحدثنا عن رعاية الاستعمار للتنصير فلا بد من الإشارة بشكل موجز عن دور الاستعمار في رعاية الطوائف غير المسلمة من فرق وأديان .

لقد حرص الاستعمار في كل قطر سيطر عليه على البحث عن غير المسلمين من الطوائف الأخرى ، فقربهم وأعلى شأنهم ، ومنحهم فرص التعليم كي يتمكنوا من تولي المناصب الهامة التي يرون من خلالها مصالحه بعد رحيله . في نفس الوقت الذي كان فيه يقصي المسلمين ، ويسد الأبواب في وجوههم . فحيثما حل المستعمرون يقومون بنشر العقائد الميثة أو تنظيم الطوائف غير الإسلامية ويمهدون لها السبل لتولي المناصب المهمة مستثيرين حقدهم على المسلمين بالزعم بأن الفتح الإسلامي كان استعماراً لهم وأن المسلمين متعصبون ضدهم»<sup>(١)</sup>.

وقد رأينا عند حديثنا عن الفرق كيف وصل الأمر بالمستعمرين الفرنسيين إلى إقامة دولة مستقلة في الشام لكل من : طائفتي الدروز والنصيرية المارقتين من الإسلام .

لقد حاول الاستعمار دائماً تقوية الفرق المعادية لأهل السنة كالشيعة الأثني عشرية . ففي الهند قام الإنجليز بفتح مدارس خاصة لهم كان لا يسمح لغير أبناء طائفتهم بالدراسة فيها ، وبلغ عدد المدارس الأثني عشرية في باكستان حوالي ثمان عشرة مدرسة ، فالتعليم الأثني عشري برمته في الهند كلها مدين للاستعمار ومنة من منته على تلك الطائفة<sup>(٢)</sup>.

أما طائفة البهرة ، فقد ظل الاستعمار هناك يربها ، ويحميها ويمنحها الامتيازات التي تخول لها نشر مذهبها ، ومضايقة أهل السنة والاعتداء عليهم بون خوف من الانتقام منهم<sup>(٣)</sup> .

(١) العلمانية ص ٥٤٠ د سفر بن عبد الرحمن الحوالي . الدار السلفية . الكويت . ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

(٢) أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية ص ٢٩٨ .

(٣) ومن أمثلة ذلك عندما قام الحرس الخاص بداعي البهرة الخامس والأربعين بقتل العالم «رمضان علي السني» في حي البهرة بمندسور في ٢٥ ربيع الثاني ١٢٣٩ هـ ، وحاول أهل السنة الأخذ بشأه ، فقاموا بمحاصرة مسكن الداعي فاستنجد بالإنجليز فأسعفوه بثلاث كتائب من جيشهم المسلح ، ثم شرعوا له قانوناً يخوله إقامة كتيبة مسلحة تحفظه وتحفظ أتباعه ولما حاول العلامة «مظهر علي» المطالبة بدم الفقيه حكم عليه بالسجن المؤبد من قبل محكمة إنجليزية . المصدر السابق ص ٣٠٢ .



وكانت كثير من الدول الأوروبية تتدخل في استعمارها للبلاد الإسلامية والتدخل في شؤونها بحماية الأقليات غير المسلمة.

وفي أثناء الاحتلال الإنجليزي لمصر قام الإنجليز بفتح المجال في التعليم والاستثمار والوظائف أمام كل من اليهود والنصارى «على أن الاحتلال البريطاني لمصر أتاح لليهود النازحين - بصفة خاصة - الشعور بالأمان منذ سنة (١٨٨٢) حتى (١٩٤٨) وساعدهم على الاستقرار والإبداع في كل مجال» (١).

أما الأقباط وغيرهم من طوائف النصارى الأخرى فقد تمتعوا بالرعاية والعناية في ظل الاحتلال الإنجليزي. «وقد كانوا يتوقعون أن ترتفع مكانتهم في ذلك العهد الجديد كما يقول : «اللورد كرومر» ، من أجل ذلك استشعر المسيحيون القوة وانفتح أمامهم باب الأمل في تحسين حالتهم ... واتجه القبط إلى استمداد القوة من مصدر جديد ، فاقبلوا على التعليم ، وحرصوا على جمع المال حرصاً شديداً ، وكان إقبالهم على التعليم - وعلى الأجنبي منه بنوع خاص - بالإضافة إلى ما عرف من تهافتهم على بعض الوظائف التي زهد فيها المسلمون ، وتوارثهم الوظائف المتصلة بالأعمال المالية والحسابية منذ زمن طويل (٢) - كان كل ذلك سبباً في أن تجاوز نسبتهم في الوظائف الحكومية نسبتهم العددية في السكان بمقدار كبير. وكان حرصهم على جمع المال سبباً في اضطراء الزيادة في ثرواتهم» (٣). «وتحت ستار اللاتعصب واللاطائفية مكن للأقباط من بناء الكنائس والمدارس بكثرة وتولي المناصب الوزارية في الحكومة برعاية الإنجليز» (٤).

وقد بلغ الأمر بالأقباط في عهد الاحتلال الإنجليزي أن أخذت صحفهم تتحدث وكأنهم أمة مستقلة لها كيان منفصل عن مصر ، وبدأت هذه الصحف تتحدى الرأي العام باستحسان ما أجمع المصريون على استنكاره ، وتشتكي للإنجليز لينقذوهم من وضعهم السيئ على حد زعمها ، وكان الذروة لهذه الحملة القبطية الهائجة هو عقد المؤتمر القبطي العام في أسيوط من ٥ مارس إلى ٨ مارس من عام ١٩١٠م وانحصرت مطالبه في :-

١ - طلب العطلة يوم الأحد بجانب الجمعة.

٢ - أن تكون قاعدة التوظيف هي الكفاءة وحدها دون نظر إلى نسبة الأقباط العددية في

السكان.

(١) اليهود والناسون في مصر ص ٦٧ د. علي شلش. الزهراء للإعلام العربي. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(٢) ذكرنا بعض الأمثلة على ذلك عند حديثنا عن الولاء والبراء ص ١٠٠ ، ص ١٠٤ .

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١٢٧/١ .

(٤) العلمانية ص ٥٤١ .

٣ - وضع نظام لمجالس المديرية يكفل للأقباط تمتعهم بالتعليم حتى لا يقتصر التعليم على الدين الإسلامي وحده في المدارس الأولية.

٤ - وضع نظام يكفل تمثيل كل عنصر مصري في المجالس النيابية.

٥ - جعل الخزينة العمومية مصدراً للإنفاق على جميع المرافق المصرية»<sup>(١)</sup>.

وهذه المطالب كما نرى ترمي إلى تقوية جانب الأقباط على حساب المسلمين ، وإعلاء شأنهم . ولم يكن هذا المؤتمر لينعقد أو يخرج بمطالبه تلك لولا وجود الإنجليز ورعايتهم له رعاية غير مباشرة على الأقل . ولابد من الإشارة إلى أمر يختص بالوظائف فنقول : إن تقريب الأقباط في المناصب المالية المهمة قد بدأ قبل الاحتلال الإنجليزي لمصر . فقد ذكرنا عند حديثنا عن الولاء والبراء أن بعض المتأخرين من حكام المماليك قد عهدوا بمناصب هامة في النواحي المالية إلى بعض الأقباط ، واستمر ذلك حتى جاء محمد علي وأولاده فأطلقوا لهم المناصب الهامة ومنحهم الثقة التامة . ولكن الوضع قد تغير في عهد الإنجليز ، إذ طمع الأقباط في الاستيلاء على كل مركز هام في الدولة بمعونة بني ملتهم من المحتلين ، فما زالوا يعملون لأجل ذلك الهدف حتى حققوا جزءاً كبيراً منه ، وأصبحوا أكثرية في الوظائف والمناصب مع أنهم أقلية صغيرة بالنسبة للمسلمين .

وفي بلاد الشام «تعهدت فرنسا بدعم النصارى وسلمتهم الوظائف العليا ونظمت قلوبهم في جمعيات ومؤسسات عسكرية ومدنية ، وعند إنشاء الجامعة السورية - مثلاً - عينت لها مديراً نصرانياً هو قسطنطين زريق»<sup>(٢)</sup>.

«وفي معظم دول إفريقيا خرج الاستعمار مخلفاً وراءه حكومات نصرانية تحكم شعباً تصل نسبة الإسلام في بعضها إلى ٩٩٪»<sup>(٣)</sup>.

لقد عمل الاستعمار طوال فترة حكمه في البلاد الإسلامية على رفع مستوى كل الطوائف المعادية للإسلام من فرق وأديان ، ودأب على إثارتهم بالتعليم والوظائف ويكل ما من شأنه أن يقوي جانبهم ، ليقضى بذلك على الكثرة الساحقة من المسلمين ، وقد نجح الاستعمار في تلك الخطوات ، بفضل استغلال هذه الطوائف الفرص الممنوحة لهم من قبل المستعمر الذي لم يغادر البلاد حتى سلم اقتصادها ووظائفها لهذه الأقليات الحاكمة التي لا ترقب في المسلمين إلا ولا ذمة ، فأصبحت مصائر المسلمين وثرواتهم مكبلة بأيدي تلك الأقليات تعبت بها كيف تريد .

(١) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١٣٥/١ .

(٢) العلمانية ص ٥٤٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٤١ .

ونختتم حديثنا عن الاستعمار بقضية هي الأهم في نظرنا لأنها من الخطورة بمكان . هذه القضية هي خروج الاستعمار ظاهراً وبقائه باطناً ، أو خروج الاستعمار المباشر وبقاء الاستعمار غير المباشر . أو بتعبير آخر هو خروج الاستعمار الرسمي كما عبر عن ذلك مؤلفا « التبشير والاستعمار في البلاد العربية »<sup>(١)</sup> . وبقاء الاستعمار غير رسمي؟

أما أسباب خروج الاستعمار الظاهر فلن نحاول الخوض فيها ، وإن كانت المقاومة العنيفة التي لقيها الاستعمار ، والخسائر الهائلة التي تكبدها في الأرواح والأموال كانتا من أكبر الأسباب التي أجبرته على الخروج ، ولكن السبب الجوهرى في نظرنا هو ما نود الحديث عنه هنا وهو الاستعمار غير المباشر .

إن الاستعمار لم يخرج في الظاهر حتى خلف بذوره في الداخل لتتبع فور خروجه ويظل يقطف ثمارها على الدوام دون أن يشعر به أحد ، ولم يغادر المستعمرات حتى بات مطمئناً على مصالحه ، وضامناً وصولها إليه نون عناء أو مشقة . إن الاستعمار ما بارح الديار إيماناً منه بأن الشعوب المستعمرة غدت قادرة على قيادة نفسها وأن للشعوب حق تقرير المصير كما يحلو لبعضهم أن يقول ، كلا ولكنه ما رحل عن الديار إلا بعد أن خلف وراءه طابوراً أميناً يقوم بتنفيذ مآربه ، ويسهر على حفظ مصالحه . ولم يفت المستعمر قبل خروجه أن يقيم من الأنظمة السياسية ما يتفق مع أهدافه ومصالحه .

فكان عمله الأول الذي صرف فيه الجهود هو تنحية الشريعة الإسلامية ، وإقامة القوانين الوضعية لتحكم البلاد بها ممن يتولون مقاليد الأمور فيها . « فهم إذا فرضوا النظام السياسي الذي يريدون والذي يخدم مصالحهم ويحقق أغراضهم جاء عن طريقه الحاكم الذي يسعى في رضاهم ويأتمر بأمرهم ويتلقى عنهم ويحمى سلطتهم ويدافع عنهم ويفرضهم على محكوميه .. »<sup>(٢)</sup>

ويقول الكاتب الأمريكي «موروييرجر» «إن النخب الوطنية أقدر من النخب الأجنبية في إحداث التغيير الاجتماعي المطلوب»<sup>(٣)</sup> لذا لم يكن للمستعمرين بد في إيجاد تلك النخب الوطنية أو المحلية أثناء تواجدهم في البلاد الإسلامية لترثه عقب رحيله ، ولم ينس أن يتعاهدوا دائماً بعد أن سلمها أزمة الأمور في بلادها .

(١) انظر مقدمة الطبعة الثالثة ص ١ .

(٢) المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية ص ٩٦ .

(٣) المصدر السابق ص ١٠٠ .

إن وجود المستعمرين وجيوشهم عياناً بياناً على الأرض الإسلامية أمر يثير مشاعر المسلمين ويهز أحاسيسهم ، ويجعلهم يحسون بالهزيمة والذل ، ويحنون رؤوسهم خوفاً وخضوعاً ، ولكنهم مع ذلك يتحينون الفرصة المواتية للتمرد على هذه الجيوش والثورة ضدها ، لذا اصطبغ تاريخ الاستعمار في البلاد الإسلامية بالتوتر والاضطراب والفوضى ، وكثرت فيه الثورات والتمردات ، فكان ذلك مما عجل برحيل الاستعمار الظاهري ليخلفه الاستعمار الباطني الذي لا يكاد يشعر به أحد ، فلا استعمار ولا جنود في الشوارع ولا حاكم أجنبي . الكل قد رحل . وتقام الأفراح والاحتفالات لرحيل الاستعمار وبدء الاستقلال ، ويتنفس الناس الصعداء بعد كبت ومعاناة طويلة ، وما درت الجماهير المستغلفة أنها طردت استعماراً لتخضع لاستعمار آخر أشد خطورة وضرراً من الذي قاومته ورحل عنها ، ولكنه استعمار مكر وخبيث يظهر في أثواب الجلاء والتحرير والاستقلال فمتى تفتن له الجماهير أو تنتبه لخطورته.

وكما قال أحد الفطناء عندما خرج الإنجليز من مصر «خرج الإنجليز الحمر وبقي الإنجليز السمر» هؤلاء السمر هم العملاء والمأجورون لأعداء الإسلام ، والعاملون لحسابهم ولتحقيق أهدافهم . من مصاصي الدماء ، وسارقي ثروات الشعوب الذين يهتفون بتحقيق الاستقلال ، ومعاداة المستعمر . «لم يكن هذا الاستقلال تاماً وإنما للنفوذ الاقتصادي أثره الكبير ، وكذا السيطرة الفكرية وفرض النظريات والعلوم الاجتماعية على المجتمعات الإسلامية ، وذلك بما يملكه الأجنبي من نفوذ ، وإذا علمنا هذا أمكننا أن نقدر ما تفعله الدول الكبرى من مخططات سياسية ، وإعطاء المناصب العليا ، ومن يعطي يستطيع أن ينزع ، ولهذا يعيش العالم الإسلامي حتى الآن في فوضى سياسية وتخبط فكري»<sup>(١)</sup>.

ولسنا في حاجة للتدليل على بقاء هذا الاستعمار المبطن والذي يسري في البلاد الإسلامية كداء السرطان . فالشريعة الإسلامية ما زالت داخل الرفوف بعد أن نحاها المستعمر وختم عليها بالشمع الأحمر . وقد وقف المستعمرون الجدد لمن يحاول تطبيقها بالمرصاد رغم إلحاح الشعوب ومطالبتها بإصرار على وجوب تطبيقها ، ولكن لا حياة لمن تنادي .

والبلاد الإسلامية كانت وما تزال كيوم غادرها الاستعمار متخلفة وضعيفة وفقيرة . ومع وفرة ثرواتها وكثرة خيراتها إلا أن المستفيد الأكبر منها هو المستعمر الأول بمعاونة خلفائه من المستعمرين المقنعين الذين يديرون دفة الأمور في هذه البلاد . والتي تسير كل يوم من سيء إلى أسوأ . ولا غرابة بعد ذلك أن تظل بعض الشوارع بأسماء بعض سفاكين الدماء من المستعمرين في بلاد إسلامية زعمت أنها استقلت من الاستعمار .

(١) العالم الإسلامي ص ١٧٣ محمود شاكر . المكتب الإسلامي . بيروت . الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ .

والفساد فيها يتفاقم من يوم لآخر، في ظل هذا الاستعمار الخفي الذي قام بخطوات في ذلك المجال لم يكن يحلم بها المستعمرون الأوروبيون أنفسهم» وليس أدل على ذلك من أن القوى التي حكمت العالم الإسلامي بعد رحيل الاستعمار لم تكن الحركات الجهادية التي جابهت المستعمرين ، بل كانت أحزاباً وقوى مشبوهة ، تشهد أعمالها وأثارها بأنها جنت على الأمة ما لم يجنه الأعداء السافرون مما يعطي الدليل الواضح على أن تنفيذ المخطط اليهودي قد وكل إليهم مع اختلاف في الأدوار وتنوع في الإخراج<sup>(١)</sup>.

وفوق هذا وذاك قيام تلك الشبكة الاستعمارية الخفية التي حاك خيوطها الاستعمار الصليبي بمحاولات لإطفاء نور الله في الأرض ووأد الصحة الإسلامية ، وضرب الحركات الإسلامية بكل شدة وعنق ، وبصورة لم يكن ليقدّم عليها أحد من المستعمرين الحقيقيين وفاقت في ضراوتها ويطشها ضراوة الاستعمار ويطشه، مما يجعلنا نقطع بيقين أن الاستعمار ما غادر البلاد إلا بعد أن ترك وراءه استعماراً أدهى منه وأخطر قد جعل شرعية وجوده ما يقوم به من خدمات لأعداء الأمة.

\* \* \*

## المبحث الثاني : الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم

يلقي كثير من الكتاب والمفكرين باللائمة الكبرى على الغزو الفكري في كل ما يعانيه المسلمون اليوم من فساد وتأخر ، ويعودونه العقبة العظمى في طريق النهوض بالامة الإسلامية ، ويعتقدون أن العمل على إزالته واجتثاث جذوره هو المهمة الأولى التي يجب أن يعنى بها الدعاة وكل العاملين في الحقل الإسلامي . والذي جعلهم يذهبون هذا المذهب هو فداحة الآثار التي نجمت عن هذا الغزو الفكري ، وخطورة التغييرات التي أحدثها . ولكن مع كل ذلك يظل الغزو الفكري أثراً بارزاً نتج عن سوء الأحوال الدينية وما وقع فيها من انحرافات . فلولا هذه الانحرافات التي وقعت في حياة الأمة واتسع مداها مع الأيام لما كان للغزو الفكري أي دور يذكر .

فيوم كانت العقيدة سليمة ، والإيمان قوياً فياضاً ، والتمسك بما أمر الله به من حيطة وحذر وإعداد للقوة والتمكن قائماً لم يكن يمكن بأي حال من الأحوال أن يجد الغزو الفكري منفذاً ينفذ منه ، وإن وجد منفذاً فلن يجد مكاناً يؤثر فيه ، وإن وجد مكاناً ففي أندر الأحوال يقع ذلك وسرعان ما يقاوم ويعالج . هذا كله يحدث في حال يقظة الأمة ووعيها . وفي حال هيمنة العقيدة ونبضها . ويوم كانت الأمة كذلك لم تؤثر فيها تيارات الغزو الفكري ، ولم تجد للنفاذ إليها سبيلاً . أما بعد أن غشت الانحرافات على حياة الأمة ، وأصاب الضعف عقيدتها فكان أمراً متوقفاً أن تصبح هدفاً لحملات الغزو الفكري ، وأن تسقط فريسة لها من أول وهلة تصطدم بها .

وقبل أن نتطرق للحديث عن الغزو الفكري وما تبعه من استيراد للمبادئ والنظم نود أن نؤمى إيماءة سريعة لنشأة الغزو الفكري التي يرجعها بعضهم إلى زمن صدر الإسلام حيث ما انفك أعداء الإسلام عن بذل كل المحاولات ليكيدوا بها المسلمين . ويعتبر ما حدث من ترجمة للفلسفة الإغريقية في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث الهجري مثلاً بارزاً على الغزو الفكري في العصور المتقدمة ، وإن كان ذلك في الواقع حدث نتيجة لانخداع المسلمين بالفلسفة والمنطق وظنهم أنهما أداة نافعة يمكن أن تخدم العلوم الإسلامية .

ويرى البعض الآخر أن بداية التفكير في الغزو الفكري تعود إلى زمن الحروب الصليبية في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، وذلك عندما وقع لويس التاسع ملك فرنسا في الأسر بعد هزيمة حملته الصليبية ، وبقي سجيناً في المنصورة حتى اقتداه قومه وأطلق من أسره . وفي أثناء سجنه أخذ يتفكر فيما حل به ويقومه ، ثم عاد يقول لقومه : إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا

تقاتلوهـم بالسلاح وحده - فقد هزمتـم أمامهم في معركة السلاح - ولكن حاربوهـم في عقيدتهم ، فهي مكمـن القوة فيهم ، ووعى قومـه نصيحته ، فلما عادوا لغزو العالم الإسلامي مرة أخرى لم يكتفوا بالسلاح وحده ، ولكنهم استصحبوا معهم تلك الوسائل الخبيثة التي نطلق عليها اسم «الغزو الفكري»<sup>(١)</sup> .

وسواء صحت الحكاية السابقة أم لم تصح فلقد امتازت الحروب الصليبية الثانية أو ما سمي بالاستعمار باستخدامها وسيلة الغزو الفكري كوسيلة فعالة بجانب السلاح والقتال . ويمكننا أن نعتبر البداية الحقيقية للغزو الفكري المنظم والمكثف في مطلع العصر الحديث مع قدوم الحملات الصليبية ، ويمكن اعتبار الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت عام ١٢١٣هـ - ١٧٩٨م على مصر النقطة الأولى التي انطلق منها الغزو الفكري في العصر الحديث صوب الأمة الإسلامية.

لقد رأينا في الباب الأول من هذا البحث أن الأمة الإسلامية كانت غارقة في موجات من الانحرافات العقدية والدينية من انتشار لمظاهر الشرك والبدع والخرافات ، ومن هيمنة للصوفية ومعتقداتها ، ومن طغيان لمذهب الإرجاء ، ومن تشويه لمفهوم العبادة ، ومن خرق لعقيدة الولاء والبراء عند طائفة لا يستهان بها من حكام المسلمين ، حتى أضحت عقيدة السلف الصالح غريبة بل ومحاربة من قبل المبتدعة والخرافيين . هذا كله بالإضافة إلى ما وقع من تخلي العلماء عن دورهم وتقصيرهم في واجبهم ، وفساد مناهج التعليم وجمودها ، وشيوع روح التعصب المذهبي ، والإصرار على إغلاق باب الاجتهاد، وغير ذلك مما تناولناه بالتفصيل أثناء حديثنا عن هذه الانحرافات.

لقد كان هذا الواقع الديني المنحرف سبباً جوهرياً في كل ما جنته الأمة وقاسته من آثار داخلية وخارجية لازالت تعاني منها إلى اليوم.

ومن هذه الآثار الغزو الفكري الذي يعد أخطر أثر خارجي أحـدق بالأمة ، وكان له في واقعها الأثر الفعال والدور الكبير في إفساد الحياة الإسلامية بالكلية ، ومطاردة كل ما له علاقة بالإسلام والقضاء عليه. وإذا كانت الانحرافات الدينية قد شملت كل جزء في حياة الأمة تقريباً ، فإن الغزو الفكري بعد ذلك قد ماثلها في سعة الانتشار ، وخلفها في كل جزء كانت فيه، وكأنما كان هناك تناسب طردي بينهما . فبمقدار ما توغلت وانتشرت الانحرافات الدينية في حياة المسلمين ، فقد جاء الغزو الفكري بعد ذلك وتوغل فيها بنفس حجم الانتشار أو أشد.

لقد كان الواقع الديني بانحرافاته تربة خصبة وملائمة لإلقاء بنور الغزو الفكري التي أخذت تنبت وتنمو بسرعة في الأرض الإسلامية بصورة لم تكن متوقعة ، إذا لم نأخذ في حسابنا الأبعاد الحقيقية لتلك الانحرافات الدينية.

إن أهداف الغزو الفكري التي يخطط لها أعداء الإسلام ترمي إلى إخراج المسلمين من دينهم حتى يتركوا الإسلام «وإبقاء الشعوب الإسلامية ضعيفة هزيلة لا حول لها ولا قوة ، وخاضعة لنفوذهم ، وذلك بقطع حب الله الذي يربط هذه الأمة بخالقها سبحانه وتعالى ، والحيلولة بين هذه الأمة الإسلامية وبين تاريخها المجيد الذي انبثق من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وإحلال لغة الغاوي وفكره محل ذلك ، وتطبيق مبادئه على أبناء الأمة الإسلامية ، فتشويه فكرهم وتمسخ عقولهم ، وتخرج بهم إلى حياة مغلوقة وتابعة لأعداء الأمة الإسلامية ، فيعيشون عيشة الاتباع والأذنان»<sup>(١)</sup>.

وقد سلك الغزو الفكري عدة وسائل للنفوذ من خلالها ، ولكن أعظم وسيلتين اعتمد عليهما من تلك الوسائل هما مناهج التعليم ووسائل الإعلام فإنهما تمثلان البوابتين العظيمتين التي ولج منهما الغزو الفكري.

أما القضايا التي ركز عليها الغزو الفكري أثناء هجومه فهي كثيرة ولكن أهمها قضية تنحية الشريعة الإسلامية وفصل الدين عن الدولة (العلمانية) وقضية تحرير المرأة، وقضية التطور ونزول الدين ، وقضية القومية والوطنية وقضايا أخرى.

فتنحية الشريعة الإسلامية تحدثنا عنها في مبحث الاستعمار من حيث علاقته بها ، حيث كان له الدور الأكبر في تنحيته. ولكننا في هذا المقام سوف نركز الحديث باختصار عن دور الغزو الفكري في تلك القضية الخطيرة، قضية تنحية الشريعة الإسلامية.

فمع أن الاستعمار الصليبي كان هو الذي تولى كبر هذه الجريمة وابتدأ تنفيذها ، إلا أن ذلك لم يكن ليقع لولا حملات الغزو الفكري المكثفة التي صاحبت ومهدت لهذه الجريمة. ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا الحالة العقيدية والدينية المتردية التي تعد السبب الحقيقي في كل ما وقع؛ إذ لولا هذه الحالة أيضاً لما تمكنت حملات الغزو الفكري من تحقيق أي نجاح لها في تلك القضية الخطيرة.

لقد كان العمل على تنحية الشريعة الإسلامية هدفاً رئيسياً ومشتركاً بين أعداء الإسلام جميعاً، اتفقوا على محاولة تحقيقه. وقد كان ذلك هو الهدف الأول للاستعمار الصليبي حين جاء إلى البلاد الإسلامية، حين كان دأب الاستعمار حيثما حل هو العمل بقوة الحديد والنار على تنحية الشريعة

---

(١) مجتمعنا المعاصر. أسباب ضعفه ووسائل علاجه ص ٢٠٩.



الإسلامية ، واستبدال القوانين الوضعية بها ، وقد قلنا في مبحث سابق<sup>(١)</sup> إنه على الرغم من فظاعة المستعمر واستخدامه القوة والرهبة فإن ذلك لم يكن ليعفي الأمة من تحمل مسؤوليتها أو يبيح لها التنازل عن شريعتها .

وقد رأينا كيف أخفقت الحملة الفرنسية بقيادة «نابليون» الذي عمل على تنحية الشريعة الإسلامية في مصر ومن ثم فشلت في تحقيق ذلك الهدف بعد أن أجبرتها المقاومة على الرحيل .

ولكن ذلك الهدف قد تحقق فيما بعد على أيدي الانجليز الذين لم يلاقوا مقاومة كالتى لاقاها الفرنسيون . ومرد ذلك إلى حملات الغزو الفكري المتتالية ، «فلاشك أن ما يزيد على ثمانين سنة من الزحزحة المستمرة عن الإسلام كان لها أثر ملموس في عالم الواقع .

فسياسة «التغريب» التى اتبعها «محمد علي» ، وورثها من بعده أبنائه ، وكان قوامها الأول سياسة الابتعاث التى اتبعها «محمد علي» ، ثم سياسة «الفرنجة» التدريجية التى اتبعها أبنائه وبخاصة الخديوي «اسماعيل» كان لها أثرها التدريجي في تقبل الأفكار الغربية وأنماط الحياة الغربية ، وتضاؤل الاستنكار لها كلما تقدم الزمن ...»<sup>(٢)</sup> .

وهكذا كان الغزو الفكري عاملاً مهماً في قيام أعداء الإسلام بتنحية الشريعة الإسلامية ، وفي تقبل المسلمين لهذا الحدث العظيم . «فإن الغزو الصليبي - سواء العسكري أو الفكري - قد دفع الأمة دفعة خطيرة وراء آخر الحواجز التى كانت قد وقفت عندها على الرغم من كل تقاعسها وكل انحرافها . فأخرجها من شريعة الله وهو يزين لها عملها ، ويمد لها في الغي ، ويوهمها أنها ما زالت في دائرة الإيمان .. ولقد قاوم المسلمون الغزو العسكري والغزو الفكري بما كان قد بقي فيهم من طاقة ... ولكن الخواء الذي كانت تعانيه الأمة من جراء انحرافات وأمرضها جعل هذه المقاومة أضعف من أن تقف للغزو الكاسح ، فاستتب الأمر للغزاة ، وتم لهم ما أرادوه من صرف الأمة عن الإسلام . ولقد كان لهم من وراء تنحية شريعة الله عن الحكم مآرب عدة ... كانوا يريدون أن تعمل حركة التنصير في العالم الإسلامي وهي أمنة مطمئنة لتفتن من تستطيع فتنته عن دينه . ولن تجد هذه الحركة مجالاً لو بقيت الشريعة قائمة ، ونفذ حد الردة على المنتصر الذي يرتد عن الإسلام .

وكانوا يريدون أن تشيع الفاحشة في المجتمع الإسلامي لتتحل أخلاقه ، ويسلس قياده للمستعمر ، ولم يكونوا يستطيعوا - والشريعة قائمة - أن يفتحوا بيوتاً رسمية للبغاء تحميها الدولة «المسلمة» بتشريعاتها وتنظيماتها وشرطتها! ولا أن يفتحوا الحانات لتسقى الناس الخمر علانية

(١) هو مبحث الاستعمار .

(٢) واقعنا المعاصر ص ٢٠٥ وقد تقدم معنا هذا النص ص ٥١٦ .

باسم «المشروبات الروحية» ، ولا أن يفتحوا المراقص للساقطات اللواتي أطلق عليهن فيما بعد لقب « الفانات ! » لتهية الناس عن صلاتهم وصيامهم ، ودينهم وآخرتهم ، باسم الفن والحضارة والتقدم»<sup>(١)</sup>.

وإذا كان أعداء الإسلام قد ركزوا على مصر لأجل تنحية الشريعة الإسلامية عنها لما لها من موقع جغرافي هام ، ولوجود الأزهر فيها ودورها القيادي في البلاد الإسلامية، واستخدموا الجيوش العسكرية في فرض القوانين الوضعية وعزل الشريعة الإسلامية. كما فعل الفرنسيون ، ثم الانجليز الذين حكموا مصر قرابة السبعين عاماً بتلك الصورة، فقد ركزوا تركيزاً شديداً على تركيا بصفتها مركز القيادة في العالم الإسلامي ، ومحط أنظار المسلمين في كافة أنحاء العالم.

لقد جهد أعداء الإسلام على تنحية الشريعة الإسلامية في الدولة العثمانية ، وصوبوا حملاتهم صوب الأستانة عاصمة الدولة. وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد نحيت في مصر تحت القهر والإرهاب الذي استخدمته جيوش المستعمرين الرابضة على الأرض هناك، فإن الشريعة الإسلامية في تركيا بدأ في تنحيها بغير سيف ولا نار ، بل كان الغزو الفكري هو الدافع إلى ذلك ، وكان أمضى في التأثير ، وأبعد في النتائج.

نحن لا ننكر أنه كانت هناك ضغوط شديدة تمارسها الدول الأوروبية على الدولة والسلطين العثمانيين بشأن تنحية الشريعة الإسلامية بحجة البدء في الإصلاح وتحسين الأوضاع ومساواة غير مسلمين بالمسلمين، ولكن تلك الضغوط لم يكن ليستجاب لها ، أو يرضخ لها لولا هجوم الغزو الفكري الكاسح الذي خضع له وتأثر به عدد كبير من ذوي الرأي والسياسة في العاصمة استامبول وغيرها من مدن تركيا.

لقد كانت الأوضاع السائدة في الدولة العثمانية منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي سيئة للغاية ، وفي الفترة التي نقوم بدراستها ازدادت هذه الأوضاع سوءاً وتردياً. وغشي الضعف والتخلف كافة الميادين من سياسية وعسكرية واقتصادية وعلمية. وأغرى هذا الضعف المستشري في جسم الدولة التي كانت تلقب بالرجل المريض الدول الأوروبية وخاصة روسيا للانقضاض عليها وإنزال أشد الهزائم بها.

كل ذلك مع ما أصيبت به الدولة من خواء عقدي مزمن أوقع كثيراً من رجال السياسة والرأي في الأستانة تحت براثن هزيمة نفسية مريرة ، أحنت رؤوسهم خجلاً ومقناً لذلك الواقع المتردي ،

---

(١) حول تطبيق الشريعة الإسلامية ص ٦٤. الأستاذ محمد قطب. مكتبة السنة. الطبعة الأولى. ١٤١١هـ - ١٩٩١م. القاهرة.

وجعلتهم يتطلعون إلى هازمتهم أوربا كي تلتفت إليهم لتتقدهم مما هم فيه من تخلف وهبوط ، أو يحاولوا اللحاق بركبها والسير في طريقها ، واستعطفها حتى لو كان الثمن لذلك هو نبذ الدين كلية ، وإقصاء الشريعة جانباً . وقد كان للسلطين العثمانيين من تلك الهزيمة أوفر الحظ والنصيب . ويحسن بنا أن ندرج عند حديثنا عن تنحية الشريعة الإسلامية الحديث عن استيراد المبادئ والنظم من الغرب لأنهما خطوتان متبادلتان ومتلازمتان في حدوثهما .

وكان البادئ الحقيقي في ذلك هو السلطان «سليم الثالث»<sup>(١)</sup> حيث سعى لإدخال ما يسمى بالنظام الجديد على الجيش على النمط الأوربي الحديث . وإن كانت الخطوات الأولى قد بدأت قبل ذلك بزمان طويل في عهد السلطان سليمان القانوني الذي سن عدة قوانين لقب من أجلها بالقانوني<sup>(٢)</sup> .

وفي عهد السلطان «سليم الثالث» قام الصدر الأعظم «ابراهيم باشا» بتكليف «سعيد أفندي ابن محمد أفندي» المشهور بـ «يكرمي سكن جلبي» بكتابة بحث عن أسباب تقدم الأوربيين وسبل الأخذ عنهم . فقام هذا بالمهمة وكتب رسالة في ذلك ، وقد طبعت عدة مرات وترجمت للغة الفرنسية<sup>(٣)</sup> . وقد فتح السلطان «سليم الثالث» مراسلات مع ملك فرنسا ووزرائه حيث كان يبحث عن ثقافة سياسية من أكثر دول أوربا تقدماً وقتذاك ؛ ولأنه كان يميل إلى الثقافة الفرنسية على الأخص ، وكانت رسائله التي تبادلها مدة ثلاثة سنوات مع «لويس السادس عشر» تفيض برغبته في المعرفة والاطلاع<sup>(٤)</sup> .

وكذلك كان لـ «سانت مور Saint Maur» الذي كان يتولى الشؤون فوق العادية لدى السلطان «سليم» تأثير عليه ووضع نصب عينيه أن يحكم بنظام مماثل للنظام الفرنسي<sup>(٥)</sup> .

ومع كل الجهود التي بذلها السلطان «سليم» في ذلك المضمار التغريبي ، وفي محاولته الإصلاحية على الطريقة الأوربية فقد فشل في تحقيق ذلك فشلاً ذريعاً ، ودفع عرشه وحياته ثمناً لتلك المحاولات ؛ إذ ما لبث أن ثار عليه الانكشارية بعد محاولته لإدخال النظام الجديد على الجيش العثماني الذي يشكل الانكشارية محوره الرئيسي ، وعزلوه عام ١٨٠٧م وأقاموا «مصطفى الرابع» سلطاناً بدلاً منه ، الذي ما إن ارتقى عرش السلطنة حتى سارع إلى قتل «سليم الثالث» غير أن أنصار السلطان «سليم» أرادوا أن يثأروا من خصومهم فقاموا بثورة عنيفة أدت إلى عزل السلطان الجديد ثم قتله ، ونادوا بتعيين أخيه السلطان «محمود الثاني»<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر ترجمته في تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٣٦٣ - ص ٣٩٢ .

(٢) حقائق الأخبار عن دول البحار ص ٥٥٥ ، إسماعيل سرهنك . المطبعة الأميرية ببولاق ، ١٣١٢هـ .

(٣) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ص ٩٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٩٩ . (٥) المصدر السابق ص ١٠٠ .

(٦) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٢٥٨/١ وما بعدها .

وبارتقاء السلطان «محمود الثاني» على سدة السلطنة عام ١٨٠٨م تبدأ مرحلة خطيرة وحاسمة في التوجه العثماني نحو أوروبا. ذلك التوجه الكبير والسريع في محاولة نقل الأمة إلى الدائرة التابعة للغرب ، وفي محاولة إدخال نظم أوروبا وأساليبها بحذافيرها على المسلمين دون أدنى مراعاة لدينهم وعقيدتهم.

و«محمود الثاني»<sup>(١)</sup> هو الابن الثاني لـ«عبد الحميد الأول» من امرأة فرنسية. فلا غرو بعد ذلك أن يشغف قلبه بأوروبا وفرنسا خاصة ، ويهيم بمتابعتها وتقليدها في كل شيء.

وبرغم الأحداث العنيفة والثورة العنيفة التي أشعل فتيلها الانكشارية ضد ما يسمى بالنظام الجديد وأدت إلى عزل السلطان سليم الثالث الذي حاول إدخال ذلك النظام إلى الجيش ثم مقتله - فقد صمم السلطان محمود الثاني على أن يستأنف سياسة سليم الثالث الإصلاحية وعلى الطريقة الأوروبية أيضاً، فأخذ لتوه يتبنى عادات الأوربيين فارتدى الطربوش والسترة وأطلق لحية صغيرة<sup>(٢)</sup>

وقد انتقلت إليه أفكار الثورة الفرنسية وأدرك التغيير الجذري الذي يسود أوروبا عن طريق بعض الأتراك الذين عاشوا في باريس<sup>(٣)</sup>.

وقد أدرك السلطان محمود الثاني من الأحداث أنه لن يتم له المضي في سياسته الإصلاحية ذات الطابع التغريبي ما لم يتم بالقضاء على الانكشارية الذين يمثلون العقبة الحقيقية في طريقه.

فبدأ يخطط للقضاء عليهم حتى وافته الفرصة ليلة ١٣ - ١٤ يونيو سنة ١٨٢٦م حين قام الانكشارية بتمرد للاحتجاج على مشروع الإصلاح الجديد ، فما كان من السلطان محمود إلا أن أمر قائده المطيع حسين الأسود بعبور البسفور بقواته الموالية له ، التي هاجمت الانكشارية في مواقعهم ، ودكت بمدافعها ثكناتهم ، حتى تم القضاء عليهم.

عندئذ خلت الأجواء للسلطان محمود للقيام بتغريب السلطنة ، وعلمنة الدولة ، وتنحية الشريعة الإسلامية بعد أن قضى على الانكشارية أقوى معارضيه. ولم يعد يوجد في الساحة من يجروء على معارضته أو يحاول انتقاد سياسته التغريبية وتطلعاته الأوروبية.

ولا ينبغي أن ينسينا الحديث عن الغزو الفكري وتشبع السلاطين به ما عينا به أساساً ، وهو ما كانت تنوء به الدولة العثمانية من انحرافات دينية وعقدية خطيرة أفسحت المجال لدخول الغزو

(١) انظر ترجمة حياته وتفاصيل ما قام به في تاريخ الدولة العلية ص ٣٩٨ - ص ٤٥٣.

(٢) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ص ١٢٢.

(٣) المصدر السابق ص ١٢٣.

الفكري ، ومكنت له من الاستقرار في عقول كثير من الحكام والقواد ، والتأثير في سياستهم وتوجهاتهم.

وما كان للعلماء أن يتنبهوا إلى خطر الغزو الفكري الداهم ، ولا أن يقفوا في وجهه من ولى وجهه شطر الغرب من سلاطينهم وحكامهم ، وأكثرهم غارقون في خيالات التصوف ، وعائمون في خرافاته وأساطيره ، ويتنافسون في نصرة مذاهبهم ، ونشر طرقهم.

فمن هنا وجد السلطان محمود الطريق خالياً من المعارضين ، وأمن إلى تنفيذ ما اعتزمه من إصلاحات على الطريقة الأوربية بعد أن لم يرتفع العلماء إلى مستوى الأحداث في عصره ويعد أن قد تم له القضاء على الانكشارية أشد خصومه المعارضين وأقواهم.

لقد كان الواقع المليء بالانحرافات الدينية مناهاً مناسباً وتربة خصبة وجد خلالها دعاة الغزو الفكري فرصة لا تقدر بثمن لإلقاء بذور دعواتهم وإحكام مخططاتهم فيما يرمون إليه من تغريب.

فالضعف الحربي والعسكري الذي أحدث للدولة عدة نكسات متوالية كان سببه الإعراض عن تعلم العلوم النافعة بحجة أنها من علوم الكفار ، وتلك لعمر الله ثغرة عظيمة وقعت في تاريخ المسلمين نفذ من خلالها أعداء الإسلام وأحسن دعاة الغزو الفكري استغلالها لصالح أفكارهم وسياساتهم. فقد اجتمع السلطان محمود الثاني بالعلماء والقواد في دولته وبعد مداولات ووفق على ادخال أسلحة الكفار وتعاليمهم ، ودعمت تلك الموافقة بفتوى شيخ الإسلام الذي قرأها بنفسه مخاطباً الانكشارية الحاضرين والغائبين ، وأشار إلى ماورد في الكتاب الكريم والسنة من وجوب تعليم العسكر وأهل الإسلام فنون الحرب (١).

وقد عقد هذا الاجتماع في استامبول في مطلع شهر أكتوبر - تشرين الأول عام ١٨٠٨م وقد دعى الصدر الأعظم مصطفى باشا البيرقدار في هذا الاجتماع إلى ضرورة استخدام الأسلحة الحديثة ، والتي كان استخدامها في الجيش الروسي في مقدمة أسباب انتصارات الروس الأخيرة على جيش الدولة (٢).

وبعد اجتماع آخر عام ١٨٢٦م أصدر السلطان محمود الثاني ما عرف باسم خطي شريف ويقضي بإنشاء جيش جديد وفقاً للنظم الأوربية الحديثة في التنظيم والتسليح والتدريب (٣).

(١) المصدر السابق ص ١٧٦. وقد كان ذلك الاجتماع قبل القضاء على الانكشارية.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها ٥٣٥/١.

(٣) المصدر السابق ٥٤٧/١.

وهكذا كان الحال من إفراط في الإعراض والجمود حتى تعدى ذلك إلى أسلحة الحرب إلى إفراط في الأخذ والتقبل حتى التعاليم الأوربية والأنظمة الغربية التي لا تكاد تتفق مع الإسلام في شيء وإذا كان هذا الاعراض والجمود الذي أدى إلى تأخر وفساد في الأوضاع كان سببه العلماء فقد أفلت الزمام من أيديهم بعد أن استولى عليه دعاة التغريب بسبب موقفهم الجامد والرافض لهذه العلوم.

وإغلاق باب الاجتهاد ورفض إعادة فتحه من جديد ومعاقبة المجتهدين كان انحرافاً دينياً عظيماً دفعت الأمة ثمنه غالياً. دفعت ثمنه أولاً تخلفاً علمياً مريعاً ، وجموداً مزمناً ، ودفعت ثمنه ثانياً يوم تلقفها دعاة الغزو الفكري يقودونها بعيداً عن الإسلام الذي يحظر الإجتهد ويعاقب المجتهدين كما تعلل بذلك من تولى قيادتها من دعاة الغزو الفكري.

فقد أمر السلطان «محمود» الثاني عام ١٨٣٧م بالبدء في عمل موسوعة مدنية تتناول الأمور التي لم يرد عنها نص في القرآن الكريم أو السنة<sup>(١)</sup>. لتوضع تلك الأمور التي لم ترد فيها نصوص شرعية في قوالب مستوردة من أنظمة الغرب وأساليبه.

وهل ياترى لوبقي باب الاجتهاد مفتوحاً وتشجيع المجتهدين موجوداً، هل كان من الممكن التعلل بمثل هذه العلة الواهية.

لقد كان هذان الانحرافان الدينيان اللذان وقع فيهما المسلمون في العصور المتأخرة واستفحل أمرهما في الفترة التي ندرسها ثغرتين عظيمتين نفذ من خلالهما دعاة التغريب والغزو الفكري للمطالبة بإصلاح الأوضاع وعلاج التخلف الذي أصاب الأمة.

لقد كانت الأوضاع بحاجة ماسة إلى الإصلاح ، ولم يكن بالضرورة أن يقوم على الطريقة الغربية ، وإدخال العادات والنظم الأوربية كما فعل السلطان العثماني «محمود» الثاني. ولكنها على أية حال كانت فرصة تمكنت أوربا وأذنابها من المنتسبين إلى الإسلام من استغلالها والحصول من ورائها على كل ما يرمون إليه من نشر لفكرهم وثقافتهم وعاداتهم ليفسدوا المسلمين بالمرّة ، ويسهل عليهم استعمارهم واخضاعهم.

ويجدر بنا أن نقف بعض الشيء مع هذا السلطان العثماني الذي قيل إنه نحا في نزعته الإصلاحية على الطريقة الأوربية منحى والي مصر «محمد علي باشا» وتأثر به<sup>(٢)</sup>. وما قام به السلطان «محمود» الثاني من اصلاحات مثال واضح على التخبط والفشل الذريع الذين مني بهما كل من رام الإصلاح على الطريقة الأوربية ممن جاء بعده وحذى حنوه من حكام المسلمين.

(١) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ص ١٩٧.

(٢) الشرق الإسلامي ص ٢٠٥.

وينظرة سريعة إلى المحاولات التي قام بها السلطان «محمود الثاني» في سياسته الإصلاحية التي سار عليها مدة ثلاثين عاماً تقريباً هي مدة حكمه ، والتطلعات التي كان يتطلع إليها ويسعى إلى تحقيقها تتجلى لنا حقيقة هامة وهي تفاهة تلك التطلعات وضالة تلك الأهداف. وهذه سمة لم يكد يسلم منها أحد ممن نادوا بالإصلاح على الطريقة الأوربية وسلخوا الوجهة التغريبية من حكام المسلمين .

والسبب في تفاهة تطلعاتهم وضالة أهدافهم هو ما أصيبوا به من هزيمة نفسيه وروحية جعلتهم يفقدون صوابهم في كثير من الأحيان ، ويجعلون أكبر همهم هو تقليد أسيادهم ومحاكاة هازمهم ، ليس في تحصيل القوة الحقيقية ، والعمل الدؤوب لاتخاذ الأسباب المادية. فتلك لعمر الله طموحات لا تتلاءم ونفسياتهم المنهزمة وعقولهم المضطربة. فلم يبق لهم إلا التشاغل بالأهداف الرخيصة والتطلعات التافهة ضمن سياسات ضحلة ، وتخطيطات مضطربة ، يفررون فيها بالآمة ، ويحاكون بها أعداءها في الشكليات والمظاهر والرسوم ، فظنوا أنهم حين يلبسون جيوشهم أزياء أوربية ويدخلون ضمنها فرقاً موسيقية كما يحدث في أوربا يحصلون على أسباب القوة ، ويواكبون الأمم الأوربية في مضمار الرقي والتقدم.

وقد أعجبني ما قاله الشيخ «محمد رشيد رضا» عن إصلاحات العثمانيين في تلك الفترة حيث يقول : «وأما رجال السياسة والادارة فكانوا مفتونين بتقليد الافرنج في معيشتهم وحریتهم وظواهر نظمهم ، وإنما كانوا يقلدونهم فيما يسهل فيه التقليد كتقليد الطفل لمن يعظم في عينه من الرجال ، وتقليد الأصاغر ، لمن فوقهم من الأكابر ، كالأزياء والعادات وشكل المدارس والدواوين ، وقد ترجموا أكثر القوانين فلم يقيموا منها شيئاً ، وأما العلوم والفنون والصناعات وطرق الثروة والنظم المالية فلم يتقنوا منها شيئاً»<sup>(١)</sup>.

وهذه نبذة صغيرة لأهم التجديدات والإصلاحات التي قام بها السلطان «محمود» الثاني لتتضح لنا تفاهة تطلعاته ، وضالة أهدافه وضحالة سياسته التغريبية.

يذكر عن السلطان «محمود» الثاني أنه كان يحب الشعر والموسيقى وسائر الفنون، وقد انشئت في عهده مقصورة في «بيرا» زودت بالصحف والكتب المستوردة من كثير من البلاد الأوربية<sup>(٢)</sup>. وفي عهده أيضاً انتشرت المدارس اليونانية والأرمنية والكاثوليكية انتشاراً واسعاً بفضل رعايته لها وتشجيعه إياها ، إذ إنه اقتبس منها كثيراً ، وأفادته بما أحرزته من تقدم وخبرة<sup>(٣)</sup>. كما يقولون.

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٤١٥.

(٢) حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ص ٢٠١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٠.

وقد أكثر «محمود الثاني» من إرسال الشبان العثمانيين إلى كل من «لندن» و«باريس» لتحصيل كل أنواع الفنون والمعرفة ..... وتتميز سنة ١٨٢٧م بالاكثار من إرسال بعثات من الطلبة إلى أوروبا ، ويقال إنه تأثر في ذلك بـ«محمد علي» الذي كان قد أرسل بعثة كبيرة إلى باريس سنة ١٨٢٦م<sup>(١)</sup>.

ومن أهم التجديدات على يدي ذلك السلطان رائد الإصلاح كما يحلو للتغريبيين أن يسموه استخدام الموسيقى في الحرس والجيش ، وقد أنشئ لهذا الغرض مزيكاً همايون مكتبي في سنة ١٨٢٦م ولكنها اتخذت مظهر المدارس الحربية ، إذ كان الغرض الأساسي منها امداد الجيش بالموسيقيين. وفي سنة ١٨٣١ استدعي «Donizeui» أخو «Goetaro» المؤلف الموسيقي المشهور لتأليف فرقة موسيقية والاشراف على هذه المدرسة<sup>(٢)</sup>.

وهذا في الوقت الذي استشرى فيه الضعف بالجيش العثماني ، وتوالت على الدولة هزائم ساحقة من روسيا وغيرها ، سارع هذا السلطان لإنقاذ جيشه وتدارك دولته بادخال فرق موسيقية إلى صفوفه ، وبناء مدرسة للموسيقي تخرج فرسان الحرب وصناديد القتال. ويقول «Jouanin» : إن العادات الأوربية أخذت تنتشر يوماً بعد يوم بسرعة كبيرة وأذن السلطان لاطاليا ببناء مسرح وتمثيل أدوار فرنسية وغيرها ...<sup>(٣)</sup>

وكان السلطان يظهر في ملابس نظام جديد في أكثر الحالات وتأييداً منه للأفكار الجديدة ترك العمامة والقفطان ولبس الحذاء والسرwal الضيق والقميص والطربوش. وكان السرwal على النظام القوقازي وسرج حصانه من النوع الانجليزي وحذاؤه مثبت به مغماز عند ركوب فرسه وعلى رأسه ما يشبه القبعة من حرير أزرق ....<sup>(٤)</sup>

ولم يكن يشبه هذا الخليط المتنافر الذي جعله السلطان تقليداً له وعادة إلا الاضطراب الذي كان يموج في الإصلاح الحربي في وقته. حيث أن الجيش الجديد كانت ترى فيه القمصان الروسية والبنادق البلجيكية وأغطية الرأس التركية والأحزمة المجرية والسيوف الانجليزية إلى جانب القوانين واللوائح الفرنسية والمعلمين من أمم شتى<sup>(٥)</sup>.

(١) المصدر السابق ص ٢٠٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٨.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠٦.

(٤) المصدر السابق ص ٢٧٣.

(٥) المصدر السابق ص ٢٤٦. والجديد بالذكر أن السلطان سليم الذي قتله الانكشارية هو أول من اتخذ الزي الأوربي للجيش. انظر : الدولة العثمانية ١/٥٢٦.



وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « .. حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ».

وهذه سمة أخرى اتسمت بها اصلاحات دعاة الغزو الفكري والتغريب وهي الاضطراب والتناقض والحيرة فيما يقدمون عليه من خطوات إلى جانب ما ذكرناه من تفاهة تطلعاتهم وضالة أهدافهم ، وبالتالي فساد اصلاحاتهم وفشل تخطيطاتهم.

وقد ذكرنا في مبحث الولاء والبراء كيف حاول «محمود الثاني» بسياسته التغريبية أن يقضي على هذه العقيدة ، وأن يطمس معالمها حتى يسهل عليه تنفيذ سياسته. حتى قال قولته المشهورة التي تطالب بالمساواة التامة بين الطوائف الثلاث ، المسلمين واليهود والنصارى ، وإزالة الفوارق بينهم. وحاول أن يلزم العلماء بلبس الطربوش الأحمر. ويلزم الجنود بوضع حزامين متقاطعين على شكل صليب. وإعفاء أهل الذمة من لبس القلنسوة المميزة لهم<sup>(١)</sup>. إلى غير ذلك من أعمال استهدف بها تقويض أركان عقيدة الولاء والبراء ، وإزالة معالمها.

ويعتبر بعض المؤرخين الأوروبيين ومن بينهم «أرنولد توينبي» ما وقع في عصر السلطان «محمود الثاني» أول تأثير غربي حقيقي على تركيا<sup>(٢)</sup>.

وقد كان «محمود» قليل التوقير للدين ورجاله<sup>(٣)</sup> ، كثير الاستهانة بالتقاليد والاوزاع. فئاترت تصرفاته مخاوف المسلمين وسخطهم ، وبلغ غضب الناس أن سبه درويش على قارعة الطريق ، وأتهمه بممالة النصارى على المسلمين ، وأنذره بسوء المصير<sup>(٤)</sup>.

ومع فشل الاصلاحات التي حاول السلطان «محمود» الثاني القيام بها والتجديدات التي لم يكن لها أي فائدة تذكر ، فقد بالغ المؤرخون كثيراً في تقدير الدور الذي قام به والاصلاح الذي أدخله<sup>(٥)</sup>. ولعل أهم عمل قام به السلطان «محمود» واستحق عليه إشادة كثير من المؤرخين هو إلغاء الفيالق الانكشارية<sup>(٦)</sup>. مع أن كثيراً منهم اعتبر أن انتهاء الانكشارية كان انتهاءً للمجد الحربي للدولة العثمانية<sup>(٧)</sup>. ورأى بعضهم أن القضاء على الانكشارية كان بداية النهاية للدولة العثمانية<sup>(٨)</sup>. كما ذكرنا من قبل.

(١) راجع مبحث الولاء والبراء من هذا البحث ص

(٢) المصدر السابق ص ١٣٢.

(٣) ذكرنا من قبل أنه لا يوجد في الإسلام ما يسمى برجال الدين كالتصراية مثلاً ، بل يوجد فيه العلماء. انظر ص من هذا البحث .

(٤) الشرق الإسلامي ص ٢٥١.

(٥) المصدر السابق ص ٢٥٢.

(٦) الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها ٥٥٥/١ . (٧) حركة الإصلاح العثماني ص ٢٤٩.

(٨) المصدر السابق ص ٢٤٣.

ونمضي مع خطوات الغزو الفكري وما أعقبها من استيراد للمبادئ والنظم في عاصمة الدولة العثمانية الدولة الإسلامية الأم لا ننورخ لتلك الحقبة السوداء من تاريخ الأمة المسلمة. ولكن لنلقي بعض الأضواء على تلك الخطوات الخطرة التي أدت إلى منزلق البوار في حياة الأمة.

فقد مات السلطان «محمود» الثاني سنة ١٨٣٩م وخلفه ابنه «عبد المجيد» في السادسة عشرة من عمره ، فكان صغر سنه هذا فرصة لبعض الوزراء التغريبيين لإكمال ما بدأه والده الراحل من اصلاحات على الطريقة الأوروبية ، والتمادي في استحداث الوسائل التغريبية ، ومن هؤلاء الوزراء الذين ظهروا في ثياب المصلحين ومسوح الصادقين «مصطفى رشيد باشا» الذي كان سفيراً للدولة في «لندن» و«باريس» ، ووصل إلى منصب وزير الخارجية في أواخر عهد السلطان «محمود» الثاني ، وكانت باكورة اصلاحاته استصدار مرسوم من السلطان عرف «بخط شريف جلاخانة» أي المرسوم المتوج بخط السلطان الذي صدر عن سراي الزهر عام ١٨٣٩م. وجاء فيه :

«إن النظم الأهلية تضمن لرعايانا من الآن أمناً شاملاً على أرواحهم وشرفهم وأموالهم. وهذه المنح حق للجميع من أية ملة أو مذهب .. يستمتع بها الكل على السواء»<sup>(١)</sup>.

وبدأ من أجل ذلك عهداً جديداً يسمى عهد التنظيمات الخيرية العثمانية التي كان من بينها احترام الحريات العامة والممتلكات والأشخاص بصرف النظر عن معتقداتهم الدينية ، ونص فيه على مساواة جميع الأديان أمام القانون<sup>(٢)</sup>.

وفي جزيرة متلين اجتمع نفر حافل من رجال الدين اليونانيين والأرمن واليهود ، وهناك خطبهم «رضا باشا» - وهو من المنسويين إلى الإصلاح - باسم السلطان ، فقال : أيها المسلمون والنصارى واليهود ، إنكم رعية امبراطور واحد وأبناء أب واحد ، إن السلطان يسوى بينكم جميعاً<sup>(٣)</sup>.

«ولم يلق الخط الشريف أو الدستور الذي سأنده «مصطفى رشيد» وقلة من المحيطين به ترحيباً أو تأييداً من الرأي العام العثماني المسلم . فأعلن العلماء استنكارهم وتكفيرهم لـ«رشيد باشا» ، واعتبروا الخط الشريف منافياً للقرآن الكريم في مجمله وبخاصة في مساواته المسيحيين بالمسلمين ، ورأوا أن ذلك وبغض النظر عن النواحي الدينية سيؤدي إلى إثارة القلاقل بين رعايا السلطان.

وكان هذا الهدف بالفعل هو ما خططت له الحركة الماسونية وهو إثارة الشعور القومي لدى الشعوب المسيحية ضد الدولة»<sup>(٤)</sup>.

(١) الشرق الإسلامي ص ٢٥٣.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ٩٧/١.

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٣.

(٤) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ٢٠٨.

وبهذا المرسوم طعنت عقيدة الولاء والبراء في الصميم ، ونحيت جملة هامة من أحكام الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بأهل الذمة وعلاقات المسلمين مع غيرهم.

«وبهذا التصريح الخطير الذي أصدرته الدولة لتتقرب من دول أوروبا .... مس السلطان التقاليد العثمانية في الشغاف ، وتناول الشريعة الإسلامية بالتحريف ، فإن التقاليد والشريعة كلاهما لا يباحان أن يتمتع المسلمون وغير المسلمين بنفس الحقوق في رعاية خليفة المسلمين ، لابد أن يكون تمييز بين المسلمين ومن في ذمة المسلمين ، فاما هذا التصريح الخطير فله دلالة ، فهو ينطق بأن رجال الدولة اعترفوا بأن التقاليد القديمة لم تعد ميزاناً صالحاً للحكم ، ولابد من الأخذ بأساليب الغرب ولو تعارض مع الشرائع والسنن<sup>(١)</sup>.

وقد أنشأ رشيد باشا مجلساً للنواب ، ووضع للدولة قانوناً للعقوبات وفق الشرائع الحديثة واستقدم رجلاً فرنسياً ليضع قانوناً مدنياً حديثاً للدولة ، واشتد في تطبيق قوانينه شدة حازمة ضمنت احترام الناس لها . وأعقب ذلك بإنشاء بنك جديد للدولة وأصدر أوراقاً مالية<sup>(٢)</sup> . ثم صدر مرسوم آخر عام ١٨٥٦م أكد فيه السلطان عبد المجيد الأول المبادئ التي سبق له أن أعلنها على لسان رشيد باشا ، وزاد فيه عدة امتيازات وحضانات لرعايا الدولة غير المسلمين ، وكانت قيمته في أنه اشتمل على اعتراف صريح واضح بالمساواة الكاملة بين جميع الأديان في الإمبراطورية العثمانية في شؤون الضرائب والقضاء والحقوق والواجبات المدنية ، ومنح النصارى حقاً قانونياً مطلقاً في المساواة بالمسلمين<sup>(٣)</sup>.

ويعتبر السلطان عبد المجيد أول سلطان عثماني يضيف على حركة تغريب الدولة العثمانية صفة الرسمية ، إذ إنه أمر بتبني الدولة لهذه الحركة وأمر بإصدار فرماني التنظيمات عامي ١٨٥٤ ، ١٨٥٦م وبهما بدأ في الدولة العثمانية ما سمي بعهد التنظيمات وهو اصطلاح يعني تنظيم شؤون الدولة وفق المنهج الغربي ، وبهذين فرمانين تم استبعاد العمل بالشريعة الإسلامية ، وبدأت الدولة تستلهم الروح الغربية في الحياة ، وتستلهم الفكر الغربي في التقنين وإقامة المؤسسات.

والحق أن السلطان عبد المجيد كان خاضعاً لتأثير وزيره «رشيد باشا» الذي وجد في الغرب

---

(١) الشرق الإسلامي ص ٢٥٤ ووصفه لأحكام الشريعة بالتقاليد القديمة وصف باطل من مخلفات الغزو الفكري.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٤ ومما يذكر أن أكثر هذه الأوراق المالية صدرت دون أي رصيد معدني ، وبالتالي فقدت قيمتها . حدث ذلك دون أن ينصحهم أحد من مستشاريهم الأوربيين الذين يعرفون بدهاء خطورة هذه الخطوة ، وفداحة هذا الخطأ من الناحية الاقتصادية.

(٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها ٩٨/١.

مثله وفي الماسونية فلسفته ، ورشيد باشا هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة ، وبمساعده أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو<sup>(١)</sup>.

وحيثما رأى المسلمون أن الدولة تساوي بهم النصارى واليهود ، وتستبدل بالشريعة الحنفية قوانين النصارى ، وتخلع الأزياء القديمة (الشريفة) لتتخذ زي النصارى ، وأحسوا كذلك أن حكومة رشيد لا تكاد تأتي أمراً إلا راعت فيه خاطر النصارى وحرصت أن لا تمسهم بأذى أو تنالهم بضميم - نفروا من ذلك نفوراً عظيماً ، ولم يجد السلطان ورجال دولته من بد في إسقاطه وعزله أمام مظاهر السخط الشعبي ، وخوفهم من وثوب المسلمين وثورتهم<sup>(٢)</sup>.

غير أن عزل رشيد باشا لم يؤد إلى وقف حركة التغريب ولم يمنع من استقدام المزيد من الأنظمة والقوانين من الغرب بعد أن مهد لها الطريق ، وفتحت لها الأبواب. ومع أن هذه المعارضة لرشيد باشا ودستوره قد نجحت في إقصائه سنة ١٨٤١م إلا أنه عاد بعد أربع سنوات في عام ١٨٤٥م تسانده مجموعة من أعضاء المحافظ الماسونية الذين ركزوا السير في طريق التحول العلماني ...<sup>(٣)</sup> وعاد بعد ذلك ليتولى الصدارة العظمى سنة ١٨٤٦م وعزل منها سنة ١٨٥٨م<sup>(٤)</sup>.

وازدادت الأحوال سوءاً وانحطاطاً ، مما جعل رجال الدولة يفكرون حقيقة في التغيير والإصلاح فلا يجدون أمامهم غير الطريقة الأوربية في الإصلاح ، والوجهة التغريبية في التغيير التي بدئ في اتخاذها ، خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من رجال الدولة هؤلاء ممن بعثتهم الدولة للعمل في التمثيل السياسي الخارجي أو للدراسة العسكرية في الخارج بعد أن خلت الساحة من ظهور مصلح إسلامي يعيد الأمور إلى نصابها ، ويقطع الطريق على أنصار الغزو الفكري بتبني إصلاح جاد يعتمد على المنهج الإسلامي. وكما قال الكاتب التركي الأستاذ «نجيب فاضل» : ولخلو الامبرطورية العثمانية طيلة ثلاثة قرون أو أربعة قرون من زعيم فكري أو مصلح اجتماعي كبير وأصيل ، فقد ترك المجال للدبلوماسيين السطحيين المنبهرين بالغرب والمقلدين له .. وكانت النتيجة فقدان الروح ، وضمور العقل ، وذبول الإرادة وعموم الشلل<sup>(٥)</sup>.

---

(١) من مقدمة مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٣. ترجمة وتقويم وتحقيق وتعليق. محمد حرب عبد الحميد. دار الوثائق. الكويت.

(٢) الشرق الإسلامي ص ٢٥٦.

(٣) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ٢٠٩.

(٤) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١/١٨١.

(٥) السلطان عبد الحميد. حياته وأحداث عصره ص ٤٣.

وقد انتشرت أفكار الغزو الفكري بين الجمهور الأعظم من ساسة الترك وولاتهم ، وركبوا متن التفرنج والتحلل من الدين. حتى أن الألويسي لما زار والي كركوك علي باشا عام ١٢٦٧هـ أثنى عليه وامتدحه بحب العلماء وإكرامهم وبالأخلاق الفاضلة ثم قال بعد ذلك : «والظاهر أنه غير منحل العقيدة، ولا منتحل شيئاً من الآراء الافرنجية الجديدة ، حيث أنه لم يسمع منه جليس حديث لوندرة وباريس ! ويكفي أهل البلد اليوم رحمة أن واليها سالم عن تلك الوصمة ، وقلما تتال هذه الرحمة في هذا الزمن الذميم!»<sup>(١)</sup>.

وقد استمر التيار التغريبي في محاولة إحكام السيطرة على جميع المجالات والأجهزة في الدولة العثمانية وتوالت الضغوط على السلطان عبد الحميد الثاني بعد ذلك حتى أصدر الدستور (القانون الأساسي) عام ١٨٧٦م في أوائل حكمه ، غير أن عبد الحميد وهو الحذر من دسائس الغرب أوقف العمل بهذا الدستور عام ١٨٧٨م . ولم تفلح جهود أنصار الدستور في إعادة العمل به ، إلا بعد قيام جمعية الاتحاد والترقي بثورة عسكرية عام ١٩٠٨م ضد السلطان عبد الحميد ، وأعادت العمل به.

غير أن ثورة عارمة مضادة للثورة الأولى تزعمها الدراويش وأئمة المساجد وبعض العلماء وطلبة العلم اندلعت في العاصمة استانبول ، وشاركهم في ذلك ضباط الجيش «الاليلية»<sup>(٢)</sup> ، ولقيت استجابة من جماهير العامة ، وتنادى الجميع إلى إلغاء الدستور بحجة أن مبادئ الشريعة الإسلامية باتت في خطر وطاقفت المظاهرات في شوارع المدينة تهتف «باشا سون شريعة محمدية» أي فلتعش الشريعة المحمدية. وامتدت هذه الثورة إلى أنحاء الأناضول ، ولكن جيش الحركة التابع لجمعية الاتحاد والترقي ما لبث أن أخمد هذه الثورة العارمة ، واستطاع بعد قتال مرير أن يخلع السلطان عبد الحميد سنة ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩م<sup>(٣)</sup>.

إن قبول السلطان عبد الحميد بالدستور عام ١٨٧٦م يمثل خطأ فادحاً في سياساته الأولى.

هذا الدستور الذي ينص على أن جميع رعايا السلطان «عثمانيون» وأنهم يتمتعون بالمساواة أمام القانون<sup>(٤)</sup>. وإن كانت الظروف فيما بعد قد أجبرت عبد الحميد بإعلان الدستور عام ١٩٠٨م فإن قبوله للدستور عام ١٨٧٦م لم يكن له أي مبرر على الإطلاق ، ولم يكن لحاكم عرف ببعد النظر وعمق السياسة مثل عبد الحميد أن يستجيب للضغوط الرامية إلى تنحية الشريعة الإسلامية ، وإلغاء

(١) نشوة المدام في العودة إلى مدينة السلام ص ١٠٣.

(٢) هم الضباط الذين نشأوا وتقدموا من بين صفوف الجند بناء على خدماتهم الطويلة ، وخبراتهم العملية. ولم يكونوا من خريجي المدارس الحديثة والكليات العسكرية المتأثرين بروح التغريب في الغالب.

(٣) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ١٠٠٦/٢ وانظر تفاصيل ذلك في المصدر نفسه ١١٦/١.

(٤) المصدر السابق ١١١/١.

الفوارق بين المسلمين وغيرهم. وإعلان الدستور الذي ينوب الهوية الإسلامية ، وينال من أحكامها. ويعتبر هذا الدستور من أهم الخطوات التي أدت إلى علمنة الدولة العثمانية وإلى تمزيق ولاياتها<sup>(١)</sup>.

ويقر عبد الحميد على نفسه أنه في أوائل حكمه كان مخلصاً في إعلان القانون الأساسي (الدستور) بل إن والده السلطان «عبد المجيد» كما يقول قد أقنعه بهذه الفكرة ، وأن خلافه مع الصدر الأعظم «مدحت باشا» لم يكن حول شرعية الدستور ، وإنما كان حول مطالبة الصدر الأعظم بتحجيم دور السلطان وتقييد سلطاته عن طريق الدستور نفسه<sup>(٢)</sup>.

مع أن «عبد الحميد» كان يعتقد بعدم فائدة ذلك الدستور حين إعلانه ، أما بعد عزله فيرى أنه لم يكن غير مفيد فحسب ، بل هو ضار أيضاً<sup>(٣)</sup>. وكان يعتقد أن الدستور يقتل العنصر الأصلي في البلاد يعني المسلمين. وتسأل «عبد الحميد» هل يمكن أن يكون في البرلمان الانجليزي نائب هندي واحد ، أو أفريقي أو مصري؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد؟ واستغرب كيف يطالبون بوجود نواب من الروم والأرمن والبلغار والصرب والعرب في البرلمان العثماني<sup>(٤)</sup>.

وقد كان مجلس النواب هذا أو البرلمان يسمى مجلس المبعوثان (المبعوثين) باعتبار النائب مبعوثاً من أهالي دائرته الانتخابية. وعندما أجبر السلطان «عبد الحميد» في أواخر حكمه على إعادة الدستور ، وأجريت الانتخابات العامة لأول مجلس مبعوثان يجتمع بعد إعادة الدستور وتدخلت جمعية الاتحاد والترقي في عمليات الانتخابات لصالح مرشحها ، فكانت النتيجة كالتالي : عدد النواب الأتراك في المجلس ١٤٢ ، وعدد النواب العرب ٦٠ ، وعدد الألبانيين ٢٥ ، واليونانيين ٢٤ ، والأرمن ١٢ ، واليهود خمسة ، والصرب ٣ ، والأفلاخ واحداً<sup>(٥)</sup>.

وفي الواقع فإن ذلك المسلك التغريبي الذي سار عليه طائفة من سلاطين بني عثمان في القرن الثالث عشر دفع بعض المؤرخين المحدثين كالأستاذ «شفيق غريبال» إلى اعتبار أن ما قام به السلاطين من محاولات للإصلاح على الطريقة الغربية طبعاً!! يعادل أضعاف ما أتاه الكماليون بعد الحرب الكبرى<sup>(٦)</sup>. وأن الكماليين لم يفعلوا أكثر من إتمام ما بدأ به السلاطين ، ومقارنة بسيطة بين ما أدخله

(١) قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ٢٣١.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٤٨.

(٣) المصدر السابق ص ٢٩.

(٤) المصدر السابق ص ٥٨.

(٥) النولة العثمانية نولة إسلامية مفترى عليها ١٦٥/١.

(٦) هي الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م.

السلطين من وجوه التجديد وما أدخله الكماليون تنطق بهذا ، فقد استبدل الكماليون مثلاً القبة بلباس الرأس التركي ، ولكن السلطين هم الذين استبدلوا الزي الأوربي بالأزياء التركية القديمة وقد استبدل الكماليون القانون السويسري بالشريعة في مسائل الأحوال الشخصية ، ولكن السلطين هم الذين أدخلوا القوانين الأوربية محل الشريعة في غير المسائل الشخصية. وهكذا لا نجد إصلاحاً للكمالين إلا وهو في حقيقته إتمام لما بدأ به السلطين<sup>(١)</sup>.

ولا شك في أن ما قام به السلطين في ذلك المضمار قد مهد الطريق أمام الخائن «مصطفى كمال أتاترك» الذي قام بإلغاء الخلافة عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م ويقطع كل صلة لتركيا بالإسلام ، واتخاذ دستور مدني بعد إلغاء المحاكم الشرعية<sup>(٢)</sup>.

لقد أطلنا النفس بعض الشيء في الحديث عن إدخال التغريب والعلمنة إلى تركيا ، والخطوات التي رافقتها من أجل تنحية الشريعة الإسلامية واستيراد المبادئ والنظم من الغرب عوضاً عنها للتدليل على ما حققه الغزو الفكري في ذلك المجال ، فلئن كانت الشريعة الإسلامية قد نحيت من كثير من أقطار المسلمين تحت وطأة الاستعمار وإكراهه ، وساعد الغزو الفكري على تقبل ذلك والرضوخ له ، فإن دعاة الغزو الفكري في تركيا هم الذين قاموا بتنحية الشريعة الإسلامية وعلمنة البلاد.

ففي الهند ألغيت أحكام الشريعة الإسلامية منذ سنة ١٨٥٦م على أيدي الانجليز ، وفي سنة ١٨٧٥م ترجمت القوانين الفرنسية إلى العربية في مصر وأصبحت هي القوانين التي تحكم في المحاكم المختلطة ، وفي سنة ١٨٨٣م جعلت هذه القوانين هي القوانين التي تحكم الديار المصرية بعد دخول الانجليز مباشرة<sup>(٣)</sup>.

أما الجزائر فقد ألغيت فيها الشريعة الإسلامية سنة ١٨٣٠م . وفي تونس أدخل الفرنسيون قانونهم سنة ١٩٠٦م ليتدخل حتى في الأحوال الشخصية ، وفي سنة ١٩١٣م وضعوا في المغرب قانوناً مدنياً مماثلاً لما في تونس.

---

(١) من مذكرات غير مطبوعة للأستاذ شفيق غريال. نقلاً عن : الشرق الإسلامي ص ٢٤٣. ونسبة الإصلاح إلى الكمالين أو إلى من سبقهم من السلطين في المضمار التغريبي هي كنسبة المنافقين الإصلاح لأنفسهم كما قال تعالى : { وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون } [البقرة ١١ - ١٢].

(٢) حاضر العالم الإسلامي ص ١٢٧ للدكتور المصري. وما قام به أتاترك هو جزء من الشروط التي أملتتها الدول الغربية على تركيا في معاهدة لوزان ١٣٤٠هـ/ ١٩٢٣م والمعروفة بشروط كرزون وهو رئيس الوفد الانجليزي في ذلك المؤتمر.

(٣) تاريخ الفقه الإسلامي ص ١٨٦. وفي عام ١٩٥٥م ألغيت البقية الباقية من المحاكم الشرعية في مصر وحول اختصاصها إلى القضاء العادي على أيدي أبطال ثورة يوليو ١٩٥٢م.

أما بلاد العراق والشام فقد تأخرت في ذلك بسبب تبعيتها للقضاء العثماني الذي يعتمد على مجلة الأحكام العدلية<sup>(١)</sup>. ولم تلغ الشريعة إلا بعد دخول الاستعمار الإنجليزي والفرنسي إلى نينك القطرين<sup>(٢)</sup>. وسواء أكانت الشريعة الإسلامية قد نحت بفعل الاستعمار المباشر أو بفعل عوامل الغزو الفكري أو بفعلهما معاً فقد نحت الشريعة تماماً من كل البلاد الإسلامية إلا من رحم الله واستقدمت المبادئ والقوانين بدلاً منها ، وأصبحت حياة الناس ومعاملاتهم وكافة شؤونهم تدور في فلك التشريعات الوضعية وتحتكم إلى قوانينها ولوائحها . وربما كان آخر شيء يفكر به من تولى إدخال تلك الأنظمة والقوانين هو موافقتها أو عدم موافقتها للشريعة التي سبق لها أن نحت عن الطريق .

لقد كان الغزو الفكري الذي وجد لبنوره تربة خصبة في تلك الانحرافات العقدية والدينية التي فصلناها عاملاً رئيسياً في تقبل الناس لإلغاء الشريعة الإسلامية ، واحتكامهم إلى القوانين الوضعية . بل إن الغزو الفكري اليوم يعد العائق الأكبر في طريق العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية . حين خرجت أجيال ربيت على عينه وتحت نظره ورعايته لا يربطها بالإسلام إلا اسمه ، وتتطلع دائماً نحو الغرب لتأخذ عنه كل شيء دون بصيرة أو تمييز ، في الوقت الذي تنفر فيه من دينها وتتبرم بتاريخ أمتها ، وتضيق به ذرعاً ، وتحاول قطع أي صلة لها بالإسلام .

ويحسن بنا ما دمنا نتحدث عن الدور الذي أحدثه الغزو الفكري وما يزال يحدثه في هذه الأيام في إعاقة تطبيق الشريعة الإسلامية أن ننقل جزءاً من مقدمة الشيخ «محمد قطب» لكتابه «حول تطبيق الشريعة الإسلامية» حيث يقول : «كلما ذكر تطبيق الشريعة تعالت من هنا من هناك صيحات منكرة ، تستنكر الأمر وتستهلوه ، كأنما تطبيق الشريعة كارثة ستحل بديار المسلمين أو كأنما التفكير في هذا الأمر خبل لا يصدر من عاقل! .

الآن؟ في القرن العشرين؟ بعد كل ما حدث في العالم من تطور؟ وبعد أن أصبح العالم بفعل وسائل الاتصال الحديثة كالحقيرة الصغيرة ، لا مجال فيه لاتخاذ زي يخالف أزياء الآخرين؟!

تريدون أن نشذ وحدنا عن الناس؟!

تريدون أن ترجعوا بنا إلى الوراء أو توقفوا عجلة التطور؟!

أم تريدون أن نعتزل العالم كله ونتوقع على أنفسنا؟

وفيم هذا العناء كله؟ وما الذي يلجئنا إلى هذا الطريق الوعر؟

(١) انظر المصدر السابق ص ١٩٢ .

(٢) العلمانية ص ٥٣٩ .



ألـكي نـكون مسلمين؟ أو لا يكفـي نطق لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ليجعلنا مسلمين؟ إنكم تبتدعون في دين الله ما ليس فيه! فالإسلام يثبت بنطق الشهادتين ، أما قضية الشريعة فهي من الأمور المتغيرة التي يتصرف فيها ولي الأمر بحسب رؤيته لمقتضى الأحوال! والأحوال الآن لا تسمح كما هو واضح لكل ذي عينين!.

وهل نسيتم الأقليات؟ كيف نطبق الشريعة وفي بلادنا أقلـيات لا تدين بالإسلام؟<sup>(١)</sup> هل نسيتم الدول «العظمى» وموقفها من الإسلام؟ وبالذات موقفها من تطبيق الشريعة؟ هل بنا طاقة - نحن المستضعفين في الأرض - نواجه بها الدول «العظمى»؟! إن التفكير في تطبيق الشريعة في الوقت الحاضر تفكير «غير مسئول» ينادى به قوم لا يعيشون بعقولهم في الواقع التاريخي المحيط بهم! أما «العقلاء» «المسؤولون» فإنهم يستنكفون أن يفكروا على هذا النحو ، ويجابهون الواقع بحكمة وروية ، ونظرة «واقعية» إلى الأمور!.

كذلك تتعالى الصيحات كلما ذكر تطبيق الشريعة!

وإنها لصيحات المنهزمين في دخيلة أنفسهم ، الذين أكل الغزو الفكري عقولهم وأرواحهم وجعلهم مسخاً مشوهاً لا يصلح لشيء»<sup>(٢)</sup>.

هذه تقريباً «أهم الأفكار التي يشوشون بها على الناس ، ليوحوا إليهم أن تطبيق الشريعة أمر لا يمكن تحقيقه اليوم ، بل لا يجوز تحقيقه حتى إن كان في حيز الإمكان! فضلاً عن كونه أمراً لا ضرورة له ولا موجب ، طالما أن إسلامنا متحقق بنطق لا إله إلا الله»<sup>(٣)</sup>.

ولعل أهم شبهة أفرزها الغزو الفكري حول تطبيق الشريعة الإسلامية هي شبهة التطور وعدم ملائمة الشريعة للأحوال المستجدة في حياة الناس.

«هل تصلح الشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرناً أن تحكم الواقع المعاصر ، وقد جد في

---

(١) يرى العلماني يوسف ادريس أن تطبيق الشريعة سيؤدي إلى تقسيم مصر فيقول : «وماذا نفعل بملايين إخواننا الأقباط المصريين إذا أُصرروا هم الآخرون على تطبيق الشريعة المسيحية ، هل نقسم مصر حينذاك أم نتحول إلى لبنان آخر» قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١١٧ وهذه دعوة منكرة لا سابقة لها في التاريخ كما قال الشيخ محمد قطب حول تطبيق الشريعة الإسلامي ص ١٠٢.

(٢) حول تطبيق الشريعة الإسلامية ص ٥.

(٣) المصدر السابق ص ٧. وقد ناقش المؤلف حفظه الله تلك القضايا وأتى على الموضوع من جميع جوانبه كعادته دائماً فيما يطرقه من موضوعات ، ولا أعلم حسب علمي كتاباً تناول تلك القضية الخطيرة. قضية الشريعة الإسلامية وإبطال شبه ومزاعم من يمانع في تطبيقها مثل كتاب «تطبيق الشريعة الإسلامية» للمؤلف حفظه الله.

حياة الناس بعد الثورة الصناعية وتقدم العلم وتشابك العلاقات البشرية وتعقدها ما لم يكن قائماً وقت نزول هذه الشريعة؟.

وإذا كان تطبيق الشريعة قد ظل ممكناً طيلة القرون العشرة التي تلت نزولها بسبب بطء التغيرات التي جددت في حياة الناس ، وانحصارها في أمور ليست بعيدة الشبه بالأحوال التي نزلت فيها الشريعة ، فهل تظل على الدرجة ذاتها من إمكان التطبيق بعد أن كادت تندثر الأحوال الأولى ، ووجدت بعدها أحوال تكاد تكون مبتوتة الصلة بما كان من قبل؟! كذلك يفكر بعض الناس .. ولعل هذه هي أهم القضايا التي تثور في ذهن «المثقف» الغربي تجاه تطبيق الشريعة ..<sup>(١)</sup>.

ويرى الشيخ «محمد قطب» أن كثيراً من الشبهات التي تثار حول تطبيق الشريعة الإسلامية ليست إلا من إفرازات الغزو الفكري ، لتظل الأمة بعيدة عن العودة إلى الشريعة الربانية بعد أن أبعدتها عنها الغزو الصليبي ، وأن ما يتعلق من هذه الشبهات بعدم إمكان التطبيق هو مجرد عقبات مصطنعة ضخمت جداً لتصد حتى عن مجرد التفكير في تطبيق الشريعة ، وكثيراً ما تكبر الأوهام في نفوس الناس حتى تصبح في وهمهم هي الحقيقة ، ويصبح الحق هو الخاطر البعيد الذي يحتاج إلى جهد لتثبيته مكان الأوهام ، ومع ذلك فإنه ما كان لهذه الشبهات أن تثار ، وما كان للغزو الفكري أن يتوغل في حياة الناس ، لو أن الناس كانوا على فهم حقيقي للإسلام وممارسة حقيقية لمقتضيات الإيمان<sup>(٢)</sup>.

وبالرغم من مطالبة كثير من الشعوب الإسلامية بتطبيق الشريعة الإسلامية في كثير من البلاد إلا أن تلك المطالبة لا تتم عن وعي وإدراك في كثير من الأحيان بسبب المخلفات والآثار التي أفرزها الغزو الفكري.

لقد ظل الغزو الفكري دوماً عقبة كبرى في سبيل تطبيق الشريعة الإسلامية والعودة بها إلى ميادين الحياة كدستور يحكمها مرة أخرى.

وقد رافق خطوات التغريب العملية وتنحية الشريعة الإسلامية ، واستيراد المبادئ والنظم التي تحدثنا عنها فيما سبق ، غزو فكري وثقافي عنيف متواصل لا يكاد يهدأ أبداً. وجاء جيل غذي بلبان الغرب ، ونشأ يهيم بعباداته وتقاليده ، ويحاول ترسم خطواته ومحاكاته في كل شيء قد «فتنتهم الحضارة الغربية المزدهرة ، حين عاشوا في البلاد الأوروبية ، أو نشأوا في مدارسها المنبثة في أنحاء

(١) المصدر السابق ص ٤٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٤ بشيء من التصرف.

الشرق ، واستمدوا منهم العليا في حياتهم من ثقافتهم التي لا تمت إلى الحضارة الإسلامية أو العربية بسبب قريب أو بعيد . فهم يعرفون عن تاريخ انكلترا وفرنسا أضعاف ما يعرفون عن تاريخ المسلمين أو العرب ، وهم يعرفون عن تاريخ الكنيسة الأوربية وما بين مذاهبها من خلاف أكثر ما يعرفون عن تاريخ الفقه الإسلامي ، وهم يعرفون أعلام الفكر الأوربي وشعرائه ولا يعرفون عن أعلام الحضارة الإسلامية والعربية إلا قليلاً ، وهم بعد ذلك يعيشون في بيوتهم حياة تحاول أن تقلد في مظهرها الحياة الغربية ، وربما وكلوا إلى بعض المربيات الأجنيات تنشئة أبنائهم والقيام على تربيتهم . وبذلك توثقت الصلات الثقافية والفنية والروحية بينهم وبين الغرب بينما فترت الصلات الروحية والثقافية بينهم وبين الشرق والإسلام وأصبح أسلوب الحياة الشرقية وتقاليدها لا يقترب في أوهامهم إلا بحاضر الشرق البغيض ، ويتلك الأخطا من حثالة الناس الذين يفتربسهم الجهل والفوضى والانحلال . وقد تشبعت عقولهم بما كان يذيعه رجال السياسة وكثير من كتاب الغرب الذين كانوا يردون تخلف الشرقيين إلى تمسكهم بالإسلام ، ويقولون إنه دين ساذج ، إن صلح لتنظيم حياة نفر من البدو البدائيين فهو لا يصلح لتنظيم المجتمع الجديد في القرن العشرين .

يقول «كرومر» : إن الإسلام ناجح كعقيدة ودين ، ولكنه فاشل كنظام اجتماعي . فقد وضعت قوانينه لتناسب الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي ، ولكنه مع ذلك أبدي لا يسمح بالمرونة الكافية لمواجهة تطور المجتمع الإنساني<sup>(١)</sup> .

كتب «عبد القادر حمزة» في سنة ١٩٠٤م مقالاً بعنوان «خطر علينا وعلى الدين»<sup>(٢)</sup> ينكر فيه على من يحاولون إقحام الدين في كل شيء ، غير ملتفتين إلى الخطر العظيم الذي يدفعون إليه الأمة ودينها ، كما اندفعت إليه أوربا من قبل ، فكانت النتيجة وبالأعلى على المسيحيين<sup>(٣)</sup> . وسمى ذلك هوساً دينياً على حد تعبيره . ويقول : إن من أخطر الأشياء أن نستتجد بالدين في كل شيء ، بعد أن صار إلى ما صار إليه ، وبعد أن أصبح مجموعة من العادات والتقاليد أنتجها الفهم السيء والتغالي

(١) الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢٥٩/١ .

(٢) المقتطف عدد مارس سنة ١٩٠٤ ص ٢٣١ - ص ٢٤٠ وقد رد عليه رفيق العظم في عدد مايو سنة ١٩٠٤م بمقال يحمل العنوان نفسه «خطر علينا وعلى الدين» ، كما رد عليه محمد كردعلي في العدد نفسه بمقال عنوانه «الدين والعامة» كما ذكر ذلك د . محمد محمد حسين رحمه الله .

(٣) قياس الكاتب الدين الإسلامي المحفوظ الرباني على الدين الكنسي المحرف قياس باطل شرعاً وعقلاً وتاريخاً . انظر حول ذلك : مذاهب فكرية معاصرة ، التمهيد الأول (الدين والكنيسة) والعلمانية الباب الثاني (أسباب العلمانية) .

المضر<sup>(١)</sup>، ثم يختم الكاتب مقاله مطالباً بأن يترك الدين بيننا في زيه الحقيقي ذلك الثوب الأبيض الطاهر، وأن لا ننفر الناس منه بإقحامه فيما ليس من شأنه ، منادياً بأن القرآن لم ينزل إلا بقواعد عامة للناس جميعاً. ولكل أمة أن تتصرف في مدلولات هذه القواعد العامة بما يناسب زمانها ومكانها دون تقيد أو حرج على الأفهام ، إلا فيما يخرج عن الدين<sup>(٢)</sup>.

ويمثل هذه المقالات التي تدعو صراحة إلى العلمانية وتتادي بعزل الدين كانت تمتلئ الصحف والمجلات في ذلك الزمن ، واتخذ من تحول الدين إلى رسوم وبدع وخرافات ذريعة للدعوة إلى عدم إقحامه في أمور الحياة ، وإبقائه في حدود الشعائر التعبدية.

ويصف الشيخ «محمد رشيد رضا» حزب المتفرنجين الذين انتشر الإلحاد بينهم بأنهم «يعتقدون أن الدين لا يتفق في هذا العصر مع السياسة والعلم والحضارة. وهؤلاء كثيرون جداً في أوربة وفي المدارس التي تدرس فيها اللغات الأوربية والعلوم العصرية<sup>(٣)</sup>، ورأى أكثرهم أنه يجب أن تكون الحكومة غير دينية. وحزبهم قوي ومنظم في الترك<sup>(٤)</sup> ، وغير منظم في مصر وضعيف في مثل سورية والعراق والهند. ورأيه (أي رأي حزب المتفرنجين) أنه يجب إلغاء منصب الخلافة الإسلامية في الدولة<sup>(٥)</sup> ، وإضعاف الدين الإسلامي في الأمة ، واتخاذ جميع الوسائل لاستبدال الرابطة الجنسية أو الوطنية بالرابطة الدينية الإسلامية<sup>(٦)</sup>.

لقد كان إلغاء الخلافة وتنحية الشريعة الإسلامية نتيجة طبيعية ومتوقعة لتفاقم الانحرافات الدينية والعقدية التي أتاحت المجال أمام حملات الغزو الفكري التي كانت تهدف لإلغاء الخلافة التي

---

(١) لقد كانت الأحوال الدينية والعقدية السيئة مدعاة لدعاة التغريب والعلمنة أن يهاجموا الدين من خلالها وأن يدخلوا ما شاعوا من أفكار وأنظمة لا دينية ، وكان الأولى بالكاتب وأمثاله الذين يأتون الرجوع إلى الدين في كل شيء بحجة ما صار إليه من عادات وتقالييد أن ينادوا بالرجوع إلى الدين الصحيح كما أنزل من عند الله، لا أن ينادوا بتحجيم دور الدين أو عزله جانباً ، ولكن ما تعلل به الكاتب وغيره ليس إلا ستاراً يقومون تحته بمهاجمة الدين ومحاولة إقصائه عن الحياة كلياً.

(٢) الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢٧٦/١ - ٢٧٩.

(٣) للأسف الشديد في تلك الفترة الحالكة المضطربة كانت العلوم العصرية قريبة الإلحاد ونبذ الدين ، وكان الجهل بها ومحاربتها قريباً للعلوم الدينية.

(٤) بسبب الماسونية ويهود الدونمة.

(٥) وقد تم لهم ما أرادوا ..

(٦) المصدر السابق ٦٣/٢.

كانت على علاقتها لا تزال الرابطة الوحيدة بين المسلمين<sup>(١)</sup>، وإلى تنحية الشريعة الإسلامية في كل بلد. وما كانت تحدث خطوة في ذلك المضمار التغريبي إلا وتسبقها حملات الغزو الفكري تمهد لها الطريق، وتقودها دعايات التغريب والعلمنة. فمثلاً عندما ألغى الكماليون المحاكم الشرعية في تركيا أخذ بعض الكتاب في مصر يناقشون إلغائها<sup>(٢)</sup>.

وعندما ألغيت الخلافة العثمانية قام شيخ أزهرى وقاض شرعي! هو علي عبد الرازق بإخراج كتابه المشهور : (الإسلام وأصول الحكم). والكتاب كله يدور حول هدم فكرة الخلافة ، كنظام إسلامي في الحكم ، ليصل من ذلك إلى النتيجة التي ختم بها كتابه ، حين أنكر أن تكون الخلافة أو القضاء أو وظائف الحكم ومراكز الدولة جميعاً من الدين في شيء ، ووصفها بأنها «خطط دنيوية صرفة ، لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ، ولا أمر بها ولا نهى عنها ، وإنما تركها لنا لنرجع فيها إلى أحكام العقل وتجارب الأمم وقواعد السياسة». وقد حاول المؤلف أن يصل إلى هذه النتيجة من كل طريق<sup>(٣)</sup>.

ثم يكشف المؤلف عن هويته التغريبية بقوله الذي ختم به كتابه وهو : «لا شيء في الدين يمنع المسلمين أن يسبقوا الأمم الأخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها ، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا به واستكانوا إليه ، وأن يبنوا قواعد ملكهم ونظام حكومتهم على أحدث ما أنتجت العقول البشرية ، وأمتن ما دلت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم»<sup>(٤)</sup>.

وقد «جمع عبد الرازق في كتابه بين أسلوب المستشرقين في تحوير الفكرة واقتطاع النصوص وتلفيق الواهيات ، وبين طريقة الباطنية في التأويل البعيد ، وسرد نبذاً من سير الطواغيت وتنقلاً من أقوال متملقهم ، وعمد إلى مغالطات عجيبة - كل ذلك ليدل على أن الإسلام كالمسيحية المحرفة علاقة روحية بين العبد والرب لاصلة لها بواقع الحياة»<sup>(٥)</sup>.

---

(١) وقد أحسن شوقي عند رثائه للخلافة بوصفه :

حسب أتى طول الليالي بونه      قد طاح بين عشية وصباح  
وعلاقة قصمت عرى أسبابها      كانت أبر علائق الأرواح

ديوان شوقي ١١٤/١.

(٢) الإتجاهات الوطنية المعاصرة في الأدب المعاصر ٩٧/٢.

(٣) المصدر السابق ٨٧/٢.

(٤) المصدر السابق ٩٥/١.

(٥) العلمانية ص ٥٨٢.

وقد كان لهذا الكتاب آثار بعيدة المدى ، فقد ترجم إلى اللغات الأجنبية وأصبح مرجعاً معتمداً للدراسات الإسلامية هناك ، وقام بتقريبه والثناء عليه كل المهتمين بهذه الدراسات في الغرب ، وظهرت آثاره في كتاباتهم وهلل له سماسرة الاستعمار من الكتاب والصحفيين باعتبار مؤلفه عالماً متحرراً متنوراً ، ووضعه البعض على رأس مرحلة فكرية عصرية...

ووجدت الأحزاب السياسية فيه ضالتها المنشودة ، فلم تعد تتحرج من إعلان انتمائها للإتجاهات السياسية اللادينية شرقياً وغربيها ، ويراعتها من الدين والمتدينين. أما الكتب التي ألقت في الرد عليه فقد حاصرتها الدوائر الاستعمارية وأهملتها وسائل الإعلام حتى لم يكد يظهر لها صدى عند غير القلة المخلصة<sup>(١)</sup>.

وكانت قمة النجاح الذي حققته حملات الغزو الفكري المتواصلة هو اقتحام الأزهر ذلك المعهد العريق ، حيث أدخل القانون الوضعي في صلب البرامج الدراسية لكلية الشريعة بجامعة الأزهر ، وتسميتها كلية الشريعة والقانون بموجب القانون المعروف بقانون تطوير الأزهر . وهذا عمل يقصد به تقريب الشقة بين الشريعة والقانون ، وحل عقدة الرفض في الرؤوس والنفوس التي يخشى دائماً أن تنبعث منها قيادة جادة لحركة تحكيم الشريعة وإعادتها إلى التفرد والهيمنة على شئون الحياة<sup>(٢)</sup>.

وهكذا نحيث شريعة الله من غالب البلاد الإسلامية ، وكان للغزو الفكري أثره العظيم في تلك التتحية ، وكان لا بد معها من استيراد للقوانين والمبادئ والنظم ، وتم ذلك كله «في ظل الخواء الروحي والتخلف العقدي من ناحية ، وفي ظل الغزو الفكري من ناحية أخرى - وقد تلازما في الحقيقة لارتباط الأخير بالأول - فقد انهارت الحواجز ولم يعد المسلمون يفرقون بين ما ينبغي أخذه وما ينبغي تركه من «البضاعة الحضارية» الموجودة عند الغرب»<sup>(٣)</sup>.

لقد كان موقف المسلمين من الغرب وحضارته موقفاً مضطرباً اتصف بالذهول وعدم الوعي والتمييز بين ما عنده من منافع وأضرار. وكان الواجب اقتباس ما عنده من منافع ، وترك ما عنده من أضرار وفساد ، ولكن الذي حدث بالفعل كان غير ذلك ..

«فأما الأشياء النافعة فقد اتجهوا إليها ولكن بجهد متقاعس متخاذل متعثر الخطوات .. وأما الفساد فقد سارعوا إليه فاستوعبوه كله ، وعبوا منه عباً كأنما هو «الزاد».

(١) المصدر السابق ص ٥٨٣.

(٢) الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص ١٣٢ للدكتور عبد الستار فتح الله. دار الأنصار ، القاهرة.

(٣) واقعنا المعاصر ص ٣٤٣.

وأما النظم فقد سعوا إلى استيرادها وتقليدها ضارين صفحاً تماماً عما أنزل الله»<sup>(١)</sup>.

لقد كانت الشريعة الإسلامية الهدف الأول الذي صوبت إليه حملات الغزو الفكري سهامها ، وقد نجحت تلك الحملات في تنحية الشريعة الإسلامية ، وإحلال القوانين الوضعية والنظم الغربية بديلاً عنها .

ولم تكف هذه الحملات عن السخرية بأحكام الشريعة والاستهزاء بمبادئها ، حكماً حكماً ومبدأً مبدأً ، فهاجموا الحدود واعتبروا تنفيذها همجية ووحشية ، وهاجموا الحجاب واعتبروه تخلفاً ورجعية وهاجموا قعود المرأة في بيتها واعتبروه كبتاً وحرماناً وتعطيلاً لنصف المجتمع ، وهاجموا تعدد الزوجات وعدوه امتهاً لكرامة المرأة وإطلاقاً لشهوانية الرجل على حسابها ، وهاجموا قوامة الرجل واعتبروها تحدياً صارخاً لما ينادون إليه من مساواة ، وهاجموا أحكام الميراث وقالوا عنها إنها غير عادلة ، وهاجموا تحريم الربا واعتبروه عائقاً في سبيل الاقتصاد العالمي ومخالفاً له ، ولم يكد يسلم أي حكم من ذلك الهجوم الضاري الذي يؤدي إلى تنفير الناس من تلك الأحكام ، ومعارضتها دائماً ، والوقوف في وجه من يدعو إليها أو يحاول إظهار محاسنها .

وإذا كانت قضية «تنحية الشريعة الإسلامية» هي القضية الأولى التي أجنب عليها دعاة الغزو الفكري بخيلهم ورجلهم ، فإن قضية ما سمي بـ «تحرير المرأة» تعد المرتبة الثانية بين القضايا التي ركز عليها الغزو الفكري ، وقد تحدثنا عن تلك القضية بشيء من الإسهاب عند كلامنا عن الضعف الأخلاقي والاجتماعي . ولكننا نؤمى هنا إيماءة سريعة حول هذه القضية التي شغلت وما زالت تشغل الفكر الإسلامي في هذا العصر<sup>(٢)</sup>.

فقد عرفنا عند حديثنا عن الجوانب الأخلاقية والاجتماعية أن الضعف أصابها ، وأنها استحالحت إلى تقاليد خاوية ، وعادات رتيبة يحافظ عليها الناس لأنهم توارثوها عن أسلافهم ، وكانت في كثير من الأحيان تخالف ويخرج عنها ، كما درج بعض المؤرخين على ذكر بعض مظاهر الفساد والاختلاط التي كانت تحدث في المجتمع الإسلامي ، كتلك التي كانت تحدث في احتفالات الموالد وغيرها . ومع خطورة تلك المخالفات كانت في أضيق نطاق ، ولكن البذرة الأولى بذرت زمن الحملة الفرنسية عندما أتى «نابليون بنايرت» معه بجمع من البغايا المتبذلات يخالطن الرجال بكل خلاصة

(١) المصدر السابق ص ٣٤٤ .

(٢) نعني بالفكر الإسلامي هنا : الفكر الذي يدور في البلاد الإسلامية بقطع النظر عن اتجاهاته وأهدافه .

ومجون ، وقد ذكرنا ذلك من قبل ، وكيف أن بعض نساء المسلمين خصوصاً بعض بنات الأكابر قد خلعن جلباب الحياء والعفة ، ونزلن لمشاركة الفرنسيين في احتفالاتهم ومهرجاناتهم وتبذلاتهم ، ومع غضب المسلمين من ذلك التحدي السافر الذي قام به بعض نسائهم ، وإصدارهم حكماً بقتلهم ، وتنفيذهم للحكم حال مغادرة الفرنسيين<sup>(١)</sup> . إلا أن تلك البذرة التي أُلقيت لأول مرة في الأرض الإسلامية قد ظلت دفيئة فيها ، ولم تنبت إلا بعد حين من الدهر<sup>(٢)</sup> . ثم جاء بعد ذلك أحد المبتعثين إلى الخارج هو الشيخ (رفاعة رافع الطهطاوي) المتوفي سنة ١٨٧٣ م ) الذي مكث في باريس من عام ١٨٢٦م - ١٨٣١م ورافق البعثة كواعظ وإمام لها<sup>(٣)</sup> . ثم ألف كتابه الذي تحدث فيه عن أخبار «باريز» ودعا فيه إلى تحرير المرأة أي إلى السفور والاختلاط ، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس ، فقال : إنه حركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى ، فلا ينبغي النظر إليه على أنه عمل مذموم<sup>(٤)</sup> . وقال أيضاً : إن السفور والاختلاط ليس داعياً إلى الفساد. ودعا المرأة إلى التعلم حتى تتمكن من تعاطي الأشغال والأعمال التي يتعاطاها الرجل<sup>(٥)</sup> .

«وكانت دعوة جريئة من «رفاعة» لم يجد لها معارضاً خاصة وأن حاكم البلاد ، قد بارك دعوته ، وبارك أول كتاب وضعه «رفاعة» وهو «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» يبرز فيه تقدم الغرب ، وحسن لمواطنيه الانتفاع بتقدمه ، وأكثر من هذا فقد قرأ «محمد علي» الكتاب قبل نشره - بناء على ترزية له من الشيخ «حسن العطار» شيخ الأزهر - فأمر بطبعه وأصدر أمره بقراءته في قصوره وتوزيعه على الدواوين ، والمواظبة على تلاوته ، والانتفاع به في المدارس المصرية ، بل إنه أمر بعد ذلك بترجمته إلى التركية»<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر : مبحث الضعف الأخلاقي والاجتماعي ص

(٢) اعتبر النصراني الحاقد لويس عوض أن ما حدث أيام الفرنسيين هو بداية تحرير المرأة المصرية. انظر عودة الحجاب ٨٧/١.

(٣) هذه البعثة هي أول بعثة أرسلها محمد علي باشا إلى الخارج. وإرساله اماماً وواعظاً لها ليس أكثر من ذر الرماد في العيون.

(٤) واقعنا المعاصر ص ٢٠٩.

(٥) عودة الحجاب ٣٦/١.

(٦) المؤامرة على المرأة المسلمة ص ٣٨ نقلاً من عودة الحجاب ٢٧/١ ويرى بعض الباحثين أن الشيخ «حسن العطار» بعد قراره إلى الصعيد إثر دخول الحملة الفرنسية قد عاد إلى القاهرة ، ونجح الفرنسيون في ضمه إلى المحفل الماسوني الذي أسسه كليبر عام ١٨٠٠م وتولى تعليمهم اللغة العربية ، ونقل عنهم علومهم وقد اندمج إلى حد كبير في علومهم ، وكثيراً ما تغزل في أشعاره بأصدقائه منهم حتى وصف العطار بأنه من دعاة التجديد ، وقد توثقت صلة الشيخ «العطار» بمحمد علي بعد توليه الولاية وأصبح من الركائز التي يعتمد عليها محمد علي في خطواته التجديدية في مصر. انظر : قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٦٩ .



«ولم يكن يتوقع بطبيعة الحال أن تستجيب الأمة الإسلامية في مصر إلى هذه الدعوة الطهطاوية في حينها فقد كانت بقية الإسلام في نفوس المسلمين ، كما كانت سيطرة التقاليد الإسلامية على كل جوانب الحياة ، تبليغان من القوة إلى الحد الذي يجعل مثل تلك الدعوة في ذلك الوقت مثاراً للسخرية ومثاراً للاستنكار الشديد ...

ولكن رأس الحربة كان يشير إلى الاتجاه .. «الاتجاه إلى التغريب»<sup>(١)</sup>.

وبعد هلاك رفاعة الطهطاوي بحوالي ربع قرن جاء من يسمونه بمحرر المرأة قاسم أمين فألف كتابه : «تحرير المرأة» زعم فيه أن حجاب المرأة ليس من الإسلام ، وأن الدعوة إلى السفر ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده<sup>(٢)</sup>.

وقد لقي هذا الكتاب معارضة شديدة ، فما لبث مؤلفه أن أسفر عن وجهه الحقيقي ، وخلع عنه ثوب الحياء ، وقناع التدين ، وكشف في جرأة وصراحة عن أهدافه المغرضة في كتاب ظهر في العام التالي وهو كتاب (المرأة الجديدة) الذي بدا فيه أثر الحضارة الغربية واضحاً ، فالتزم فيه مناهج البحث الأوربية الحديثة ، التي ترفض كل المسلمات والعقائد السابقة<sup>(٣)</sup>.

والمرأة الجديدة التي قصدها «قاسم أمين» هي المرأة الأوربية ، وهاجم القوامة التي شرعها الله للرجل وأسماها «حق ملكية الرجال للنساء» ودعا إلى ترك حرية النساء للنساء حتى ولو أدى الأمر إلى «إلغاء نظام الزواج حتى تكون العلاقات بين الرجل والمرأة حرة لا تخضع لنظام ولا يحددها قانون»<sup>(٤)</sup>.

ثم يميظ اللثام عن وجهه التغريبي ، ويبسط آراء الغزو الفكري التي اعتنقها فيقول : «نحن لا نستغرب أن المدنية الإسلامية أخطأت في فهم طبيعة المرأة وتقدير شأنها ، فليس خطؤها في ذلك أكبر من خطئها في كثير من الأمور الأخرى». ثم يقول : «والذي أراه أن تمسكنا بالماضي إلى هذا الحد هو من الأهواء التي يجب أن ننهض جميعاً لمحاربتها ، لأنه ميل إلى التذني والتقهقر .. هذا هو الداء الذي يلزم أن نبادر إلى علاجه ، وليس له من دواء إلا أننا نربي أولادنا على أن يعرفوا شئون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصولها وفروعها وأثارها ...»<sup>(٥)</sup>.

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٠٩.

(٢) عودة الحجاب ٤٠/١.

(٣) المصدر السابق ٦٢/١.

(٤) المصدر السابق ٦٣/١.

(٥) المصدر السابق ٦٧/١ وقد ساند قاسم أمين في دعوته المشبوهة الزعيم المصري «سعد زغلول».

وما دعا إليه «قاسم أمين» هو بعينه ما دعى إليه «رفاعة الطهطاوي» من قبل منذ عودته من فرنسا .. «مع فارق رئيسي .. لا في الدعوة ذاتها ولكن في المدعويين! فإن أكثر من نصف قرن من الغزو الفكري المستمر كانت قد فعلت فعلها في نفوس الناس ، فلم تقابل دعوة «قاسم أمين» بالاستنكار البات الذي قوبلت به دعوة «رفاعة الطهطاوي» ، ولم تودع في مهدها كما وئدت الدعوة الأخرى من قبل»<sup>(١)</sup>.

وهكذا استطاع «قاسم أمين» أن يصنع للمرأة المسلمة في مصر قضية، ولم يكن باستطاعته أن يصنع ذلك لولا ما كانت تمر به الأمة الإسلامية من انحرافات دينية وعقدية وما كانت تعيشه من تخلف وانحطاط.

«أما في مصر - أو في العالم الإسلامي - فلم تكن للمرأة قضية خاصة! إنما كانت القضية الحقيقية هي انحراف هذا المجتمع عن حقيقة الإسلام ، مما سميناه «التخلف العقدي» وما نتج عن هذا التخلف العقدي من تخلف في جميع مجالات الحياة. وما تحقير المرأة وإهانتها وعدم إعطائها وضعها الإنساني الكريم إلا مجال من المجالات التي وقع فيها التخلف عن الصورة الحقيقية للإسلام. وعلاجها - كعلاج غيرها من الحالات جميعاً - هو العودة إلى تلك الصورة الحقيقية ، والتخلي عن ذلك التخلف المعيب...»<sup>(٢)</sup>.

«والآن وقد صار للمرأة» قضية ، فلا بد للقضية من تحريك.

وتبنى القضية فريق من النسوة على رأسهن «هدى شعراوي» ، وفريق من الرجال المدافعين عن حقوق المرأة. وأصبح الحق الأول الذي تطالب به النسوة هو السفر...»<sup>(٣)</sup>.

ثم طوّل بالتعليم بدءاً بالتعليم الابتدائي حتى الجامعي ثم طوّل بخروجها إلى ميدان العمل وقد تمت هذه الخطوات ببطء ، واستغرقت زمناً يكفي لخلخلة عادات قديمة وزعزعة تقاليد عتيقة<sup>(٤)</sup>، ولعبت الصحافة دوراً خبيراً في الدعوة إلى السفر والتبرج والاختلاط ودأبت على إشاعة الرذيلة والفاحشة واستماتت في محاربة الفضيلة والعفة والحياء.

«وقد بدأت صحافة المرأة في صورتها الأولى في مجلة «روز اليوسف» حيث حرصت هذه المجلة في سنواتها الأولى تحت اسم الفن وأهله على تمييع الخلق الإسلامي وتذويب الشخصية الإسلامية

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٥٢ وهناك فارق شكلي هو صراحة قاسم أمين وجراته في المجاهرة بأقواله وآرائه.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٤) انظر موضوع «تحرير المرأة» من كتاب «واقعنا المعاصر» فهو من أفضل ما كتب في هذا الأمر.

وضرب القيم الإسلامية عن طريق تقديم قصص مكشوفة من ناحية ، والبحث عن أسرار البيوتات الكبرى ، والإفاضة في الحديث عن الساهرات والراقصات وعن فنون الغواية حتى بدا أن هذه هي صورة المجتمع الطبيعية ، وكان لهذا كله أثره الخطير على تفكير المرأة العربية المسلمة ووجدانها<sup>(١)</sup> وساعدت وسائل الإعلام الأخرى في نشر تلك الدعاوي المحمومة على اختلافها من إذاعة وتلفاز وسينما ومسرح ، وراجت سوق الأفلام الخليعة والمسلسلات الهابطة ، وصارت هي المادة الثقافية المفتوحة التي يتناولها الجميع كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساءً ، ومن خلالها يدس السم الزعاف والداء القاتل ، فإذا فسدت المرأة فقد فسد المجتمع كما قالت المنصرة «أنا ميلجان» : « ليس هناك طريق أقصر لهدم الإسلام من إبعاد المرأة المسلمة عن الإسلام »<sup>(٢)</sup>.

يقول الأستاذ : «إيهاب الأزهرى» في لقاء أجري معه في مجلة المسلمون : لقد حاول المخطط الصهيوني أن يصل إلينا ، ويطعن إيماننا في العمق ، وقد نجح في المحاولة حيث عرض التليفزيون المصري فيلماً أمريكياً عندما تشاهده تجد أن العقل الواعي يدرك من اللحظة الأولى أن هناك شيئاً يدبر في الخفاء من خلال الفيلم ، فبطل الفيلم يطلب الزواج من المرأة التي أحبها وهي ترفض قائلة بعبارة واحدة : لا ، لماذا تفسد علاقة الحب السعيد بالزواج؟ وهذه الجملة تحمل من الخطورة ما لا يمكن أن يقدره المسؤولون عن تقييم برامج العرض والرقابة ، لأنها تفسد القيم والمبادئ الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

وهذا مثال واحد من مئات بل من ألوف من ألوان الأمثلة على تمرس وسائل الإعلام في عرض كل ما من شأنه أن يهدم الأخلاق والفضائل ، ويغرس في النفوس الفوضى والانحلال<sup>(٤)</sup>.

إذا أضفنا إلى ذلك الحركة الاستشراقية باعتبارها من أخطر مجالات الغزو الفكري التي ازداد نشاطها في القرن التاسع عشر، إذ بلغ ما ألفه المستشرقون في قرن ونصف (منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب<sup>(٥)</sup>.

---

(١) الصحافة والأقلام المسمومة ص ٢٢ أنور الجندي، دار الاعتصام القاهرة. وينصح بقراءة هذا الكتاب الذي رصد الصحافة العربية وبورها في تدمير الأخلاق والفضائل وتكريس الرذائل وإشاعة الفواحش في المجتمعات الإسلامية.

(٢) حقائق ووثائق. دراسة ميدانية عن الحركات التنصيرية في العالم الإسلامي ص ٩٣ د. عبد الوہود شلبي. الدار السعودية للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

(٣) المسلمون ص ٢٣ عدد ٣٢ ، سنة ١٤٠٦ هـ . نقلًا عن : قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٧٣.

(٤) انظر دور وسائل الإعلام في الغزو الفكري ص ٢٣٥ وما بعدها في «واقعنا المعاصر».

(٥) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٨. الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

وقد دأب المستشرقون دائماً على حرب الإسلام وتشويه صورته ، ويمكننا أن تلخص أهم الأهداف التي سعوا إلى تحقيقها :

- ١ - الطعن في حقيقة الإسلام وحقيقة القرآن والنبوة.
- ٢ - القول بأن الإسلام استنفذ أغراضه.
- ٣ - القول بأن الإسلام طقوس وشعائر روحية أو على أحسن الأحوال دين بالمفهوم الغربي الضيق فلا دخل له بأمور الحكم والحياة.
- ٤ - القول بأن الفقه الإسلامي مأخوذ من القانون الروماني.
- ٥ - الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تتلائم مع الحضارة.
- ٦ - الدعوة إلى نبذ اللغة العربية وهجر حروفها وأساليبها.
- ٧ - إثارة ما يسمى «قضية تحرير المرأة».
- ٨ - تهوين شأن الحضارة الإسلامية وتشويه تاريخها.
- ٩ - بعث الحركات الهدامة والطوائف الضالة وتضخيم أدوارها.
- ١٠ - نبش الحضارات القديمة وإحياء معارفها.

١١ - وضع منهج لاديني للبحث العلمي ولولم يكن من ثمرة جهودهم إلا ذلك لكفى ، فإن جامعات العالم الإسلامي المعاصرة تدرس التراث الإسلامي وفق ذلك المنهج الذي يتمسح بالموضوعية والحياد العلمي وهو أبعد ما يكون عنهما<sup>(١)</sup>.

ويقول الدكتور «محمد محمد حسين» رحمه الله : ولست أبالغ ولا أدعي غير الحق حين أقول : إن هذه الروح اللادينية مع شديد الأسف - قد أصبحت هي التي تسود دراسات التاريخ الإسلامي في أكثر جامعاتنا . وذلك شيء يلمسه كل من تخرج في كليات الآداب أو اتصل بها عن قريب<sup>(٢)</sup>.

وتكمن خطورة الاستشراق في تلقف جمهرة من المنتسبين إلى الإسلام لأفكاره وآرائه ، واعتناقهم لها ، وتثقفهم بها ، ونشرها بين المسلمين . إن ترجمة الكتب الاستشراقية ، وتعتمد نشرها في أوساط البيئة الإسلامية تعد خيانة للفكر الإسلامي ، قام بها مجموعة من المنهزمين نفسياً ، وروجوا لما يقومون به من خدمة للمستشرقين ومؤلفاتهم<sup>(٣)</sup>.

(١) العلمانية ص ٥٤٤ - ٥٥٠ . (٢) حصوننا مهددة من داخلها ص ١٥٣ .

(٣) يرى الدكتور محمد البهي أن الاستشراق لون من ألوان التبشير. الفكر الإسلامي الحديث ص ٥٢٥ . ولكننا رأينا إدخاله هنا لأنه ألصق بالغزو الفكري .

وقد نعى الدكتور «محمد محمد حسين» رحمه الله على اللجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية التي كان يرأسها الدكتور طه حسين في حينه<sup>(١)</sup> قيامها بترجمة عدد من الكتب الأوربية والأمريكية إلى العربية. وإنفاق العرب الأموال الطائلة على تلك الترجمات<sup>(٢)</sup>، التي تلعن أجدادهم وتسب أسلافهم ، وتسفه دينهم ، وتفترى على نبيهم<sup>(٣)</sup>.

وضرب على ذلك مثلاً بكتابين تولت ترجمتهما اللجنة المذكورة هما (مختارات من إمرسون) و (قصة الحضارة) لول ديورانت فالكتابان يثنيان على اليهودية واليهود تصريحاً وتلميحاً ، بينما يتعمدان الكيد للإسلام والمسيحية، فإمرسون يهدم الدين والتدين من جذوره تحت ستار الدعوة إلى الحرية وإلى استقلال الشخصية ، وأما ول ديورانت فهو يهدمه عن طريق تجريح الرسل الأظهار وإثارة الغبار حول سيرهم ، على أن الكتابين كليهما يشتركان في هدم النبوات وإنزال الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه إلى مرتبة الفلاسفة والكتاب المصلحين<sup>(٤)</sup>.

وينفرد «ول ديورانت» بالطعن في شخصية الرسول ﷺ بعد أن مهد لذلك بكلمات تدل على إعجابه بها كقوله : « وكان محمد ، كما كان كل داع في دعوته ، الناطق بلسان أهل زمانه والمعبر عن حاجاتهم وآمالهم » .

ولكنه قاتله الله لا يروي عن النبي ﷺ في كتابه هذا إلا الغرائب التي يخلعها من سياقها وظروفها<sup>(٥)</sup> حتى تبدو لغير الخبير بالتاريخ الإسلامي في صورة تثير السخط وتدعو إلى الاشمئزاز ، كالذي يصف المجرم وهو يساق إلى القتل ويعلق في الحبل ، ويخفي ما اجترح من مفاصد وما أزهق من أرواح بريئة، تجد ذلك في مثل كلامه عن قتله ﷺ امرأة ، وعن قتله شيخاً ناهز المائة لأنهم هجواه وهو يسوق ذلك في أسلوب هادئ رزين كأنه يسوق خبراً من الأخبار العادية دون أن يعلق عليه أو يحتفل به ، فلا يكاد القارئ المسلم يتنبه إلى غرضه الخبيث الذي هو في حقيقة الأمر التشنيع بالنبي عليه الصلاة والسلام.

(١) كان ذلك في السبعينيات من القرن الرابع عشر الهجري.

(٢) وقد فاقت تلك الترجمة خبثاً ما وقع في عصر المأمون العباسي من ترجمة. إذ أن الكتب المترجمة في الفترة الأولى مع ما كان فيها من كفر وضلال قد ألفت قبل ظهور الإسلام في الغالب ، أما ما ترجم في الفترة التي نحن بصدها فهو كله دس وطعن ألف لهدم الإسلام والقضاء عليه.

(٣) حصوننا مهددة من داخلها ص ١٤١.

(٤) المصدر السابق ص ١٤٥.

(٥) على طريقة من يقف على قوله تعالى : { فويل للمصلين .. } او على قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة .. }.

ومثل قوله أيضاً : (وضمت صفية - وهي فتاة يهودية في السابعة عشرة من عمرها كانت مخطوبة لكثانة - إلى نساء النبي « . فمثل هذه الألفام التي يدسها الرجل في ثنايا سطره تترك أسوأ الأثر في نفوس القراء من الغربيين ومن ضعاف الإيمان من المسلمين ، والمنتحلين منهم للحضارة الغربية المتخلفين بها خاصة ، شيخ جاوز الخمسين يتزوج فتاة في السابعة عشرة ! وليس هذا فحسب ، بل إنها كانت مخطوبة لرجل يهودي من بني جنسها فأضافها إلى نسائه العديداً ! هل هذا تاريخ؟ أم إنه تشنيع في أخطر صورته ، لأن صاحبه يتصنع الهدوء ويتظاهر بالاتزان والانصاف ، ويخدع الناس بمثل كلامه عن براعة النبي في القيادة وفي شؤون الحكم وفي التنظيم الاجتماعي .

ومن أمثلة هذا الأسلوب الخبيث وصفه النبي صلوات الله وسلامه عليه بأنه كان : (يعنى بمظهره الشخصي ويقضى في تلك العناية كثيراً من الوقت ، فكان يتعطر ويكتحل ويصبغ شعره ويلبس خاتماً نقش عليه «محمد رسول الله» وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل ، وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب ، وكان مرهف الحس إلى أقصى حد ، لا يطبق الروائح الكريهة ولا صلصلة الأجراس والأصوات العالية وكان قلقاً عصبي المزاج ، يرى أحياناً كاسف البال ، ثم ينقلب فجأة مرحاً كثير الحديث » . فهذا الأسلوب المسموم في التصوير إنما يريد أن يصور النبي ﷺ في صورة المتصابي وفي صورة العصبي المزاج ، المريض الأعصاب ، المصاب بالصرع»<sup>(١)</sup> .

والمصيبة أن يأتي مترجم هذا الجزء من الكتاب وهو «محمد بدران» فيقول إن المؤلف قد (أنصف الحضارة الإسلامية فشاد بفضلها)<sup>(٢)</sup> .

إن هؤلاء المستشرقين الذين تولى تلامذتهم من المنتسبين إلى الإسلام نشر أفكارهم ونصر آراءهم لم يكونوا ليصلوا إلى ما وصلوا إليه لولا هؤلاء التلامذة .

فعلي عبد الرزاق صاحب كتاب «الإسلام وأصول الحكم» كان عالماً في كتابه على مؤلفات المستشرقين فهو يعتمد على المستشرق «سير توماس أرنولد» فيما يزعم من أنه ليس هناك سند قرآني لما ذهب إليه الفقهاء من ضرورة إقامة الخلافة . ويحيل إليه المؤلف كذلك عند تشنيعه بالخلفاء في كل العصور الإسلامية ، وتصويرهم في صورة أشبه بصورة القراصنة الذين يستحلون كل شيء في سبيل المال والجاه والسلطان<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر السابق ص ١٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٣ .

(٣) الاتجاهات الوطنية ٨٥/٢ .

وقد أثبت الدكتور «ضياء الدين الرئيس» أن الكتاب في الحقيقة لمستشرق يهودي هو مرجليوث ، ومعلوم أن علي عبد الرزاق ذهب إلى بريطانيا وأقام فيها عامين ، فلا بد أنه كان متصلاً بهذه المستشرق أو تتلمذ عليه<sup>(١)</sup>.

وكذلك طه حسين فقد كانت دعوته للعامة وآراؤه في الشعر الجاهلي صدى واضحاً لكتابات المستشرقين<sup>(٢)</sup>، وقد تأثر هو و«أحمد أمين» على الأخص بالمستشرق الإنجليزي د. س. مرجليوث ويعتبران من تلامذة مدرسته<sup>(٣)</sup>.

يقول الأستاذ أنور الجندي عن «طه حسين» :

«يكاد طه حسين في كل أعماله أن يكون خاضعاً للاستشراق ، متأثراً به ، تابعاً له ، معلماً من قدره متحدتاً عن فضله على الأدب العربي ، والفكر الإسلامي ، فكتابه في الشعر الجاهلي أخذ نظريته من مرجليوث ، ورأيه في كتابه (مع المتنبي) أخذ نظريته من تين ، «وبرودينر» ، ويحثه عن ابن خلدون أخذه من دوركايم ، واتجاهه في حديث الأربعة أخذه من «سانت بيف»... وتابع (كازانوف) ، عن مفهومه للقرآن الكريم وتفسيره له ، وهو يرى أنه من عند محمد ﷺ لا من عند الله .. وقد صور علاقته مع المستشرق «كازانوف» الذي علمه تفسير القرآن بقوله :

«عرفته أستاذاً في الكوليج دي فرانس ، ولم أكد أسمع له حتى أعجبت به إعجاباً لم أعرف له حدّاً ، فلم أكد أجلس إليه حتى تغير رأيي ، أو قل حتى ذهب رأيي كله ، وما هي إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان أقدر على فهم القرآن ، وأمهر في تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنته وسدنته ، وأصحاب الحق في تأويله»<sup>(٤)</sup>.

إن خطر الاستشراق يرجع بالدرجة الأولى إلى تلامذة المستشرقين من أبناء المسلمين الذين أفنوا أعمارهم ، وصرفوا طاقاتهم في نشر أفكاره وآرائه ، وتبني منهجه الخبيث في معالجة القضايا والمشكلات ، وقد ساد هذا المنهج على غالبية المفكرين والمؤرخين والكتاب والشعراء في البلاد الإسلامية ، وحورب المنهج الإسلامي الأصيل من خلاله حرياً شعواء ، وضيق الخناق على أصحابه ، ولم يفسح لهم المجال إلا نادراً؛ لأن الذين يملكون أزمة الأمور هم في الغالب خريجو المدارس

(١) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٢٨٠.

(٢) العثمانية ص ٦٠٦.

(٣) الموسوعة الميسرة ص ٣٧.

(٤) قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ٢٧٨.

الاستشراقية وتلامذة المستشرقين الأوفياء وقيادة هؤلاء (المستشرقين العرب!!) تعثرت خطوات الأجيال المسلمة ، وانحرفت عن جادة الطريق ، وتردت في أودية الانحلال والضياع .

«ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار «دائرة المعارف الإسلامية» بعدة لغات، وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التي صدرت بها الدائرة .. ومصدر الخطورة في هذا العمل هو أن المستشرقين عبئوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة ، وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراساتهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين . واستطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى المجمع اللغوي في مصر ، والمجمع العلمي في دمشق والمجمع العلمي في بغداد<sup>(١)</sup> .

وفي الحقيقة أن هؤلاء المستشرقين لم يتسللوا إلى هذه المجمع العلمية في غفلة من أهلها ، بل لقد دعوا إليها من قبل القائمين عليها ، ورغبوا في الإشتراك فيها ، ولا غرابة في اشتراك هؤلاء المستشرقين في تلك المجمع التي أسست في ظل شعارات القومية والوطنية ، وأضحت مسرحاً لكثير من اليهود والنصارى الذين نسب إليهم زوراً خدمة اللغة العربية وآدابها .

ومما يؤسف له حقاً أن يوصف بعض المستشرقين بأنهم منصفون ومحايدون، وملتزمون بالموضوعية وبأصول البحث العلمي. ويزداد الأمر حين تعمد «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة»<sup>(٢)</sup> التي يفترض فيها تحري الدقة والصواب عند حديثها عن الاستشراق ، فتصنف المستشرقين إلى ثلاثة أصناف : متعصبين ومعتدلين ومنصفين ، ولا أدري أي أساس بنت عليه «الموسوعة» هذا التصنيف الذي يهوي سريعاً عند أول تفتيش وبحث في مؤلفات هؤلاء المستشرقين الذين وصفوا بالاعتدال والإنصاف!

ونشير بمثالين على من وصفوا في تلك الموسوعة بأنهم منصفون لنرى بطلان تلك الدعوى التي تلبس على القارئ ، وتزيف الحقائق.

فالمثال الأول هو المستشرق الهولندي «هادران ريلاند» المتوفى سنة ١٧١٨م ذكرته الموسوعة في رأس قائمة المنصفين وقالت عنه : «أستاذ اللغات الشرقية في جامعة أوترخت بهولندا ، له «الديانة المحمدية» في جزأين باللغة اللاتينية (١٧٠٥م) لكن الكنيسة في أوروبا وضعت كتابه في قائمة الكتب المحرم تداولها»<sup>(٣)</sup> .

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص ٥٣٦ .

(٢) ذكرنا هذه الموسوعة بالذات لأنها الموسوعة الإسلامية الوحيدة في الساحة حسب علمي ، التي تتحدث عن الفرق والمذاهب المعاصرة ، ولم تتعرض لغيرها من الموسوعات ودوائر المعارف التي وضعت غالباً للنيل من الإسلام ومحاولة تشويهه .  
(٣) الموسوعة الميسرة ص ٣٤ .



ويبدو أن تصرف الكنيسة مع «هادريان ريلاند» في تحريمها تداول كتابه كان من الأسباب التي أغرت الموسوعة باعتباره من المستشرقين المنصفين كما يفهم من عبارتها.

وليس ذلك مبرراً في نظرنا إلى ما ذهبت إليه الموسوعة ، خصوصاً إذا علمنا تاريخ الكنيسة الأسود الذي اتسم بالجنون والتهور في محاربة كل ما يمت إلى العلم بصلة.

يقول «ريلاند» في كتابه «الديانة المحمدية» : «صحيح أن الدين الإسلامي دين سيء وضار بالمسيحية إلى حد بعيد ، ولكن أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه؟ ألا ينبغي للمرء أن يكشف أعماق الشيطان وحيله؟ إن الأخرى أن يسعى المرء للتعرف على الإسلام في حقيقته لكي يحاربه بطريقة أكثر أماناً!! وأشد قوة»<sup>(١)</sup>.

وتسميته للإسلام بالديانة المحمدية توحى بأن الدين ليس من عند الله ، وإنما من عند محمد ﷺ كما هو مذهب جمهور المستشرقين. فكيف يوصف بعد كل هذا الخبث والمكر والحقْد بالإنصاف؟!

وأما المثال الثاني فهو المستشرق الفرنسي «جوستاف لوبون» حيث اعتبرته الموسوعة الميسرة من المستشرقين المنصفين وقالت عنه : «مستشرق وفيلسوف مادي ، لا يؤمن بالأديان مطلقاً!! ، جاءت أبحاثه وكتبه الكثيرة متسمة بإنصاف الحضارة الإسلامية مما دفع الغربيين إلى إهماله وعدم تقديره»<sup>(٢)</sup>.

ولا نجد تعليقاً أفضل مما قاله الدكتور «أحمد غراب» في كتابه «رؤية إسلامية للاستشراق» حيث قال : «ولا أدري كيف يكون الملحد منصفاً للإسلام؟ أو منصفاً على الإطلاق؟ كيف لمن ينكر وجود الله ، ويجحد آياته في الكون ، ورسالاته إلى البشر ، أن يكون منصفاً؟ كيف لمن يتخبط في ظلمات المادية أن يرى نور الإسلام حتى ينصفه؟»<sup>(٣)</sup>.

ومع أن كتابه «حضارة العرب» كان من أهم الكتب التي قررت «الموسوعة الميسرة» من أجله أن تجعله منصفاً للحضارة الإسلامية، فإن عنوانه يحمل سمة الدس والجور ، وليس الإنصاف. والسؤال الذي يلح على الباحث المسلم هو : لماذا لم يجعل المستشرق «المنصف» عنوان كتابه : «حضارة الإسلام» أو «الحضارة الإسلامية»؟!

(١) رؤية إسلامية للاستشراق ص ١٠٥ د. أحمد عبد الحميد غراب. المنتدى الإسلامي. لندن. الطبعة الثانية ١٤١١هـ.

(٢) الموسوعة الميسرة ص ٣٥.

(٣) رؤية إسلامية للاستشراق ص ١٢٧.

والجواب هو أن المستشرق يقصد من تأليف كتابه - كما يتضح من عنوانه وموضوعاته - إلى أهداف معينة مترابطة ، تلتقي كلها حول عدم إنصاف الإسلام ، وأهمها ثلاثة أهداف:

الهدف الأول : إنكار أن الإسلام رسالة عالمية ، أو حضارة عالمية ، فالإسلام - في زعمه - دين العرب ، وحضارته حضارة العرب ، بل وشريعته مختارة من نظم العرب في الجاهلية!

الهدف الثاني : إنكار أن العامل الأول في قيام الحضارة الإسلامية وتأثيرها في العالم هو الإسلام نفسه ، والزعم بأن العامل الأول في قيامها وتأثيرها هو عامل العرق أو الجنس : أي جنس العرب.

الهدف الثالث : تشجيع النزعة القومية عند العرب ، لتوسيع هوة الفرقة بين المسلمين ، وهدم ما تبقى من وحدة الأمة الإسلامية»<sup>(١)</sup>.

«أما عن الشريعة الإسلامية فيزعم المستشرق أن الرسول ﷺ قد اختار قوانينها من نظم العرب في الجاهلية. يقول : «عرف (محمد ﷺ) كيف يختار من نظم العرب القديمة ما كان يبدو أقومها فدعمها بنفوذه الديني العظيم»<sup>(٢)</sup>.

«وينكر المستشرق أن يكون للإسلام أو القرآن تأثير على العرب في إنجازاتهم العلمية والفلسفية فيقول : «لم يكن للإسلام - ديانة - تأثير في آثار العرب العلمية والفلسفية»<sup>(٣)</sup>. ويقول عن القرآن الكريم : «وهذا الكتاب المقدس قليل الارتباط! ، مع أنه أنزل وحياً من الله على محمد ، وأسلوب هذا الكتاب ، وإن كان جديراً بالذكر أحياناً خال من الترتيب فاقد السياق كثيراً!!»<sup>(٤)</sup>.

ويقول عن الرسول ﷺ : «ويجب عد محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح (!!؟) ، وذلك كأكثر مؤسسي الديانات ، ولا كبير أهمية لذلك ، فأولو الهوس وحدهم ، لا نوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشئون الديانات ، ويقودون الناس».

ولا عجب كما يقول الدكتور أحمد غراب من مستشرق كافر أن يفترى الجنون على رسل الله أو معظمتهم ، صلوات الله عليهم جميعاً ، تلك الفرية التي طالما ردها المشركون والمستشرقون قبله وبعده، ولكن العجب أن يوصف هذا المستشرق بالإنصاف!<sup>(٥)</sup>

(١) المصدر السابق ص ١٢٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٨.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٦.

(٤) المصدر السابق ص ١٣٧.

(٥) المصدر السابق ص ١٣٨.

وإذا كان كل هذا الإفتراء والدس والإفك مع من اعتبرتهم «الموسوعة الميسرة» منصفين ، فكيف بمن اعتبرتهم معتدلين ، لا ريب أنهم أكثر خبثاً وافتراءً ودساً .

وقد أسهبننا في هذه القضية الخطيرة لأن كثيراً من الباحثين والمثقفين درجوا على ما أنتهجت «الموسوعة الميسرة» من تصنيف المستشرقين إلى متعصبين ومنصفين وأحياناً معتدلين ، ووصف كثير منهم بالإنصاف والعدل نتيجة لتلك القسمة الظالمة.

وفي اعتقادي إن وصف المستشرقين بالإنصاف مظهر من مظاهر الانخداع الساذج بهذا اللون الخطير من الغزو الفكري ، وجهل بأسلوب ماكر قديم سلكه أجداد هؤلاء المستشرقين الذين فاقوا أجدادهم ضراوة وحقدًا .

وقد أفصح الله عز وجل عن هذا الأسلوب الخبيث الماكر في كتابه الكريم عند حديثه عن مقاومة الكافرين من أهل الكتاب للإسلام في المدينة فقال سبحانه : { وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يوتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم } [٧٢-٧٣ آل عمران] وذلك حين يقوم من المستشرقين من وصفوا بالإنصاف والموضوعية والحياد بإظهار مدح الإسلام ، ثم يعمدون إلى دس السم في ثنايا مدحهم ، ويختتموا مدحهم وإطرائهم بنقيصة يلصقونها به فيتحول المدح ذمًا ، والإطراء عيبًا ، فيصاب القارئ بالإحباط والخيبة والمرارة ، ويتساءل عن السبب الذي جعلهم يرتدون عن إعجابهم ومدحهم ، فيحدث في فكره بلبلة واضطراب ، ويقع من جراء ذلك الأسلوب الحقيير في فتنة ، قد يرتد بسببها عن الدين ، وهو ما سعى إليه الماكرون . (لعلهم يرجعون ..) .

وإن الباحث بعد كل هذا ليخرج بنتيجة هامة حول موضوع الاستشراق ، وهي أن الاستشراق يعتبر أخطر الوسائل التي نفذ من خلالها الغزو الفكري إلى الطبقة المثقفة في العالم الإسلامي التي تهيمن على المؤسسات التعليمية والثقافية وأن الفكر الاستشراقي هو المحور الضخم الذي تدور عليه عجلة الغزو الفكري في البلاد الإسلامية ، وما لم يتم كسر ذلك المحور والقضاء عليه ، فلن يمكن أبداً إيقاف تلك العجلة بحال من الأحوال.

وهكذا بان لنا أن الغزو الفكري كان من أخطر الآثار التي ترتبت على سوء الأحوال الدينية والعقيدة كما رأينا .

فما كان للغزو الفكري أن يعمل في الأمة عمله ، لو كانت عقيدة الأمة راسخة سالمة من

الانحراف ، وكانت عقيدة الولاء والبراء حية في النفوس ، تحجز سهام الأعداء ورماحهم. ولكن حين ذابت هذه العقيدة وزالت معالمها ، فقد أصبحت الأمة مكشوفة لأعدائها يصويرون إليها حرايمهم من كل جانب. حتى استطاعوا أن يخرجوا منها أجيالاً ممسوخة تنفر من الإسلام ، وتهول إلى أعدائه في كل شؤونها ، ويصبح المتمسكون به وسط هذه الأجيال غريبين منبوذين .

\* \* \*

## المبحث الثالث : النشاط التنصيري في العالم الإسلامي

لقد أغرى الضعف الذي كان يعيشه العالم الإسلامي الغرب النصراني الذي كان في أوج قوته وقمة حضارته أن يسلك إلى جانب الغزو العسكري، والفتوحات الحربية طريقاً آخر لا يقل خطورة عن الأول هو طريق التنصير ، والتنصير والاستعمار توأمان متلازمان. فكل واحد يمهد للآخر ، ويزيل عن طريقه العوائق . ويستفيد منه<sup>(١)</sup>. وبهما يتمكن الغرب من فرض سيطرته على العالم الإسلامي. كما أن التنصير يستخدم الغزو الفكري لتنفيذ أغراضه.

لقد أدرك النصارى منذ أول وهلة ظهر فيها الإسلام خطورة ذلك الدين الجديد على عقيدتهم المحرفة وديانتهم البالية ، وضائق صدورهم بالتقدم السريع الذي كانت تحققه الجيوش الإسلامية في مستعمراتهم وممتلكاتهم، ولكن الذي أزعجهم كثيراً وأقضى مضاجعهم ليس هو فتح البلدان والأقاليم، وإزالة الحكم النصراني بقدر ما كان هو فتح القلوب والعقول ، ودخول الناس أفواجا في الإسلام<sup>(٢)</sup>. وارتعب أهل الصليب من ذلك رعباً شديداً، وحنقوا على المسلمين حنقاً عظيماً ودقوا نواقيس الخطر ، وتصايح الرهبان والقسس بأن دين المسيح أضحى في خطر، وسيقت الحملات الصليبية، يدفعها حب الانتقام ، ويقودها الحقد والبغضاء ، وتحولها الوحشية والإجرام ، وتكسر هذه الحملات رغم شراستها وفظاعتها حملة حملة. ويرتد الصليب عن ديار الإسلام خاسئاً وهو حسير، والإسلام ينتشر في الأرض ، والمسلمون يزداد عددهم وتعظم قوتهم . عند ذلك أدرك رجال الدين النصراني أن المجابهة العسكرية لم تعد تجدي شيئاً . بعد أن تكسرت حملاتهم تحت صخرة الإسلام ، وفشلت في تحقيق أهدافها. لذلك عدلوا عنها إلى محاولة تذويبها وتفتيتها رويداً رويداً<sup>(٣)</sup>.

---

(١) راجع مبحث الاستعمار في هذه الرسالة ص

(٢) يقول المستشرق الألماني بيكر بأن هناك عداً من النصرانية ضد الإسلام بسبب أن الإسلام عندما انتشر في العصور الوسطى أقام سداً منيعاً في وجه انتشار النصرانية ثم إن الإسلام قد امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها. التبشير والاستعمار ص ٣٦.

(٣) يرجع بعض الكتاب الجنود التاريخية للتنصير إلى ملك فرنسا «لويس التاسع» كما صنع الدكتور عبد الووود شلبي الذي يشكر على مؤلفاته في مقاومة التنصير وكشف خططه والأعيبه. ومنها «أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية» الذي ذكر فيه ص ١٥ أن لويس التاسع في أثناء سجنه في المنصورة كان أول من حدد دور المبشر ومهمته ، وقد ذكرنا أن بعض المفكرين اعتبره الداعي الأول للغزو الفكري بدلاً من الحرب. ولا سفاة بين ذلك فإن الغزو الفكري والتنصير وجهان لعملة واحدة هما الصليبية الحاكمة. انظر : العلمانية ص ٥٣٦.

«لقد خابت دول أوربية في الحروب الصليبية الأولى من طريق السيف ، فأرادت أن تشير على المسلمين حرباً صليبية جديدة من طريق التبشير ، فاستخدمت لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات ، وفرقت المبشرين في العالم»<sup>(١)</sup>.

وشاء الله سبحانه وتعالى ألا تظل الأمة غالبية قوية بسبب انحراقها عن دين الله عز وجل ، فكانت كلما زاد انحراقها ازدادت ضعفاً وهواناً ، وأصبحت في القرون المتأخرة عرضة لهجمات الأعداء وكيدهم، وما زال ضعفها يستشري حتى تكالبت عليها أمم الغرب تمزقها وتستعمرها وتسلب خيراتها وتنهب ثرواتها. وفوق ذلك تنحي شريعته وتفسد عقيدته وتضلل أبنائها.

لقد كانت فترة الامتيازات الأجنبية التي سبقت الاستعمار مرحلة ذهبية ، وفرصة نادرة لا تقدر بثمن منحها الدولة العثمانية للدول الأوربية ، وقطفت ثمار تلك الامتيازات بالدرجة الأولى الارساليات والمدارس التنصيرية التي ما كانت تحلم أن تنفرد للعمل التنصيري في ديار الإسلام بكل حرية واطمئنان لولا تلك الامتيازات الظالمة.

فقد سمحت تلك الامتيازات للنشاط التنصيري أن ينطلق كمّاً وكيفاً ، أما كمّاً فبانتشار هيئاته وإرسالياته ومدارسه في مدن الدولة وأقاليمها. وأما كيفاً فباستخدامه ما عن له من الوسائل وراق له من الأساليب بعيداً عن أعين الرقباء ، أو حتى عن طائلة القانون.

يقول القسيس «تروبريدج» في مؤتمر لكنو التنصيري في الهند سنة ١٩١١م : إن المبشرين كانوا منذ ابتداء أعمالهم التبشيرية قبل ٨٠ سنة مظهراً لتسامح الحكومة العثمانية كما هو شأنها مع الرعايا الأجانب الذين تحميمهم الامتيازات الأجنبية<sup>(٢)</sup>.

«ولما اتسع نفوذ المبشرين الأمريكيين في الامبراطورية العثمانية ، بين عام ١٨٤٠ ، ١٨٥٠ وكثر تدخلهم في شؤون البلاد تنفيذاً لسياسة استعمارية عازمت تركيا على إخراجهم من الامبراطورية كلها ولكن وزير الخارجية الاميركية رفض أن يتخذ مثل هذه الخطوة. ثم استطاعت الولايات المتحدة أن تحول انتباه الباب العالي إلى أمور أخرى. أي أن الولايات المتحدة أثارت لتركيا مشاكل كبيرة صرفتها عن أمر المبشرين.

وهكذا ظل المبشرون الأمريكيون يتمتعون في الامبراطورية العثمانية بحقوق الرعايا الاميركية كما تنص معاهدة «الامتيازات الأجنبية» التي تمنح الأجانب المرغوب في وجودهم في الامبراطورية

(١) التبشير والاستعمار ص ١٥.

(٢) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٠٨.

العثمانية حقوقاً واسعة. ولكن المبشرين كانوا يتسلحون بهذه المعاهدة ويأتون بأعمالهم التبشيرية والسياسية»<sup>(١)</sup>.

«ومجمل القول إن الدولة العثمانية لم تكن تملك حرية الإرادة ولا حرية التصرف حيال نشاط البعثات التنصيرية...»<sup>(٢)</sup>.

ومن ذلك إعفاء المنصرين من الضرائب والجمارك تمتعاً بما منح لهم من امتيازات أجنبية<sup>(٣)</sup>. وهكذا انطلقت الرسائل التنصيرية تقودها جحافل المنصرين تجوب أنحاء الدولة العثمانية بكل حرية واطمئنان تبث سمومها ، وتنتشر عقائدها .

قد يكون هذا النشاط التنصيري أخفق في تحقيق أهدافه المباشرة ، فلم يتنصر أحد من المسلمين إلا في النادر ، فلا يحتفل به ، ويهون من شأنه ، ولكن الحقيقة التي تغيب عن هؤلاء السذج الغافلين هي أن النشاط التنصيري لم يخفق إخفاقاً كاملاً كما يظنون ، فلئن أخفق في تحويل الناس عن دينهم بالكلية ، فقد نجح بالفعل في زعزعة إيمانهم ، وخلخلة عقيدتهم ، ونزع الثقة من نفوسهم . حتى تمكن من هزيمة أرواحهم وأسر عقولهم .

يقول المسيو «شاتليه» : «وحسبنا أن نستشهد بإرسالية التبشير الكاثوليكية في بيروت لتكون موضوع التفكير والتأمل في فرنسا ، إذ بالرغم من كون (كلية القديس يوسف اليسوعية) التي تدير أعمال هذه الإرسالية لا تأثير لها على النشوء الفكري في المحيط الإسلامي ، فإن التعاليم التي تنتشرها وتبثها كان لها الحظ الأوفر في انتشار الأفكار الفرنساوية في سورية والقطر المصري ثم يقول : « ومن هذا يتبين لنا أن إرساليات التبشير الدينية التي لديها أموال جسيمة وتدار أعمالها بتدبير وحكمة تأتي بالنفع الكثير في البلاد الإسلامية من حيث أنها تبث الأفكار الأوربية»<sup>(٤)</sup>.

أما القسيس «زويمر» فيقول : «إن لنتيجة إرساليات التبشير في البلاد الإسلامية مزيتين : مزية تشييد ومزية هدم ، أو بالحري مزيتي تحليل وتركيب. والأمر الذي لا مزية فيه هو أن حظ المبشرين من التغيير - الذي أخذ يدخل على عقائد الإسلام ومبادئه الخلقية في البلاد العثمانية والقطر المصري وجهات أخرى - هو أكثر بكثير من حظ الحضارة الغربية منه. ولا ينبغي لنا أن نعتد على إحصائيات التعميد ، في معرفة عدد الذين تنصروا رسمياً من المسلمين ، لأننا هنا واقفون على مجرى الأمور

(١) التبشير والاستعمار ص ٥٤ .

(٢) الدولة العثمانية نولة إسلامية مقترى عليها ١٠٦/١ .

(٣) التبشير والاستعمار ص ٥٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١٦ .

ومتحققون من وجود مئات من الناس ، انتزعوا الدين الإسلامي من قلوبهم ، واعتنقوا النصرانية في طرف خفي»<sup>(١)</sup> .

ويتعقب المسيو «شاتليه» كلام «زويمر» الذي نزع فيه إلى ضرب من المغالاة والتهويل ليخفف بعض الألم عن نفوس المنصرين الذين صدموا كثيراً للإخفاق الذي لازمهم . فيذكر أن الإرساليات التبشيرية على اختلافها تعجز عن زحزة العقيدة الإسلامية من نفوس منتحليها ، وأنه لا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار الأوربية<sup>(٢)</sup> .

وقال : «أما ما يقوله حضرة مكاتينا (زويمر) عن وجود مئات من المسلمين اعتنقوا النصرانية سراً وينتظرون فرصة للجهر بها ، فذلك أمر لا يمكننا البت فيه مع حضرة الكاتب»<sup>(٣)</sup> .

ثم أليس «زويمر» نفسه هو القائل في مؤتمر القدس التنصيري عام ١٣٥٤هـ - ١٩٣٥م الذي ضم ١٢٠٠ مندوب: «.. لكن مهمة التبشير التي ندبتكم لها الدول المسيحية في البلاد الإسلامية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية ، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً ، وإنما مهمتكم هي أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله وبالتالي لا صلة له بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها»<sup>(٤)</sup> .

ومع أن ما قاله «زويمر» يعتبر في أساسه تبريراً للفشل الذريع الذي مني به المنصرون<sup>(٥)</sup> إلا أنه في الوقت نفسه يعد هدفاً من أهدافهم .

ونتيجة للفشل الذريع الذي واجهه المنصرون في تحقيق هدفهم الأول وهو إدخال المسلمين في النصرانية فقد دفعهم ذلك إلى العمل الدؤوب على قطع صلة المسلمين بالله كما يقول «زويمر» ، وإفساد عقولهم وزعزعة إيمانهم وعقيدتهم «ويعترف المبشرون بأن التبشير الرسمي واكتساب المسلمين إلى صفوف النصرانية قد خاب من أجل ذلك قنع هؤلاء المبشرون أن يكون عملهم «الانساني» قاصراً على زعزعة عقيدة المسلمين على الأقل»<sup>(٦)</sup> .

---

(١) المصدر السابق ص ١٧ .

(٢) التي هي عبارة عن الغزو الفكري أو مزية الهدم كما يسميها زويمر .

(٣) المصدر السابق ص ١٨ .

(٤) العلمانية ص ٥٥٢ .

(٥) قال ذلك بعد أن قضى خمسة وأربعين عاماً في البحرين يدير منها دفعة التنصير في المنطقة كلها . حيث هبط إلى البحرين .

لأول مرة عام ١٨٩٠ م .

(٦) التبشير والاستعمار ص ٤٦ .



ومن أجل ذلك يقولون إنه «.. يجب على المبشرين أن يفسدوا الطلاب المسلمين ، يقول المبشر «تكلي» : «يجب أن نشجع إنشاء المدارس ، وأن نشجع على الأخص التعليم الغربي. إن كثيرين من المسلمين قد زعزع اعتقادهم حينما تعلموا اللغة الانكليزية. إن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمراً صعباً جداً»<sup>(١)</sup>.

فإذا تفككت أو اصر القربى الروحية في الأمة الإسلامية خاصة فقد استطاع الغرب أن يحكم الشعوب الإسلامية ويستغل بلادها اقتصادياً وحربياً<sup>(٢)</sup>.

وكما استفاد المنصرون من الامتيازات الأجنبية الممنوحة لهم من قبل السلاطين العثمانيين فقد استفادوا فوائد عظيمة بعد صدور الدستور (القانون الأساسي)<sup>(٣)</sup>.

ففي مؤتمر لكتو التنصيري الذي مر معنا آنفاً أشار القسيس (تروبيريدج) إلى ملخص البند العاشر من القانون الأساسي الذي يحظر خرق حرية الأفراد أو القبض على أي شخص ومعاقبته بلا مسوغ منصوص عليه في الأحكام الشرعية الإسلامية والنظمات القانونية<sup>(٤)</sup>.

ثم شرع في التعرض لما حققه المنصرون في ظل الدستور فقال : «كان طبع كتب التبشير مباحاً في تركيا منذ مدة طويلة إلا أن مهمة بائعي الكتب المتنقلين كانت محفوفة بأنواع الصعوبات فأصبح الآن بيع التبشير مباحاً بسبب حرية النشر التي عقيبت الدستور ، فبيع في السنة الماضية<sup>(٥)</sup> للمسلمين ما يزيد على ٩٠٠٠ نسخة من هذه الكتب وليس هناك صعوبات تقوم في سبيل بيع الكتب المختصة بانتشار التبشير»<sup>(٦)</sup>.

هذا بالنسبة للكتب والمؤلفات ، أما المدارس ونشاطاتها فيقول عنها : «إن في استطاعة المسلمين التردد على مدارس وكليات التبشير ، وبين جدران الكلية الإنجيلية في بيروت<sup>(٧)</sup> ١٠٤ من المسلمين. وفي كلية الأستانة ٥٠ ، وفي كلية المبشرين في كدك باشا في الأستانة أيضاً ٨٠ ، ومنذ بضع سنين صدر إذن خفي!! بجواز التردد على الكلية الأولى والثانية»<sup>(٨)</sup>.

(١) المصدر السابق ص ٨٨.

(٢) المصدر السابق ص ٨٩.

(٣) انظر : الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم من الغرب من هذا البحث ص

(٤) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٠٨.

(٥) سنة ١٩١٠م.

(٦) المصدر السابق ص ١٠٩.

(٧) هي الجامعة الأمريكية الآن وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله فيما بعد.

(٨) المصدر السابق ص ١٠٩.

ثم قال عن الأعمال النسائية : «إن الحكومة سمحت عقب إعلان القانون الأساسي لخمسة فتيات عثمانيات مسلمات أن يتعلمن في كلية البنات الأمريكية لتهيئاً لإدارة الأمور في مدارس الحكومة للبنات. كما أن عدداً قليلاً من البنات المسلمات في الولايات يتردد على مدارس إرساليات التبشير»<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر أن التبشير الديني جار بلا صعوبة في المستشفيات التي يدير أعمالها المبشرون ، ثم تحدث عن المضايقات التي يتعرض لها المرتد عن الإسلام أحياناً ، بعد أن كان مصيره الإعدام ولكن ذلك نسخ بعد إعلان الدستور. «وقد دخل التسامح في شكل جديد عقب قبول اندماج المسيحيين في الجندية لأن ارتداد المسلم عن دينه كان يعتبر خيانة ووسيلة للتخلص من الخدمة العسكرية. أما الآن فأصبحت مسألة اعتناق الدين المسيحي دينية محضة»<sup>(٢)</sup>.

يقول المنصر الأمريكي «جسب» بعد أن أشار إلى إعلان الدستور : «إن القضية التي تواجهنا بطبيعة الحال هي : ماذا يكون من أمر هذا الانقلاب العظيم على دين الامبراطورية (العثمانية)؟ وجيب «جسب» نفسه على هذا التساؤل فيقول : إن هذا سيساعد على طبع الكتب البروتستانتية ، وسيصبح المرء (العثماني) حراً في أن يغير دينه»<sup>(٣)</sup>.

«ولا يجد المبشرون حرجاً في أن يعلنوا أن نشر الدستور العثماني قد جعل التنصير المباشر أكثر إمكاناً وسهولة من أجل ذلك قرروا أن يجنوا جهودهم وأن يسيروا بأعمالهم إلى الأمام»<sup>(٤)</sup>.

---

(١) المصدر السابق ص ١١٠.

(٢) المصدر السابق ص ١١٠.

(٣) التبشير والاستعمار ص ٥٢.

(٤) المصدر السابق ص ٥٣.

#### ملحظة :

أخطأ المؤلفان خطأً بيناً باعتبارهما أن إعلان الدستور للمرة الثانية كان حدثاً عظيماً في تاريخ تركيا والعرب ومناسبة فذة ص ٥٢ وقولهما : إن إعلان الحرية في تاريخ الامبراطورية العثمانية عام ١٩٠٨ م يوازي الثورة الفرنسية في تاريخ فرنسا ، ومع ذلك فإن المبشرين لم يهتموا بهذا الحادث العظيم إلا بمقدار ما سيخدم غاياتهم التبشيرية ويسهل عليهم النفوذ إلى أرجاء الامبراطورية ، لقد فرحوا على الأخص لأن سورية ولبنان سيفتحان في وجه المبشرين البروتستانت . ص ١٧١ .

فهل كان ياترى هؤلاء المنصرون أنرى بحقيقة الدستور الذي يتنافى مع الشريعة الإسلامية ويبيح لأعداء الإسلام من منصرين وماسونيين وقوميين أن ينشروا مذاهبهم ويروجوا لأفكارهم دون حسيب أو رقيب .

انظر كلامنا حول الدستور عند حديثنا عن الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم ص

لقد ذكرنا من قبل أن أعداء الإسلام قد ركزوا جهودهم على ذراعي الأمة الإسلامية تركيا ومصر، فإذا تمكنوا من كسر هذين الذراعين فقد سهل عليهم السيطرة على بقية الجسد. فمن هذا المنطلق توالى إرساليات التنصيرية وتدافع القساوسة والمنصرون صوب هذين البلدين الرئيسيين. وأضحت الأستانة والقاهرة عاصمتا البلدين مسرحاً آمناً للنشاط التنصيري المكثف. وقاعدة تنطلق منها البعثات والهيئات التنصيرية في أنحاء العالم الإسلامي.

ففي سنة ١٦٦٤م قام البارون «دويتز» بتحريك ضمائر النصارى إلى تأسيس مدرسة كلية تكون قاعدة لتعليم التبشير المسيحي، وتعلم فيها لغات الشرق للطلاب الذين يناط بهم أمر التبشير. فارتأى أحد أحرار الكنيسة أن يعهد إلى الأروام بمسؤولية تبشير الأتراك. غير أن البارون فشل في مشروعه (١).

وقد أدرك أعداء الإسلام من المنصرين أهمية الأستانة ومركز ثقلها في العالم الإسلامي يقول رئيس إرساليات التبشير الألمانية : «إن نار الكفاح بين الصليب والهلال لا تتأجج في البلاد النائية ولا في مستعمراتنا في آسيا أو إفريقية، بل ستكون في المراكز التي يستمد الإسلام منها قوته وينتشر سواء أكان في إفريقية أم في آسيا وبما أن كل الشعوب الإسلامية تولي وجوهاً نحو الأستانة عاصمة الخلافة فإن كل المجهودات التي نبذلها لا تأتي بفائدة إذا لم نتوصل إلى قضاء لباثتنا فيها. ويجب أن يكون جل ما تتوخاه جمعية إرساليات التبشير الألمانية هو بذل مجهوداتها نحو هذه العاصمة وهي قلب العالم الإسلامي» (٢).

ومنذ أوائل القرن الثامن عشر بدأت الحركة التنصيرية تغزو آسيا الصغرى. وكان ذلك على يد المنصر «هنري مارتين» المتوفى سنة ١٨١٢م الذي كانت له يد طويلة في إرسال المنصرين إلى تركيا. ومن بعده أخذت إرساليات التبشير تشد الرحال إلى الأناضول وفلسطين واتخذت لها مراكز في أزمير والقسطنطينية وبيت المقدس (٣).

ولما حدثت حوادث سنة ١٨٦٠م في سوريا (٤) توجهت الأنظار إلى جبل لبنان، وبعد عشر سنوات انتشرت لجنة التبشير الأمريكية في البلاد العثمانية عدا سوريا. وعلى أثر تأسيس الكنيسة البروتستانتية في الأستانة سنة ١٨٤٦م. صارت الأستانة مركزاً عاماً آمناً لأعمال المبشرين. ومع

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٢٢.

(٢) المصدر السابق ص ١٤٤.

(٣) المصدر السابق ص ٢٨.

(٤) انظر : الضعف السياسي من هذا البحث ص

الصعوبات التي كانت تواجههم في بعض الأحيان إلا أنها سرعان ما تتلاشى . بل كانت معاملة الحكومة العثمانية للمبشرين تتحسن بواسطة سفراء الولايات المتحدة<sup>(١)</sup>. وخصوصاً بعد إعلان الدستور وخلع السلطان «عبد الحميد» - رحمه الله - حيث أصبح التجول في البلاد العثمانية غير ممنوع<sup>(٢)</sup>.

ومما لا شك فيه أن الآثار التي تترتبت على هذا النشاط التنصيري في الأستانة كانت خطيرة للغاية ، بعيدة المدى سواء أكان ذلك في المجال السياسي أو الديني أو الثقافي أو الاجتماعي.

وقد نشرت مجلة الشرق المسيحي والتبشير الإسلامي الألمانية التي هي لسان حال جمعية إرساليات التبشير الألمانية مقالة حول تأسيس المدرسة التبشيرية لدراسة الإسلام وأصوله ومبادئه في (بوتسدام) عام ١٩٠٩م جاء فيها :

«وقد نفخ الله الجمعية التبشيرية باستاذين علامتين اعتنقا الدين المسيحي يقومان بالتدريس في المدرسة وهما بمثابة سيل طام صب على الدين المسيحي الحي القوتين الإسلاميتين اللتين هما الشريعة والصوفية. واسم الأستاذ الأول المدرس نسيمي أفندي الذي ينتمي إلى عائلة إسلامية عريقة سبق لأحد أعضائها أن تقلد منصب المشيخة الإسلامية. واسم الثاني الشيخ أحمد الكشف شيخ طريقة صوفية. وانضم إليهما القسيس (افاتارنيان)<sup>(٣)</sup> .. الذي كان اسمه «ملا محمد شكري أفندي». وهؤلاء الثلاثة يدرسون التفسير والتعاليم الصوفية واللغة العربية والفارسية والتركية ودروساً تاريخية دينية إسلامية لتلاميذ مدرسة (بوتسدام)<sup>(٤)</sup>.

وفي مؤتمر أدنبرج الذي عقد سنة ١٩١٠م قالت اللجنة الثالثة من لجان المؤتمر المختصة بالأعمال المدرسية : «اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التي أسسها الأوروبيون كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجح على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوروبا كلها»<sup>(٥)</sup>.

وفي هذا دليل على مبلغ النتائج التي أحرزها النشاط التنصيري في الأستانة عاصمة الدولة

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩.

(٢) المصدر السابق ص ٩٢.

(٣) اعتنق النصرانية ثم قام بالتنصير في البلاد البلغارية. ويحتمل أنه بلغاري.

(٤) المصدر السابق ص ١٤٥.

(٥) المصدر السابق ص ٧٢ والمسألة الشرقية كانت تعني في أول الأمر تخليص الممالك المسيحية من حكم العثمانيين. وفي المرحلة الثانية أصبحت تعني تقسيم الدولة العثمانية والدول الإسلامية التابعة بها بين دول أوروبا الصليبية.

العثمانية. وليس يعنى هذا أن الدولة العثمانية لم تكن تلم بأهداف المنصرين ، أو تقاوم نشاطهم . بل كانت تراقب المنصرين مراقبة دقيقة حتى تضيق عليهم ، وحالت بينهم وبين جزيرة العرب حين تهيأوا لاقتحامها بل إنها قاومتهم في تركيا نفسها ، ووقفت منهم موقفاً حازماً فالقت في سبيلهم العراقيين وعزمت ألا يصيبوا نجاحاً<sup>(١)</sup>.

«على أن الحكومة العثمانية لم تستطع أن تتخذ سياسة علنية تجاه المبشرين. ذلك لأن هؤلاء كانوا يأتون في الظاهر كرايا انكليز أو أميركيين أو دانمركيين أو افرنسين. فإذا استقروا في البلاد أخذوا يقومون بالتبشير سرّاً ما أمكنهم. ولذلك كان هؤلاء كلما وجدوا مراقبة وسهرّاً من الدولة العثمانية لجأوا إلى قناصلهم ، وكان القناصل يدافعون عنهم كرايا أجنب في الظاهر أيضاً»<sup>(٢)</sup>.

فالدولة العثمانية لم تقف مكتوفة اليدين أمام نشاطات المنصرين وجهودهم ، ولكن ما حيلتها وقد دب الوهن في قواها ، وتطرق الخراب إليها ، وأمست على حافة الفناء والزوال. وفي عام ١٨٨٨م أغلقت الدولة العثمانية مدارس المبشرين الاميركيين ، لأن هذه المدارس فتحت أبوابها بلا رخصة من الحكومة . ولكن المستر بسنغر قنصل أميركة في بيروت والمستر اسكار ستراوس<sup>(٣)</sup> تداخلا في الأمر حتى سمح الوالي «علي رضا باشا» بأن تعود تلك المدارس إلى فتح أبوابها، على ألا تقبل إلا التلاميذ المسيحيين. ولكن الوزير والقنصل مازالا يسعيان حتى حملا الوالي على إلغاء هذا الشرط»<sup>(٤)</sup>.

«لقد كانت الدول الغربية تناجز الامبراطورية العثمانية من وراء الستار ، من وراء مبشريها المنتشرين في البلاد»<sup>(٥)</sup> و«تستغل ضعف تركية السياسي لتحمي المبشرين في أعمال التنصير»<sup>(٦)</sup>.

على أننا في هذا المقام لابد أن نشير إلى ضعف الجهود التي بذلتها الدولة العثمانية في مقاومة النشاط التنصيري الذي غزا غالب أراضيها في ذلك الزمن وإلى عدم وعي القائمين بتلك الجهود بالتآمر الصليبي والتخطيط النصراني المحكم. بالإضافة إلى عشوائية تلك الجهود وعدم تنظيمها ، وانطلاقها في أكثر الأحيان من عواطف مندفعة أكثر من اعتمادها على عقيدة راسخة ومقاومة مدروسة ومنظمة.

(١) التبشير والاستعمار ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١١٦ .

(٣) هو وزير الولايات المتحدة المفوض في تركيا وكان يهودياً.

(٤) المصدر السابق ص ١١٩ .

(٥) المصدر السابق ص ١١٩ .

(٦) المصدر السابق ص ١٢٠ .

فهل كان يمكن لمثل هذه الجهود التي تفتقر إلى التخطيط والتنظيم والوعي وفوق ذلك إلى العقيدة الراسخة أن تقف في وجه ذلك الطوفان التنصيري الذي أطبق على العالم الإسلامي وأغرق بلدانه بإرسالياته وهيئاته ومدارسه ومنصريه.

أما تركيز النشاط التنصيري على مصر الذراع الثاني للعالم الإسلامي فسنوجز الحديث عنه فقد بدأ مكثفًا منذ أيام «محمد علي باشا» الذي كانت سياسته التغريبية<sup>(١)</sup> تقسح الطريق أمام هؤلاء المنصرين.

وقد «طمع المبشرون بمصر لأن محمد علي أراد أن يدخل المدنية الأوربية إلى مصر، فطمع هؤلاء إلى أن يتسللوا مع المدنية الغربية إلى عقائد المسلمين، ويبدو أن المبشرين تمتعوا ببعض الحرية حتى جاء «عباس» الأول عام ١٤٤٨م وهو الذي نعته المبشرون بالقاسي لأنه قاوم التبشير. أما «سعيد باشا» (١٨٥٤ - ١٨٦٣) فقد نعته المبشرون بالعبقري لأنه سمح للنفوذ الأوربي أن يعود سائدًا في وادي النيل ، مع أنه عهد «سعيد» باشا كان عهد نقمة على مصر وعلى المصريين»<sup>(٢)</sup>.

وقد ذكرنا في مبحث سابق<sup>(٣)</sup> كيف دأب «سعيد باشا» طوال سني حكمه على رعاية الارساليات التنصيرية والتبرع لها بالأموال والأراضي والكتب. بل إن ما وهبه ذلك الخديوي الضال لبعض مدارس المنصرين يفوق ما أنفقته على ميزانية التعليم في بلاده طول حكمه.

وقد لقي المنصرون حفاوة بالغة من غالب الأسرة العلوية حتى جاء الاحتلال الانجليزي. وعلى رأسه اللورد «كرومر» فانتعش التنصير وانتصر ، ومع أن بعض المنصرين اتهم «كرومر» بمحاباة المسلمين فإنه كان نصرانيًا إلى العظم يشجع التنصير بين المسلمين ، ويحمي القسس الأجانب والمنصرين. وقد ذكرنا عند حديثنا عن الاستعمار موقفه من المبشرين. ومن ذلك تنصر طالب من القدس كان يدرس في الأزهر ، فطلبه أبوه ثم حضر بنفسه إلى القاهرة ، فالتجأ الابن إلى اللورد «كرومر» فاستكتبه اللورد «كرومر» وثيقة فيها أنه لا يريد أن يرجع مع أبيه ففعل<sup>(٤)</sup>.

إن وجوه الضعف السياسي والاقتصادي والاجتماعي التي أصيبت بها الأمة ، أتاح المجال أمام هؤلاء المنصرين أن يطوفوا البلاد في أثواب المحسنين ليكفلوا اليتامى ، ويساعدوا الأراامل والأيامى ، ويحنوا على الفقراء ، ويعالجوا المرضى ، ويعلموا الأميين والجاهلين.

(١) انظر الحديث عن تلك السياسة في كلامنا عن الولاء والبراء من هذه الرسالة ص

(٢) التبشير والاستعمار ص ١٤٧.

(٣) الولاء والبراء

(٤) التبشير والاستعمار ص ١٤٨.

لقد كان واقعاً مرأً أليماً للغاية استغله هؤلاء المنصرون أسوأ استغلال ، بإقامة الملاجئ ودور الأيتام ، وإنشاء المدارس والمستشفيات ليهرع إليها الآلاف من المعوزين واليتامى والأرامل والجهال والمرضى ، كل ينشد فيها سد فاقته ، وإشباع جوعته ، ومداواة علقته . وكشف كريكته .

في مؤتمر « القاهرة » للمنصرين عام ١٩٠٦م قام المنصر ( هاربر ) وأبان وجوب الاكثار من الإرساليات الطبية لأن رجالها يحتكون دائماً بالجمهور ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين .

وذكر « هاربر » حكاية طفلة مسلمة عنى المنصرون بتمريضها في مستشفى مصر القديمة ثم ألحقت بمدرسة البنات البروتستانتية في باب اللوق .

وذكر أيضاً عن رجل مسلم كان يحضر محاضرات المبشرين لإثارة الجلبة والضوضاء ، واتفق أنه مرض فدخل مستشفى المبشرين وبعد أن لبث فيه مدة شفي وخرج منه فصار يحضر المحاضرات في هذه المرة ولكن بخشوع زائد وبعد ذلك بقليل تعمد وأصبح نصرانياً على مذهب البروتستانت (١) .

ثم قام الدكتور « اراهارس » طبيب إرسالية التبشير في « طرابلس » الشام فقال : انه قد مر عليه اثنان وثلاثون عاماً وهو في مهنته فلم يفشل إلا مرتين فقط وذلك عقب منع الحكومة العثمانية أو أحد الشيوخ لاثنتين من زبائنه من الحضور إليه .

وأورد إحصاء لزبائنه فقال : ان ٦٨ في المائة منهم مسلمون ونصف هؤلاء من النساء . وفي أول سنة مجيئه إلى حيث يبشر بلغ عدد زبائنه ١٧٥ ، وفي آخر سنة كان عددهم ٢٥٠٠ وختم كلامه قائلاً : يجب على طبيب إرساليات التبشير أن لا ينسى ولا في لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء ثم هو طبيب بعد ذلك (٢) .

أما الدكتور (تمباني) فبرغم ما واجهه من صعوبات كما يقول في التوفيق مهنتي التبشير والطب فقد نجح في تأسيس مستشفى للتبشير عن طريق الاكتتابات . وكان أول مكتب لهذا المستشفى التبشيري رجالاً مسلماً (٣) .

ويحرص المنصر (سمبسون) على أهمية وجود الطبيب المبشر إلى جانب المريض عندما يكون في حالة الاحتضار (٤) .

(١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٤١ .

(٤) المصدر السابق ص ٤١ .

وتحدثت المنصرة (أنا وستون) عن إرسالية التبشير الطبية في مدينة طنطا قائلة إن ثلاثين في المائة من الذين يعالجون في مستشفى هذه الارسالية من الفلاحين المسلمين وأكثرهم من النساء. وطريقة التبشير فيه أن يذكر الانجيل للمرضى بأسلوب بسيط لا يدعو إلى التطرف في المناقشة<sup>(١)</sup>. وفي ممباسة عني المبشرون بمعالجة امرأة مسلمة فاعتنقت النصرانية<sup>(٢)</sup>.

وفي بوغندة كذلك اعتنق اثنان من المسلمين النصرانية بعد أن عني المبشرون بمعالجتها<sup>(٣)</sup>.

وفي مستشفى أم درمان يطلب القائمون عليه من المرضى المسلمين أن يصلوا معهم صلاة الصبح<sup>(٤)</sup>.

ويقول الطبيب الأمريكي (بول هاريسون) في كتابه «الطبيب في بلاد العرب»: «إن المبشر لا يرضى عن إنشاء مستشفى ولو بلغت منافع ذلك المستشفى منطقة (عمان) بأسرها لقد وجدنا نحن في بلاد العرب لنجعل رجالها ونسائها نصارى»<sup>(٥)</sup>.

ثم إنهم فرضوا أن يكون الطبيب المبشر نسخة حية من «الانجيل» إن بإمكانه أن يغير الذين حوله ويجعل منهم نصارى حقيقيين أو أن يترك في نفوسهم أثراً عميقاً على الأقل<sup>(٦)</sup>.

وفي بلاد سوريا وفلسطين كان بالإضافة إلى وجود مراكز طبية أنشأها المنصرون يوجد أطباء جوالون يزورون القرى ويلاحقون الناقهين الراجعين إلى قراهم فيكرزوا فيهم<sup>(٧)</sup>.

وفي بلدة الناصر في السودان أنشأ المنصرون مستوصفاً وكانوا لا يعالجون المريض ابداً إلا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذي يشفيه هو المسيح<sup>(٨)</sup>.

أما في الحبشة فكانت المعالجة لا تبدأ قبل أن يركع المرضى ويسألوا المسيح أن يشفيهم.

ومن الحيل التي استعملها المنصرون في وادي النيل أنهم استخدموا ثلاثة مراكب وجعلوها مستوصفات نقالة على النيل . وكانوا يعلنون عن مجئ الطبيب قبل أن يصل بوقت طويل ، فيأتي

(١) المصدر السابق ص ٤١ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٩ .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٠ .

(٤) المصدر السابق ص ١٣٣ .

(٥) المصدر السابق ص ٥٩ .

(٦) المصدر السابق ص ٥٩ .

(٧) المصدر السابق ص ٦٠ .

(٨) المصدر السابق ص ٦٢ .



الناس من كل صوب يحملون مرضاهم ، وينتظر الجميع قدوم الطبيب . في هذه الأثناء يقوم فيهم من يبشر فرحاً بالجموع ، من غير أن يتحرك ضميره لهذه الآلام التي يتحملها المرضى في وضوح الشمس ومضض الانتظار عمداً وخداًعاً .

ومثل هذا كانوا يفعلون في بلدة الشيخ عثمان في اليمن . كان الناس يأتون من مكان بعيد يحملون مرضاهم ، وكان أولئك الأطباء ، الذين لم يضع الله في قلوبهم شيئاً من معاني الانسانية ، لا يبدؤون بعلاج المرضى إلا بعد أن يكرزوا <sup>(١)</sup> عليهم .

وحملت أم مرة طفلها المريض وجاءت به إلى مستوصف الناصر بالسودان ، ولكن الطفل مات في أثناء الطريق الطويلة ، فلم يعز الطبيب هذه الأم الثكلى بل جلس يكرز عليها <sup>(٢)</sup> .

لقد أدرك المنصرون أهمية الطب والعلاج في حياة الناس ، ولذا قالت واحدة منهم تدعى «إيرا هاريس» تنصح الطبيب المذهب بمهمة تنصيرية : «يجب أن تنتهز الفرص لتصل إلى أذان المسلمين وقلوبهم فتكرز لهم بالانجيل . اياك أن تضع التطبيب في المستوصفات والمستشفيات فإنه أضمن تلك الفرص على الإطلاق . ولعل الشيطان يريد أن يفتنك فيقول لك : إن واجبك التطبيب فقط لا التبشير فلا تسمع منه» <sup>(٣)</sup> .

وفي «طرابلس» كان هناك مستشفى أوربي تديره راهبات القديس يوسف ، وبه قسمان للرجال والنساء ، وقد لاقى تقدير واستحسان الأهالي هناك <sup>(٤)</sup> .

وذكر الدكتور «عبد الحليم عويس» احصائية لبعض ما يملكه المبشرون في الجانب الطبي والاجتماعي في أواخر القرن الرابع عشر ، فذكر أن المبشرين يملكون ٦٠٠ مستشفى للرجال والنساء ، ١٠٥٠ صيدلية توزع الدواء بالمجان ، ١١١ مجلساً طبياً ، ٩٣ جمعية للممرضات ، ٢٦٥ ملجأً أيتام ، و١٢٠ ملجأً للبرص ، ومثلها للصم والبكم ، و١١٥ مدرسة للمكفوفين ، و١١٣ مستوصفاً لمدمني الأفيون ، و٨٥ ملجأً للأرامل <sup>(٥)</sup> .

وكانت الظروف الصحية السيئة خاصة مناهجاً مناسباً للرساليات التنصيرية عملت على استغلاله لصالحها ، عبر مستوصفاتهما ومستشفياتهما وأطبائهما . هذا المستوى الطبي المتقدم في تلك

(١) يكرزوا بمعنى الدعوة إلى الإنجيل والنصرانية .

(٢) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٢ .

(٤) ليبيا أثناء العهد العثماني ص ١٢١ فرانسكرور . ترجمة خليفة محمد التليسي . دار الفرجاني - طرابلس - ليبيا .

(٥) المسلمون في معركة البقاء ص ٤٠ د . عبد الحليم عويس . دار الاعتصام . القاهرة . الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

الفترة كان له ولا شك أعظم الأثر في نفوس المرضى الذين أضناهم المرض ، وأعياهم السهر وفي نفوس ذويهم الذين تعبوا لأجلهم ، في زعزعة عقيدتهم وتشويش أفكارهم. وذبذبة ولائهم وبراءتهم.

أما الحالة الاجتماعية فكانت لا تقل سوءاً عن الحالة الصحية حيث كان الفقر والجهل والحرمان سمة بارزة للحياة الاجتماعية. ولم يفت المنصرين الاستفادة منها.

يقول القسيس « زويمر » في كتابه الذي يوجهه إلى الطلبة ، ويذكر لهم الأقاليم الخالية من المبشرين : «إن أكبر حجة كان المبشرون يدعمون بها أعمالهم التبشيرية منذ مائة سنة كانت لاهوتية دينية محضة ، أما الآن فقد أصبحت أعمالهم مشفوعة بأسباب اجتماعية. وكان ينظر في سابق الأيام إلى المبشرين نظر قوم يشنون حرباً صليبية ترمي إلى التنصير فقط فتحوّلت الأفكار وصارت الأعمال التبشيرية تشف عن فكرة الإصلاح الاجتماعي وعن رفع شأن الشعوب غير المسيحية لأن احتلال الأقاليم الخالية من المبشرين ناشيء عن أحوال هذه البلاد الاجتماعية المحرومة من يسوع المسيح والتي هي بالتالي خالية من كل بارقة أمل»<sup>(١)</sup>.

وحين كان الجهل مخيماً على البلاد الإسلامية حفز ذلك النصارى إلى نزول الأقاليم والمدن والقرى يقيمون المدارس وينشئون المعاهد لنشر التنصير وافساد عقائد المسلمين دون وجل تحت ظلام الجهل الدامس .

وعلى سبيل المثال كتب «بنيامين ماراي» مقالاً في مجلة العالم الإسلامي موضوعه : «شمالي نيجيرية ميدان للتبشير» استعرض فيه حالة تلك البلاد وما هي عليه من التأخر العلمي على الأخص ، إذ أن الذي يحسنون القراءة والكتابة أو شيئاً من الكتابة فقط ، لا يتجاوز اثنين ونصف بالمائة ثم قال: «وهذا يتيح فرصة عظيمة للتعليم التبشيري المسيحي»<sup>(٢)</sup>.

وربما اتخذ بعضها العلمانية وجهاً ظاهراً والتبشير وجهاً باطنياً. يقول نفر من المبشرين : «إن أهداف المدارس والكليات التي تشرف عليها الارسلالات في جميع البلاد كانت دائماً متشابهة . إن المدارس والكليات كانت تعتبر في الدرجة الأولى واسطة لتمرين قسس للكنيسة ..... حتى أن الموضوعات العلمانية التي تعلم ، من كتب غربية وعلى يد مدرسين غربيين ، تحمل معها الآراء النصرانية»<sup>(٣)</sup>.

(١) . الغارة على العالم الإسلامي ص ١٥٠.

(٢) التبشير والاستعمار ص ٧٠.

(٣) المصدر السابق ص ٦٦.

ويقول المنصر الأمريكي «جسب» : «إن المدارس شرط أساسي لنجاح التبشير ، وهي بعد هذا واسطة لا غاية في نفسها . لقد كانت المدارس تسمى بالاضافة إلى التبشير «دق الاسفين» وكانت على الحقيقة كذلك في إدخال الإنجيل إلى مناطق كثيرة ، ولم يكن بالامكان أن يصل إليها الإنجيل أو المبشرون من طريق آخر»<sup>(١)</sup>

ويرى بعضهم أن المدارس قوة لجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي أكثر من كل قوة أخرى . ثم إن هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة في أوطانهم»<sup>(٢)</sup> .

والصغار في سياسة المنصرين التعليمية الجهد الأكبر . يقول المنصر «جون موط» : «يجب أن نؤكد في جميع ميادين (التبشير) جانب العمل بين الصغار وللصغار . وبينما يبدو هذا العمل وكأنه غيرية ، ترانا مقتنعين لأسباب مختلفة بأن نجعله عمدة عملنا في البلاد الإسلامية . إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكراً جداً . من أجل ذلك يجب أن يحمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم الرشد وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية . إن اختبار الارساليات في الجزائر ، فيما يتعلق بهذا الأمر ، وكما ظهر من بحوث مؤتمر شمالي افريقية ، اختبار جديد ومقنع ... وهكذا نجد أن وجود التعليم في يد المسيحيين لا يزال وسيلة من أحسن الوسائل للوصول إلى المسلمين»<sup>(٣)</sup> . فإذا انضم إلى الجهل والامية أشكال من الفقر واليتم والتشرد كان ذلك فرصة عظيمة تفسح المجال أمام المنصرين .

كتب «ألر دوغلاس» مقالاً عنوانه «كيف نضم إلينا أطفال المسلمين في الجزائر» ذكر فيه أن ملاجئ قد أنشئت في عدد من أقطار الجزائر في شمال افريقية لإطعام الأطفال الفقراء وكسائهم وايوائهم أحياناً ، ثم قال : إن هذه السبيل لا تجعل الأطفال نصارى ، لكنها لا تبقيهم مسلمين كآبائهم» .

ومثل هذه الجهود يبذلها المبشرون في شمالي افريقية ومصر<sup>(٤)</sup> . وبقدر ما يعنى المنصرون بالصغار والمرحلة الابتدائية فإنهم يعنون كثيراً كما ظهر من كلامهم بالكليات والجامعات أو التعليم العالي . إذ منها يتخرج القادة والمفكرون . «والتعليم العالي عند المبشرين لا يقل أهمية عن سائر درجات التعليم ، ذلك لأنه يساعدهم على الوصول إلى الطبقات المثقفة ، بل لعله أهم منها كلها .

(١) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٦٨ .

(٤) المصدر السابق ص ١٩٤ .

ولقد أدرك المبشرون منذ زمن أن التبشير قد خاب لأن الأفراد الذين لفتهم المبشرون عن الإسلام إلى النصرانية كانوا قليلين ، ولم يكن لهم الأثر المنتظر. فلما اعتقدوا أن لا قدرة لهم على جعل المسلم نصرانياً أحبوا أن يجعلوا الآراء المسيحية تتسرب إلى المسلمين وإلى المثقفين منهم خاصة. ثم إنهم اعتقدوا أن هذه الآراء تتسرب بعدئذ من تلقاء نفسها إلى المجتمع الاسلامي. هذه الفكرة التي اقنعت المبشرين بضرورة انشاء المعاهد العالية في البلاد الإسلامية<sup>(١)</sup>.

ومن أشهر الجامعات التي أسسها المنصرون في الشرق الإسلامي الجامعة الأمريكية في «بيروت» التي خرجت الكثيرين ممن غسلت أدمغتهم إلى المناصب القيادية في أكثر البلاد العربية<sup>(٢)</sup>.

فجميع رؤسائها من المنصرين والقسس منذ أيام «دانيال بلس» إلى أيام «ستيفن بنروز»<sup>(٣)</sup>. وهذه نبذة عنها : أسس المنصرون البروتستانت كلية في «بيروت» عام ١٨٦٢م وجعلوا على رأسها «المستر دانيال بلس». هذه الكلية أصبحت فيما بعد : الكلية السورية الانجيلية عام ١٨٦٥م<sup>(٤)</sup> ثم أطلق عليها اسم الجامعة الأمريكية عام ١٩١٩م<sup>(٥)</sup>.

وقد اعتمدت الكلية السورية الانجيلية في تأسيسها على الرجال الذين يمولون التبشير وخصوصاً من الانكليز والاميركيين. أما عمل الكلية فيجب أن يكون وضع كتب مسيحية تساعد على الاتصال بملايين الناس في أسية وفي افريقية وعلى اسباغ النعمة (المسيحية) عليهم<sup>(٦)</sup>.

وفي الاجتماع المنعقد في الثلاثين من كانون الأول ١٨٦٣م بحضور قنصل الولايات المتحدة في بيروت «جونسون» قال المجتمعون : «نحن نصرُّ على الطابع التبشيري للكلية ، وعلى أن يكون كل أستاذ فيها مبشراً مسيحياً»<sup>(٧)</sup>.

هذه الجامعة يقول عنها المنصر الأمريكي «جسب» أوضح سياسة دينية وتبشيرية من سائر المدارس الأمريكية في الشرق ككلية روبرت في استانبول مثلاً. أما «رشتير» فقال عنها : إنها أرقى مدرسة في الامبرطورية العثمانية.

(١) المصدر السابق ص ٧٩.

(٢) حقائق ووثائق ص ٩١.

(٣) تولى الأول رئاستها سنة ١٨٦٢م واستمر فيها إلى عام ١٩٠٢م. أي حوالي أربعين عاماً. أما الثاني فقد رأس الجامعة من عام ١٩٤٨م إلى عام ١٩٥٤م.

(٤) يقظة العرب ص ١٠٨ جورج انطونيوس. نقلاً عن النولة العثمانية نولة إسلامية مفترى عليها ١٠٠/١.

(٥) التبشير والاستعمار ص ٩٧.

(٦) المصدر السابق ص ٩٦.

(٧) المصدر السابق ص ٩٧.

إن عمل الكلية التبشيرية يتناول المسلمين في الدرجة الأولى ، وهذا ما يجعلها بارزة في ذلك بين جميع المدارس الأمريكية في الامبراطورية العثمانية وإيران ، إذ هي التي تهيء المدرسين المبشرين للمدارس الأمريكية المنتشرة في الشرق كله <sup>(١)</sup>.

وقد تخرج منها عشرات من المفكرين والقادة والأدباء ، وقل من سلم منهم من غائلتها . وقد كانت تجبر جميع الطلاب على حضور الصلوات في الكنيسة كل يوم ، وتجبر الطلاب الداخليين خاصة على أن يحضروا صلاة يوم الأحد أيضاً <sup>(٢)</sup>.

ولما قام الطلاب المسلمون عام ١٩٠٩م باحتجاج على إجبارهم على الدخول إلى الكنيسة اجتمعت عمدة الجامعة وأصدرت منشوراً طويلاً جداً ، جاء في مادته الرابعة : إن هذه كلية مسيحية ، أسست بأموال شعب مسيحي : هم اشتروا الأرض وهم أقاموا الأبنية وهم أنشأوا المستشفى وجهازه ، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يسندها هؤلاء . وكل هذا قد فعله هؤلاء ليجدوا تعليماً يكون الانجيل من مواده ، فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ .. وإن كل طالب يدخل إلى مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقاً ماذا يطلب منه <sup>(٣)</sup>.

(١) المصدر السابق ص ٩٩.

(٢) المصدر السابق ص ٩٧.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٥.

ملاحظة : والغريب المؤلم حقاً هو قول المؤلفين بعد كل هذا الذي ذكر : وإن أحدنا ليعجب أن تكون الجامعة الأمريكية إلى اليوم أيضاً مسرحاً للتبشير ص ٧١ . وقولهما : على أن الغريب على أن الجامعة الأمريكية لا تزال إلى الآن تبشيرية ص ٩٩.

وقولهما : على أن استغرابنا قد زاد عام ١٩٤٨م ولم ينقص . إن الجامعة الأمريكية نعترف بأنها بدأت تبشيرية ثم تخلت عن التبشير في عصر القومية الواسعة والتسامح العظيم والتعاون الشامل . ولكن الدكتور ستيفن بنروز الرئيس الجديد للجامعة قد خيب ظنهما وأضاع آمالهما باصراره على الصيغة التبشيرية للجامعة ص ١٠٦.

وهذه الكبوة في اعتقادي جاءت من الظروف المحيطة بالكاتبين حيث أنهما من خريجي الجامعة المذكورة ، وإلا فكيف لئلهما أن يخذعا بأساليب المنصرين أو تتطلي عليهما دسائسهم . ولعل الكبوة الأخرى التي وقعا فيها ، وفاقته تلك هي تأثرهما بشعارات الوطنية والقومية ص ٢٥ ، ٢٧ ، وتحككهما الدائم بها ، ظناً منهما أن ذلك يدفع عنهما تهمة التعصب التي يطلقها النصارى ضد كل مسلم موحد ملتزم بالإسلام.

ومع أن ذلك التأثير لم يكن يتعارض مع ولائهما للإسلام وتصديهما لخدمته إلا أنه لم يسلم من الآثار السيئة : من ذلك قولهما حينما ذكرا إصرار القوميين العرب على إخراج العنصر الديني من جهاد الشعب الجزائري المسلم « لا ترى بعد هذا أن نمضى في الاستشهاد أو الاستنتاج للدلالة على أن الافرنسيين يحاربون الجزائريين كمسلمين في الدرجة الأولى ، ولكن هذا لا يمنع أحداً من قبول الجهود التي يبذلها القوميون في نصرة الجزائر ومن شكرهم عليها » . ص ١٧٨.

فأي جهود يا ترى بذلها القوميون حتى يشكروا عليها ، وهم الذين كفروا برباطة الإسلام ، وهم أعوان المستعمرين وعملاتهم إلا في النادر ، وهم سراق الثورة فيما بعد ، المحابون لله ورسوله والمؤمنين . ومن آثار اعتناء المؤلفين للقومية

ومن الجامعات التنصيرية أيضاً الجامعة الأمريكية في القاهرة التي كانت تسمى بالكلية الأمريكية أرادوا بها منافسة الجامع الأزهر<sup>(١)</sup>. وهناك كلية روبرت في استانبول «وهي كلية مسيحية غير متسترة لا في تعليمها ولا في الجو الذي تهيئه لطلابها ويقول «دانيال بلس» إن كلية بيروت<sup>(٢)</sup> وكلية استانبول ليستا أختين فقط بل توأمتان.

إن هذه الكلية قد أنشأها مبشر ولا تزال إلى اليوم لا يتولى رئاستها إلا مبشر<sup>(٣)</sup>. وكلية غوردن<sup>(٤)</sup> الانكليزية في الخرطوم . تأسست عام ١٩٠٢ م . وكلية جيرارد أو كلية الأميركان في صيدا<sup>(٥)</sup>. هذه بعض مؤسسات التعليم العالي التي أنشأها المنصرون الأمريكيون والانجليز. وليس الفرنسيون أقل توجهاً منهم. فقد أسسوا لهم كلية في لاهور<sup>(٦)</sup> إبان الاحتلال الانجليزي للهند. هذا عدا مؤسساتهم التي نثروها في الشرق.

---

والوطنية اصرارهما المتواصل والعجيب على جعل العداوة بين الغرب والإسلام سياسية واقتصادية لا دينية ص ٣٦ ، ص ٢٨ ، من ذلك قولهما : إن المعركة بين المبشرين وبين الأديان غير النصرانية ليست معركة دين ، بل هي معركة في سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية ص ٤٥ .

وهذه فكرة خاطئة أوجت بها إلى المؤلفين الظروف التي كانا يعيشان خلالها من هيمنة شعارات الوطنية والقومية والتسامح والحب التي دعا إليها نصارى لبنان خاصة فلتكن العداوة بين المسلمين والنصارى. إذن سياسية وليس دينية هروباً من الواقع، إذ سيصبح الموقف حرجاً حين يعلنان العداوة دينية لأنهم يعيشون والنصارى في بلد واحد وذلك يتنافى مع شعارات القومية السائدة هناك. ولتكن عداوة بين الغرب المستعمر والشرق المكافح ضد الاستعمار على اختلاف الطوائف والملل دون نظر إلى الدين.

ولسنا بحاجة لبيان تهافت هذا الرأي وفساد هذه الفكرة؛ إذ إن العداوة لا ريب دينية عقائدية في الصميم ، وما الصراعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلا صور لذلك الصراع الديني العنيف ، والقرآن والسنة والتاريخ والواقع يدل على هذا ، بل وكتاب المؤلفين نفسيهما المليء بأقوال قادة الغرب ومنصره يدل على ذلك. ومع ذلك فإن فكرة نزاع الدين من الصراع بين المسلمين والغرب لم تنشأ إلا في أذهان العلمانيين والقوميين، ولم يستفد من ورائها سوى الغرب النصراني عامة ونصارى العرب خاصة. وتكاد تكون هذه سمة غالبية على كثير من الكتاب والمفكرين المسلمين الذين يجاورهم النصارى في بلدانهم الذين رضخوا لضغط الشعارات القومية والوطنية - ولعل عنوان الكتاب فيه إشارة إلى ما قصده المؤلفان من نفي الصراع الديني بين الغرب والمسلمين ، وذلك من ربط التبشير بالاستعمار ، حيث يعتبران التبشير وسيلة فقط من وسائل الاستعمار التي استغلها في صراعاته السياسية والاقتصادية .

وبعد فإن هذه الملاحظات على أهميتها لا تغض من قدر هذا الكتاب إذ تبقى له مكانته وقيمه. إذ أنه يأتي مع كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» في مقدمة الكتب التي سبقت في ذلك الميدان العظيم ، ومع مرور الزمن عليهما فإن الباحث في شؤون التنصير لا يستطيع الاستغناء عنهما.

(١) المصدر السابق ص ٨٠ . (٢) يعني الجامعة الأمريكية.

(٣) المصدر السابق ص ٩٥ .

(٤) هو الحاكم الانجليزي العسكري للسودان. قتله أنصار المهدي الثائر عام ١٨٨٥ م بعدما سقطت الخرطوم على أيديهم.

(٥) المصدر السابق ص ١١٠ .

(٦) هي عاصمة مقاطعة البنجاب في باكستان اليوم.

لقد رعى الاستعمار هذه الجامعات والمؤسسات التنصيرية رعاية كاملة ، ومنحها حق الوجود والاستمرار . ولكن المؤسف هو أن تظل هذه الجامعات والمؤسسات باقية بعد رحيل الاستعمار ترعى مصالحه ، وتفتح الأبواب امام النفوذ الأجنبي على مصاريحها . وفوق ذلك تقوم بإفساد أبناء المسلمين وتسميم أفكارهم وزعزعة عقيدتهم .

وقد كفل الدستور العلماني في كثير من الدول الإسلامية البقاء والحرية لتلك الجامعات والمدارس ، وحين أرادت بعض تلك الدول ضمها وإلحاقها بالتعليم الرسمي في بلادها . لم يكن ذلك الضم إلا صورياً في الغالب ، وهنا تكمن الخطورة في اتخاذ ذلك غطاءً ، تنفذ من خلاله جميع مخططاتها ، وهي بعد ذلك آمنة من أية مؤاخذة . بل إن الكثير من هذه المؤسسات التنصيرية لتتحدى أنظمة هذه الدول ، ولا تتقيد بلوائحها ومناهجها ، وتصر على بقائها كما كانت تنصيرية خالصة تجاهر ذلك .

وقد أولت هذه المؤسسات التنصيرية عناية فائقة للتعليم النسوي لما للمرأة من دور خطير في تربية المجتمع واستقامته . يقول «جسب» «إن مدرسة البنات في بيروت هي بؤبؤ عيني لقد شعرت دائماً أن مستقبل سورية إنما هو بتعليم بناتها ونسائها . لقد بدأت مدرستنا ( للبنات ) ، ولكن ليس لها بعد بناء خاص بها . وها هي قد أثارت اهتماماً شديداً في أوساط الجمعيات التبشيرية»<sup>(١)</sup> .

إن المبشرين لم يتأخروا في فتح مدارس البنات . إن أول مدرسة للبنات في الامبراطورية العثمانية فتحها المبشرون عام ١٨٣٠م . ولقد فتح المبشرون مدارس كثيرة للبنات في مصر والسودان وسورية كلها وفي الهند والأفغان<sup>(٢)</sup>

ويفرح المبشرون اذا اجتمع في مدارسهم الداخلية بنات من أسر معروفة ، لأن نفوذ هؤلاء يكون حينئذ في بيئتهن أعظم . وتتكلم المبشرة «أنا ميليجان» فتقول : في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات ابائهن باشوات وبكوات وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي وليس ثمت طريق إلى حصن الاسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة<sup>(٣)</sup> . وليس غريباً أن يهتم المبشرون بالمرأة ، فالمرأة مدار الحياة الاجتماعية ، والوصول إليها بالتبشير وصول إلى الأسرة كلها بل إلى المجتمع كله . من أجل ذلك كانت جمعية الشابات المسيحيات بفروعها ، ومن أجل ذلك كانت المنازل والمعاهد التي يعدها المبشرون للفتيات خاصة .

(١) المصدر السابق ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٨٧ .

ويصفق المبشرون باليدين لأن المرأة المسلمة قد تخطت عتبة دارها. لقد خرجت إلى الهواء الطلق ، لقد نزعَتْ عنها حجابها. ولكنهم لا يصفقون لأن المرأة المسلمة قد فعلت ذلك ، بل لأن فعلها هذا يتيح للمبشرين أن يتغلغلوا عن طريق المرأة في الأسرة المسلمة بتعاليمهم التبشيرية. ولهذا السبب أخذ المبشرون منذ أمد يأتون بالنساء المبشرات ليتصلن بالنساء المسلمات وهم يصيحون : لقد سنحت لنا فرصة عظيمة<sup>(١)</sup>

إن الحالة الاجتماعية السيئة المملوءة بصنوف الفقر والعوز والحرمان قد أتاحَت المجال لهؤلاء المنصرين أن يستغلوا ذلك في سبيل تنصير المرأة المسلمة وإفساد دينها وخلقها.

جاء في مؤتمر قسطنطينية في الجزائر ما يلي : «إن الحاجة الملحة المستعجلة إنما هي إنشاء بيت أو بيوت للفتيات المطلقات وللأرامل الصغار. ويجب أن تكون هذه البيوت مؤسسات كبيرة ، بل أماكن يخيم عليها الجو العائلي ، ثم تفرق النساء فيها حسب أحوالهن وحاجاتهن. وكذلك مكث هؤلاء النسوة في تلك البيوت يجب أن يطول أو يقصر حسب المقتضيات الشخصية لكل واحدة منهن ، ثم إن كل فتاة يجب أن تعلم من الصناعات المحلية ما يمكنها العيش به بعد أن تغادر تلك البيوت».

وأخيراً «نرى أن أمثال هؤلاء النسوة يكن في أثناء مكثهن في هذه البيوت تحت تأثير الانجيل. ثم اننا نختار منهن أولئك اللواتي يرجى أن يمرن أكثر من سواهن ليكن بدورهن مبشرات بين قومهن»<sup>(٢)</sup>.

وقد نجح هؤلاء المنصرون في إفساد المرأة المسلمة وإن لم ينجحوا في تنصيرها ، وتواكب ذلك من حملات الغزو الفكري الشعواء التي وجهت إلى المرأة.

وكما كان للمنصرين اهتمام خاص بالصغار والمرأة فإن للشباب أيضاً أهمية عندهم لا تقل عن ذلك . فهم إن أفسدوا المرأة ، وأفسدوا الأطفال ، ثم أدخلوهم المدارس ليشكلوهم على النحو الذي يريدون ، ثم ضمنوا لهم من التعليم العالي ما يمسخ شخصياتهم وعقولهم ، فلا بد لهم من إشباع الجانب الترفيهي عند هؤلاء الشباب ، وتطوير ميولهم الشخصية كما يقولون . لذا سارعوا إلى إنشاء النوادي الرياضية وبيوت الشباب «وتضم هذه الأندية نشاطاً اجتماعياً مختلف الأنواع والألوان. هناك حفلات تقام، ومحاضرات تلقى ، وليالي أنس وسمر ، ومطاعم ، ومنامات يأوي إليها محبوا الاقتصاد وأسباب تسلية يغشاها الشباب.

(١) المصدر السابق ص ٢٠٣.

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٥.



على أن الذي تضمه هذه الأندية ليس أمراً مقصوداً لذاته ، أي أن عمدة هذا النادي لا يهتمها أن يأتي الناس ليتمتعوا بما في النادي من أسباب التثقيف والترفيه ، بل يهتمها أن تجتذب بهذه الأسباب أناساً يستمعون إلى صوت المبشر الانكليزي أو الأمريكي أو الافرنسي والهولندي أو ليجد حب الغرب طريقه إلى قلوب الشرقيين على الأقل»<sup>(١)</sup>.

أما بيوت الشباب التي تتبع لتلك الأندية فيأوي إليها في الغالب من تضيق في وجوههم سبل العيش من الشباب أو ممن لا بيوت لهم أبداً ، ويعتبرها النصارى حرباً صليبية مسيحية لما لها من تأثير كبير في عقول الشباب<sup>(٢)</sup>.

وبعد كل هذا فلعل المعادلة الغربية التي تلتبس على الكثيرين هي : أنهم كيف يفسرون تهالك العالم الغربي على نشر النصرانية في العالم عامة والإسلامي منه خاصة ، وهو عالم علماني متحرر من كل دين.

«إننا إذا تأملنا العالم الغربي وجدناه عالماً ملحداً لا يؤمن بدين ، وعالماً مادياً لا يعرف للروح معنى : إن امريكة التي تعبد الحديد والذهب والبترو - كما يقول أمين الريحاني - قد غطت نصف الأرض بمبشرين يزعمون أنهم يدعون إلى حياة روحية وسلام ديني. وبينما نرى فرنسا دولة علمانية في بلادها نجدها الدولة التي تحمي رجال الدين في الخارج. إن اليسوعيين المطرودين من فرنسا هم خصوم فرنسا في الداخل واصدقاؤها الحميمون في مستعمراتها. وكذلك إيطاليا ، التي ناصبت الكنيسة العدا وجزت البابا في الفاتيكان ، كانت تبني جميع سياستها الاستعمارية على جهود الرهبان والمبشرين»<sup>(٣)</sup>.

ولكي نعرف الحل الصحيح لتلك المعادلة ، لابد لنا أن نعرف حقيقة الدين النصراني كما يعيشه الغرب ويفهمه مفكروه وفلاسفته ويتعاملون معه. إن الغرب يؤمن بالدين ولكن بالمفهوم العلماني أي بفضله عن الحياة ، وعزله في زاوية صغيرة جداً لا تكاد تذكر في زحمة الحياة ومشاغفها كما قال أحدهم : «إن الانجليز إنما يعبدون بنك إنجلترا ستة أيام في الأسبوع ويتوجهون في اليوم السابع إلى الكنيسة»<sup>(٤)</sup>.

(١) المصدر السابق ص ٢٠٨.

(٢) المصدر السابق ص ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق ص ٣٤.

(٤) ماذا خسر العالم بالخطأ المسلمين ص ٢٠٣.

ومع ذلك فإن أوروبا لم تعرف الدين الصحيح أبداً ، ولم توفق إلى اعتناق ما جاء به المسيح - عليه السلام - من عقيدة وتعاليم ، وإنما عرفت صورة محرفة من صنع الكنيسة الأوربية ، لا صلة لها بالأصل المنزل ، الذي أرسل المسيح ليلفه لبني إسرائيل ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم ﴾ [٤٩ آل عمران] <sup>(١)</sup> .

يقول «دراير» : «دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرها بالنصرانية ، ولم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ، ولم يخلصوا له يوماً من الأيام ، وكذلك كان «قسطنطين» فقد قضى عمره في الظلم والفجور ، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلاً في آخر عمره (٣٣٧م) <sup>(٢)</sup> .

ويأتي على رأس هؤلاء المنافقين «بولس» اليهودي أو «شاول الطرسوسي» الذي وضع البذرة الأولى للتثليث <sup>(٣)</sup> . أو صاحب المسيحية الرسمية التي اعتنقها قسطنطين وأطبق الغرب على اعتناقها . بالإضافة إلى هذا التحريف الذي منيت به النصرانية واستمرت الكنيسة ترعاه وتزيده اتساعاً . كان للفلسفتين اليونانية والرومانية تأثير عميق على هذه الديانة المحرفة <sup>(٤)</sup> . فلما جاء العصر الحديث وقامت الثورتان الصناعية والفرنسية ارتدت أوروبا إلى الجاهلية الاغريقية الرومانية . فمن الاغريق (اليونان) ، أخذت عبادة العقل وعبادة الجسد في صورة جمال حسي . ومن الرومان أخذت عبادة الجسد في صورة متاع حسي ، وتزيين الحياة الدنيا بكل وسائل العمارة المادية إلى أن يستغرق الانسان في المتاع وينسى القيم التي تكون الإنسان <sup>(٥)</sup> .

فهذه الديانة المحرفة التي ابتليت بعدوى الوثنية ترضى من الأفراد بمجرد الانتساب لها ، والقيام ببعض الطقوس التي لا تكلفه عناءاً من الوقت أو من الجهد . بل إن رجال الدين النصراني لما ألهم عزوف رعاياهم عن تعاليم الكنيسة وطقوسها لجأوا إلى وسائل ترفيحية ، ولكن على حساب الأخلاق كالرقص المختلط عليهم يجدون لكنيستهم رواداً في ذلك الماخور العظيم ، حتى ولو كان ذلك يتعارض مع الدين <sup>(٦)</sup> .

(١) مذاهب فكرية معاصرة ص ٩ ، انظر تحريف الدين في الكتاب نفسه .

(٢) ماذا خسر العالم بالانحطاط المسلمين ص ١٨٥ وقد اعتنق قسطنطين النصرانية الوثنية عام ٣٠٦م

(٣) العلمانية ص ٣٦ .

(٤) التثليث والاطول أو تجسد الإله في شكل بشري والرهبانية وتقديس الصور ، واعتقاد الفداء والخلاص والواسطة بين الخالق والمخلوق كل هذه الانحرافات أخذت من وثنيتي اليونان والرومان . العلمانية ص ٣٠ ، ص ٣١ .

(٥) مذاهب فكرية معاصرة ص ٤٥٤ .

(٦) انظر قصة «الأب» النصراني الذي يقيم الرقص لقاصديه من الفتيان والفتيات بعد أداء الطقوس الدينية في الكنيسة في العلمانية ص ٥٠٠ .

وهكذا فلا يجد الكثير من الغربيين حرجاً في بقائهم متدينين نصارى بهذا الوضع المسوخ. وقد وصف الله أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالفسق في أكثر من موضع. فقال تعالى: ﴿منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ [آل عمران ١١٠] وقوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون﴾ [المائدة ١]. فإن انحراف هؤلاء النصارى وفسقهم يشيع النقمة في نفوسهم على المسلمين ودينهم، ويدفعهم إلى معاداتهم والكيد لهم. ومن ذلك محاولة تنصيرهم أو حتى زعزعة عقيدتهم وإفساد دينهم.

إن الغرب العلماني في صراعة مع الإسلام لا مناص له من اتخاذ موروث ثقافي وروحي في مقارنة الإسلام وذلك مع نضوب حضارته وجفاف علمانيته. هذا الموروث الذي يتكئ عليه الغرب في صراعه مع الإسلام هو الموروث الصليبي والحروب الصليبية التي كان يشعل فتيلها في القرون الوسطى القساوسة والرهبان ويتساعل الدكتور «عبد الحليم عويس» عن ذلك التناقض الذي يظهر في علمانية الغرب وإصراره على تنصير المسلمين، وحشده الامكانيات الهائلة في سبيل ذلك، وجيب على ذلك فيقول: «فما معنى هذا كله؟.. هل النصرانية مجرد بضاعة للتصدير؟ نعم إنها كذلك فعلاً... إنها مجن وواق من أخطار الزحف الإسلامي..، إنها ستار يراد منه أن يمنع شمس الإسلام من الظهور إنها تراث حضاري يرشح للوقوف في وجه تراث الإسلام وحضارته..

إنها - في أقل حياتها - صورة (دين) يمكن أن يحارب بها (دين) آخر.. حيث ثبت - تاريخياً - أنه لا يقف أمام الدين إلا الدين ولا يقل الحديد إلا الحديد.. والبقاء للأصلح في نهاية المطاف..»<sup>(٢)</sup>.

فلا يزال الغرب إلى يومنا هذا مع علمانيته الصارخة<sup>(٣)</sup> يتعامل مع الإسلام بالروح الصليبية الحاقدة. ولا يزال يصر على تنصير العالم الإسلامي بكل ما أوتى من وسائل وقوة فأمرىكا العلمانية في بلادها النصرانية بل التنصيرية في تعاملها مع المسلمين بلغت عدد مدارسهم التنصيرية في سوريا وحدها مائة وأربعاً وسبعين مدرسة، وذلك في عام ١٩٠٩م<sup>(٤)</sup>، ولو لم يكن للأمريكيين غير

---

(١) اقرأ تفسير الأستاذ سيد قطب رحمه الله لهذه الآية حيث ذكر أن عدم إيمان أهل الكتاب بما آمن به المسلمون وبما اتصفوا به من فسق كل ذلك يدفعهم إلى محاربة المسلمين بالحروب الصليبية تارة، وبالتنصير تارة أخرى وبالغزو الفكري تارات وتارات. وقد رد - رحمه الله - على من قال إن الحروب الدينية قد انتهت وإن الصراع اليوم لم يعد دينياً وإنما مادياً. كما رد - رحمه الله - على الدعوة إلى تقارب الأديان في وجه الإلحاد كما يقال.

في ظلال القرآن ٩٢٢/٢ وما بعدها.

(٢) المسلمون في معركة البقاء ص ٤٤.

(٣) اقرأ حول ذلك: ماذا بقي للدين في كتاب العلمانية ص ٤٩٢ وما بعدها.

(٤) التبشير والاستعمار ص ٧٨.

الجامعة الأمريكية في بيروت التي أسلفنا الحديث عنها لكفى به دليلاً على صليبيتهم وعدائهم للمسلمين.

فكم خدع السذج والمغلول وتخادع العلمانيون عن نصرانية الغرب وصليبيته بعلمانيته وتحرره وليس أشبه بهذا الانخداع وإن كان داخلياً ضمنه إلا الانخداع بالرحالة المنصرين واعتبار رحلاتهم كشوقاً جغرافية كانت خالصة للبحث والمعرفة ونفع بني الإنسان دون النظر إلى دين أو جنس. كما هو الحال مع «فاسكو داجاما»، و«ماجلان»، و«ليفنغستون»، وغيرهم من عشرات بل مئات الرحالة الغربيين الذين جاسوا خلال ديار الإسلام، منصرين، وجواسيس، وطلّاع للاستعمار. فماذا قال «فاسكو داجاما» حين قام برحلته من أوروبا إلى أقصى الشرق عبر رأس الرجال الصالح ذلك الطريق الذي كان معروفاً عند المسلمين.

لقد قال قوله المشهورة التي تكشف الهدف الحقيقي لهذه الرحلة: الآن طوقنا رقبة الإسلام ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق ويموت. ومع ذلك فإننا ندرسها لأبنائنا بتأثير الغزو الفكري أنها رحلة علمية، وكشف جغرافي عظيم<sup>(١)</sup>.

أما «ماجلان» قاهر البحار كما ندرس لطلابنا بتأثير من الغزو الفكري أيضاً<sup>(٢)</sup>. فقد دفع حياته ثمناً لإحدى رحلاته التنصيرية والتي قام بها إلى القلبين بعد أن أخذ إذن البابا ومباركته وحاول رفع الصليب على أرض المسلمين. ونحن ندرس لأبنائنا أن «المتبريرين» الذين لم يقدرُوا قيمة الرحلة الاستكشافية العظيمة قتلوه<sup>(٣)</sup>.

وأما «دافيد ليفنغستون» (١٨٨٣ - ١٨٧٣م) الرحالة أو على الحقيقة المنصر البريطاني الذي اخترق أواسط إفريقية من مرفأ سان بول دي لاوندا في أنغولا البرتغالية شرقاً إلى كيليمان عند مصب نهر زامبيسي في مضيق الموزمبيق تجاه مدغشقر شمال خط العرض العشرين غرباً. لم تكن رحلته المشهورة في تاريخ الاستكشافات الجغرافية إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية. لقد أراد ليفنغستون أن يستكشف طرقاً في إفريقيا للمبشرين لا للمدنية<sup>(٤)</sup>.

فهل يقال بعد هذا إن الغرب علماني لا يهتم بأمر الأديان وأن تلك الرحلات التي قام بها

---

(١) واقعنا المعاصر ص ١٨٩ ومما يؤسف له أن الذي قام بمساعدة ذلك الرحالة البرتغالي الصليبي هو البحار المسلم «ابن ماجد» الذي أمدّه بالمعلومات والخرائط، بل قاد بنفسه سفينته نحو جزر الهند الشرقية.

(٢) العلمانية ص ٦١١.

(٣) واقعنا المعاصر ص ١٨٩.

(٤) التبشير والاستعمار ص ٥١.

المنصرون والصليبيون كانت في سبيل العلم والمعرفة وإسداء النفع للبشرية؟!

إن الجهود التي يبذلها المنصرون برعاية دول الغرب ودعمها أكبر من أن يحدها الحصر ، أو يأتي عليها قلم . «ولا سبيل إلى احصاء ما كتبه المبشرون وأنصار المبشرين عن الشرق ولا عن العرب والإسلام ، فإن «شترايت وندنغر» قد أصدرنا بين عام ١٩١٦م وعام ١٩٣١م سبعة مجلدات ذكرا فيها أسماء المصادر والمراجع التي تدور حول المبشرين وجهودهم وتسهيل أعمالهم . ثم إن أكثر هذه الكتب مفصلة تفصيلاً كبيراً ، فإن الرسائل التي كتبها المبشرون من سورية والشرق الأدنى فقط إلى زملائهم بين عام ١٨٣٠م وعام ١٨٤٢م طبعت في ثلاثة عشر مجلداً من أصل ثمانية وثلاثين مجلداً .

ولما اجتمع مؤتمر التبشير العالمي في اندبره (في اسكوتلندة) عام ١٩١٠ أصدر تقريراً عن النواحي المختلفة التي يجب أن يهتم لها المبشرون ، تم طبعه في عشرة مجلدات . أما مؤتمر التبشير الدولي الذي اجتمع في القدس عام ١٩٢٨م مدة اسبوعين فقط . فقد وضع تقريراً في ثمان مجلدات . وهناك عشرات من أمثال هذه الكتب والتقارير قد ظهرت كلها في مجلدات عديدة ضخمة»<sup>(١)</sup> .

«أما المجلات التبشيرية التي صدرت في بلدان مختلفة فهي أكثر من أن يحصيها العد . أضف إلى ذلك أن ثمة في العالم كله جرائد ومجلات سياسية أو أدبية أو علمية لا تظهر عليها صبغة التبشير ، ولكنها في الحقيقة وسائل قوية من وسائل المبشرين»<sup>(٢)</sup> .

وفي الوقت الذي بدأ فيه الاستعمار الغربي يرحل عن بلاد المسلمين ظاهرياً ، ويعود أدراجه من حيث جاء . أخذ يمكن بعده للمؤسسات التنصيرية ، ويعمل على تثبيتها . بل إن النشاط التنصيري في العالم الإسلامي قد تعاظم وتفاقم بعد رحيل الاستعمار ، وكأئنا الغرب قد أزعجه انسحاب جيوشه العسكرية ، فأبدلها بجيوش هائلة من المنصرين .

ولنضرب على ذلك بمثال هو اندونيسيا<sup>(٣)</sup> تلك البلاد المسلمة التي استشرى فيها التنصير بشكل لم يعرف مثله في بلاد أخرى . يقول الدكتور رؤوف شلبي<sup>(٤)</sup> :

(١) المصدر السابق ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢ .

(٣) تقع اندونيسيا أو جزر الهند الشرقية أو بلاد الجاوى كما كان يسميها المسلمون في جنوب شرق آسيا وتبلغ مساحتها أكثر من ٢ مليون كم<sup>٢</sup> وتضم ١٣٦٧٧ جزيرة صغيرة منها ٦٠٤٤ جزيرة مأهولة . ويبلغ عدد سكانها أكثر من ١٥٠ مليون نسمة تمثل نسبة المسلمين حوالي ٩٦٪ ، و٢٪ نصارى والبقية وثنيون ، وهذه النسبة قد انخفضت بنسبة تصل إلى ١٠٪ بسبب الهجمة التنصيرية الوحشية على ذلك القطر المسلم .

انظر : حاضر العالم الإسلامي ص ٤٥٥ د . جميل المصري .

(٤) من دراسة له نشرت في مجلة الأزهر عام ١٣٩٩هـ .

«إن الخطر الذي يتهدد الإسلام ومستقبله في أندونيسيا بحق وحقيقة أت من سيطرة النصارى على مراكز العصب الحساس في أجهزة الدولة ، وأزمة الاقتصاد ، مما يذكرنا بسيطرة نصارى المستعمرين أيام أوج الاستعمار الهولندي<sup>(١)</sup> ، وإذا كان ذلك طبيعياً أيام الاستعمار فإنه من المفارقات جداً أن يستمر بعد ثلاثين سنة من الاستقلال<sup>(٢)</sup> . وهذه السيطرة قد خططوا لها منذ أمد طويل ، إذ أعدوا كوادرهم وأتاحوا لهم فرص التحصيل العلمي إلى أعلى المستويات في جامعات أندونيسيا وجامعات الخارج بما يؤمن لشبابهم من منح دراسية سخية . بينما أبناء المسلمين محرومون من تلك الفرص»<sup>(٣)</sup> .

ثم شرع يذكر بالتفصيل الوزارات والمراكز الحساسة التي يسيطر عليها النصارى ومن هذه الوزارات : وزارة الدفاع والأمن الداخلي والصحة والتجارة عدا عشرات المناصب الهامة الأخرى كإدارة الجوازات والهجرة التي تسهل دخول الارساليين ورجال الأعمال الفاتيكان وتعفى القسس ورجال الكنائس من رسوم تأشيرات الخروج الباهظة<sup>(٤)</sup> .

بل إن النصارى قد استولوا على مقاليد الحكم المحلي (اللامركزي) في أربع ولايات مع أن بعضها ذات أغلبية من المسلمين<sup>(٥)</sup> . ويسيطر النصارى على أغلب الأحزاب والتشكيلات السياسية كطائفة الجولكار<sup>(٦)</sup> والهيئة المركزية للحزب الديمقراطي الأندونيسي<sup>(٧)</sup> . كما يسيطرون على القطاع الاقتصادي سيطرة تكاد تكون تامة . إذ يمتلكون عشرات البنوك والشركات المنتجة<sup>(٨)</sup> .

وتشير إحدى الإحصائيات السرية لمجلس الكنائس العالمي إلى أن عدد المبشرين المتفرغين لذلك يبلغ ١٤ ألفاً في عام ١٩٨١م وأن عدد الكنائس يصل إلى ١٦ ألف كنيسة ، وأن ما أنفق على التبشير البروتستنتي في أندونيسيا وحدها يعادل ١٣٥ مليون دولار<sup>(٩)</sup> .

---

(١) استمر الاستعمار الهولندي في أندونيسيا أكثر من ثلاثة قرون ونصف . وارتحل عام ١٣٦٥هـ - ١٩٤٥م .

(٢) هذا الاستقلال ليس إلا ظاهرياً فقط ، شأنه في ذلك شأن بقية البلدان التي رحل منها الاستعمار ، كما ذكرنا ذلك عند حديثنا عن الاستعمار .

(٣) حقائق ووثائق ص ٤٩ .

(٤) المصدر السابق ص ٥٢ .

(٥) المصدر السابق ص ٥٧ .

(٦) كلمة الجولكار منحوتة من كلمتين باللغة الاندونيسية وهي جولونغان كاريا أي طائفة أصحاب الحرف وينضوي تحت مفهوم أصحاب الحرف كل من يحترف حرفة يعيش منها ، ولها ضريبة تتقاضاها من أتباعها .

(٧) المصدر السابق ص ٥٩ .

(٨) المصدر السابق ص ٦٠ .

(٩) حاضر العالم الإسلامي ص ٤٩٠ . د . جميل المصري .

كما يمتلكون أحدث وسائل النقل والمواصلات مثل طائرات الهليكوبتر وطائرات التشيستيا والأجهزة اللاسلكية<sup>(١)</sup>. وحسبك أنهم يمتلكون خمسين مطاراً خاصاً بهم<sup>(٢)</sup>.

لقد قرر المنصرون في مؤتمراتهم الذي عقدوه في مالانغ في جاوة الشرقية أنه يجب أن ينتهوا من تنصير سكان جزيرة جاوة خلال العشرين سنة المقبلة ، وأن ينتهوا من تنصير أندونيسيا كلها خلال خمسين عاماً القادمة. وقد نشرت مجلة (تايم) الأمريكية في عددها ١٩٨٢/٥/٣ م أن ٥,٦ مليون مسلم في أندونيسيا قد تحولوا إلى النصرانية<sup>(٣)</sup>. ومع ضخامة هذه الرقم وقضايته إلا أنه جاء نتيجة طبيعية لتلك الجهود الجبارة التي بذلها النصاري.

وبلغ من جرأة المنصرين ومجاهرتهم بالتنصير هناك إلى محاولاتهم تنصير الدكتور «محمد رشيدى» أول وزير للشئون الدينية في أندونيسيا المستقلة كما ذكر ذلك نفسه<sup>(٤)</sup>. ولما أعلنت نيجيريا عزمها على الانضمام إلى منظمة المؤتمر الإسلامي عام ١٩٨٦ م احتجت الهيئات التنصيرية لدى الحكومة النيجيرية<sup>(٥)</sup>. مع أن ذلك الانضمام لم يؤثر أبداً في النشاط التنصيري هناك ، ولكنه الحقد النصرائي الذي لا يعرف له حدود.

أما أفريقيا التي يطمح المنصرون إلى تنصيرها بالكامل فيبلغ عدد المنصرين فيها ١٠٤ آلاف ويعمل ٩٣ ألف رجل وامرأة ضمن لجان تطوعية لتوزيع الإنجيل، وفيها ١٦٦٧١ معهداً كنيسياً لمختلف مراحل التعليم ، كما تخضع ٥٠٠ جامعة أفريقية للكنيسة ، ومما يزيد عن ٤٨٩ مدرسة لاهوتية لتخريج المنصرين ، وتتفق الولايات المتحدة وحدها على الارساليات في افريقيا أكثر من ٦٠٠ مليون دولار سنوياً<sup>(٦)</sup>.

(١) المصدر السابق ص ٤٨٥.

(٢) حاضِر العالم الإسلامي ص ١٩٤، د. علي جريشة.

(٣) حاضِر العالم الإسلامي ص ٤٨٧ د. جميل المصري. وتشير بعض الاحصائيات إلى تناقص نسبة المسلمين من ٩٦٪ قبل الاستقلال إلى ٨٦٪ في حين ارتفعت نسبة النصارى البروتستنت والكاثوليك من ٢٪ إلى ٨,٨٪ في عهد الاستقلال.

(٤) الدكتور الحاج محمد رشيدى ، هو أحد مثقفي الرعيل الأول من الأندونيسيين الذين تخرجوا في الجامعات العربية ، تخرج من كلية الآداب بجامعة القاهرة ونال إجازة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة السوربون ، وأسند إليه كرسي الدراسات الإسلامية بجامعة (ماك جيل) بكندا. وقد رشح لمنصب مدير المركز الإسلامي بواشنطن ويتولى الآن كرسي الدراسات الإسلامية بجامعة أندونيسيا بجاكرتا ، كان أول وزير للشئون الدينية وعمل سفيراً لأندونيسيا في عدد من الدول العربية والإسلامية. حقائق ووثائق ص ٤١.

(٥) حقائق ووثائق ص ٨٤.

(٦) من إحصائية للدكتور عبد الحليم عويس ، نشرت في مجلة المجتمع ص ٣٥ ، عدد ١٠ شعبان ١٤٠٥ تحت عنوان (إحصائية افريقية) نقلاً عن : قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١٣٣.

وفي بعض الإحصائيات يوجد في إفريقيا وحدها ١١٩.٠٠٠ مبشر ومبشرة ينفقون بليون دولار في السنة<sup>(١)</sup>.

أما من حيث عدد العاملين في حقل التنصير فقد ذكرت مجلة الدعوة المصرية هذه الإحصائية : «يقدر عدد المنصرين في العالم الآن بحوالي ٢٢٠ ألف منصر ، منهم ١٣٨٠٠ من الكاثوليك و ٨٢.٠٠٠ من البروتستانت ، ومن بين هؤلاء وأولئك أكثر من ستة آلاف كاثوليك و ٣٢.٠٠٠ بروتستانت من الولايات المتحدة الأمريكية وحدها<sup>(٢)</sup> .

أما عدد العاملين من الأطباء والباحثين والاجتماعيين المعاونين للمنظمات التنصيرية فقد تجاوز ١٧ مليوناً ، وهناك ٣٠٠ جامعة ومعهد تعمل في مجال تدريب وتخريج المنصرين وإرسالهم إلى مناطق مختلفة من العالم<sup>(٣)</sup> .

ولم يكتف المنصرون بغزو العالم الإسلامي بعقائدهم الباطلة الفاسدة إنما سعوا جاهدين إلى تنصير المسلمين المغتربين الموجودين في الدول الغربية ، فقد أعلنت المنظمة العالمية للتنصير عن بدء خطة للعمل في تنصير المهاجرين المسلمين من العرب والأفارقة.

وقد قال رئيس هذه المنظمة إنه ينبغي عدم الاكتفاء بالدعوة ضد الإسلام في ديار المسلمين ، وإنما يجب محاربة الإسلام في نفوس المسلمين الذين هاجروا إلى أوروبا للعمل فيها حيث يوجد في أوروبا الغربية وحدها ١٠ مليون مسلم ، ويعيش معظمهم في بريطانيا وفرنسا وألمانيا الغربية واستطرد يقول : إن الفرصة كبيرة لتنفيذ خطة تنصير هؤلاء المسلمين عن طريق فتح الصدور والبيوت أمامهم واستقبالهم بالمودة والكرم ، وعلينا أن نبدأ نشاطنا بدعوتهم للخروج من الإسلام ، وعلينا أن ندرك أن هؤلاء المسلمين المقيمين في ديارنا هم هبة الله لنا ، وما علينا إلا أن نتقبلها من الله ونعمل في صفوفهم لتحقيق هذه الرسالة<sup>(٤)</sup> .

نشرت مجلة «لافيد» الإيطالية تقريراً منسوباً إلى «دائرة تنصير الشعوب» في روما . يقول هذا التقرير : إن عدد المدارس والمعاهد التي تشرف عليها هذه الدائرة قد بلغ ٥٨.٠٠٠ ثمانية وخمسين ألف مدرسة ، و ٢٦.٠٠٠ ستة وعشرين ألف معهد وجامعة ، وقد بلغ عدد المدرسين العاملين في

(١) حقائق ووثائق ص ١٥٥ .

(٢) الدعوة المصرية ، ص ٤٠ عدد ذي الحجة ١٤٠٢ هـ . نقلاً عن المصدر السابق ص ١٢٨ وفي إحصائية أخرى قدر عدد المنصرين بـ ٢٥٠.٠٠٠ ألف منصر ، ص ٢٨ من كتاب أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية للدكتور عبد الوهيد شلبي ، الدار السعودية للنشر والتوزيع . جدة . الطبعة السادسة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

(٣) المصدر السابق ص ١٢٨ .

(٤) من تقرير د. عبد الحليم عويس وإحصائيته السابقة . نقلاً عن قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها ص ١٢٣ .



المدارس التابعة لهذه المؤسسة ٤١٧,٠٠٠ أربعمائة وسبعة عشر ألف مدرس ومدرسة. ويقول هذا التقرير : إن ميزانية الكنيسة الكاثوليكية في أسبانيا قد بلغ في عام واحد : ١١٧,٠٠٠,٠٠٠ مائة وسبعة عشر مليون دولاراً أمريكياً ، وأن مؤسسة واحدة تدعى «روماسيا» قدمت إلى الكنيسة ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ ثمانين مليوناً لها»<sup>(١)</sup>.

إن الظروف السيئة التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم خصوصاً منها ما سببته الحروب والمجاعات من تزايد عدد اللاجئين والجائعين ساعدت النشاط التنصيري على توسيع دائرة نشاطه. يقول «ريموند جويس» : «إن أوضاع العالم الإسلامي مؤاتية لنا بأكثر من أي وقت مضى ، بسبب التمزقات والاضطرابات التي تسود»<sup>(٢)</sup>.

وإن الغرب النصراني ليشتن في هذه الأيام حرباً سافرة على الإسلام والمسلمين يقودها المنصرون والقسس ، ويخطط لها البابا والفاثيكان الذي يمتلك ثروة خيالية. «لقد قدرت بعض الصحف الأوروبية هذه الثروة بأكثر من مائة وثلاثين بليوناً ... أي ثروة أكثر من مائة وثلاثين ألف مليون من الدولارات نقداً وعقاراً وشركات وبنوكاً»<sup>(٣)</sup>. أما دعم الحكومات الأوروبية للمشاريع التنصيرية فهو جزء من مخططها الاستعماري القديم الذي يمهد لنفوذها ، ويحقق مصالحها.

وأما الولايات المتحدة الأمريكية فتعد حاملة لواء التنصير ورافعة الصليب في العالم أجمع وفي العالم الإسلامي خاصة. وما تنفقه في مجال التنصير أمر لا تحده الأعداد أو تقف عنده الأرقام.

إن الحملات التنصيرية التي تجتاح العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه لتلاحق اللاجئين والجائعين والنساء والأطفال والشيوخ ، وتساهم الملايين من المسلمين على ترك دينهم من أجل لقمة العيش التي لا تتجاوز في كثير من الأحيان رغيفاً من الخبز ، أو حفنة من الأرز. إن تلك الحملات لهي جيوش الاستعمار الصليبي الجديد الذي يتخفى وراء هيئات الإغاثة ومنظمات اللاجئين.

وما إن تحل كارثة ببلد إسلامي - وما أكثر الكوارث - حتى تسارع هذه المنظمات التنصيرية أو تلك الجيوش الصليبية المقنعة للاستحواذ على هذا البلد المنكوب لتنصيره وإفساده. وما يحدث الآن

---

(١) حقائق ووثائق ص ٨٣. وللعلم فإن كل هذه الإحصائيات قد أخذت قبل سنوات تقدر على الأقل بعشر سنوات. وهي في ازدياد مستمر.

(٢) أفيقوا أيها المسلمون ص ٢٨.

(٣) أفيقوا أيها المسلمون ص ١٢٢.

في الصومال من تكالب الهيئات التنصيرية لهو أكبر دليل على هذا . وكذلك ما يحدث في البوسنة والهرسك حيث يباع أطفال المسلمين إلى الهيئات الأوربية التنصيرية بأبخس الأثمان لتتفث فيهم حقدًا مسموم ، وتقوم برعايتهم لينشأوا نصارى حاقدين .

إن هذه الحرب التنصيرية الشرسة التي تشعل أوارها دول الغرب والتي لم تلق مقاومة من جانب الدول الإسلامية للأسف الشديد إلا في القليل النادر - بل إن بعض الحكومات الإسلامية توافق على النشاط التنصيري في بلادها بل تدعو إليه صراحة كما قال «ريموند جويس»<sup>(١)</sup> :

إن هذه الحرب جزء من صراع النصرانية الحاكمة مع الإسلام . ولا يمكن الظفر فيها أو حتى إيقافها إلا بعودة الأمة إلى دينها وتطبيقه في حياتها تطبيقاً كاملاً . حتى يعود الإسلام كما كان ممكناً في الأرض . ويصبح الواقع الإسلامي الصحيح هو الداعي الأول لهذا الدين ، عندئذ تتقهقر النصرانية ويندحر الصليب ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا .

وفي خاتمة المطاف لا بد لنا من أن نشير إلى أمر ذي بال ، هو سوء الأحوال الدينية الذي لولاه ما فكرت الإرساليات التنصيرية في غزو العالم الإسلامي فضلاً عن أن تحقق لها نجاحاً . وحسبنا أن نعرف أنه في حين كانت هذه الإرساليات تغزو البلاد الإسلامية ويتنقل المئات من المنصرين بين هذه البلدان كان هناك آلاف من الصوفية يطوفون الأقاليم ويرتلون من بلد إلى آخر لنشر طرقهم . وفي غمرة معتقدات الصوفية المنحرفة يفسح المجال لكل طارق خبيث ، وعدو متريص . وهل كان يمكن بعد كل الأحوال العقدية والدينية التي فصلنا القول عنها في الباب الأول أن تعي الأمة بتلك الهجمة التنصيرية الشرسة أو أن تعد العدة لمقاومتها؟! .

\* \* \*

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨ .

دبىب الرابع

الصلاة الإسلامية  
وآفاق المستقبل

# الصحة الإسلامية وآفاق المستقبل

ويتكون من فصلين

الفصل الأول : أثر حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله  
في العالم الإسلامي

الفصل الثاني : الصحة الإسلامية في العصر الحاضر

## الفصل الأول

أثر حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه  
الله في العالم الإسلامي

## أثر حركة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» رحمه الله في العالم الإسلامي<sup>(١)</sup>.

لقد أذن الله سبحانه وتعالى بظهور دعوة الإمام المجدد الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» في منتصف القرن الثاني عشر الهجري<sup>(٢)</sup>. بعد ما أطبقت الجهالة على الأرض ، وخيمت الظلمات على البلاد ، وانتشر الشرك والضلال والابتداع في الدين ، وانطمس نور الإسلام ، وخفي منار الحق والهدى وذهب الصالحون من أهل العلم فلم يبق سوى قلة قليلة لا يملكون من الأمر شيئاً. واختفت السنة وظهرت البدعة ، وترأس أهل الضلال والأهواء. وأضحى الدين غريباً والباطل قريباً. حتى لكأن الناظر إلى تلك الحقبة السوداء المدلهمة ليقطع الأمل في الإصلاح ويصاب بياس قاتل في أية محاولة تهدف إلى ذلك.

ولكن الله عز وجل قضى بحفظ دينه وكتابه وسنة نبيه ﷺ ، وكان من رحمته تبارك وتعالى بهذه الأمة أن يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه<sup>(٣)</sup>.

فكان الشيخ الامام «محمد بن عبد الوهاب» بتوفيق الله عز وجل هو مجدد القرن الثاني عشر الهجري وهو أمر في حكم المتفق عليه<sup>(٤)</sup>.

(١) كان عنوان هذا الفصل في خطة الرسالة هو : الحركات الإسلامية وتأثيرها بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، ولكنني أثرت العنوان الحالي ، وبقراءة الفصل تعرف أسباب العنول عن العنوان القديم إلى العنوان الجديد.

(٢) ولد رحمه في بلدة العيينة سنة ١١١٥ هـ ، وأعلن الدعوة بعد وفاة أبيه عام ١١٥٣ هـ وكان قبل ذلك يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وكان ذلك في بلدة حريمل. ثم انتقل إلى العيينة التي أزره أميرها عثمان بن معمر أول أمره ، وهناك باشر الشيخ الدعوة الفعلية ، حيث قام بقطع الأشجار التي كان الناس يتبركون بها هناك ، وهدم قبة زيد بن الخطاب رضي الله عنه رغم شدة المعارضة التي قضت عليها مؤازرة الأمير.

وكان رجم المرأة المحصنة التي أقرت بالزنا بعد ذلك إشهاراً لأمر الشيخ في البلدان مما ألب عليه أمير الأحساء سليمان بن محمد الحميدي الذي أرسل إلى ابن معمر يتهدد ويتوعد بقطع الخراج عنه إن لم يقتل الشيخ ، فانتقل الشيخ إلى الدرعية عام ١١٥٨ هـ ، وهناك حدث اللقاء التاريخي مع أمير الدرعية محمد بن سعود وتم التعاقد بينهما على نصره الدعوة مهما كلفهما الأمر. وبذلك دخلت الدعوة ميدان الصراع الحقيقي ، وصار لها دولة ومنعة وكيان ، وطار ذكرها في أرجاء العالم - واستمر الشيخ رحمه الله يدعو ويغزو ويجاهد في سبيل الله ، ويدرس ويفتي ويقضي إلى أن أقر الله عينه بانتشار دعوته ، وظهور أتباعها ، فقبضه الله إليه سنة ١٢٠٥ هـ فرحمه الله رحمة واسعة ، وأجزل الله له المثوبة والأجر ، ولن جاهد معه ، ودعا بدعوته ، إلى يوم الدين.

(٣) حديث صحيح رواه أبو داود برقم ٤٢٩١. في كتاب الملاحم، وهو في صحيح أبي داود برقم ٣٦٠٦.

(٤) انظر من قال من العلماء بهذا في كتاب : عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي ص ١٠ - ١١ للدكتور صالح بن عبد الله العبود. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. إحياء التراث الإسلامي. الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ.

ويمكننا القول إن دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» رحمه الله تعد البداية الحقيقية لما حدث في العالم الإسلامي من يقظة جاءت بعد سبات طويل . وما تمخض عنها من صحوة مباركة ورجعة صادقة إلى الدين.

إن الدعوة السلفية التي دعا إليها الإمام المجدد «محمد بن عبد الوهاب» في القرن الثاني عشر الهجري لم تكن سوى الدعوة التي نادى بها المصلح العظيم والإمام المجدد شيخ الإسلام «ابن تيمية» رحمه الله في القرن الثامن الهجري . وهي نفس الدعوة التي أؤذي من أجلها امام أهل السنة والجماعة «أحمد بن حنبل» رحمه الله في القرن الثالث الهجري ، وهي تعنى باختصار الرجوع إلى الإسلام كما أنزل على الرسول الكريم ﷺ ، وفهمه الصحابة والتابعون وتابعوهم من أهل القرون المفصلة عقيدة وشريعة وسلوكاً .

وهي الدعوة التي تكفل الله بحفظها ووعد من حملها بالظهور والنصر إلى قيام الساعة مهما خذلها المتخاذلون وخالفها الخصوم والمناوئون . وأخبر بذلك سيد المرسلين محمد ﷺ في الحديث الصحيح : « لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، وهم ظاهرون على الناس »<sup>(١)</sup> . ولا زال أتباعها في كل عصر ومصر يقومون بحملها وتبليغها للناس كل بحسب طاقته<sup>(٢)</sup> ، غير أن الله عز وجل بارك في جهود شيخ الإسلام «ابن تيمية» وتلامذته الأعلام كـ «الحافظ ابن القيم» و«الحافظ الذهبي» و«الحافظ ابن كثير» و«الحافظ ابن رجب» وغيرهم رحمهم الله أجمعين . وكانت دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» من كبار الثمار لتلك الجهود الطيبة المباركة التي بذلها شيخ الإسلام وتلامذته الكرام وأتت أكلها بعد حين .

وليس من شأن بحثنا أن نخوض في تفصيل دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» أو نحاول أن نستقصى جهوده وأعماله ، فقد كتب عنه الكثير من المؤلفات<sup>(٣)</sup> . ولكن الذي يعيننا في هذا المقام هو

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب ، برقم ٣٦٤١ (الفتح ٦/٦٣٢) . ومسلم برقم ١٠٣٧ كتاب الإمارة ٢/١٥٢٤ ، وهو حديث ثابت مستفيض عن الصحابة ، كما قال الشيخ ناصر الدين الألباني في السلسلة الصحيحة ١/٤٧٩ .

(٢) انظر مبحث غربة العقيدة الصحيحة في هذه الرسالة لترى بعض من حملها في الفترة التي تقوم بدراستها وأؤذي من أجلها ص

(٣) منها على سبيل المثال : محمد بن عبد الوهاب . لأحمد بن عبد الغفور عطار . داعية التوحيد محمد بن عبد الوهاب لعبد العزيز سيد الأهل . سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبد الوهاب لأمين سعيد . الشيخ محمد بن عبد الوهاب للشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي . الشيخ محمد بن عبد الوهاب . حياته وفكره للدكتور عبد الله الصالح العثيمين . الإمام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب في التاريخ . عبد الله بن سعد الرويشد . الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب حياته ودعوته للدكتور عبد الله بن يوسف الشبل . محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفكرى عليه . مسعود عالم النوي . هذا عدا المصادر الأصلية مثل تاريخ ابن غنام وتاريخ ابن بشر وتاريخ ابن عيسى . أما الرسائل الجامعية فقد كتب فيه على سبيل

ذلك الأثر العظيم الذي أثمرته تلك الدعوة المباركة في العالم الإسلامي. وسنحاول بيان ذلك بإيجاز شديد لما له من ارتباط وثيق بموضوع الصحوة الإسلامية الذي نحن بصددته فنقول : إن من الخطأ بادئ ذي بدء أن نقف بالأثر العظيم الذي أثمرته دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» عند زمن معين أو بلد معين أو جماعة إسلامية معينة ، فإن ذلك لا يمكن أن يفي بحقها ، أو يوضح بجلاء أثرها ، مع ما في مخالفة بعض ذلك للواقع ، كما سيتبين عند حديثنا حول ما قيل عن تأثر كثير من الدعوات الإصلاحية بها.

فالدعوة السلفية كان أثرها العظيم يظهر تدريجياً مع توالي السنين والأيام ، فإن أثرها لا زال في تعاضلها وازدياد بالرغم من زوال دولتها الأولى عام ١٢٣٤ هـ ومناوأة الكثيرين لها على طول تاريخها. ولسنا نعني بالأثر أكثر من عودة الكثيرين إلى المنهج السلفي ، وانتشار عقيدة السلف بين شباب الصحوة وانحسار الشرك والبدع والخرافات إلى حد كبير . فهذا هو الأثر الحقيقي للدعوة الذي يجدر التحدث عنه ، والإشادة به.

ولو لم يكن للدعوة من أثر إلا انتشار مؤلفات الشيخ وأتباعه بين الشباب خاصة. لكفى بذلك نجاحاً وأثراً. فكيف إذا ضم لها الفضل بعد الله - عز وجل - في نشر مؤلفات شيخ الإسلام «ابن تيمية» وتلامذته في العصر الحاضر ، لقد أغفل كثير ممن تصدى لدراسة أثر دعوة الشيخ في العالم الإسلامي أمراً هاماً وحقيقة ساطعة عند حديثهم عن هذا الأثر ، تمثل ذلك في إغفال الأحوال الدينية السيئة والانحرافات العقدية التي أطبقت على العالم الإسلامي ، وكادت لولا عناية الله أن تخنق هذه الدعوة في مهدها.

إن من يطالع بعض هذه الدراسات القيمة فيقرأ عن أثر الدعوة في العالم الإسلامي ليخرج بنظرة ناقصة ونتيجة غير صحيحة حين لا ينطبع في فكره إلا الحديث عن أثر الدعوة في العلماء والحركات والدول<sup>(١)</sup>. وكأن الأحوال الدينية قد تحسنت ، واستقامت ، والانحرافات العقدية قد زالت ، ولا أريد أن أقول إنه قد بولغ في الحديث عن أثر الدعوة واستجابة الناس لها ، ولكن إغفال الجوانب المظلمة ، رغم كثرتها والتركيز على الجوانب المضيئة ، رغم قلتها ، لا يعطي نظرة كاملة ولا تصوراً صحيحاً.

---

المثال : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي. رسالة دكتوراه للدكتور أحمد عطية الزهراني من قسم العقيدة في جامعة أم القرى. وعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي. رسالة دكتوراه للدكتور صالح بن عبد الله العبود . من قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . وغيرها .

(١) انظر على سبيل المثال : دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي. للدكتور أحمد عطية الزهراني وعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي. للدكتور صالح بن عبد الله العبود.



لقد رأينا من خلال دراستنا الطويلة في هذه الرسالة التي كشفت لنا حقيقة الأوضاع في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين أن الأمة الإسلامية كانت في أسوأ مراحلها التاريخية ، وأن أمر الدين قد وهي جداً . وأن الانحرافات قد عظمت والأحوال قد تردت .

وعند ظهور دعوة الشيخ في منتصف القرن الثاني عشر الهجري ، كان أمر الجهل والشرك والبدع والتصوف قد استفحل في البلدان . ورأينا كيف غدت عقيدة السلف محاربة من قبل السواد الأعظم ، وغريبة بين الناس ، قد تألب ضدها الحكام والعامة والعلماء والجهال . وأن تهمة الوهابية كانت تعني عندهم إهدار الدم والمال أو السجن أو النفي وحرق الكتب . لقد كان أمر الدعوة ضعيفاً وأثرها محدوداً في بداية أمرها ، وما زال أمرها في تقو وأثرها في اتساع إلى هذه اللحظة . ولكن تلك الانحرافات العقدية والأحوال الدينية السيئة التي تفاقمت مع توالي القرون كانت من الضخامة والانتشار ما يجعل من إزالتها في فترة وجيزة أمراً غير ممكن على الإطلاق . بل إنه لولا رحمة الله ولطفه عز وجل لاستطاع أعداء الدعوة المتكالبون عليها من كل مكان أن يقضوا عليها قضاء مبرماً .

فكيف يتسنى بعد ذلك إغفال هذه الانحرافات التي لم تكن الدعوة بالنسبة لها سوى شعلة مضيئة في وسط بيداء مظلمة . فتركيز الحديث عن الشعلة المضيئة لا ينفي أنها واقعة في ظلمات بيداء قاحلة .

نعم لقد كان أثر الدعوة كبيراً في نجد وما حولها . أما في الحجاز أو مصر أو المغرب أو العراق أو الشام أو الهند فلم يكن بالطبع قوياً كما رأينا في الباب الأول من هذه الرسالة .

فليس كل بلد يذكر فيه عالم أو عالمان من العلماء يؤمنان بالدعوة وينافحان عنها يصح أن يقال عنه إن الدعوة أثرت فيه تأثيراً جيداً<sup>(١)</sup> . كيف يقال هذا وعشرات من العلماء والفقهاء والمتصوفة بل مئات منهم كانوا يناصبون الدعوة العداء ، وتنساق خلفهم جماهير الدهماء ، وغالب الحكام والسلطين . ومن ذكر من المتأثرين بالدعوة لا يعدو أن يكون طريداً غريباً إلا في القليل النادر وكثير من هؤلاء الذين قيل إنهم تأثروا بالدعوة كانوا يتوخون منهج السلف ويحاولون ترسم خطاهم ، قبل أن تبلغهم الدعوة كما هو الحال مع الامامين «الصنعاني والشوكاني»<sup>(٢)</sup> .

(١) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٦٤٧ .

(٢) يقول الامام الصنعاني رحمه الله من قصيدته التي بعث بها إلى الامام المجدد محمد بن عبد الوهاب :

سلام على أهل الحديث فإنني      نشأت على حب الأحاديث من مهدي  
هم بذلوا في حفظ سنة أحمد      وتنقيحها من جهدهم غاية الجهد

وقوله منها :

إن الأثر العظيم في نظري ليس في وجود عالم أو أكثر في بلد قليل إنه قد تأثر بدعوة الشيخ فذلك أمر مهما حاول أحد أن يستوعبه يظل محدوداً إلى جانب المخالفين الذين يربونهم أضعافاً مضاعفة. ولكن الأثر جاء بعد ذلك يتسع مع الأيام ، ويقوى مع الأعوام ليأخذ المنهج السلفي مكانه المرموق في فكر الصحوة الإسلامية. وما زلنا ننتظر أن يتسع هذا الأثر ليشمل فكر الصحوة بالكامل إن شاء الله تعالى. وإن غداً لناظره قريب.

لأبد من بيان الصعوبات التي واجهت وما تزال تواجه الدعوة السلفية. والتركيز على ضخامة الانحرافات. أما أن نسلك الطريقة المعهودة التي درج عليها الكثيرون ممن كتب عن دعوة الشيخ فنذكر الحالة الدينية قبل الدعوة فنغرق في وصفها بالانحراف والجهل ثم نعطف بدعوة الشيخ والجهود العظيمة التي بذلها. ثم نختم بآثرها في العالم الإسلامي. دون أن نشير إلى أن الانحرافات ما زالت موجودة ومن الضخامة بمكان فتلك طريقة لا تؤدي إلى نتيجة صحيحة على أقل تقدير.

ويتصور القارئ لأول وهلة أن هذه الدعوة قد قضت على جميع الانحرافات ، وهذا بالطبع غير صحيح . وهذه هي القضية الأولى حول أثر دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» لا ينبغي أن نقف به عند زمن معين أو بلد معين ، وليس لنا بعد ذلك أن نغفل الانحرافات الدينية التي ما زالت عقبة كؤوداً في طريق نهوض الأمة وعودتها إلى منزلة القيادة الربانية للعالم . ونعود ونقول : إن الأثر العظيم الذي أحرزته الدعوة هو تبوء المنهج السلفي مكانة مرموقة في فكر الصحوة الإسلامية وانتشاره يوماً بعد يوم.

أما القضية الثانية فهي ما قيل عن تأثر الدعوات الإصلاحية بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» وهي قضية تستحق منا وقفة لنخرج من ذلك بنتيجة صائبة.

فقد دأب كثير من المؤرخين المحدثين على نسبة كثير من حركات الإصلاح ودعواته في تأثرها إلى دعوة الشيخ . ومن هؤلاء « خير الدين الزركلي » ، حيث يقول عند ترجمته للإمام «محمد بن عبد الوهاب»: «وكانت دعوته وقد جهر بها سنة ١١٤٣هـ (١٧٣٠م) الشعلة الأولى لليقظة الحديثة في العالم الإسلامي كله : تأثر بها رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها . فظهر «الألوسي الكبير» في بغداد ، و«جمال الدين الأفغاني» بأفغانستان ، و«محمد عبده» بمصر ، و«جمال الدين

القاسمي» بالشام ، و«خير الدين التونسي» بتونس ، و«صديق حسن خان» في بهوبال ، و«أمير علي» في كلكتة ، ولعت أسماء آخرين ...»<sup>(١)</sup>

ويقول غيره عن حركة الشيخ : «وفي نظرنا لو تم لهذه الحركة مسيرها لتغير وجه التاريخ في الشرق الأدنى ، ومع أن قوتها السياسية قد زالت زمناً ما فقد فتحت أفقاً جديداً للمسلمين في كافة أنحاء العالم الإسلامي ، فنكاد لا نجد حركة من حركات الإصلاح إلا كان مرجعها ما نادى به «محمد ابن عبد الوهاب» في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر»<sup>(٢)</sup>.

وتقول «الموسوعة الميسرة» : «لقد تركت هذه الدعوة بصماتها وآثارها على حركات الإصلاح التي قامت في العالم الإسلامي بعد ذلك كالمهدية والسنوسية ومدرسة الأفغاني و«محمد عبده» في مصر وحركات أخرى في القارة الهندية»<sup>(٣)</sup>.

ولا أعرف مستنداً حقيقياً يمكن لهذا الكلام أن يستند عليه. فهل حدث فعلاً أن تأثر بدعوة الشيخ من ذكرهم «الزركلي» وعدهم من رجال الإصلاح. وهل رجعت جميع حركات الإصلاح التي ذكرت إلى دعوة الشيخ. وهل صحيح أن حركات البعث الإسلامي التي تلتها ما هي إلا صدى لهذه الحركة وامتداد طبيعي لها. وأن امتدادها الفكري قد أمد جميع الحركات الإسلامية بمدد لا ينفد<sup>(٤)</sup>. ويا ليت بعض هؤلاء قد قدم دليلاً واحداً على تأثر هؤلاء المنسوبين إلى الإصلاح وهذه الحركات المنسوبة إلى الإصلاح بدعوة الشيخ. من كلامهم أو من كلام أتباعهم أو من كلام مؤسسي هذه الجماعات والحركات. بل إننا نجد ما يخالف ذلك تماماً في كثير من الأحيان ، ويدحض هذه المقولة ، لأن كثيراً من هؤلاء الرجال وكثيراً من هذه الحركات تختلف مع دعوة الشيخ في العقيدة والمنهج. فكيف يصح أن يقال بعد هذا إن هذه الدعوات قد تأثرت بدعوة الشيخ أو أنها امتداد طبيعي لها.

ف«جمال الدين الأسد آبادي» المشهور بالأفغاني<sup>(٥)</sup>. الذي لا زال الغموض يكتنف شخصيته

(١) الأعلام ٢٥٧/٦.

(٢) دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ص ٢١. د. محمد بديع شريف وزملاؤه . نقلًا عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٤١٧ .

(٣) الموسوعة الميسرة ص ٢٧٨.

(٤) الثقافة الإسلامية. المستوى الرابع. ص ١٦٩ الأستاذ مصطفى كامل. جامعة أم القرى. مكة المكرمة.

(٥) من أسد آباد قرب همذان في إيران ولم يكن أفغانياً من أسعد آباد (من أعمال كابل بأفغانستان) كان شيعياً وليس حنفيّاً سنياً وإيرانياً وليس أفغانياً على ما كان يزعمه وعلى ما هو مشهور حتى الآن بين الناس.

انظر : دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام ص ١٩٩ - ٢٢٥ مصطفى فوزي بن عبد اللطيف غزال. دار طيبة. الرياض. الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

والسرية تحوط معظم تصرفاته كان ذا علاقة مريبة باليهود والنصارى والمرتدين. وصلة وثيقة بالمحافل الماسونية ، بل رئيساً لأحدها وهو محفل كوكب الشرق في القاهرة. وهو ما ذكره الشيخ «محمد رشيد رضا». وقال عنه «سليم العنجوري» في شرح ديوان (سحر هاروت) عند ترجمته له : إنه سافر إلى الهند وهناك أخذ عن علماء البراهمة والإسلام أجل العلوم الشرقية والتاريخ ، وتبحر في لغة السانسكريت أم لغات الشرق. وبرز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدمية العالم ، زاعماً أن الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكونة بترق وتحويل طبيعيين ما نراه من الأجرام التي تشغل الفضاء ويتجاذبها الجو ، وأن القول بوجود محرك أول حكيم وهم نشأ من ترقى الإنسان في تنظيم المعبود على حسب ترقيه في المعقولات»<sup>(١)</sup>.

ووصف الشيخ «رشيد رضا» الأفغاني بأنه كان يميل إلى وحدة الوجود ، التي يشتبه فيها كلام الصوفية بكلام الباطنية ، وقال إن كلامه في النشوء والترقي يشتبه بكلام «داروين»<sup>(٢)</sup>.

وسيرته وتنقلاته وتصرفاته تذكر بأهداف الباطنية وأساليبهم ، كما قال الدكتور «محمد محمد حسين»<sup>(٣)</sup>. فكيف يقال بعد ذلك أنه من دعاة الإصلاح ، أو أنه قد تأثر بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب».

أما تلميذه الشيخ «محمد عبده» ومفتي مصر والصديق الأول للمندوب السامي<sup>(٤)</sup> على مصر اللورد «كرومر» الذي نعاه يوم موته ، وقال عنه : «والأيام وحدها هي التي ستكشف عما إذا كانت الآراء التي تعتنقها المدرسة التي تزعمها الشيخ «محمد عبده» سوف تستطيع التسرب إلى المجتمع الإسلامي ، وأنا شديد الرجاء في أن تنجح في اكتساب الأنصار تدريجياً ، فلا ريب أن مستقبل الإصلاح الإسلامي في صورته الصحيحة المبشرة بالآمال يكمن في هذا الطريق الذي رسمه الشيخ «محمد عبده» ، وإن أتباعه ليستحقون أن يعاونوا بكل ما هو مستطاع عن عطف الأوروبي وتشجيعه»<sup>(٥)</sup>.

ويقول عنه الشيخ «مصطفى صبري» : «أما النهضة الإصلاحية المنسوبة إلى الشيخ «محمد عبده» فخلاصتها أنه زرع الأزهر عن جموده على الدين ، فقرب كثيراً من الأزهرين إلى اللادينيين

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٤٢. وقد رمى بالإلحاد في الأستاذة على أيدي علمائها من أجل قوله إن النبوة صناعة مكتسبة ، واتهمه بعض علماء الأزهر بالإلحاد ومنهم الشيخ عليش. انظر : دعوة جمال الدين الأفغاني ص ٣٢٥.

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام ١/٧٩. دعوة جمال الدين الأفغاني ص ٣٤٢ ، ص ٣٤٥.

(٣) الإسلام والحضارة الغربية ص ٨٠.

(٤) هكذا كانوا يطلقون عليه. ولكنه كان هو الحاكم الأول لمصر ، ولم تكن سلطة الخديوي بجانبه إلا اسمية فقط.

(٥) من تقرير كرومر السنوي الذي كتبه بمناسبة وفاة محمد عبده. الإسلام والحضارة الغربية ص ٨٩.

خطوات ، ولم يقرب اللادينيين إلى الدين خطوة ، وهو الذي أدخل الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه «جمال الدين الأفغاني» ، كما أنه هو الذي شجع «قاسم أمين» على ترويج السفور في مصر»<sup>(١)</sup> .

ويقول عنه وعن شيخه الأفغاني : «فلعل الشيخ «محمد عبده» وصديقه أو شيخه «جمال الدين» أراد أن يلعبا في الإسلام دور «لوثر وكلفن» زعمي البروتستانت في المسيحية<sup>(٢)</sup> ، فلم يتسن لهما الأمر لتأسيس دين حديث للمسلمين ، وإنما اقتصر سعيهما على مساعدة الإلحاد المقنع بالنهوض والتجديد»<sup>(٣)</sup> .

وأفضل ما يقال عن الشيخ «محمد عبده» من خلال منهجه العقلاني الذي أراد به أن يوفق أو يقرب بين الإسلام وبين الحضارة الغربية : «أنه كان يريد أن يقيم سداً في وجه الاتجاه العلماني ، يحمي المجتمع الإسلامي من طوفانه ولكن الذي حدث - كما يقول «حوراني» في كتابه «الفكر العربي في عصر الحرية» (ARABIC THOUGHT IN THE LIBERAL AGE) - هو أن هذا السد أصبح قنطرة للعلمانية ، عبرت عليه إلى العالم الإسلامي ، لتحتل المواقع واحداً تلو الآخر ، ثم جاء فريق من تلاميذ «محمد عبده» وأتباعه ، فدفعوا نظريات واتجاهاته إلى أقصى طريق العلمانية»<sup>(٤)</sup> .

فكيف يعد بعد ذلك مصلحاً دينياً أو يكون متأثراً بالدعوة السلفية التي دعا إليها الإمام المجدد «محمد بن عبد الوهاب» . وهو مع تمهيد الطريق أمام الأفكار التغريبية التي حاول أن يلبسها ثياب الإصلاح وبالتالي استحق عليها لقب «المصلح» إن وضعناه في مصاف علماء الدين كان معتزلاً متطرفاً ، تظهر اعتزاليته أو عقلانيته في تأويلاته المشهورة للملائكة والجن والطيور الأبابيل وخلق آدم<sup>(٥)</sup> . فأي تأثير بعد كل هذا يمكن أن يقال .

أما «خير الدين التونسي» فيقول في مقدمة كتابه «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» : إنه قد تدبر أحوال الأمم وأسباب تقدمها وتأخرها ، فأنتهى إلى أن رسم طريق الإصلاح والرفق بالمسلمين لا يتأتى إلا بالنظر في أحوال الأمم الأخرى ، وما جرى عليها من أسباب التقدم»<sup>(٦)</sup> .

(١) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ١٣٢/١ نقلاً عن الإسلام والحضارة الغربية ص ١١١ .

(٢) كان الأول ألمانيا والثاني فرنسياً ظهرا في القرن السادس عشر الميلادي ، ودعا إلى إصلاح الكنيسة وتكون من أرائهما الإصلاحية ما عرف بالذهب البروتستانتى . انظر محاضرات في النصرانية ص ١٧٧ ، ص ١٨٢ .

(٣) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ١٤٤/١ نقلاً عن الإسلام والحضارة الغربية ص ١١٢ .

(٤) الإسلام والحضارة الغربية ص ٨٧ . وانظر العلمانية ص ٥٧٩ .

(٥) العلمانية ص ٥٧٥ .

(٦) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ص ٩ . نقلاً عن الحضارة الغربية ص ٣٥ .

« وتفكير خير الدين واضح وصريح فيما يذهب إليه من أن الحصول على أسباب القوة السياسية والحربية والاقتصادية لا يتيسر إلا بتغيير نظم المجتمع الإسلامي والاقتباس من النظم الأوربية .... وهو يرى وجوب الأخذ بالنظام الديمقراطي الغربي ، الذي يقوم على مسؤولية الوزارة أمام مجلس نيابي منتخب، ويبرر ذلك بما ورد من نصوص شرعية في وجوب المشاورة ويجري في كل كلامه وفي أثناء حجاجه على أن أعضاء المجالس النيابية يقابلون أهل الحل والعقد عند المسلمين...»<sup>(١)</sup> فأين أثر دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» في مثل تلك الآراء!!

نعم قد يكون كل من «جمال الدين القاسمي» و«صديق حسن» قد تأثر بدعوة الشيخ كما ظهر ذلك واضحاً في مؤلفاتهما كتبنيهما للعقيدة السلفية ودعوتهما إليها. وإن كان ذلك التأثر أشد وضوحاً عند «القاسمي» من «صديق حسن»، ظهر ذلك من أتباع الأول لعقيدة السلف في تفسيره المشهور «محاسن التأويل» فلم يكذبها<sup>(٢)</sup>. ومخالفة الثاني لها بوقوعه في بعض التأويلات الكلامية. غير أن ذلك لا يمنع من انتسابه إلى علماء المذهب السلفي<sup>(٣)</sup> ، وأن يكون قد تأثر بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» ، خصوصاً إذا علمنا أنه قد جرت بينه وبين بعض مشايخ الدعوة عدة مكاتبات ، ورحل بعضهم إلى بهوبال لأخذ الحديث عن علمائها ، ومنهم «صديق حسن خان» رحمه الله<sup>(٤)</sup>.

وأما «الآلوسي» فقد كان اتجاهه صوفياً ، ومال في تفسيره المشهور «روح المعاني» إلى التفسير الإشاري الذي يتبعه كثير من الصوفية حتى عد تفسيره من ضمن كتب التفسير الإشاري<sup>(٥)</sup>. ومال في تفسيره لآيات الصفات إلى مذهب الأشعرية ، ونقل كثيراً من بحوث «الرازي» حولها. ولم يوافق عقيدة السلف إلا في مسألة أو مسألتين<sup>(٦)</sup>. فكيف يقال إنه تأثر بدعوة الشيخ وهو دائم الانتصار للمذهب الأشعري ، ولو أدى ذلك به إلى لمز أئمة السلفية<sup>(٧)</sup>.

(١) الإسلام والحضارة الغربية ص ٣٦.

(٢) انظر : المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات ٢٢٧/١ محمد عبد الرحمن المغراوي. دار طيبة للنشر والتوزيع. الرياض. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٣) المصدر السابق ٢٠٤/١.

(٤) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٦٧٦. ومن الغريب في الأمر أن المؤلف لم يذكر عند حديثه عن أثر الدعوة في الشام علامة دمشق الشيخ جمال الدين القاسمي.

(٥) التفسير والمفسرون ٣٦١/١ د. محمد حسين الذهبي. دار إحياء التراث العربي.

(٦) المفسرون بين التأويل والإثبات ٢٤١/٢.

(٧) المصدر السابق ٢٤٢/٢.

ولو كان «الزركلي» ذكر ابن أخيه الشيخ العلامة «نعمان خير الدين الألوسي» الشهير بابن الألوسي (المتوفى سنة ١٣١٧هـ) صاحب الكتاب الرائع «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين»<sup>(١)</sup> أو حفيده العلامة «محمود شكري الألوسي» (المتوفى سنة ١٣٤٢هـ) صاحب كتاب «غاية الأمان في الرد على النبهاني» لكان ذلك جديراً بالقبول. وهما كتابان كما ترى يدافعان من خلالهما عن عقيدة السلف ، ويدودان عن أئمتها وعلمائها. ويقارعان المبتدعين لأجلها. ومن قرأ سيرتهما وتمعن في ترجمتهما رأى أثر الدعوة السلفية واضحاً في مصنفاتهما بادية في آثارهما. رحمهما الله رحمة واسعة.

ولا ندري على أي شيء اختار «الزركلي» أبعد الأسرة الألوسية عن عقيدة السلف ، ليذكره مثلاً على أثر الدعوة في العراق ، وترك من هو أقربهم إليها فعلاً ، ومتأثر بها ، وعرف منافحاً عنها ، وأوذى من أجلها<sup>(٢)</sup>.

وكون بعض هؤلاء الذين ذكرهم صاحب «الأعلام» قد أنكروا بعض ما أنكره الشيخ من بدع ومحدثات فإن إنكارهم لم يكن صدقاً لتأثرهم بدعوة الشيخ بقدر ما كان صدقاً لتوجههم الغربي ، ولهزيمتهم النفسية أمام الحضارة الغربية التي تكفر بعالم الغيب جملة وتفصيلاً. كما وقع لخير الدين التونسي ومحمد عبده على سبيل المثال . ونأتي الآن إلى الجماعات الإصلاحية التي ذكر أنها متأثرة بدعوة الشيخ إن لم تكن امتداداً لها كما مر معنا من قبل.

يرى بعض الباحثين أن في دعوة الشيخ عاملين أساسيين هما :

العامل الأول : الهدف والغاية هو الإصلاح

العامل الثاني : المنهج الذي سلكه في الإصلاح

«وبهذين العاملين أو بأحدهما يمكن أن يكون الأثر في الحركات الإصلاحية التي أعقبت حركة الشيخ»<sup>(٣)</sup> وعلى ضوء ذلك أورد الباحث بعض الجماعات والحركات التي تكون قد تأثرت بدعوة الشيخ إما في الهدف والغاية وإما في المنهج والسييل وإما بهما جميعاً<sup>(٤)</sup>.

ونقف مع العامل الأول وهو الهدف والغاية الذي هو الإصلاح. فنقول إن كلمة الإصلاح كلمة

---

(١) يعني أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية شيخ الإسلام الذي تهجم عليه بالغواية والباطل أحمد بن حجر المكي. ففند المؤلف اتهاماته ، وكشف أباطيله.

(٢) انظر : ما وقع للعلامة محمود شكري الألوسي لأجل إنكاره على أهل البدع. في مبحث : غربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها في الباب الأول من هذه الرسالة ص

(٣) دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٤٢١.

(٤) كالمهدية والسنوسية وحركة الشيخ عثمان بن فودي وحركة الشيخ أحمد بن عرفان.

مطاطة استخدمت بكثرة في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين من قبل فئات كثيرة. لذا كان لا بد من تحديد معالم هذا الإصلاح. ولا يكفي أن تكون الغاية هي الإصلاح. بمعنى أن كل من نادى بإصلاح الأوضاع يكون مصلحاً. فكل فئة وكل أصحاب فكر وعقيدة يدعون الإصلاح حتى المنافقين. ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ [البقرة ١١، ١٢].

والتغريبيون من أمثال السلطان «محمود الثاني» و«محمد علي باشا» الذين سبق أن تحدثنا عنهما. هدفوا من إجراء سياساتهم وتنظيماتهم إلى الإصلاح. ولكن أي إصلاح. إصلاح على الطريقة الغربية!! يرمي في غايته إلى استبدال القوانين الغربية بالشرعية الإسلامية. و«جمال الدين الأفغاني» و«محمد عبده» هدفاً إلى الإصلاح واعتبرا مصلحين عظيمين. ولكنه إصلاح على حساب المعتقدات الدينية، ولصالح الاستعمار والغرب.

والقوميون العرب من نصارى وغيرهم كانوا يسعون إلى الإصلاح حسب منهجهم وقاوموا الترك وحاربوهم لأجل ذلك. فلا بد من تحديد مفهوم الإصلاح الذي هدفت إليه جميع الحركات الإصلاحية واعتبرته غاية لها.

فالإصلاح مصطلح قرآني. قال تعالى على لسان نبيه شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت. وما توفيقي إلا بالله. عليه توكلت وإليه أئيب﴾ [هود ٨٨] ومعناه: «الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذي يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه، وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصي، ويضيع بعض الفرص. فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرصة القذرة، ويعوض عنها كسباً طيباً ورزقاً حلالاً، ومجتمعاً متضامناً متعاوناً لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام»<sup>(١)</sup>. وهو إصلاح على منهج الأنبياء يعرف أن نجاحه متوقف على توفيق الله عز وجل والتوكل عليه. وفوق ذلك الرجوع إلى الله عند السير في خطواته والعمل من أجل تحقيقه.

فلا بد إذن أن يكون الإصلاح على منهج الأنبياء وبالتحديد على منهج الرسول ﷺ الذي قام بأعظم إصلاح عرفته البشرية في تاريخها الطويل. وجنى ثماره المسلمون رداً من الزمن تقدماً وقوة وحضارة وما واجب أي حركة إصلاحية أو مصلح ديني إلا الرجوع إلى ذلك الإصلاح العظيم ومحاولة إحيائه من جديد.

(١) في ظلال القرآن ٤/١٩٢١.



ومن هنا كان المنهج السلفي الذي تبناه الإمام المجدد «محمد بن عبد الوهاب» في قيامه بحركته الإصلاحية لم يكن إلا عودة صادقة إلى المنهج النبوي الذي ابتعد المسلمون عنه كثيراً بسبب الانحرافات التي فصلنا القول فيها.

ومن هنا نقول إن الإصلاح ما استهدف الرجوع بالأمة إلى ما كان عليه الرسول ﷺ والقرون المفضلة في العقيدة والعبادة والسلوك والمعاملة بالوسائل المشروعة. وباختصار شديد ما كان على المنهج السلفي. وأي عدول عن ذلك المنهج فلا يؤدي إلى اصلاح حقيقي يرضى الله عز وجل ، ويتحقق من خلاله مصالح البلاد والعباد.

ونأتي الآن إلى ما ذكره الباحث من تأثر الحركات الإصلاحية فنقول إنه لا بد أن تكون الحركة متأثرة بدعوة الشيخ في العاملين اللذين ذكرهما معاً في الغاية والهدف وفي المنهج الذي سلكته هذه الحركة في الإصلاح. أما أن يكون التأثير بواحد منهما دون الآخر وهو ما سار عليه الكثيرون فذلك أمر لا يصح.

وقد سبق أن ذكرنا أن الإصلاح كلمة مشتركة استعملها أناس كثيرون وجماعات متعددة. ولا يكفي أن تكون الغاية هي الإصلاح ما لم يكن ذلك على منهج السلف الصالح. وبسبب هذه القاعدة الخاطئة التي سلكها الكثيرون وقعت نتائج خاطئة. كاعتبار الحركة المهدية دعوة إصلاحية فضلاً عن أن تكون متأثرة فعلاً بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» رحمه الله<sup>(١)</sup>. وهي الحركة التي أسست بادئ ذي بدء على الانحراف ، وأقيمت على شفا جرف هار من الكذب والابتداع والخرافة.

وقد ذهب «الموسوعة الميسرة» إلى اعتبارها من أبرز حركات الإصلاح الإسلامي<sup>(٢)</sup>. وإلى أنها متأثرة بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» في ضرورة الأخذ من الكتاب والسنة مباشرة ، وفتح باب الاجتهاد ، ومحاربته لبناء القبور<sup>(٣)</sup>.

واعتبار المهدية من أبرز حركات الإصلاح الإسلامي خطأ فادح لا ريب نتج عن الخلط والجهل بمفهوم الإصلاح ، وأغرب منه اعتبارها متأثرة بالدعوة السلفية ، فليس كل من دعا إلى الكتاب

---

(١) دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٤٢٦ حيث اعتبرها دعوة إصلاحية ، وص ٤٧٠ حيث اعتبر ما قام به المهدي ذا علاقة وثيقة بدعوة الشيخ من حيث العمل على الإصلاح. وهذا أثر بالهدف وهو الإصلاح كما يقول ص ٤٧١ وقد بينا خطأ هذا فيما سبق. مع أن الدكتور أحمد الزهراني حفظه الله قد انتقد المهدية بأمر كثيرة تجعل ما ذهب إليه من تأثرها بدعوة الشيخ أمراً مستبعداً. ولكن إصرار الكثيرين ممن كتبوا عن آثار دعوة الشيخ على ربط كل حركة وثورة لبست ثوب الدين بحركة الشيخ جعل ذلك كحقيقة مسلمة عند أغلب الباحثين.

(٢) الموسوعة الميسرة ص ٤٦٥ ومع انتقادها للحركة المهدية فقد اعتبرتها حركة إصلاحية.

(٣) المصدر السابق ص ٤٧٠.

والسنة بشكل عام يعتبر مصلحاً . ودعوى الكتاب والسنة قديمة حرصت كثير من الفرق الضالة على التستر بها . بل لا بد من شرط جوهرى لقبول هذه الدعوى وهو أن الأخذ من الكتاب والسنة يكون وفق منهج السلف . فهل فعل المهدي ذلك ! حتى نقول إنه متأثر في ذلك بدعوة الشيخ ، وما فعله المهدي من دعوة إلى الأخذ مباشرة من الكتاب والسنة لا تختلف كثيراً عن دعاوى المتصوفة والمتكلمة والتمذهبة في كل عصر ومصر من أنهم يتلقون علومهم مباشرة من الكتاب والسنة وأنهم يصدرون عنهما في كل أقوالهم وعقائدهم .

ولكن المعيار الصحيح في ذلك أن يكون ذلك التلقي حسب المنهج السلفي لا منهج آخر ولا ندري بعد هذا ما هو الاجتهاد الذي دعا المهدي إلى فتح بابه ؟ وتأثر في ذلك بدعوة الشيخ <sup>(١)</sup> هل هو الاجتهاد الشرعي في ضوء الكتاب والسنة ! أم هو اجتهاد من نوع آخر كما وقع فعلاً حيث كان اجتهاد المهدي يخدم ثورته ويدعم دولته قبل أي شيء آخر .

ومن تلك الاجتهادات أو شئت أن نقول الضلالات . تكفيره لمن خالفه أو شك في مهديته ولم يؤمن

---

(١) في الحقيقة لم أجد نصاً واحداً دعا فيه الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو أحد من أبنائه أو تلامذته إلى فتح باب الاجتهاد صراحة . ولم يدع أحد منهم الاجتهاد المطلق ، ولكن المتمعن يرى أنهم كانوا يرون الاجتهاد باقياً وإن لم يناقشوا هذه القضية كما فعل العلامة محمود شكري الألويسي في «غاية الأمانى في الرد على النبهاني» الذي شنع على من يقول بسد باب الاجتهاد . وقد ذكر الألويسي في معرض رده على الزائغ النبهاني الذي رعى الشيخ وأتباعه بأنهم ادعوا الاجتهاد جهلاً منه وضلالاً فقال :

إن نسبة دعوى الاجتهاد إلى الوهابية .. افتراء وكذب وبهتان عليهم . فإن أهل نجد كلهم على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه ، مقلدون له في قروع الأحكام ، وموافقون له في أصول الدين وعقائده وقد صرح الشيخ محمد بذلك في كثير من رسائله ، وهو لم يدع الاجتهاد ، ولا دعا أحداً من الناس إلى تقليده . غاية الأمانى ٦٠/١ .

ويقول الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد في رسالته التي كتبها لما دخلوا مكة سنة ١٢١٨ فاتهم : ولا نستحق مرتبة الاجتهاد المطلق ولا أحد لدينا يدعيها إلا أننا في بعض المسائل إذا صح لنا نص جلي من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا مخصص ولا معارض بأقوى منه وقال به أحد من الأئمة الأربعة أخذنا به وتركنا المذهب كأثر الجد والأخوة فإننا نقدم الجد بالأثر وإن خالف مذهب الحنابلة . ويقول أيضاً رحمه الله : ولا مانع من الاجتهاد في بعض المسائل دون بعض فلا مناقضة لعدم دعوى الاجتهاد وقد سبق جمع من أئمة المذاهب الأربعة إلى اختيارات لهم في بعض المسائل مخالفة للمذهب الملتزمين تقليد صاحبه . عقيدة الشيخ ص ٢٢١ .

وفي ظني أن الهجمة الشرسة التي شنها المبتدعة والمقلدة المتعصبون على أهل الدعوة جعلتهم يحجمون عن مناقشة هذه القضية الخطيرة صراحة ، وينفون نسبة الاجتهاد إليهم مكتفين بتلميحات تدل على بقاء الاجتهاد كتلك التي أوردناها . وقد ذكرت الموسوعة الميسرة ضمن ما جاءت به الدعوة السلفية أنها دعت إلى فتح باب الاجتهاد بعد أن ظل مغلقاً منذ سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ص ٢٧٦ . ولا أدري ما هو مستندها في ذلك . خصوصاً وأنها لا توثق المعلومات مفصلة . وإذا أراد قارئ التثبت حول معلومة معينة ضاع بين خضم من المراجع وكان الأولى بها أن توثق كل معلومة حسب مصدرها . وعلى العموم فالمسألة ما زالت تحتاج إلى بحث وتحقيق .

به. وتسميته للزمان الذي قبله زمان الجاهلية أو الفترة. ومنعه ملكية الأرض لأنها لبית المال ومنعه النساء من لبس حلي الذهب والفضة<sup>(١)</sup>. إلى غير تلك الضلالات التي أطلق عليها اجتهدات ، وكانت تهدف لتقويته وجعل الأمور كلها في يده حتى لو خالف اجماع المسلمين.

وأما محاربه لبناء القبور فينظر في ثبوت ذلك أولاً. ولعله أراد من ذلك تثبيت دعواه للمهدية وخشي من نفوذ من يسمونهم بالأولياء من الأموات. وإذا كان قد حارب البناء على القبور كما قيل فلماذا لم يلتزم أتباعه من بعده بأمره. حيث بنوا عليه بعد موته قبة نسفها اللورد «كتشنر» القائد الإنجليزي الذي أطاح بالدولة المهدية .

فهل يصح بعد هذا أن تكون حركته متأثرة بدعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب!!» أو أن تعتبر حركة إصلاحية!! وكون المهدي حارب الإنجليز رافعاً شعار الجهاد ضد الكافرين لا يخلو لأحد أن يعتبر حركته إصلاحية نظراً للانحرافات العظيمة التي وقع فيها. وأقرب شيء عندي يمكن أن يوصف به المهدي هو ما قاله «الزركلي» لدى ترجمته له في «الأعلام» حيث قال : «تأثر ، كان لحركته أثر كبير في حياة السودان السياسية»<sup>(٢)</sup> ومثله في ذلك مثل عشرات الثائرين الذين اتخذوا الدين ستاراً لثوراتهم ، وادعى بعضهم المهدية ، ومنوا جميعهم بالفشل.

وقد نسبت جميع الحركات الإصلاحية الأخرى إلى دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» كالسنوسية في ليبيا ودعوة الشيخ «عثمان بن فودي» في غرب أفريقيا. ودعوة الشيخ «أحمد بن عرفان» في الهند. والشيخ «عبد الحميد بن باديس» وجمعية العلماء في الجزائر وغيرها من الحركات والجماعات والدعوات فقليل إنها قد تأثرت بدعوة الشيخ كل ذلك يحتاج إلى تحقق وتثبت وإعادة نظر نعم قد يكون بعضها قد تأثر فعلاً ببعض الشيء . ولكن لا بد من الإتيان بالدليل لاثبات صحة هذه الدعوى. وللعلم فإن غالب هذه الحركات والدعوات مخالفة لدعوة الشيخ وعقيدته السلفية كما نقاشنا بعضها. فلم تكن دعوة منها تسلم من غائلة الصوفية المنحرفة ولا العقائد الكلامية ولا البدع المحدث في الدعوة. بل إن كثيراً من أرباب هذه الدعوات لا يعرفون عن الشيخ إلا من طريق أعدائه ودعاياتهم الكاذبة وبصورة مشوهة غير حقيقية ، أو يعرفه بعضهم ولكن لا يعترف بطريقته السلفية<sup>(٣)</sup>.

ولا يخفى ما في نسبة هذه الحركات المنحرفة إلى دعوة الشيخ وتأثرها بها من خطورة بالغة ، وإصرار كثير من أتباع هذه الحركات والجماعات على التمسح بالدعوة السلفية ليس إلا محاولة منهم

(١) الموسوعة الميسرة ص ٤٧٠.

(٢) الأعلام ٢٠/٦.

(٣) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي ص ٦٩١.

لإخفاء انحرافاتهم وضلالتهم سواء كان ذلك في الوسائل أو في المنهج. ومحاولة منهم لجذب شباب الصحوة الذين يتشوقون إلى العودة إلى منهج السلف الصالح.

إن إطلاق القول بتأثر كثير من الدعوات والجماعات بدعوة الشيخ دون دليل حقيقي يعطي هذه الدعوات المنحرفة شرعية وسمعة ليست جديرة بها، ومبرراً لاستمرارها على ما هي عليه من إلتواء وانحراف. بالإضافة إلى ما في ذلك من تلبيس على الناس، وخداع لهم، وتغريب بهم وليس في ذلك أي فائدة للدعوة السلفية، بل على العكس من ذلك حيث تفقد أصالتها ويضعف تميزها. «وأغلب ما تعتمد عليه هذه الأقاويل على مصادر غربية بعيدة معادية لا دقة لديها ولا تحقيق ولكن تعتمد على الظنون وما تريده من تشويه للصورة الصحيحة حتى لا يفهم الناس الحقيقة»<sup>(١)</sup>.

ويعد : فنقول : لقد كان أثر دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» عظيماً في العالم الإسلامي ، ويكفي في ذلك أن تكون العقيدة السلفية آخذة في الظهور والزيادة والقوة ، بعد أن كانت غريبة ومحاربة في أكثر البلاد. وأن يكون المنهج السلفي قد حاز مكاناً مرموقاً في فكر الصحوة الإسلامية وعملها. ومن المنتظر إن شاء الله تعالى أن تزول كل المناهج الخاطئة التي تزاحمه ، ويبقى هو وحده في الميدان ليقود الأمة في حاضرها كما قادها في ماضيها ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ [الرعد ١٧].

\* \* \*

---

(١) المصدر السابق ص ٦٩١.

## الفصل الثاني

### الصلوة الإسلامية في العصر الحاضر

ويشتمل على :

أولاً : العقبات في طريق الصلوة

ثانياً : المبشرات في طريق الصلوة وآفاق المستقبل

## أولاً: العقبات في طريق الصحوة

لقد رأينا في الباب الأول «الأحوال الدينية للمسلمين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين» كيف فسدت تلك الأحوال ودب الانحراف فيها. وأصبح الناس في غالبهم بعيدين عن دين الله المنزل ، قد تعلقوا بأمور حسبوها من الدين ، وما هي من الدين.

ورأينا في الباب الثاني ما ترتب على ذلك من آثار عظيمة وعواقب وخيمة سواء أكانت تلك الآثار داخلية أو خارجية. المهم أن الأمة قد أصبحت ضعيفة ذليلة متخلفة. وأصيبت بخواء عقدي. هائل بسبب ما وقعت فيه من انحرافات.

وفوق ذلك كله أضحت مغزوة في عقردارها بجحافل الاستعمار الصليبي ، وحملات الغزو الفكري الموجهة ، وجيوش المنصرين الحاقدة . وهكذا سقطت في الميدان لا لشراسة تلك الهجمات المكثفة. بل لما أصابها من ضعف وما طرأ عليها من مرض وانحراف.

وفي هذه الأجواء المظلمة والخطوب المدهمة ، وفي أثناء هذا الانحطاط السحيق والتدهور المريع، وبعد أن أحكم الأعداء قبضتهم ، يأذن الله عز وجل بانبعاث هذه الصحوة المباركة في كل مكان. تلك التي جاءت بعد عدة قرون متوالية من الجهل والضعف والتخلف والانحطاط. «جاءت الصحوة الإسلامية في موعدها المقدر عند الله .. وكانت مفاجأة ضخمة لكثير من الناس! ولكن هل كانت مفاجأة في الحقيقة؟!

إن الذين فوجئوا بها من الداخل كانوا هم الذين نقلوا نقطة ارتكازهم نهائياً من الإسلام إلى الحضارة الغربية ، وأداروا ظهرهم للإسلام على أنه قد ذهب إلى غير رجعة ، وأنهم هم «المثقفين» - هم الطليعة للأجيال القادمة، التي ستتحرر نهائياً من كل عقابيل الماضي ، وتمضي على طريق التحرر إلى نهاية الشوط.

وأما الذين فوجئوا بها من الخارج فكانوا هم الذين بذلوا جهد الشياطين طوال ما يزيد على قرن من الزمان لإبعاد الأمة عن الإسلام بكل الوسائل ، ورأوا بالفعل أجيالاً تبتعد تدريجياً عن الإسلام ، وكل جيل يبتعد أكثر من سابقه عن نقطة ارتكازه الأصلية ، فظنوا - بحساباتهم الأرضية - أن الأمة قد أزمعت أن تخرج نهائياً من الإسلام .. ولن تعود!.

ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا قد أغفلوا حقيقة ضخمة تدرج تحتها حقائق كثيرة لا تسير بحسب حساباتهم ، ولا تستطيع حساباتهم أن تصل إليها ، لأن الله قد جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوا وجعل في أذانهم وقراً!.

أغفلوا بادئ ذي بدء أن الذي يدبر الأمر في هذا الكون العريض كله ليسوا هم ، وليس غيرهم من البشر ، إنما هو الله ! ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [يوسف ٢١] ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار. ما كان لهم الخيرة ﴾ [القصص ٦٨] ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [البقرة ١١٧] . والله سبحانه هو الذي قرر أن يبقى هذا الدين في الأرض إلى قيام الساعة على الرغم من كيد الأعداء كله : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [الصف ٨ - ٩].

وأغفلوا ثانياً أن الناس في المنطقة الإسلامية قد صحبوا هذا الدين اثني عشر قرناً كاملة قبل أن يجيئوا هم بسمومهم ليفتنوا الناس عن دينهم ، وامتزجت به مشاعرهم ، وأصبح هويّاتهم وفكرهم ، ومبادئهم ومعادهم ، ونبضهم الطبيعي الذي تنبض به قلوبهم ، فلا عجب أن يرجعوا إليه ولو غفلوا عنه فترة ، إنما العجب - كان - أن يشربوا عنه ويتجهوا إلى غيره! والعجب الأكبر - كان - أن يثبتوا على هذا الشرود ، ولا يرجعوا إلى نبض قلوبهم الطبيعي!.

وأغفلوا - فيما أغفلوا - أن هذا «دين الحق» .. لا تنطبق عليه كل تخرصاتهم عن الدين الذي انتهى إلى غير رجعة ، والذي كان يمثل مرحلة وسيطة بين السحر والعلم ، والذي أخلّى مكانه بصفة نهائية للتقدم العلمي والحضاري والتكنولوجي .. الخ. فكل هذه التخرصات إن انطبقت على دين أوربا الجاهلي - الذي حُرقت فيه الكنيسة ما حُرقت ، وشوهت ما شوهت - فلا تنطبق على الدين الحق ، الذي حفظ الله أصوله فلم يطرأ عليها تبديل ولا تحريف ، والذي يملك الناس في كل لحظة أن يرجعوا إلى أصوله الصحيحة المحفوظة ، فيصححوا مسيرتهم إن أصابها انحراف في أثناء الطريق .. دين الفطرة ، الذي أنزله الله ليلتقي تماماً مع الفطرة السوية كما أنشأها الله ، لأنه مفصل على قدها بالضبط ، والذي يصحح انحرافات الفطرة كلما وقع فيها اختلال»<sup>(١)</sup>.

حقاً إنها لمعجزة عظيمة تلك العودة الصادقة والصحة المباركة من أمة الإسلام التي غفت قروناً متوالية ، واليوم هي تستيقظ من جديد تنفض الغبار الذي تراكم عليها عبر السنين. وفي كل قطر إسلامي ، ومع إشراقة كل يوم تنبعث صحوة إسلامية على غير ميعاد. ويقبل الناس والشباب خاصة

إلى الدين بعد فراق دام طويلاً. وتنساب قوافل التائبين والمنيبين في كل حين على طريق الحق غير أبهة بتعالى صيحات المستنكرين في دنيا الجاهلية.

إنها ظاهرة محيرة. ظاهرة تستحق الوقوف عندها طويلاً. تلك الأعداد الغفيرة التي تعود يوماً بعد يوم إلى رحاب الإيمان الطاهرة ، رغم كثرة العقبات وتنوع الصعوبات ، إنها معجزة عظيمة وآية ربانية . فرح بها المؤمنون ، وفرق منها المنافقون ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ [التوبة ١٢٤ - ١٢٥] .

«واليوم يدور الزمن نورته ، ويبدأ الوجه الكالح للقرون الأخيرة في حياة المسلمين ينحسر ، يبرز فجر جديد للإسلام في ربوع الإسلام. بدأ الناس - والشباب المثقف خاصة - يعودون إلى الإسلام ، يريدونه رائعاً صافياً كما نزل أول مرة بلا غبش ولا ركام.

وفي كل مكان في الأرض التي حكمها الإسلام ذات يوم حركات بعث إسلامي ، ودعاة يدعون إلى الإسلام ، وشباب يتطلعون إلى اليوم الذي يجدون فيه الإسلام مطبقاً بالفعل واليوم الذي يعود في المسلمون إلى الاستخلاف والتمكين في الأرض - في صورتهم الإسلامية الحقيقية المتميزة - تحقيقاً لوعد الله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ [النور ٥٥] . وفي الطريق عقبات كثيرة تعوق المسيرة ولكنها لا تمنع المسير»<sup>(١)</sup>.

وها هي الصحوة الإسلامية تنبعث اليوم لتخوض صراعاً عنيفاً وجولات حامية مع الواقع السيئ المظلم في مرحلة حرجة من حياة الأمة الإسلامية تمثل صورة من أشد صور الصراع بين الحق والباطل وتحاول أن ترد الأمة إلى دينها الذي بعدت عنه كثيراً ، ولكن الطريق مليء بالعقبات محفوف بالعوائق والمخاطر.

إن مهمة الصحوة الإسلامية تتبلور أساساً في إرجاع الأمة إلى إسلامها الذي حجبته عنها عوامل كثيرة. أو هو إصلاح الواقع الناتج عن انحراف الأحوال الدينية وآثارها السيئة.

فمجال عمل الصحوة إذن هو معالجة الانحرافات الدينية ومقاومة آثارها الداخلية والخارجية على السواء .. وهو مجال عمل ضخم جداً ويحتاج إلى زمن كي يتسنى إصلاحه.

ولا يمكن أن يتم ذلك أصلاً إلا بالرجوع إلى الأصول الصافية لهذا الدين. الكتاب والسنة. وكما قلنا سابقاً على ضوء عقيدة السلف الصالح ومنهجهم القويم.

(١) المصدر السابق ص ١٢.



وبالنسبة لموقف الصحوة بين الانحرافات الدينية وآثارها السيئة أمام الحضارة الغربية يجب أن يكون موقف الوسط بين الرافضين لها تماماً دون تمييز وبين الداعين إلى أخذها برمتها دون وعي. موقف يركز على سياسة الإنتقاء الواعي من هذه الحضارة فيؤخذ ما يوافق الإسلام وكان نافعا مفيداً ، ويلقى ما سوى ذلك فلا يلتفت إليه بتاتاً إلا للتحذير منه. وكل ذلك يشكل تبعة عظيمة ومهمة صعبة تضطلع بها الصحوة ولا شك. وفي السطور التالية نشير إلى العقبات التي تعترض طريق الصحوة على سبيل الإيجاز : «تواجه الصحوة الإسلامية مهمة شاقة لم تتعرض لها «حركة إصلاحية من قبل .. فإنه لم يتجمع مثل هذا الركام الذي تجمع اليوم في أية فترة سابقة من التاريخ ، على هذا المستوى الشامل ، وعلى نطاق العالم الإسلامي كله»<sup>(١)</sup>.

إن استمرار الانحرافات الدينية المتراكمة عبر القرون ليشكل الصعوبات الأساسية التي تقف حجر عثرة في طريق الصحوة الإسلامية وتعرقل مسيرتها. ومع أن دعوة الشيخ «محمد بن عبد الوهاب» استطاعت بقدر الله عز وجل أن تخترق تلك الحواجز والركامات من بقايا الانحرافات ، وأن تنبعث الصحوة الإسلامية على أثرها في كل مكان إلا أن هذه الانحرافات ما تزال متغلطة في أرض الواقع. لذا كان لا بد لنا من وقفة حول تلك القضية. فنقول : إن من عوامل نجاح الصحوة الإسلامية في نشر التوحيد وإقامة حكم الله في الأرض معرفة هذه الانحرافات التي ما زالت ترزح في طريقها ، ودراسة الأحوال الدينية والعقدية التي سبقت ظهور الصحوة وواكبتها فيما بعد.

وما هذه الرسالة إلا نقطة على الطريق الصحيح الذي يجب على الصحوة أن تجعله نصب عينيه لتسير عليه ، فغايتها أن تكشف بوضوح عن مدى الانحرافات الهائلة التي سقطت فيها الأمة وكانت السبب فيما حل بها من ضعف وتخلف وتأخر.

إن معرفة ذلك ضروري جداً للصحوة حتى تقدر العمل المطلوب والجهد اللازم لإعادة البناء من جديد. إن على الصحوة أن تدرك جيداً أن تلك الانحرافات التي وقعت منذ دهر واستمرت قروناً لا يمكن أن تزال بين عشية وضحاها ، أو في سنوات قلائل.

كما يجب عليها أن تدرك أيضاً عظم المسؤولية الملقاة على عاتقها وضخامة الجهد الذي تحتاج أن تبذله في علاج تلك الانحرافات التي تشعبت بفروعها داخل جسم الأمة الإسلامية ولم يبق جزء منه إلا دخله الانحراف ، وأصابه الداء.

إنها صعوبات عسيرة ومهمة شاقة تضطلع بها الصحوة وتحتاج منها إلى عمل دؤوب وجهد

---

(١) لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة. ص ١٦٧ الشيخ محمد قطب. دار الوطن. الرياض. الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

مستمر وصبر متواصل. فإن الأمة التي انحرفت عن دين الله عز وجل ، وظلت تنحرف وتنحرف وتظن أن انحرافها كان للدين وإلى الدين وليس عن الدين ليس من السهل أن ترجع عن ما ألفته أثناء انحرافها عن الطريق القويم. ويجب على الصحوة أن تعي هذا جيداً.

«إن الصحوة ليست بصدد «حركة اصلاحية» في جانب واحد من جوانب الحياة ، أو بضعة جوانب بعينها، إنما هي بصدد إعادة البناء. وقد كانت إقامة البناء أول مرة جهداً شاقاً بذله رسول الله ﷺ وبذله صحابته الكرام رضوان الله عليهم أما إعادة البناء .. فما أدري - فقد تكون مهمة أشق، فقد قال رسول الله ﷺ ، لصحابته الكرام رضوان الله عليهم : « إن من ورائكم أيام الصبر للمتمسك فيهن يومئذ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم » قالوا : يا نبي الله ! أو منهم ؟ قال : « بل منكم »<sup>(١)</sup>.

وأيا كان الجهد ، وأياً كانت المشقة ، فقد قامت الصحوة بفضل الله ورحمته ، وهي ماضية في سبيلها حتى تحقق بإذن الله أهدافها ، وتحقق موعود الله بالنصر والتمكين للمؤمنين.

ولكن عليها أن تدرك مهمتها على وجه الدقة ، لتقوم بها بإذن الله على الوجه الأكمل .. وعليها ألا تستعجل الخطى ، ولا تستطيل الطريق ، ولا تستبطن النصر ، ولا تتخذ ببعض البشائر فتظن أن الثمرة قد حانت ، ولم يبق إلا القطف.

بل بقي الجهد .. كل الجهد .. وبقي العرق والدماء والدموع .. وكل عقبات الطريق .. ثم يأتي النصر بمشيئة الله»<sup>(٢)</sup>.

ولو نظرنا إلى الواقع الذي تهدف الصحوة إلى إصلاحه لوجدنا أن الانحرافات التي تحدثنا عنها في الباب الأول ما زالت تقف عقبات في طريق الصحوة!

فانحسار مفهوم العبادة الواسع في صورة الشعائر التعبدية فقط ما زال يعشعش في عقول الكثير من الناس. وزاد من حدته تعاظم المد العلماني وطغيانه على الساحة الإسلامية.

«فقد فهموا معنى العبادة - التي جعلها الله غاية الخلق - فهماً جزئياً قاصراً، فهي لا تعدو أداء الشعائر المعروفة من الصلاة والصيام والزكاة والحج. وما يلحق بها من الذكر والتلاوة والدعاء .

وبهذا الفهم المبتور لا يبالون ما قصرُوا فيه بعد ذلك من أوامر الإسلام ونواهيهِ وأحكامه ووصاياهِ ، التي تستوعب كل مجالات الحياة ، مع أن العبادة - كما جاء بها القرآن والسنة . وكما فهمها خير قرون هذه الأمة - تشمل الدين كله. وتشمل الحياة كلها»<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم ، باب الامر والنهي ، برقم (٤٣٤١) ، وهو في السلسلة الصحيحة برقم ٤٩٤ .

(٢) لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص ١٦٩ .

(٣) العبادة في الإسلام ص ٩ . د، يوسف القرضاوي، مؤسسة بيروت الرسالة، الطبعة التاسعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

والفكر الإرجائي ما زال طاغياً على المجتمعات الإسلامية. ولم تنج الصحوة نفسها من غائلته فما يزال كثير من المتصدين للدعوة يسيرون في التيار الإرجائي، وينكرون أشد الإنكار على من يكفر من يحكم بغير ما أنزل الله. ويقولون عن حكم البلاد والعباد بالقوانين الكفرية الوضعية إنه ليس بكافر لأنه لم يستحل الحكم بغير ما أنزل الله وينادون بالكف عن قال لا إله إلا الله ولو فعل ما فعل. ويستدلون في قوله تعالى ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة ٤٤] بقول ابن عباس رضي الله عنهما : «ليس بكفر ينقل عن الملة» ويقول «عطاء» «كفر دون كفر»<sup>(١)</sup>.

ومعنى أن الحكم بغير ما أنزل الله ليس كفراً مخرجاً من الملة مثل «حكم القاضي أو الحاكم المسلم في قضية ما بالهوى مع حكمه في بقية الأمور بحكم الله» أما هؤلاء الذين جاؤوا بالقوانين الكافرة. وطبقوها على الشعوب الإسلامية بقوة الحديد والنار، وحاربوا وعذبوا كل من نادى بتطبيق الإسلام فهؤلاء ليسوا من الإسلام في شيء. ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [النساء ٦٥]<sup>(٢)</sup>.

وعلوم الكلام والفلسفة والمنطق ما زالت مسيطرة على أغلب الجامعات والمعاهد في العالم الإسلامي وعقائد المتكلمين ما زالت متبناة عند قطاع عريض من المنتسبين إلى الصحوة الإسلامية. بل إن كثيراً من زعماء الجامعات الإسلامية يرون أن مذهب أهل السنة والجماعة هو مذهب الأشاعرة. ويرون أن أئمة الاعتقاد هم أئمة المتكلمين من أمثال «الأشعري»<sup>(٣)</sup> و«الماتريدي» وأتباعهما.

وما زال الشرك الأكبر ضارباً بأطنابه في أرجاء العالم الإسلامي. فعبادة الأضرحة والقبور والتعلق بالموتى والاستغاثة بهم والتوسل بهم ودعائهم من دون الله عز وجل كل ذلك يقف في طريق الصحوة. وإن مما يحز في نفس المؤمن أننا لا نكاد نعثر لكثير ممن تولوا قيادة الصحوة في غالب البلاد الإسلامية على كلام أو دعوة بين ظهراني المشركين من عباد القبور في بلدانهم التي غرقت في أحوال الشرك والبدعة والخرافة.

(١) تفسير ابن كثير ٦٢/٢.

(٢) العقيدة في الله ص ٢٨.

(٣) من الثابت أن أبا الحسن الأشعري رحمه الله قد رجع عن مذهبه إلى مذهب السلف كما اتضح ذلك من كتابه «الإبانة» حيث يقول فيه : «وقولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب ربنا عز وجل وبسنة نبينا محمد ﷺ ، وما روى عن الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتمدون ، وبما كان أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه ورفع درجته ، وأجزل مثوبته - قائلون - ولئن خالف قوله مجانبون» الإبانة عن أصول الديانة ص ٥٢ طبعة الجامعة الإسلامية ١٤٠٥هـ.

يقول الدكتور مصطفى حلمي : «ومن الثابت عن الذين ترجموا للأشعري - وأبرزهم ابن عساكر في كتاب (تبيين كذب المفتري) أن كتابه (الإبانة) من أواخر كتبه وهو دليل على استقراره على طريقة الإمام أحمد ومنهجه وعقيدته متابعة لطريقة السلف». قواعد المنهج السلفي ص ٢٢٠. دار الدعوة للطباعة والنشر. الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

وكان الأمر لا يعنيههم. وتأتي البلية الكبرى حين ينبري بعضهم للدفاع عن هؤلاء القبوريين ، ويهون من شركهم ، ويشنع على من أنكر عليهم ، ويجعل أمر التوحيد - وهذا أقل ما يقال - في مهب الريح. وتلك لعمر الله فادحة حلت بالصحة ، وعثرة لا تقال ، جديرة بتعطيل مسيرتها . بل والقضاء عليها .

والصوفية ما زالت تحاول العودة للسيطرة على المجتمعات من جديد وتلقى رعاية وتأييداً من قبل أغلب الحكومات العلمانية ، نكايه في الصحة الإسلامية التي رضي بعض زعمائها - وللأسف الشديد - بالانتساب إلى طرقها ، ولهجوا بالثناء عليها ، بل اعتبروها التربية الأصيلة التي تسمو بها الروح ، وتزكو بها النفس. وانجرف كثير منهم في منزلق الخرافات الصوفية ، وأمنوا بولاية بعض الدجالين والمشعوذين وبما ينقثونه من سحر ودجل وشعوذة على أنه من كرامات الصالحين.

وأما بدع الذكر عند الصوفية التي أوردنا طرفاً منها في الباب الأول فما تزال تحظى بالقبول والاحترام عند كثير من الجماعات الإسلامية.

أما الفرق فقد عظم بلاؤها في هذا العصر ، وصار لغالبها شوكة ودولة. وليست المصيبة في ذلك ، ولكن المصيبة في انطلاء أمر هذه الفرق المحاربة للإسلام والمسلمين على كثير ممن يتصدون لقيادة بعض جماعات الصحة ، وانخداعهم بها .

وليس أدل على ذلك حين اندلعت الثورة الرافضية في إيران من تسارع كثير من الجماعات الإسلامية إلى تأييدها والإشادة بزعيمها الهالك ، وربط مستقبل الأمة ومصيرها بها .

«جاءت ثورة «الخميني» التي شارك «كارتر» في تصميمها ، وساهم جنراله «هويزر» في تنفيذها عندما نجح في تحييد الجيش ... جاءت هذه الثورة فافتتن بها معظم الإسلاميين ، وظنوا أنها ستعيد لهم عهد الخلفاء الراشدين ، ويطولات خالد وصلاح الدين .

وبالغت المجالات الإسلامية في تضخيم شخصية «الخميني» وثورته ، وفي إحدى هذه المجالات لم يعد القارئ قادراً على التمييز ما بين السني والرافضي في كتاب هذه المجلة ، وفتحت هذه المجلة بابها على مصراعيه فنشرت كل ما يريده الرافضة ، وأقل ما نشر قصائد تدعو إلى تقبيل تراب «قم ونجف وكربلاء» ، وشد الرحال إلى تلك المزارات والطواف حولها والركوع والسجود لها .

وتنافست معظم الجماعات الإسلامية في تأييد الثورة الإيرانية ، وهذه الجماعات التي تنتسب إلى مذهب أهل السنة متناحرة فيما بينها متخاصمة. ومن الصعوبة جداً أن توجد صفها لكنهم جميعاً متفقون على ضرورة تأييد الثورة الإيرانية والتعاون والتنسيق مع البطل الإسلامي الخميني - كما يقولون - .....

ويحار المرء عندما يلمس سطحية الدعاة وغفلتهم ، ثم يلمس مخططات الرافضة ، وتصريحاتهم عن تصدير الثورة ، ووقوفهم على أهبة الاستعداد للانقضاض على الخليج والعراق وسورية ليعيدوا ذكريات العبيديين والقرامطة.

الرافضة يحيكون المؤامرات ضد المسلمين ، وجمهور أبناء السنة يصفقون لهم ، هؤلاء الذين وصفهم أحمد شوقي فقال :

أثر البهتان فيه .. وانطلى الزور عليه  
ملأ الجو صراخاً .. بحياتي قاتليه  
يا له من بيغاء .. عقله في أذنيه<sup>(١)</sup>

وكنتيجة للجهل المطبق أو التغاضي الخاطيء عند بعض الجماعات الإسلامية ، برز ما يسمى بفكرة التقريب بين أهل السنة والشيعة وهي فكرة شيوعية نادى بها «محمد التقي القمي» من فقهاء الرافضة. وقد صرح القمي «وهو إيراني الجنسية» أنه بدأ بدعوته منذ عام ١٩٣٧م وأن دعوته قد أثمرت وساق المعلومات التالية كأدلة على نجاح دعوته :

١ - وزارة الأوقاف المصرية تطبع وتنشر كتب أئمة الشيعة.

٢ - جامعة الأزهر قررت تدريس الفقه الشيعي دراسة مقارنة.

٣ - وزارة العدل المصرية تأخذ بأراء فقهاء الشيعة في قوانين الأسرة والأحوال الشخصية<sup>(٢)</sup>.

ويرى كثير ممن يتصدون لتنظير فكرة الصحوة الإسلامية أن الخلاف بين السنة والشيعة ، كالخلاف بين المذاهب الفقهية.

هذه صورة مجملة عن بعض الانحرافات الدينية التي تعرضنا لها في الباب الأول وما زالت مستمرة ليست في الأمة فقط! بل في الصحوة نفسها وعند كثير من قياداتها كما رأينا. وهؤلاء في قياداتهم للأمة كمن يحاول أن يقود جسداً مثقناً بالجراح ، مليئاً بالأمراض. والسبب في ذلك أن عقيدة السلف لم تلق بعد أي عناية من هؤلاء الذين يقودون الصحوة. وحملت بنور الانحراف معهم إلى جسمها. بل إنهم كثيراً ما يهاجمون أتباعها ويتهمون من يدعو إلى عقيدة السلف ومحاربة البدع والخرافات بالقصور وعدم المنهج والسطحية والاهتمام بالفرعيات وإغفال القضايا الحساسة.

(١) وجاء نور المجوس. الجزء الأول ص ٦. عبد الله محمد الغريب. الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٣.

وكثير منهم يلمزون من يتصدى للرد على الفرق المبتدعة من علماء العقيدة السلفية ويعتبرون أن ذلك أمر لا طائل من ورائه ، ولا فائدة منه . مع ما في ذلك من تفريق للأمة .

ولا ندري لماذا يصبر كثير من هؤلاء القائمين على العمل الإسلامي على دفن رؤوسهم في الرمال ويحاولون التغاضي عن انحرافات هذه الفرق التي هي موجودة بالفعل ، وتحاول نشر عقائدها وترويج مذاهبها ، وتعتبر عقبة كبيرة في طريق الصحو الإسلامية التي وللأسف الشديد يحاول كثير من قياداتها نسيانها وعدم الاكتراث بها ، بل وانتقاد من يحاول التنبيه إلى خطرها .

وكثير منهم لا يميزون بين الخلافات البسيطة ، وبين الخلافات العقدية الكبيرة التي تدين بها الفرق المبتدعة على اختلافها ، فيجعلون لرؤوسها الضالين نصيب المجتهدين . ويدعون إلى عدم الإنكار عليهم بحجة أوهى من بيت العنكبوت وهي أن هذه الأمور مما يسوغ فيها الاجتهاد ويرى بعضهم أن التمسك بمذهب السلف وعقيدتهم ، ونبذ آراء الفرق المحدثه وردها وبيان بطلانها ، وتحذير الأمة منها ، لا يتماشى مع أدب الخلاف .

وبهذا الخط العجيب تميع أمور العقيدة وقضايا الإيمان ، ويجعل للمبتدعة أجر المجتهدين . وتختفي معالم عقيدة السلف وتقوض دعائهم ، ويصبح الباطل إلى جانب الحق . والبدعة إلى جوار السنة . ويضحي المسلمون في أمر مريع . ويأبى الله عز وجل أن يقع هذا ، وأن يخالط الضلال الهدى . بإصرار أهل الباطل على باطلهم قبل كل شيء ومنافحة أهل السنة عن عقيدتهم مما يدحض مثل هذه الآراء الشاذة التي لا تتال من عقيدة كنيها من عقيدة السلف الصالح - رضوان الله عليهم - . يقول الدكتور «ناصر العقل» :

« إن المتأمل لواقع الدعوة والحركات الإسلامية القائمة اليوم يجد أن غالبها يدعى الانتماء إلى أهل السنة والجماعة .... ولا شك أن منها .... ما هو جدير بالانتماء لأهل السنة ، ومنها ما هو بعيد - كل البعد - عن أهل السنة . ومنها من يعني بأهل السنة الأشاعرة والماتريدية ونحوهم من الفرق التي هي أقرب إلى أهل السنة في الجملة .... » .

« كيف ينتمي لأهل السنة من يؤول صفات الله ، ويقول على الله بغير علم ، ويقع فيما حذر منه السلف من تقديم العقل على كلام الله وكلام رسوله ﷺ في صفات الله والقدر وسائر أمور الغيب؟ .... إن بعض الدعوات القائمة تقوم على هذا الأساس ، وتدعى أنها هي أهل السنة . ثم كيف ينتسب لأهل السنة من يرى أن الطرق الصوفية المبتدعة منهجاً سليماً للدعوة .

والعجب كل العجب .. أن يدعى الانتساب لأهل السنة من الدعاة من يدافع عن البدع أو يروج

لها أو يرضى بها ، أو يرى أن أمرها يسير ، وأنها ليست من مسائل الدين المهمة ، مثل بدع الموالد ، والاحتقالات الدينية البدعية ، وأين هذا من عقيدة السلف ، إن من الدعاة من يعمل هذه البدع ، ومنهم من يستهين بأمرها ويهون من خطرها .

والأدهى من ذلك أن يوجد من الدعاة الكبار الذين ينتمون إلى حركات إسلامية مشهورة - من يتمسح بالقبور والأولياء من الأموات والأحياء ، ويطلب منهم كشف الضر ، وجلب النفع ، ويلجأ إليهم في السراء والضراء . وكيف يدعى رفع شعار أهل السنة من يتصدر للدعوة وهو لا يعرف عقيدة السلف ، وربما سئل أحدهم عن بدهيات العقيدة فلا يجيب ، وإن أجاب خلط .

وهل يكون من أهل السنة من لم يكف لسانه ولا قلمه عن التعرض بالنقيصة واللمز أو السباب لبعض الصحابة أو التابعين وأئمة الهدى المعبرين وسلف الأمة الماضيين . خاصة علماء السنة والحديث وهناك مع كل أسف - من كبار الدعاة أو ممن يزعمون أنهم دعاة من يؤخر الصلاة الفريضة عن وقتها دون ضرورة ، أو لا يهتم بصلاة الجماعة ، ومن يستحل أكل الربا ، ومن يستحل سماع الأغاني والموسيقى ، أو يقتني الصور المجسمة ، أو يدخن ، ومنهم من يحلق لحيته دون ضرورة . أو يتشبه بالكفار في لباسه ومظهره ، وسائر تصرفاته المعاشية ، ومنهم من لا يهتم بالحجاب الشرعي للنساء ، أو يقر الاختلاط المحرم ويرضى به الخ . من الأمور التي تخل بالدين ، أو تجرح العدالة ، أو تنافي الفضيلة ، ولا تقبل ممن يتصدر الدعوة ويكون قدوة .

وهل يجدر أن ينتسب لأهل السنة من لا يجعل من أهدافه وأهداف دعوته ، تعلم وتعليم عقيدة أهل السنة ورفع لوائها ، والدعوة إليها ، والدفاع عنها؟ لأنها هي النهج السليم والصحيح للإسلام؟ بل كيف يكون من أهل السنة من يجعل من أهدافه تحاشي التظاهر باعتقاد أصول أهل السنة ، وتحاشي الرد على الفرق المخالفة ، وبدع المبتدعين . بدعوى تفادي إثارة الخلافات بين المسلمين»<sup>(١)</sup> .

وبعد : فهذا استعراض سريع لكثير من العقبات التي تتمثل في امتداد الانحرافات العقدية والدينية وتقف في طريق الصحة . وقد رأينا وللأسف الشديد أن بنور هذه الانحرافات وعدوى هذه الأمراض قد انتقلت إلى جسم الصحة الإسلامية ، وقد حمل هذه البنور وهذه العدوى أناس كثيرون وجماعات متعددة مما يزيد في صعوبة ما تواجهه الصحة الإسلامية من عقبات . إن مثل هؤلاء الذين يتغافلون أو يهونون من هذه الانحرافات ويرون أنه يمكن إصلاح الأمة دون علاجها كمثل من يحاول أن يرمم منزلاً متداعياً على وشك السقوط من الخارج فيطليه بالألوان الزاهية . ولم يصنع في الحقيقة

(١) مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها ص ٥١ ، ٥٢ . د. ناصر عبد الكريم العقل. دار الوطن. الرياض. الطبعة الأولى.

شيئاً ليتفادى الكارثة . هؤلاء هم الذين لا يدركون خطورة هذه الانحرافات ولا يكثرثون بها ، ولا يحاولون علاجها أو التصدي لها ، وينتقدون من يحاول أن يفعل ذلك من غيرهم ، ويتهمونه بشق عصا المسلمين وتقريق كلمتهم.

إن على الصحوة الإسلامية قبل كل شيء أن تحاول تنقية نفسها وتصفية فكرها من هذه الانحرافات الخطيرة برجوع جماعاتها وقياداتها إلى عقيدة السلف الصالح ومنهجهم الواضح. إن كثيراً من هذه الجماعات والقيادات تهدف فعلاً إلى الإصلاح ، ولكن فاة هؤلاء أن ذلك لا يتم بغير الرجوع إلى مذهب السلف الصالح وإعادة الأمة إليه.

فاذا تم للصحوة تطهير نفسها وفكرها وأصبحت في مأمن من عادية هذه الانحرافات - وتلك مهمة في اعتقادنا طويلة وشاقة - أمكن بعد ذلك إصلاح الأمة وتدارك أحوالها.

والغريب أن يأتي بعد ذلك من يستبطن النصر ، ويميل الطريق ويقول بعضهم «مضى على الدعوة أكثر من نصف قرن .. ولم تتجع بعد .. أي لم تصل إلى الحكم لتحقيق ما تدعو إليه من تحكيم شريعة الله ، وحل مشاكل المجتمع على أساس المنهج الرباني»<sup>(١)</sup>.

ونسي هؤلاء أن الإسلام بفعل هذه الانحرافات أضحى غريباً في أوطانه . ولا بد للصحوة الإسلامية أن تكشف هذه الغربة وتجلوها عنه حتى يمكن في الأرض من جديد. ولا يتم ذلك أبداً بدون التخلص من هذه الانحرافات المزمنة . وهي مهمة عسيرة كما ذكرنا غير مرة . وهي تحتاج من الجهد والعمل والصبر قريباً من الذي أقيم به الإسلام أول مرة.

يقول شيخ الإسلام «ابن تيمية» في شرح حديث الغربة عن الإسلام : «وكذلك اذا تغرب يحتاج صاحبه من الأدلة والبراهين إلى نظير ما احتاج إليه في أول الأمر. وقد قال له ﴿أفغير الله أبغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق. فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم. وإن تطع أكثر من في الأرض يضلونك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ [الأنعام ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦] ، وقال تعالى ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾ [الفرقان ٤٤].

وقد تكون الغربة في بعض شرائعه ، وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة. ففي كثير من الأمكنة يخفى عليهم من شرائعه ما يصير به غريباً بينهم لا يعرفه منهم إلا الواحد بعد الواحد. .... وإذا قدر أن في الناس من حصل له سوء في الدنيا والآخرة بخلاف ما وعد الله به ورسوله وأتباعه فهذا من

(١) واقعنا المعاصر ص ٤٥٥.



ذنوبه ونقص إسلامه ، كالهزيمة التي أصابتهم يوم أحد». إلى أن قال رحمه الله : «وكذلك قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض ﴾ . فهذا الوعد مناسب لكل من اتصف بهذا الوصف . فلما اتصف به الأولون استخلفهم الله كما وعد . وقد اتصف بعدهم به قوم بحسب إيمانهم وعملهم الصالح فمن كان أكمل إيماناً وعمل صالحاً كان استخلافه المذكور أتم . فإن كان فيه نقص وخلل كان في تمكينه خلل ونقص . وذلك أن هذا جزاء هذا العمل ، فمن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء»<sup>(١)</sup>.

وليت جماعات الصحوة تفهم هذا الكلام وتفقه هذه الحقيقة وتدرك أن الوصول إلى الاستخلاف والتمكين في الأرض لا يكون إلا بإزالة هذه الانحرافات من الطريق ، وتربية الناس على الإسلام كما أنزل ، وإن أبطأ النصر ، وتأخر التمكين ، فلنعلم أن المسافة ما زالت طويلة والعقبات كثيرة. قال تعالى : ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير ﴾ [آل عمران ١٦٥]. فإذا أضفنا إلى ذلك تفاقم الخلافات بين الجماعات الإسلامية حتى إن الأمر ليصل إلى الصراع والتقاتل في بعض الأحيان أدركنا وعورة الإصلاح وصعوبته.

«ولعلنا لا نكون مبالغين ، إذا قلنا بأن الظاهرة الفكرية والحركية ، الأكثر دلالة على مجمل واقع العمل الإسلامي إنما هي الاختلاف والفرقة وإنك لترى في واقع الإسلام اليوم ، من التحيزات والفرقة والشقاكات أكثر بكثير مما يمكن أن تعثر عليه في عصر الفتن الكبرى في تاريخ الإسلام ، وفي تراث الفرقة فيه»<sup>(٢)</sup>.

«وأصبحت ترى الحركة الواحدة ، والجماعة المنظمة ، يصيبها - فجأة - الانشطار ، لتبدأ سلسلة غريبة من الانشطارات والتفرقات ، على طريقة المتواليات الهندسية»<sup>(٣)</sup>.

«وقد تصل الفرقة إلى حد المساة المفرقة ، عندما يتحول الخلاف الفكري إلى عراك حقيقي بين العاملين تسيل فيه دماء مسلمة ، شاهدة على سفاهة السفهاء ، وناعية على جهالة الجهلاء ..»<sup>(٤)</sup>.

إن التفرقة علة مذمومة أصيبت بها الأمة الإسلامية ، واعتل بها العالم الإسلامي ، وكان الواجب على الجماعات الإسلامية العاملة في حقل الصحوة أن تحذر منها ، وأن تتجنبها بقدر

(١) مجموع الفتاوى ٢٩٨/١٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ .

(٢) فقه الخلاف . مدخل إلى وحدة العمل الإسلامي ص ٤٠ جمال سلطان . مركز الدراسات الإسلامية . برمنجهام . بريطانيا . الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

(٣) المصدر السابق ص ٤٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٤٥ .

المستطاع ، ولكن شاء الله عز وجل لحكمة يريد بها سبحانه ألا يقع هذا . بل ولدت الصحوة من أول يوم ، وكأنما لفت في رداء من الخصام والفرقة ، وتعاهد العاملون فيها على عدم الاتفاق أبداً . أما وقد وقع التفرق وحدث الخصام فلا مندوحة إذن من العمل الدائب المخلص على إزالته ، وقد حذر الله عز وجل من التنازع والتفرق ، وأمر بالاجتماع والتعاون فقال سبحانه : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ [آل عمران ١٠٣] . وقال أيضاً : ﴿ ولا تنازعوا فتشعلوا وتذهب ريحكم ﴾ [الأنفال ٤٦] وقال أيضاً : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ [الصف ٤] ، وقال أيضاً : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان ﴾ [المائدة ٢] .

ونحن لا نلقي باللائمة على تعدد الجماعات الإسلامية ، فذلك أمر لا مناص منه في أغلب الأحيان لاختلاف الأحوال وتنوع الظروف من بلد إلى آخر . ولكن اللوم يقع على ما يحدث من تناقض وتخاصم وتفرق وتشاحن بين تلك الجماعات التي تناصب بعضها العداء ، وتتسى في غمرة هذا الصراع الأحمق! العدو الأصلي المشترك ، الذي يتربص بها الدوائر .

والمؤلم كثيراً أن نرى بعض قادة الجماعات الإسلامية ، يفتحون صدورهم وعقلوهم للنقاش مع العلمانيين ، ويحاولون - بزعمهم - تقريب وجهات النظر فيما بينهم ، في الوقت الذي تضيق صدورهم ، وتأبى عقولهم أن يفعلوا بعض ذلك مع الجماعات المخالفة لهم . وفي حين نراهم يرددون دائماً وجوب الحكمة والموعظة الحسنة في مناقشة العلمانيين وأثناء حوارهم ، نراهم على الطرف الآخر يكيلون ألفاظ التهكم والسخرية بمن يخالفهم من الجماعات الأخرى ، وربما وصموها بالتزمت والتطرف ، إلى غير ذلك من الأمور المؤسفة التي تدور في ميدان الصحوة .

ولعل أهم خلاف نشب بين مختلف الجماعات الإسلامية هو «اختلاف الرأي بين العاملين للإسلام في مناهج الإصلاح والتغيير المنشود :

أنبداً بالقمة أم بالقاعدة؟ أنرجح طريق الثورة والعنف أم طريق التدرج والرفق؟

أيفضل الانقلاب العسكري أم الكفاح السياسي ، أم التكوين التربوي؟

أنعطي الأولوية للعمل الجماهيري ، أم لتكوين الطلائع؟

أيجوز تعدد الحركات العاملة للإسلام ، فيعمل كل منها في ميدان أم لا بد من حركة جامعة

شاملة؟ إلى آخر ما يمكن أن يقال في هذا المجال ، وهو رحب»<sup>(١)</sup> .

(١) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص ١٧ د . يوسف القرضاوي . دار الوفاء . المنصورة . نشر دار الصحوة . القاهرة . الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م .



يحتاج أولاً إلى تبين الحقائق المجهولة من هذا الدين ، بدءاً بحقيقة لا إله إلا الله، ويحتاج ثانياً إلى تربية الناس على ما تقتضيه هذه الحقائق من سلوك واقعي في واقع الحياة . وهو جهد طويل طويل لا يمكن - بحسب السنة الجارية - أن يتم في سنوات قصار. والسنوات التي مرت في الدعوة - بالقياس إلى عمر الأمم ، قصار جد قصار»<sup>(١)</sup>.

وللأسف الشديد «فإن المتفحص للساحة الإسلامية يرى أن معظم الجماعات الإسلامية بنت مخططاتها في التغيير على المبدأ الديمقراطي ، فهي إما ضالعة فيه ، وإما مناضلة لأجله. وكم من وعود معلنه كانت قد قدمتها بعض الجماعات الإسلامية بأنها في حال هيمنتها على الحكم ستجعله ديمقراطياً ، وأن مجلسها النيابي ستمثل فيه كافة الطوائف ، وأنها ستطلق حرية الأحزاب والتعبير عن كافة الآراء والاتجاهات مع عدم التعرض لها حال إعلانها ولا حال الدعوة إليها.

وقد انبرى عدد من الكتاب الإسلاميين للدفاع عن هذا المنهج الديمقراطي ، وسارع عدد من الدعاة المعروفين إلى ترشيح أنفسهم عند أول بادرة سنحت لهم في ذلك. وقامت المجلات الإسلامية ، وما تزال ، بتغطية إعلامية مكثفة لهذا المنهج ، فدبجت المقالات وعقدت المقابلات وأجرت الحوارات. ورغم السقوط العلمي لهذا المنهج وثبوت إفلاسه في تقديم أي خدمة معتبرة لهذا الدين ودعائه فإن هذا السقوط ما زاد أصحاب الديمقراطية إلا شدة في الدفاع عنها وحماساً متأججاً للدعوة إليها»<sup>(٢)</sup>. وفي هذا المجال هناك كثير من الملاحظات السيئة على العمل السياسي الإسلامي لبعض الجماعات الإسلامية. من ذلك :

١ - عدم وضوح الرؤية بشأن إسقاط المعنى العقدي للحاكمية على واقع الأنظمة الحاكمة في العالم الإسلامي.

٢ - انتهاج الطريق الديمقراطي كمنهج للوصول لتحكيم الشريعة الإسلامية.

٣ - الدخول في تحالفات مرفوضة شرعاً مع قوى غير إسلامية وتشكيل جبهات وطنية معها.

٤ - تأييد الدساتير التي تكرر الحكم بالقوانين الوضعية.

٥ - تغلغل أجهزة الأنظمة في بعض المشاريع المهمة للعمل الإسلامي أفقد قيادات ذلك العمل الإسلامي استقلالية القرار السياسي<sup>(٣)</sup>.

(١) واقعنا المعاصر ص ٤٥٧.

(٢) الإسلاميون وسراب الديمقراطية ص ٢٥ عبد الغني محمد الرجال. الجزء الأول. مؤسسة المؤتمن دراسة أصولية لمشاركة الإسلاميين في المجالس النيابية. الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ.

(٣) المصدر السابق ص ٢٣.

«إن استخدام هذا الطريق عبث لا يؤدي إلى نتيجة قبل تكون «القاعدة المسلمة» ذات الحجم المعقول! ولنفرض جديلاً أننا توصلنا إلى تشكيل برلمان مسلم مائة في المائة... كل أعضائه يطالبون بتحكيم شريعة الله ! فماذا يستطيع هذا البرلمان أن يصنع بدون «القاعدة المسلمة» التي تسند قيام الحكم الإسلامي ، ثم تسند استمراره في الوجود بعد قيامه؟ انقلاب عسكري يحل البرلمان ، ويقبض على أعضائه فيودعهم السجون والمعتقلات ، وينتهي كل شيء في لحظات!!<sup>(١)</sup>.

إنه تفكير ساذج رغم كل ما يقدم له من المبررات .. وفوق ذلك فهو يحتوي على مزالق خطيرة تصيب الدعوة في الصميم ، وتعوقها كثيراً على الرغم مما يبدو - لأول وهلة - من أنها تمكن لها في التربية وتعجل لها الخطوات :

المزلق الأول هو المزلق العقدي .. فكيف يجوز للمسلم الذي يأمره دينه بالتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون سواها ، والذي يقول له دينه إن كل حكم غير حكم الله هو حكم جاهلي ، لا يجوز قبوله ، ولا الرضى عنه ، ولا المشاركة فيه .. كيف يجوز له أن يشارك في المجلس الذي يشرع بغير ما أنزل الله ، ويعلن بسلوكه العملي - في كل مناسبة - أنه يرفض التحاكم إلى شريعة الله؟ .

كيف يجوز له أن يشارك فيه ، فضلاً عن أن يقسم يمين الولاء له ، ويتعهد بالمحافظة عليه ، وعلى الدستور الذي ينبثق عنه ، والله يقول سبحانه : ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إن كنتم مثلهم﴾ [النساء ١٤٠] وهؤلاء حديثهم الدائم هو مخالفة شريعة الله ، والإعراض عنها ، ولا حديث لهم غيره وينتظره المنتظر حتى يخوضوا فيه! .. فكيف إذن يقعد معهم؟

كل ما يقال من مبررات : أننا نسمعهم صوت الإسلام .. أننا نعلن رفضنا المستمر للتشريع بغير ما أنزل الله .. أننا نتكلم من المنبر الرسمي فندعو إلى تحكيم شريعة الله .. كل ذلك لا يبرر تلك المخالفة العقدية الواضحة .....

### والمزلق الثاني هو تجميع القضية بالنسبة «للجماهير» .

إننا نقول للجماهير في كل مناسبة إن الحكم بغير ما أنزل الله باطل ، وإنه لا شرعية إلا للحكم الذي يحكم بشريعة الله .. ثم تنظر الجماهير فترانا قد شاركنا فيما ندعوها هي لعدم المشاركة فيه فكيف تكون النتيجة؟! .....

---

(١) وما حدث في الجزائر فيه أصدق شاهد على ذلك. حين فازت جبهة الإنقاذ الإسلامية في الانتخابات بأغلبية ساحقة. وكانت النتيجة أن تدخل الجيش وألغى الانتخابات ، وأدخل كثيراً من قيادات الجبهة البارزة السجون وفتحت المعتقلات لآلوف من الشباب. فهل تعي قيادات العمل الإسلامي ذلك ، وتفيق من غفلتها وسذاجتها؟!

والمرلق الثالث أن لعبة «الدبلوماسية» كما أثبتت تجارب القرون كلها ، لعبة يأكل القوي فيه الضعيف ، ولا يتاح للضعيف من خلالها أن «يغافل» القوي فينتزع من يده شيئاً من السلطان!.....

ومن ثم فإن الجماعات الإسلامية - الداخلة في التنظيمات السياسية لأعداء الإسلام - هي الخاسرة في لعبة الدبلوماسية، والأعداء هم الكاسبون! سواء بتنظيف سمعتهم أمام الجماهير بتعاون الجماعات الإسلامية معهم ، أو تحالفها معهم ، أو اشتراكها معهم في أي أمر من الأمور أو بتميع قضية الإسلاميين في نظر الجماهير»<sup>(١)</sup>.

«إنه لا بد من ارتياد الطريق الطويل .. المجهود الشاق .. البطئ الثمرة .. المستنفد للطاقة ، طريق التربية ، لإنشاء «القاعدة المسلمة» الواعية المجاهدة ، التي تسند الحكم الإسلامي حين يقوم ، وتظل تسنده لكي يستمر في الوجود بعد أن يقوم ...»<sup>(٢)</sup>.

ومع ذلك فإن منهج التربية والإصلاح على ضوء عقيدة السلف الصالح لم يأخذ طريقه كما يجب أن يكون في ساحة العمل الإسلامي ، ومن ثم فلم يعد مستغرباً بعد ذلك أن تبطئ الثمرة ، وأن يتأخر النصر ..

ولا ريب أن هذه الاختلافات «من حصيلة الماضي أكثر مما هي مؤشر للمستقبل من حصيلة الصحو بعد الغفوة الطويلة .. فحين يهب الناس من الغفوة الطويلة ويدركون ما أصابهم ، ويحاولون الخلاص ، وفي غيبة المرشد الذي تطمئن القلوب إليه وتنقاد له ، يمكن أن يحدث اختلاف وجهات النظر ، فهذا يرى طريق الخلاص من هنا ، وذاك يراه من هناك ، وثالث يرى غير هذين ، ولكن من خلال التجربة .. من خلال المعاناة .. يتضح رويداً رويداً أي الطرق أصح ، وأيها قمن بالوصول»<sup>(٣)</sup>.

هذه أهم العقبات التي تواجه الصحو من داخلها . استمرار للانحرافات الدينية والعقدية . في حياة الأمة الإسلامية . وانتقال عدوى هذه الانحرافات إلى الصحو نفسها مما يزيد الأمر صعوبة ووقوع الخلاف وتفاقمه بين الجماعات الإسلامية ، وعدول كثير منها عن المنهج الصحيح وهو التربية إلى الطرق السياسية المسدودة التي ما يزال كثير من زعمائها يصرون على الخوض فيها ، رغم الفشل الذريع الذي جنوه على مدار نصف قرن تقريباً . هذا كله بالإضافة إلى ما تواجهه الصحو من خارجها من كيد وحرب ومكر من قبل أعدائها المتربصين بها في كل مكان . ﴿وقد مكروا مكرمهم وعند الله مكرمهم وإن كان مكرمهم لتزول منه الجبال﴾ [إبراهيم ٤٦] .

(١) واقعنا المعاصر ص ٤٦٢ - ٤٦٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤٢٧ .

فما اجتمع أعداء الإسلام على حربه كاجتماعهم في هذا العصر. اليهود والنصارى والمشركون والمنافقون كل هؤلاء الأعداء المتربصين يرمون الصحوة عن قوس واحدة ، ويحاولون بكل ما أوتوا من إمكانيات مادية أن يقضوا عليها إلى الأبد. ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً . إن الله بما يعملون محيط ﴾ [آل عمران ١٢٠].

«وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الاسلام جزع وكل وناح كما ينوح أهل المصائب ، وهو منهي عن هذا بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام ، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وأن العاقبة للتقوى. وأن ما يصيبه فهو بذنوبه فليصبر ، إن وعد الله حق ، وليستغفر لذنبه ، وليسبح بحمد ربه بالعشي والأبكار»<sup>(١)</sup>.

وما يقوم به أعداء الإسلام من تذبذب وتعذيب وتنكيل بدعاة الصحوة وشبابها ليس إلا محاولة يائسة منهم لإطفاء نور الله في الأرض ، وإجهاض هذه الصحوة المباركة ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [التوبة ٣٢ ، ٣٣].

وواجب على دعاة الصحوة أن يتجنبوا الصدام ما أمكنهم ذلك ، وأن لا يستخفهم الذين لا يوقنون. فيدخلوا في معاركهم الخاسرون فيها. وواجب عليهم أيضاً توحيد المنهج وإزالة أسباب الخلاف ولا يتم ذلك كما قلنا إلا بالرجوع إلى عقيدة السلف الصالح رضوان الله عليهم ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع الحسنيين ﴾ [العنكبوت ٦٩].

ولا شك أن جمع كلمة المسلمين هدف عظيم ، بل هو من أعظم أصول الدين ، ولا ينكره إلا ضال أو جاهل ، لكن جمع المسلمين يجب أن يكون على الحق وعلى الكتاب والسنة ، والاعتصام بحبل الله ، لا على مجرد الشعارات الإسلامية الفارغة من الاعتقاد الحق<sup>(٢)</sup>.

هذا هو الطريق ، طويل وشاق ، ملئ بالعقبات ، محفوف بالمخاطر والصعوبات ، طريق يتطلب تضحيات جسيمة ، وأثماناً باهظة من الدماء والأنفس والأموال إنه طريق الجنة !! ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ [البقرة ٢١٤].

\* \* \*

(١) مجموع الفتاوى ٢٩٥/١٨ .

(٢) مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة ص ٥٣ .

## ثانياً: المبشرات في طريق الصحة، وآفاق المستقبل

على الرغم من الأحوال الدينية السيئة وأثارها العظيمة، وعلى الرغم من كثرة العقبات وضخامة الصعوبات في طريق الصحة، وعلى الرغم من تواطؤ قوى الكفر والشر في الأرض لضرب الصحة والقضاء عليها إلا أننا نقول وثقتنا بالله وحده دون سواه أن المستقبل لهذا الدين وأن العاقبة للمتقين. ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين. إنهم لهم المنصورون. وإن جندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات ١٧١، ١٧٢، ١٧٣].

ومع استضعاف الفئة المؤمنة في الأرض، وعلو القوى الشريرة وإفسادها، تأتي المنة الإلهية والمنحة الربانية فتجعلهم أئمة يرثون القوى الكبرى التي بادت. وتمكن لهم دينهم في الأرض. ويقوم حكم الله في العالم، ويأتي أمره الذي لا غالب له، وهو ما كانت تحذر منه هذه القوى وتعمل بكل ما أوتيت من قوة وبطش لطمسه والحيولة دون وقوعه. ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ [القصص ٥، ٦]. ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون. إن في ذلك لبرهاناً لقوم عابدين﴾ [الأنبياء ١٠٥، ١٠٦].

فهذا الاستضعاف للمؤمنين، وذاك العلو والتكبر والافساد للكافرين في حد ذاته بشارة للصحة الإسلامية التي استضعف دعائها وشبابها أيما استضعاف. فما بعد هذا الاستضعاف بإذن الله عز وجل إلا النصر والتمكين ونيل الإمامة والقيادة في الأرض، ولا يتم ذلك بغير الصبر واليقين ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ [السجدة ٢٤]. فلتوقن الصحة بنصر الله، ولتصبر على ما تلقاه في ذات الله، ولتكن بعد ذلك هادية بأمر الله. عندئذ يتحقق النصر، ويتم لها التمكين في الأرض.

من المبشرات أيضاً: «اتساع القاعدة، واتجاه مزيد من الشباب إلى الإسلام، بحيث يصح أن يقال إن الإقبال على الإسلام أصبح تياراً ذاتياً عند الشباب، لا يرتبط بالضرورة بنشاط جماعة معينة، أو بوجود جماعة معينة، إنما ينبعث تلقائياً في نفوس الشباب»<sup>(١)</sup>.



«وحين كان العمل منحصراً في جماعة معينة كان من السهل على «الجهات المختصة» أن تضرب تلك الجماعة ، فتعطل العمل الإسلامي . أما الآن فلم يعد ضرب جماعة معينة - ولا حتى الجماعات كلها - يقتل العمل الإسلامي ، الذي «ينبثق» دائماً في تشكيلات جديدة ، بعد ضرب التشكيلات القائمة في الساحة!»<sup>(١)</sup>

وتلك البشارة لعمر الله هي التي أرقت العلمانيين وأقضت مضاجع الظالمين. ومع كل تنكيل وضرب للصحة الإسلامية وقتل المئات وسجن الآلاف وتعذيبهم تتسع دائرة الصحة يوماً بعد يوم ، وتتبعث طلائعها المباركة في كل مكان. ويعود إلى الإسلام أناس من مختلف المستويات قد أضناهم الشرود عن رحابه الطاهرة. وليست توبة كثير من الفنانين والفنانات هذه الأيام<sup>(٢)</sup> إلا من هذا النهر الجاري الذي تعجز قوى الكفر والشر عن إيقافه.

«لقد صمد الإسلام في حياته المديدة ، لما هو أعنف وأقسى من هذه الضربات الوحشية ، التي توجه اليوم إلى طلائع البعث الإسلامي في كل مكان - وكافح - وهو مجرد من كل قوة غير قوته الذاتية - وانتصر ، وبقي ، وأبقى على شخصية الجماعات والأوطان ، التي كان يحميها ، وهو مجرد من السلاح»<sup>(٣)</sup>.

وهناك أيضاً دخول الكثيرين في الإسلام في كل أنحاء العالم قاطبة. فما تكاد تغرب شمس يوم إلا وعشرات من الحائرين يدخلون في هذا الدين.

«إن العالم اليوم في حاجة إلى الإسلام .... ومئات الألوف الذين دخلوا في الإسلام من أوروبا وأمريكا - وفيهم الأطباء والمهندسون والمفكرون وغيرهم من ذوي الحيات في بلادهم - هم إشارة على الطريق .. إشارة إلى المستقبل»<sup>(٤)</sup>.

ففي مصر مثلاً بلغ عدد الذين جاؤا إلى لجنة الفتوى بالأزهر ليعلموا إسلامهم خلال عام واحد ستمائة أجنبي ما بين رجل وامرأة. يمثلون مختلف جنسيات الدنيا أجمع الكل على أن الباعث الأول وراء اهتمامهم هو التيقن بأن الإسلام هو الدين الصحيح ، يحمل بين طيات تعاليمه وأحكامه كل ما يكفل بسعادة البشرية<sup>(٥)</sup>.

(١) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ٢٤٢.

(٢) ذكرنا هؤلاء الطائفة مثلاً للرجوع إلى الإسلام لأنهم من أبعد الطوائف في المجتمع عن الدين ، فرجوع غيرهم من باب أولى.

(٣) المستقبل لهذا الدين ص ٩٠. سيد قطب. دار الشروق. القاهرة. الطبعة التاسعة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٤) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ٢٣٦.

(٥) المد الإسلامي الباهر ص ١٥ مصطفى فوزي غزال. شركة دار القبلة. جدة. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

هذا عدا دخول الأقباط في الإسلام الذي تحاول الكنيسة الأرثوذكسية عرقته دائماً<sup>(١)</sup>.

أما دار تبليغ الإسلام التي يقوم عليها الداعية المصري المهندس «محمد توفيق أحمد»، فقد كانت آخر بطاقة دخل صاحبها في الإسلام لرجل هولندي تحمل الرقم ٣٣٣٤<sup>(٢)</sup>.

من المبشرات أيضاً ما : «يتمثل في فشل النظم المستوردة في حل مشاكل الناس ، وفشل الزعماء العلمانيين في تحقيق ما كانت الأمة تعلقه عليهم من الآمال. فهذا هو الواقع المشهود بعد قرن كامل من استيراد النظم من غرب أوروبا أو شرقها على السواء. ضعف متزايد من جانب المسلمين وقوة متزايدة وعدوان مستمر من جانب الأعداء»<sup>(٣)</sup>. لقد أدرك الكثيرون حقيقة هذه الشعارات الزائفة التي طالما خدعت بها الشعوب ، وضللت بها الجماهير. «و حين يبأس الناس من هذه النظم ومن هذه الزعامات .. فإلى أين يتجهون؟ إنه رافد للصحة الإسلامية لا يمكن وقفه!»<sup>(٤)</sup>.

إنهيار الشيوعية. وسقوط المعسكر الشرقي أو الاشتراكي من المبشرات . «فقد كانت الشيوعية فتنة لكثير من الشباب في العالم الإسلامي ، بل كانت أمريكا ذاتها تستخدم الشيوعية - في مناطق نفوذها - لتحارب لها الإسلام! وكانت تضع وسائل الإعلام في أيدي الشيوعيين ليشوهوا صورة الإسلام في نفوس الشباب ويفتنوهم عنه. ومهما يكن في جعبة اليهود - مبتدعي الشيوعية - من بدائل لفتنة الناس عن الدين ، فإن انهيار النظام الذي كان قائماً على الإلحاد ، هو دفعة للاتجاه الديني في الأرض كلها ، ودفعة للتيار الإسلامي في أرض الإسلام»<sup>(٥)</sup>.

وبعد أن انهار المعسكر الشرقي ، نحن في انتظار انهيار المعسكر الغربي . حيث الحضارة الغربية قد هرمت وشاخت وهي على وشك السقوط وحافة الانهيار بعد أن ظهرت أماراته ودلائله. وقد تصايح كثير من زعماء تلك الحضارة وأندروا قومهم بسوء المصير. فهذا الرئيس الأمريكي «ويلسون» يكتب قبل وفاته بأسابيع قليلة مقالاً جاء فيه : «إن حضارتنا لا تستطيع الاستمرار في البقاء من الناحية المادية ، إلا إذا استردت روحانياتها»<sup>(٦)</sup>. ولم يعد عند النصرانية المحرفة من الروحانية ما تسعف به هذه الحضارة المتداعية.

(١) المصدر السابق ص ٢٠.

(٢) المصدر السابق ص ٣٠. نقلاً عن منار الإسلام ، شوال ١٤٠٧ هـ / ١٠٨.

(٣) واقعنا المعاصر ص ٥٢٨.

(٤) المصدر السابق ص ٥٣٩.

(٥) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ٢٤٤. ولا يخفى ما كان للجهاد الأفغاني من نور في تهاوي الشيوعية كما اعترف نيكسون نفسه في كتابه الأخير «اغتنموا الفرصة» انظر : لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص ١٧٧.

(٦) المستقبل لهذا الدين ص ٧٣. انظر : صحاحات الخطر . والمخلص في نفس الكتاب.

«وحقيقة إن الحضارة الغربية المسيطرة اليوم على البشرية لن تنهار بالسرعة التي يتخيلها بعض الناس حين نتكلم عن الانهيار ؛ لأنها تحمل من أسباب القوة والإيجابية ما يؤخر الانهيار المحتوم .. تحمل قوة العلم وقوة الصبر والجلد على العمل، وعبقورية التنظيم، والروح العملية في دراسة المشاكل والبحث لها عن حلول، وتحمل تيسيرات نافعة في كثير من جوانب الحياة . تحاول أن ترفع الجهد عن كاهل الإنسان وتحمله للآلة. وكل هذه قوى تمسك بالكيان المتساقط وتمنعه من السقوط السريع ، رغم كل «الأوزار» التي تدفع به إلى الانهيار.

نعم .. ولكنها - كلها - لا تستطيع أن تحول دون النهاية المحتومة .. لأنها من سنة الله»<sup>(١)</sup>.

ولا شك إن ما يعج به ذلك الماخور العظيم من خواء روحي ، وقلق نفسي ، وأمراض نفسية وازدياد نسبة الجنون والانتحار والطلاق والإجهاض، وارتفاع معدلات الجريمة والاعتصاب والقتل والسرقة والاختطاف وجنوح الأحداث وفشو المخدرات والشذوذ الجنسي وانتشار الأمراض الفتاكة. كل تلك الظواهر الخطيرة جدية بإيقاف ذلك الماخور وتحطيم عجلته وانحداره إلى هاوية الهلاك<sup>(٢)</sup>. وكل هذا إن شاء الله يصب في رصيد الحركة الإسلامية في المستقبل التي ينتظر منها أن تثرث الأرض بعد أن تزول تلك الحضارة الجاهلية ، وتقود البشرية من جديد.

من المبشرات أيضاً وإن كان يرى لأول وهلة أنه ضد الصحة وهكذا أريد له فعلاً : «الوجود الإسرائيلي ذاته ، الذي قصد به أن يكون «بمثابة الشوكة تخز العملاق كلما أراد أن ينهض» وهي اليوم قائمة بعملية الوخز على أبشع صورة .. ولكن ما الأثر المتوقع حين يشتد الوخز؟ إن الذي يتوقع هو أن يهب العملاق - من شدة الألم الذي يحدثه الوخز - ليكيل الضربة لمن يخزه ، وذلك حين يصبح الألم أشد من الاحتمال ، ويصبح خطر التعرض للموت أهون عند صاحبه من استمرار الألم.

إن اليهود يتصرفون اليوم بحماقة ضد صالحهم وهذا أمر مشهور عنهم في التاريخ : أنهم يظنون يتمادون في صلفهم وعجرفتهم حتى يضيعوا ما بأيديهم وهم اليوم يلعبون بالنار في المنطقة ، ويعملون على إثارة الروح الإسلامية التي جيء بهم لإخمادها»<sup>(٣)</sup>.

وليس أدل على ذلك من انبعاث الإنتفاضة الإسلامية في الأرض المحتلة لا ترى بغير الجهاد تحريراً للمسجد الأقصى وفلسطين المغتصبة ، وعجز اليهود عن القضاء عليها.

(١) واقعنا المعاصر ص ٥٢٨.

(٢) انظر : «الإنسان ذلك المجهول» للدكتور ألكسيس كاريل. و«حرب أم سلام» للمستردالاس وزير خارجية الولايات المتحدة. وانظر : نموذج واحد للمأساة في كتاب «العلمانية» ص ٤١٦.

(٣) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر ص ٢٤٢.

كل هذه المبشرات توحى بأن المستقبل للإسلام وأن العاقبة للصحة الإسلامية. هذه المبشرات ما كانت لتحمل في ثناياها البشرى لولا الوعد الصادق والبشارة الحقيقية من الله عز وجل في كتابه العظيم وسنة النبي الكريم ﷺ بنصر هذه الأمة وتمكين دينها في الأرض.

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ [النور ٥٥].

وقال عز وجل : ﴿ إنا لننصر رسلاً والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر ٥١].

إلى غير ذلك من الآيات العظيمة في هذا المعنى والتي قدمنا طرفاً منها.

أما البشارات الصادقة التي بشر بها الصادق المصدوق ﷺ فنذكر منها :

قوله ﷺ : « ليلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزاً يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر »<sup>(١)</sup>.

حديث ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « إن الله زوى «أي جمع وضم» لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها »<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي قبيل قال : كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص ، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتاباً قال : قال عبد الله : بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب ، إذ سئل رسول الله ﷺ : أي المدينتين تفتح أولاً قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ : مدينة هرقل تفتح أولاً . يعني القسطنطينية<sup>(٣)</sup>.

قال الشيخ «الألباني» : «وقد تحقق الفتح الأول على يد «محمد الفاتح» العثماني كما هو معروف ، وذلك بعد أكثر من ثمانمئة سنة من إخبار النبي ﷺ بالفتح ، وسيحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولا بد ولتعلمن نبأه بعد حين»<sup>(٤)</sup>.

عندما تسقط روما عاصمة الفاتيكان تحت الفتح الإسلامي المرتقب ، تتهاوى معقل النصرانية معقلاً بعد معقل ، وتلك دول الصليب دولة بعد دولة . وما ذلك على الله بعزيز.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ٢٤٧/٨ . وذكره الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة ٧/١.

(٢) رواه مسلم برقم ٢٨٨٩ كتاب الفتن وأشراف الساعة. باب هلاك الأمة بعضهم ببعض ٢٢١٥/٤.

(٣) رواه الإمام أحمد ١٧٦/٢ والحاكم ٥٠٨/٤ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وهو في السلسلة الصحيحة برقم (٤).

(٤) السلسلة الصحيحة ٨/١.

أما المعركة الفاصلة مع اليهود فيخبر عنها الرسول ﷺ بقوله : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر ، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم يا عبد الله! هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله»<sup>(١)</sup>.

هذا الوعد الصادق من النبي ﷺ نكاد نراه في قول الله عز وجل في سورة الإسراء : ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾ [١٠٤].

ومع أن جمهور المفسرين فسرُوا ذلك بالمجيء في الدار الآخرة. فإن ذلك لا يمنع أن نقول استناداً إلى الحديث السابق أن هذه الآية الكريمة تكاد تحكي الواقع الآن. فإن اليهود الذين شردوا في الأرض هكذا في الأرض مطلقاً. في كل أنحائها ودولها لتشتد هجرتهم وتتلاحق عودتهم إلى أرض المعركة الفاصلة بإذن الله عز وجل. جئنا بكم لفيفاً.

هذه الهجرات الجماعية المتواصلة من قبل اليهود والتي يستميتون في عملها واستمرارها هي أمارات المعركة القادمة. وهي طلائع الوعد الصادق. وعد الآخرة. عند ذلك يتحقق ما أخبر به النبي ﷺ من عودة الخلافة التي تكون على منهاج النبوة : «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت»<sup>(٢)</sup>.

وكما عرفنا كثرة العقبات وضخامتها لا بد أن «نعرف من جانب آخر أن المبشرات أكبر من العقبات . الصحوة ذاتها آية من آيات الله ، بعد كل ما أصاب الأمة من انحراف، وكل ما كاده الأعداء من كيد ، إن الناظر إلى جسامة الانحرافات التي وقعت فيها الأمة ، حتى أفرغت لا إله إلا الله من محتواها الحي كله، فأصبحت مجرد الكلمة التي تنطق باللسان. والناظر إلى جسامة الكيد الذي كاده الأعداء للأمة الإسلامية في القرون الأخيرة ، والقرن الأخير خاصة ، كان يجزم أن هذه الأمة لن تعود أبداً ، وأن هذا الدين قد انتهى من الأرض!

ولكن قدر الله الغالب كان عكس ذلك .. كان هو الصحوة الإسلامية!

والمسافة التي قطعتها الأمة - أو قطعتها الصحوة الإسلامية - من الخواء الميت إلى الحركة

(١) رواه البخاري بنحوه في كتاب الجهاد باب قتال اليهود برقم ٢٩٢٦ (الفتح ١٠٣/٦). ورواه مسلم بهذا اللفظ برقم ٢٩٢٢ كتاب الفتن ٢٢٣٩/٤ وزاد مسلم في هذه الرواية قوله : إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود.

(٢) رواه الإمام أحمد ٢٧٢/٤ انظر السلسلة الصحيحة ٨/٨.

الحية مسافة هائلة في حقيقة الأمر. فإذا قلنا اليوم إن الشوط مازال بعيداً ، فليس هو أبعد في حقيقة من الشوط الذي قطعته بالفعل. وفرق بين الجهد المبذول لإيقاظ النائم من غفوته ، ووضع قدميه على الطريق ، وبين الجهد المطلوب لترشيد حركته ، وبث مزيد من النشاط فيها»<sup>(١)</sup>.

إن الحديث عن المبشرات في خضم هذا الواقع المليء بالعقبات، وفي الوقت الذي يستضعف فيه المسلمون شرقاً وغرباً، وتتألب قوى الكفر والنفاق على وأد هذه الصحوة الإسلامية وطمس معالمها قد يكون منساقاً مع العواطف التي تجيش في النفوس المؤمنة التي ضاقت عليها الأرض بما رحبت. ولكنه الحق على أي حال. وما أجمل تمثيل الأستاذ «سيد قطب» رحمه الله تعالى في هذا المقام الذي تكاد هذه المبشرات أن تفقد شعاعها الساطع على صخور العقبات العنيفة بقصة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي رضي الله عنه! حيث يقول بعد أن بين أن المستقبل لهذا الدين : «ولا حاجة بنا إلى المضي في توكيد هذه الحقيقة على هذا النحو. فنكتفي في هذا الموضع بعرض عبرة من الواقع التاريخي للإسلام ، لعلها أنسب العبر في هذا المقام :

بينما كان « سراقه بن مالك » يطارد رسول الله ﷺ وصاحبه أبا بكر رضي الله عنه - وهما مهاجران خفية عن أعين قريش .... وبينما كان سراقه يعثر به فرسه كلما هم أن يتابع الرسول وصاحبه ، طمعاً في جائزة قريش المغرية التي رصدتها لمن يأتيها بمحمد وصاحبه أو بخبر عنهما. وبينما هو يهم بالرجوع - وقد عاهد النبي ﷺ - أن يكفيهما من وراءه..

في هذه اللحظة قال النبي ﷺ «ياسراقه كيف بك وسواري كسرى؟»<sup>(٢)</sup> .. يعده سواري كسرى شاهنشاه الفرس! (ملك الملوك!). والله وحده يعلم ما هي الخواطر التي دارت في رأس سراقه ، حول هذا العرض العجيب. من ذلك المطارد الوحيد .. إلا من صاحبه الذي لا يغني شيئاً عنه والمهاجر سرّاً معه!.

ولكن الرسول ﷺ - كان عارفاً بالحق الذي معه ، معرفته بالباطل الذي عليه الجاهلية في الأرض كلها يومذاك.. وكان واثقاً من أن هذا الحق لا بد أن ينتصر على هذا الباطل وأنه لا يمكن أن يوجد «الحق» في صورته هذه ، وأن يوجد «الباطل» في صورته هذه، ثم يكون ما يكون! كانت الشجرة القديمة قد تأكلت جنورها كلها ، بحيث لا يصلها ري ولا سماء .... كانت قد خبثت بحيث يتحتم أن

(١) لا إله إلا الله. عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص ١٧٧.

(٢) قصة سراقه أصلها في الصحيح. رواها البخاري برقم ٣٩٠٦. وليس فيها خبر سواري كسرى. وروى الحافظ البيهقي قصة السوارين واللباس عمر إياهما لسراقه في دلائل النبوة ٣٢٥/٦. وذكرها الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب ١٢٠/٢ والحافظ ابن حجر في الإصابة ١٩/٢. والحافظ ابن كثير في البداية ٦٩/٧.

تجثت.. وكانت البذرة الطيبة في يده هي المعبأة للغرس والنماء .. وكان واثقاً من هذا كله ثقة اليقين نحن اليوم في مثل هذا الموقف بكل ملابساته ، وكل سماته . مع الجاهلية كلها من حولنا .. فلا يجوز - من ثم - أن ينقصنا اليقين في العاقبة المحتومة . العاقبة التي يشير إليها كل شيء من حولنا . على الرغم من جميع المظاهر الخادعة التي تحيط بنا! إن حاجة البشرية اليوم إلى هذا المنهج ، ليست بأقل من حاجتها يومذاك ، وإن هذا المنهج اليوم - بالقياس إلى كل ما لدى البشرية من مناهج - لا يقل عنه يومذاك.

ومن ثم ينبغي ألا يغالبنا الشك في أن ما وقع مرة في مثل هذه الظروف لابد أن يقع . ولا يجوز أن يتطرق إلى قلوبنا الشك ، بسبب ما نراه من حولنا ، من الضربات الوحشية التي تكال لطلائع البعث الإسلامي في كل مكان»<sup>(١)</sup>.

حقاً إنه تمثيل جميل . وما أشبه الليلة بالبارحة . حين يعطى النبي ﷺ وهو الطريد الشريد ذلك الوعد العظيم لأعرابي في الصحراء ! إننا نذكر المبشرات في تلك الحقبة السوداء من التاريخ التي تعصف فيها الأحداث الهائلة بالامة الإسلامية ، وتتكاثر قوى الكفر والنفاق والشر لخنق الصحوه . ويدب اليأس إلى نفوس الكثيرين في خلال تلك الفتن العvisية ، وتزلزل الفئة المؤمنة زلزالاً شديداً - اقتداءً ببشارة المصطفى ﷺ لسراقة بن مالك في أشد مراحل الاستضعاف في تاريخ الدعوة النبوية إن الصحوه يجب أن تنطلق في تعاملها مع الأحداث وهي تنظر إلى العقبات والمبشرات في أن واحد - تنظر إلى العقبات دون تفريط في الحساب لها . وتنظر إلى المبشرات دون إفراط في الاعتماد عليها . لا تطفئ نظرة على نظرة . وإن كانت المبشرات هي الأوفى ميزاناً والأصدق عاقبة . وكذا ينبغي أن تكون هي اليقين الذي لا يخالطه ريب عند دعاة الصحوه وشبابها ، ولكن الطريق طويل . والمرحلة عسيرة . والعقبات كثيرة . ولكن الله قضى بنصر الدين وتمكين عباده المؤمنين ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [يوسف - ٢١] .

\* \* \*

## الخاتمة

أحمدك يا رب على ما أنعمت به من إتمام هذه الرسالة ، ويسرت إخراجها على هذه الصورة .  
فلك الحمد حتى ترضى . وقد توصلت فيها إلى نتائج كثيرة من أهمها :

١ - أن الانحرافات العقيدية قد ظهرت مبكراً وإن كان في وقت ظهورها تفاوت وكانت دائرتها تتسع مع مرور الزمن ، حتى أناخت بكلها الثقيل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين .

٢ - أن الأمة كانت قوية ومتقدمة ومتصدرة للعالم حين كانت متمسكة بدينها محافظة على عقيدتها ، وأنها لم تضعف وتتقهقر إلا حين فرطت في دينها ، وانحرفت في عقيدتها . وأن ما وقع من انحرافات في تلك الفترة يفوق كل تصور .

٣ - أن انحصار مفهوم العبادة في الإسلام كان انحرافاً خطيراً حدث في الأمة وكان ذا آثار سيئة في حياتها ، وكذلك ما وقع من انشعاب وتصدع في فهم حقيقة الإسلام .

٤ - أن الفكر الإرجائي من أخطر الانحرافات التي وقعت في الأمة - إن لم يكن أخطرها على الإطلاق - وحسبنا أن زمر المرتدين الذين يحكمون بغير ما أنزل الله قد آمنوا على أنفسهم في ظلال ذلك الفكر الباطل ، ولهذا عظم ذم السلف للإرجاء .

٥ - أهمية عقيدة الولاء والبراء في حياة الأمة ، وإن الأمة لم تسقط فريسة للغزو الفكري ، وتصبح تابعة لقوى الشر والكفر إلا بعد أن حطمت تلك العقيدة في نفوس المسلمين على أيدي العملاء من المنتسبين إليها .

٦ - أن عقيدة أهل السنة والجماعة قد أصبحت في تلك الفترة غريبة ومحاربة من جماهير الأمة ، وكان لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من تلك الحرب والعداوة أوفر الحظ والنصيب .

٧ - أن الدين قد تحول عند كثير من الناس إلى عبادة الأضرحة والأولياء وإلى التصوف بطرقه وأذكاره وبدعه . وكان التفاخر بهما هو ما تتنافس فيه البلدان ، ويتجارى فيه الناس .

٨ - أن الحالة العلمية في تلك الفترة كانت ضعيفة للغاية ، وكانت أبرز علامات الضعف تنحصر في جمود مناهج التعليم ، وفي التعصب المذهبي وفي رفض إعادة فتح باب الاجتهاد .



٩ - أن الفرق المعادية لأهل السنة كالشيعة على اختلاف فرقها قد ازداد نشاطها في تلك الفترة ، وكان تعاونها مع الاستعمار وعملها لحسابه سبباً في سيطرتها على كثير من المراكز الحساسة في بعض الدول الإسلامية ، وعلى عجلة الاقتصاد فيها .

١٠ - أن موقف الغالبية من العلماء في تلك الفترة لم يكن على المستوى المطلوب ، بالإضافة إلى عزوف كثير من العلماء عن المشاركة في الأحداث التي كانت تعصف بالامة ، ومع مشاركة بعضهم فيها إلا أنها لم تكن مشاركة فعالة .

١١ - أن وجوه الضعف السياسي والحربي والاقتصادي والأخلاقي والاجتماعي والعلمى لم تكن هي الأسباب الجذرية لتخلف المسلمين كما يتصور الكثيرون ، إنما هي آثار ترتبت على سوء الأحوال الدينية عندهم ، وانحرافهم عن هدى ربهم . وكذلك الاستعمار والتنصير والغزو الفكري ، كل تلك كانت من الآثار التي ترتبت على انحراف الأحوال الدينية عند المسلمين ، ولا يمكن القضاء على هذه الآثار ما لم يتم القضاء على الأسباب التي أفرزتها .

١٢ - أن الجوانب الأخلاقية والاجتماعية لم تسقط تحت وطأة غارات الغزو الفكري إلا بعد أن تحولت إلى عادات رتيبة وتقاليد خاوية ، وفقدت روحها وصلتها بالعقيدة .

١٣ - أن رحيل الاستعمار عن الوطن الإسلامي لم يكن إلا ظاهرياً في أغلب الأحيان .

١٤ - أن الأثر العظيم الذي أحدثته دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب تمثل في تبوؤ المنهج السلفي مكانة مرموقة في فكر شباب الصحوة الإسلامية .

١٥ - أن ما جرى عليه كثير من الباحثين من نسبة كل الحركات والجماعات إلى التأثير بدعوة الشيخ لا صحة له على الإطلاق ، وأن هذه النسبة الخاطئة تستخدم أحياناً لتبرير انحرافات هذه الحركات وتغطية مساوئها .

١٦ - أن أهم العقبات في طريق الصحوة تتمثل في استمرار الانحرافات العقدية ، التي لم تنتج من غائلتها كثير من الجماعات الإسلامية التي كان يفترض فيها أن تصحح هذه الانحرافات وتقومها

١٧ - أنه بالرغم من ضخامة العقبات وكثرتها ، إلا أن هناك من الميشرات الشرعية والمحسوسة ما يبشر بأن المستقبل للإسلام وأن النصر سيكون للصحوة الإسلامية . وهناك نتائج أخرى عرضنا لها في ثنايا البحث ولم نذكرها في هذه الخاتمة .

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإيمان وإحسان إلى يوم الدين .

## الفهارس العامة

- ١ - فهرس المراجع والمصادر .
- ٢ - فهرس الموضوعات .

## فهرس المهور والمراجع

### حرف الألف

أئمة اليمن في القرن الرابع عشر للهجرة . محمد بن محمد بن زبارة . المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٧٦هـ .

الإبانة عن أصول الديانة :- أبو الحسن الأشعري . طبعة الجامعة الإسلامية ١٤٠٥هـ الإبداع في مضار الابتداع علي محفوظ دار الاعتصام القاهرة الطبعة السابقة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

ابن باديس، حياته وآثاره . د عمار الطالبي . الجزء الأول . دار الغرب الإسلامي . بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

ابن تيمية السلفي . د محمد خليل هراس . مكتبة الصحابة بطنطا . الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر . د محمد محمد حسين . دار الرسالة . مكة المكرمة . الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان . أحمد بن أبي الضياف . تحقيق أحمد عبد السلام . الطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ١٩٧١هـ .

أثر الفكر الغربي في انحراف المجتمع المسلم بشبه القارة الهندية . خادم حسين إلهي بخش . دار حراء . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

الاجتهاد ومدى حاجتنا إليه في هذا العصر . د سيد محمد موسى . مطابع المدني بمصر ١٣٩١هـ .

أحكام الاجتهاد في الشريعة الإسلامية . د عبد الحميد ميهوب . دار الكتاب العربي . القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

أحكام القرآن . ابن العربي . دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م . أحمد بن عرفان الإمام المجاهد الشهيد . سعيد الأعظمي الندي . دار القلم . دمشق . بيروت ط ٢ . ١٣٩٨م - ١٩٧٨م .

إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالي . دار الكتب العلمية . بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

### تابع فهرس المصادر

أخلاق العرب بين الجاهلية والإسلام . دراسة مقارنة على ضوء الإسلام . محمد الناصر . دار الرسالة . مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

الإخوان المسلمون . أحداث صنعت التاريخ . محمود عبد الحليم . دار الدعوة . الاسكندرية . أدب الطلب . الإمام محمد بن علي الشوكاني . مركز الدراسات والأبحاث اليمنية . صنعاء ١٩٧٩م .

الأدب المصري في ظل الحكم العثماني . محمد سيد كيلاني . دار الفرجاني . القاهرة . ط ١٩٦٥م .

الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف . الأمير شكيب أرسلان . تعليق الشيخ محمد رشيد رضا .

إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول . الإمام محمد بن علي الشوكاني . دار الفكر .

إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل . الشيخ ناصر الدين الألباني . المكتب الإسلامي . بيروت . دمشق الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

الأزهر تاريخه وتطوره . وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر . مطابع الشعب . ط ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م .

استامبول وحضارة الخلافة الإسلامية برنارد لويس . تعريب وتعليق د سيد رضوان علي . الدار السعودية للنشر والتوزيع . جدة . الرياض . الدمام . الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

الاستعمار الفرنسي في مراكش ( المغرب الأقصى ) محمد عبد العالي جلال مكتبة النهضة المصرية القاهرة .

الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام . د/علي عبد الواحد وافي . دار نهضة مصر . القاهرة .

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . أحمد بن ناصر السلاوي . المطبعة المصرية ١٣١٢هـ . الإسلام في القرن العشرين . عباس محمود العقاد .

الإسلام والحضارة الغربية . د محمد محمد حسين دار الرسالة . مكة المكرمة . الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

الإسلام والمذاهب الفلسفية . د مصطفى حلمي دار الدعوة . الاسكندرية . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

## تابع فهرس المصادر

الإسلاميون وسراب الديمقراطية . دراسة أصولية لمشاركة الإسلاميين في المجالس النيابية .  
الجزء الأول عبد الغني بن محمد الرحال . المؤتمر للنشر والتوزيع الرياض الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .  
الإصابة في تمييز أسماء الصحابة . الحافظ ابن حجر العسقلاني دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

إصلاح المساجد من البدع والعوائد . العلامة جمال الدين القاسمي . خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي . بيروت .  
الاعتصام . أبو إسحاق الشاطبي . تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا . دار المعرفة . بيروت .  
الأعلام . خير الدين الزركلي . دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الثامنة ١٩٨٩ م  
الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام . العباس بن إبراهيم السملالي . الطبعة الملكية .  
الرباط ١٩٧٤ م .

أعلام العراق . محمد بهجت الأثري . المطبعة السلفية ومكتبتها . القاهرة ١٣٤٥ هـ .  
أعلام المغرب العربي . عبد الوهاب منصور . المطبعة الملكية . الرباط ١٣٩٨ م - ١٩٧٨ م .  
أعلام من طرابلس . على مصطفى المصراني . دار الفكر طرابلس ليبيا . الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

أعيان القرن الثالث عشر . خليل مردم بك . لجنة التراث العربي . لبنان ١٩٧١ م .  
إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان الحافظ ابن قيم الجوزية . تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي  
دار المعرفة . بيروت .

أفيقوا أيها المسلمون قبل أن تدفعوا الجزية . د عبد الوود شلبي . الدار السعودية للنشر  
والتوزيع . جدة . الطبعة السادسة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم . شيخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق الشيخ  
محمد الفقي . دار المعرفة . لبنان .

أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك . خير الدين التونسي .  
إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون . اسماعيل محمد الياباني دار الفكر ١٤٠٢ هـ -  
١٩٨٢ م .

أيعيد التاريخ نفسه . محمد العبدية . المنتدى الإسلامي . لندن . ١٤١١ هـ .

## حرف الباء

البحر الزاخر في تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر . محمود فهمي المهندس . مطبعة بولاق  
١٣١٢ هـ .

### تابع فهرس المصادر

بحوث ووثائق في التاريخ المغربي . تونس ، الجزائر ، ليبيا من ١٨١٦م - ١٨٧١م . عبد الجليل التميمي . الدار التونسية للنشر الطبعة الأولى ١٩٧٢م .

البداية والنهاية . الحافظ ابن كثير . تحقيق الدكتور أحمد أبو ملح وأخريين . دار الكتب العلمية بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع . الإمام الشوكاني . مطبعة السعادة . ط١ ١٣٨٤هـ .

بصمات الاستعمار في المجتمعات الإسلامية . المشكلة والحل . يوسف البديري . دار العدالة . القاهرة .

بلاد الشام في القرن التاسع عشر . دراسة وتحقيق د سهيل زكار . دار حسان للطباعة والنشر . الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

البلاد العربية والدولة العثمانية . ساطع الحصري . دار العلم للملايين . ط٢ ١٩٦٥م .  
بلوغ المرام في شرح مسك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام . القاضي حسين بن أحمد العرشي . مطبعة البريتيري . القاهرة ١٩٣٩م .

### حرف التاء

تاريخ الأمم والملوك . الحافظ ابن جرير الطبري . دار الكتب العلمية . بيروت .  
تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي من عصر الإسلام الأول إلى عصر فاروق الأول . حسن السندوبي . مطبعة الاستقامة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م .

تاريخ أداب اللغة العربية . جرجي زيدان . مطبعة الهلال . ط ١٩٣١م .  
تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد رشيد رضا . مطبعة المنار . القاهرة .  
تاريخ الإسلام في الهند . د عبد المنعم النمر . دار العهد الجديد للطباعة . القاهرة . الطبعة الأولى ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م .

تاريخ الإصلاح في الأزهر وصفحات من الجهاد في الإصلاح . الشيخ عبد المتعال الصعيدي مطبعة الاعتماد بمصر . الطبعة الثالثة .

تاريخ بغداد . الخطيب البغدادي . دار الكتب العلمية . بيروت .  
تاريخ التعليم في عصر محمد علي . د أحمد عزت عبد الكريم . مكتبة النهضة المصرية ١٩٣٨م .  
التاريخ الثقافي . د حسن فقي . دار المعارف مصر . الطبعة الثانية . ١٩٧١م .

تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري . د أبو القاسم سعد الله الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر الطبعة الأولى ١٩٨١م .

### تابع فهرس المصادر

- تاريخ الحركة القومية . عبد الرحمن الرافعي . مكتبة النهضة المصرية . الطبعة الرابعة ١٩٥٥م - ١٣٧٤م .
- تاريخ حضرموت السياسي . صلاح البكري . مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر . الطبعة الثالثة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .
- تاريخ الدولة العلية العثمانية . محمد فريد بك المحامي . تحقيق الدكتور إحسان حقي . دار النفائس بيروت الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- تاريخ السلطنة السنارية . أحمد بن الحاج أبو علي كاتب الشونة . دار إحياء الكتب . ١٩٦١م .
- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين . د فيليب حتي . ترجمة د كمال اليازجي . دار الثقافة بيروت ١٩٥٩م .
- تاريخ الشعوب الإسلامية . كارل بروكلمان . ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي . الطبعة السادسة بيروت ١٩٧٤م .
- تاريخ العرب الحديث . العراق . د عبد العزيز سليمان نوار . الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٧٦م .
- تاريخ الفقه الإسلامي . د . عمر الأشقر مكتبة الفلاح . الكويت . الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- تاريخ المذاهب الإسلامية الجزء الأول في السياسة والعقائد . الشيخ محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي .
- تاريخ معرفة النعمان محمد سليم الجندي . تحقيق عمر رضا كحالة . وزارة الثقافة والارشاد القومي . مطبعة الترقى بدمشق ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م .
- تاريخ مكة . أحمد السباعي . دار الفريس ١٣٨٢هـ .
- تاريخ نجد . العلامة محمود شكري الألوسي المكتبة العربية . بغداد . المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٣هـ .
- تاريخ ونظام التعليم في مصر . منير عطا الله وآخرون . القاهرة ١٩٧٢م .
- تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن . عبد الواسع بن يحيى الواسعي . مطبعة حجازي القاهرة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م .
- التبشير والاستعمار . د عمر فروخ وصلاح الخالدي المكتبة المصرية .
- التجانية . علي بن محمد الدخيل الله دار طيبة الرياض .

### تابع فهرس المصادر

- تحفة الزائر في تاريخ الجزائر . الأمير عبد القادر محمد عبد القادر الجزائري دار اليقظة العربية تعليق ممدوح حقي . الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .
- التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية . محمد بن خليفة النبهاني . منشورات مركز دراسات الخليج العربي جامعة البصرة ، ١٩٨٠م مستل من الطبعة الثانية ١٣٤٢هـ .
- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة . أبو الريحان البيروني .
- التدمرية . شيخ الإسلام ابن تيمية . تحقيق محمد عودة السعوي . طبع شركة العبيكان . الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الواحد الديان وذكر حوادث الزمان . الشيخ إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن مطابع مؤسسة النور . الرياض . الطبعة الأولى .
- ترجمة الأولياء في الموصل الحدياء . أحمد بن الخياط الموصلية تحقيق سعيد الديوه جي مطبعة الجمهورية الموصل ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م .
- التصوف في مصر إبان العصر العثماني . د توفيق الطويل . مطبعة الاعتماد بمصر ط ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م .
- تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية . د ماجد عرسان الكيلاني دار ابن كثير دمشق . بيروت . مكتبة دار التراث . المدينة المنورة . الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- تفسير القرآن العظيم . الحافظ ابن كثير . دار الفكر . بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- التفسير والمفسرون . د محمد حسين الذهبي . دار إحياء التراث العربي . بيروت .
- تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار . م - م - الرمزي الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ المطبعة الكريمة والحسينية ببلدة أور نبورغ .
- التوحيد . الحافظ محمد بن خزيمة . دار الرشد . الرياض .
- تونس العربية . د إحسان حقي . دار الشمالي للطباعة . بيروت .
- تيسير العلم شرح عمدة الأحكام . الشيخ عبد الله البسام . مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة بمكة المكرمة . مطبعة الحلبي بمصر ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

### حرف الشاء

الثقافة الإسلامية المستوى الرابع . الشيخ محمد قطب والشيخ محمد المبارك والشيخ مصطفى

كامل .



## تابع فهرس المصادر

### حرف الجيم

- جامع العلوم والحكم . ابن رجب الحنبلي . دار المعرفة . بيروت .  
الجامع الفريد مجموعة رسائل تقديم الشيخ عبد الرزاق عفيفي . الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هـ طبع  
على نفقة عبد العزيز ومحمد العبد الله الجميع طبع شركة العبيكان . الرياض .  
جمال الدين القاسمي وعصره . ظافر بن محمد جمال الدين القاسمي . المطبعة الهاشمية  
دمشق . الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .  
جوامع الموصل في مختلف العصور . سعيد الديوه جي . مطبعة شفيق . بغداد ١٣٨٢ هـ -  
١٩٦٣ م .

### حرف الحاء

- حاشية ابن عابدين . ابن عابدين . دار الفكر . الطبعة الثانية ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .  
حاضر العالم الإسلامي . د جميل المصري . دار أم القرى . عمان الأردن الطبعة الثانية  
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .  
حاضر العالم الإسلامي . د علي جريشة . دار المجتمع جدة . ط ٣ . ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .  
حاضر العالم الإسلامي . لوثروب استودار والأمريكي تعليق الأمير شكيب أرسلان ترجمة  
حجاج نويهض ١٩٧٤ م .  
الحجاب . أبو الأعلى المودودي . دار الفكر بيروت .  
الحراب في صدور البهاء والباب . محمد فاضل . دار المدني جدة . الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ -  
١٩٨٦ م .  
حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ( ١٨٠٨ م - ١٨٣٩ م ) . د محمد  
عبد اللطيف البحراوي . دار التراث القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .  
الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث . جمال الدين الشيال .  
الحركات الباطنية في العالم الإسلامي . د محمد أحمد الخطيب مكتبة الأقصى عمان الأردن  
الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .  
حصوننا مهددة من داخلها . د محمد محمد حسين . دار الرسالة مكة المكرمة . الطبعة  
الثانية عشرة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .  
حقائق الأخبار عن دول البحار . اسماعيل سرهنك .  
حقائق ووثائق دراسة ميدانية عن الحركات التنصيرية في العالم الإسلامي . د عبد الوود  
شلبي الدار السعودية للنشر جدة ط ١ ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٢ م .

### تابع فهرس المصادر

- الحكومة الباطنية . د حسن الشرقاوي دار المعارف القاهرة الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .  
حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر . عبد الرزاق البيطار . تحقيق محمد بهجت البيطار  
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م .  
حول تطبيق الشريعة الإسلامية . الشيخ محمد قطب . مكتبة السنة . القاهرة الطبعة الأولى  
١٤١١هـ - ١٩٩١م .  
حياتي . أحمد أمين . دار الكتاب العربي . بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٩م .  
الحياة السياسية عند العرب دراسة مقارنة على ضوء الإسلام . محمد الناصر مكتبة السنة  
القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .  
حياة الصحابة . محمد يوسف الكاندهلوي . دار الكتاب العربي . بيروت . الطبعة الأولى  
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

### حرف الحاء

- خصائص التصور الإسلامي . الأستاذ سيد قطب . دار الشروق . القاهرة . الطبعة العاشرة  
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .  
الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة . علي باشا مبارك دار الكتب الطبعة الثانية ١٩٦٩م .  
خطط الشام . محمد كرد علي . دار العلم للملايين . بيروت ١٣٩٠هـ .

### حرف الدال

- دراسات في الفرق . الصوفية . نشأتها وتطورها . محمد العبدية طارق عبد الحليم . مكتبة  
الكوثر الرياض الطبعة الثانية ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .  
دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية . د عرفان عبد الحميد مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة  
الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .  
دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين « الخوارج والشيعة » . د أحمد محمد جلي الطبعة  
الثانية ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية .  
الدرر السنية في الرد على الوهابية . أحمد بن زيني دحلان . ط ٤ . ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م . مطبعة  
البابي الحلبي . القاهرة .  
الدر المنتور في طبقات ربات الخنور . زنيب بنت فواز العاملي دار المعرفة الطبعة الثانية .  
دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام . مصطفى فوزي غزال دار طبية الرياض  
الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

### تابع فهرس المصادر

الدعوة السلفية في شبه القارة الهندية وأثرها في مقاومة الانحرافات الدينية . رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة جامعة أم القرى ١٤٠٦هـ - ١٤٠٧هـ عبد الوهاب خليل الرحمان . مكتبة البحث العلمي .

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأثرها في العالم الإسلامي . رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة جامعة أم القرى ١٤٠٢هـ للدكتور أحمد عطية الزهراني مكتبة البحث العلمي .

دلائل النبوة . للحافظ البيهقي . تحقيق عبد المعطي قلنجي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

دليل الأستاذة . محمد شكري الناعمة مطبعة جرجي غرزوزي الاسكندرية ١٩٠٩م .

الدولة السعودية الأولى . عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم جامعة الدول العربية معهد البحوث والدراسات الإسلامية ١٩٦٩م .

الدولة العثمانية دولة اسلامية مفتري عليها . د عبد العزيز الشناوي مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة . مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٠م .

الدولة العثمانية والمسألة الشرقية . د محمد كمال دسوقي . دار الثقافة القاهرة ١٩٧٦م .

الدين والمجتمع دراسات ومحاضرات قدمت في ملتقى الندوة الإسلامية بالقيروان ١٩٧٧م وزارة الشؤون الثقافية تونس .

### حرف الذال

ذكرى أبي الثناء الألويسي . عباس الغراوي . شركة التجارة والطباعة زم م . الصالحية بغداد ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م .

ذكريات . أحمد علي منشورات نادي الطائف الأدبي الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ .

### حرف الراء

رجال الفكر والدعوة في الإسلام شيخ الإسلام ابن تيمية الجزء الثاني أبو الحسن الندوي دار القبلة . الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

رحلات الإمام محمد رشيد رضا . جمع الدكتور يوسف ابيش المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . الطبعة الأولى ١٩٧١م .

رحلات عبد الوهاب عزام . الرسالة . الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م .

### تابع فهرس المصادر

الرحلة الحجازية . محمد بن علي السنوسي . تحقيق علي الشنوفي . نشر الشركة التونسية للتوزيع ١٤٠١هـ .

الرحلة الحجازية . محمد لبيب التبنوني . مطبعة المعارف . الناشر محمد سعيد كمال الطائف الطبعة الثالثة .

رحلة كنتفليك إلى الشرق . ترجمة محمود العابدي جمعية أعمال المطابع التعاونية عمان ١٩٧١م .  
الرحلة اليمانية . شرف بن عبد المحسن البركاتي بيروت الطبعة الثانية .

الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض . الحافظ السيوطي مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة .

رسالة تحكيم القوانين . الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ .

الروضة الغناء في دمشق الفيحاء . نعمان قسطلالي دار الرائد العربي بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

روضة الناظرين عن متأثر علماء تجد وحوادث السنين . محمد بن عثمان القاضي . مطبعة الحلبي القاهرة الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ - ١٩٨٩م .

رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي الجزء الأول مؤتمرات الدويلات الطائفية . محمد عبد الغني النواوي الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر . الشيخ محمد قطب دار الوطن الرياض الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م .

رؤية إسلامية للاستشراق . د أحمد عبد الحميد غراب المنتدى الإسلامي لندن الطبعة الثانية ١٤١١هـ .

رياضة الأسماع في أحكام الذكر والسماع . الشيخ محمد أبو الهدى الصيادي مطبعة التمدن بمصر ١٩٠٣م .

### حرف الزاي

زاد المعاد في هدى خير العباد . الحافظ ابن قيم الجوزية . تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت . الطبعة السابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية . ألفه في الأصل ياسين بن خير الله العمري وانتخب زبدته داود الحلبي . تحقيق وتعليق عماد عبد السلام رؤوف مطبعة الآداب النجف .

## تابع فهرس المصادر

### حرف السين

سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه . عبد الكريم الخطيب . دار الأصاله الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

سلسلة الأحاديث الصحيحة . الشيخ محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م بيروت . دمشق .

السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده . أورخان محمد علي دار الوثائق الكويت الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية . موفق المرجة . مؤسسة صقر الخليج للطباعة الكويت ١٩٨١م . الناشر أحمد عبد الله القليج .

سنن ابن ماجه . الحافظ محمد بن يزيد بن ماجه القرويني . دار الفكر .

سنن الترمذي . أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي . تحقيق الشيخ أحمد شاكر مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .

سنن النسائي . أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي . المكتبة العلمية بيروت .

السنة . عبد الله بن أحمد بن حنبل . تحقيق الدكتور محمد بن سعيد القحطاني . دار ابن القيم الدمام . الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .

سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد . د صلاح الخالدي . دار القلم . بيروت . ط الأولى ١٤١١هـ  
سير أعلام النبلاء . الحافظ الذهبي أشرف على التحقيق شعيب الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

### حرف الشين

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . محمد بن محمد مخلوف . دار الكتاب العربي بيروت .

شرح العقيدة الطحاوية . ابن أبي العز الدمشقي تحقيق الدكتور عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

الشرق الإسلامي في العصر الحديث . حسين مؤنس . مطبعة حجازي . القاهرة الطبعة الثانية ١٩٣٨م .

شهر في دمشق . عبد الله بن خميس . مطابع الرياض ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

الشيخ محمد الحامد . عبد الحميد طهمان . دار القلم بيروت الطبعة الأولى ١٣٩١هـ - ١٩٧١م .

## تابع فهرس المصادر

### حرف الصاد

- الصحافة والأقلام المسمومة . أنور الجندي . دار الاعتصام . القاهرة .  
الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم . د يوسف القرضاوي دار  
الصحوة القاهرة الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م .  
صحيح ابن ماجه . الشيخ محمد ناصر الدين الألباني . مكتب التربية العربي لدول الخليج  
الرياض الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .  
صحيح أبي داود . الشيخ محمد ناصر الدين الألباني مكتب التربية العربي لدول الخليج  
الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .  
صحيح مسلم . الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي  
دار إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الأولى ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .  
صحيح النسائي . الشيخ محمد ناصر الدين الألباني مكتب التربية العربي لدول الخليج  
الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .  
الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية . أبو الحسن الندوي . دار القلم . الكويت  
الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .  
صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان . الشيخ محمد بشير السهسواني تقديم الشيخ  
محمد رشيد رضا .

### حرف الطاء

- طبقات الشافعية الكبرى . عبد الوهاب بن علي السبكي . تحقيق عبدالفتاح الحلوم ومحمود  
الطناحي . عيسى البابي الحلبي وشركاه . الطبعة الأولى .

### حرف الظاء

- ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي . رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم العقيدة  
بجامعة أم القرى للدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي مكتبة البحث العلمي .

### حرف العين

- العالم الإسلامي . محمود شاكر . المكتب الإسلامي بيروت . دمشق الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ .  
العبادة في الإسلام . د يوسف القرضاوي . مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة التاسعة  
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

### تابع فهرس المصادر

- عبدالله بن سبأ وأثره في الفتنه الكبرى . د سليمان العودة .  
العبودية . شيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق خالد عبدالطيف العلمي دار الكتاب العربي بيروت  
الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .
- العثمانيون في التاريخ والحضارة . د محمد حرب دار القلم دمشق ط ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .  
عجائب الآثار في التراجم والأخبار . الشيخ عبد الرحمن الجبرتي . دار الفارس . بيروت .  
عقد الدرر في أخبار المنتظر . يوسف بن يحيى المقدسي الشافعي . دار الكتب العلمية . بيروت  
ط ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية . د عثمان عبد المنعم عيش . مكتبة الأزهر ١٩٧٨م .  
عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية . د أحمد سعد حمدان . دار طيبة . الرياض الطبعة الأولى  
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي . د صالح العبود  
الجامعة الإسلامية المدينة المنورة المجلس العلمي إحياء التراث الإسلامي الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ .  
العقيدة في الله . د عمر الأشقر . مكتبة الفلاح . الكويت . الطبعة الرابعة ١٩٨٣م .
- عقيدة الموحدين والرد على الضلال والمبتدعين عشرون رسالة لجمع من أئمة الدعوة جمع  
وترتيب الشيخ عبد الله بن سعدي الغامدي . تقديم سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز . مكتبة الطرفين  
الطائف . الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م .
- العلامة السيد عبد الحي الحسني مؤرخ الهند . د قدرة الله الحسني . دار الشروق جدة .  
الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
- العلمانيون والإسلام . الشيخ محمد قطب . دار الوطن . الرياض . الطبعة الأولى ١٤١٤هـ .  
العلمانية . د سفر بن عبد الرحمن الحوالي . الدار السلفية الكويت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .  
عنوان المجد في تاريخ نجد . عثمان بن بشر . مكتبة الرياض الحديثة .  
عودة الحجاب الجزء الأول معركة الحجاب والسفور . محمد بن اسماعيل . دار طيبة . الرياض  
الطبعة الرابعة .

### حرف الغين

- الغارة على العالم الإسلامي . أ . ل شاتليه . ترجمة مجد الدين الخطيب ومساعد اليافي الدار  
السعودية للنشر والتوزيع . جدة الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

### تابع فهرس المصادر

غاية الأمانى في الرد على التبهاني . العلامة محمود شكري الألوسي . المطبعة العربية . لاهور  
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام . د فتح الله عبد الستار السعيد . دار الأنصار .  
القاهرة .

غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام . د فتحي محمد الزغبى . مطابع غباشي طنطا  
مصر الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

### حرف الفاء

فتح الباري شرح صحيح البخاري . الحافظ ابن حجر العسقلاني . أشرف على طبعه مجد  
الدين الخطيب دار المعرفة . بيروت .

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير . الإمام بن علي الشوكاني . دار  
الفكر بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

فجر الإسلام . أحمد أمين دار الكتاب العربي . بيروت . ط ١١ . ١٩٧٥م .

فقه الخلاف مدخل إلى وحدة العمل الإسلامي . جمال سلطان مركز الدراسات الإسلامية  
برمنجهام بريطانيا الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي . د محمد البهي . دار المعارف مصر .  
الطبعة العاشرة ١٩٨٩م .

الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي . الشيخ محمد بن يوسف الحجوي تحقيق د  
عبد العزيز القارئ المكتبة العلمية المدينة المنورة . الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ .

الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا . أنور الجندي . الدار القومية للطباعة والنشر .  
القاهرة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .

فلسفة التاريخ العثماني . محمد جميل بيهم . شركة فرج الله للمطبوعات . بيروت ١٣٧٣هـ -  
١٩٥٤م .

فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني . بسام العسلي . دار الفكر .

في ظلال القرآن . الأستاذ سيد قطب . دار الشروق القاهرة . الطبعة العاشرة . ١٤٠٢هـ -  
١٩٨٢م .

### حرف القاف

قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين التحالف الصليبي الماسوني وضرب الاتجاه الإسلامي . د  
سليمان بيومي . عالم المعرفة . جدة . الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م .



### تابع فهرس المصادر

- قراءة جديدة لسياسة محمد علي التوسعية . د سليمان محمد الغنام . دار تهامة ١٩٨٠م .  
قلاع المسلمين مهددة من داخلها وخارجها . د محمد عبد القادر هنادي . مكتبة الطالب  
الجامعي مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٧٨م .  
قواعد المنهج السلفي . د مصطفى حلمي . دار الدعوة . الاسكندرية . الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ  
- ١٩٨٤م .  
القول الحق في بيروت ودمشق . عبد الرحمن بك سامي . دار الرائد العربي بيروت ١٤٠١هـ -  
١٩٨١م .

### حرف الكاف

- الكامل في التاريخ . عز الدين ابن الأثير . دار صادر . بيروت . ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .  
كتاب إحياء علوم الدين في ميزان العلماء والمؤرخين . علي حسن عبد الحميد مكتبة ابن  
الجوزي الأحساء الهفوف . الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .  
كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية . أحمد عرابي الحسيني . مطبعة مصر .  
طبعة ١٢٩٨هـ - ١٨٨١ - ١٨٨٢ م .  
كشف الشبهات . الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب . تعليق الشيخ محمد حامد الفقي . دار  
الثقافة . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .  
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . حاجي خليفة . دار الفكر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .  
الكشف عن حقيقة الصوفية . محمود عبد الرؤوف القاسم . دار الصحابة . لبنان . الطبعة  
الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م .

### حرف اللام

- لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج . حياة الشيخ محمد قطب دار الوطن الرياض الطبعة  
الأولى ١٤١٣هـ .  
اللطائف المصورة (مجلة) العدد (١٠٩٨) . القاهرة .  
لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم . الأمير شكيب أرسلان . تقديم الشيخ محمد رشيد  
رضا . مراجعة خالد فاروق . دار البشير . القاهرة مطابع المختار الإسلامي .

### حرف الميم

- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . أبو الحسن النبوي دار القلم . الكويت . الطبعة الحادية  
عشرة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

### تابع فهرس المصادر

- ماضي الحجاز وحاضره . حسين محمد نصيف . الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ .  
مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية منها . د ناصر عبدالكريم  
العقل . دار الوطن الرياض . الطبعة الأولى .  
المجتمع الإسلامي . د أحمد شلبي . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٦٧م .  
المجتمع الإسلامي المعاصر . الشيخ محمد المبارك . دار الفكر . بيروت ط ١ . ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م .  
مجتمعنا المعاصر أسباب ضعفه ووسائل علاجه . د عبد الله سليمان المشوخي . مكتبة المنار  
الزرقاء الأردن . الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .  
مجموع الفتاوى . شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمن بن قاسم العاصمي  
النجدي وابنه طبع بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود . إشراف الرئاسة  
العامة لشؤون الحرمين الشريفين .  
مجموعة التوحيد . تحتوى على ١٦ رسالة لشيخ الإسلام ابن تيمية والأمام المجدد محمد بن  
عبد الوهاب ونخبة من علماء المسلمين الأفاضل رحمهم الله المكتبة السلفية . المدينة المنورة .  
محاضرات في النصرانية . الشيخ محمد أبو زهرة . دار الفكر العربي . بيروت .  
مختار الصحاح . محمد بن أبي بكر الرازي . دائرة المعاجم في مكتبة لبنان . بيروت ١٩٨٦م .  
مختصر الصواعق المرسله . للشيخ الموصلي . من كتاب الصواعق المرسله للحافظ ابن قيم  
الجوزية . دار الكتب العلمية . بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .  
المختصر من كتاب نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن  
الرابع عشر . الشيخ عبد الله مرداد أبو الخير . اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي أحمد علي  
مطبوعات نادي الطائف الأدبي الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م .  
المخلاف السليمانى تحت حكم الأدارسة . رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه إلى قسم  
التاريخ الإسلامى جامعة أم القرى للدكتورة أميرة علي مداح ١٤٠٦هـ مكتبة البحث العلمى .  
مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . الحافظ ابن قيم الجوزية دار الكتب  
العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .  
المد الإسلامى الباهر . مصطفى فوزى غزال دار القبلة جدة الطبعة الأولى ١٤١٢هـ -  
١٩٩٢م .  
مذاهب فكرية معاصرة . الشيخ محمد قطب . دار الشروق . القاهرة ط ١ ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .  
مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى . ترجمة محمد حرب الحميد . دار الوثائق . الكويت .

### تابع فهرس المصادر

- مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها . محمد رؤوف السيد طه الشبخلي . مطبعة البصرة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
- المرأة بين الجاهلية والإسلام دراسة مقارنة على ضوء الإسلام . محمد الناصر خولة درويش دار الرسالة . مكة المكرمة . الطبعة الأولى ١٤١٣هـ .
- مرأة الحرمين . ابراهيم رفعت باشا . بدون تاريخ طبع واسم مطبعة .
- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون . سعاد ماهر مطبعة الأهرام التجارية نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ط ١٩٧١م .
- المستدرك على الصحيحين . الحاكم النيسابوري . دار الكتب العلمية .
- المستقبل لهذا الدين . الأستاذ سيد قطب دار الشروق . القاهرة الطبعة التاسعة . ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
- المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر . الشيخ محمود شكري الألوسي تحقيق د عبد الله الجبوري دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
- المسلمون في الاتحاد السوفيتي . شانتال كلجوي والكسندر بينفس تعريب الدكتور احسان حقي . مؤسسة الرسالة بيروت ط ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .
- المسلمون في معركة البقاء . د عبد الحليم عويس . دار الاعتصام . القاهرة . الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .
- المسلمون وظاهرة الهزيمة النفسية . عبد الله حمد الشبانة . دار طبية الرياض ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
- مشكلات الجيل في ضوء الإسلام . الشيخ محمد المجنوب ط ١٣٩٠هـ .
- المعجم الأدبي . جبور عبد النور . دار العلم للملايين . بيروت ط ١٩٨٤م .
- المعسول . محمد المختار السوسي .
- المغني . الإمام موفق الدين ابن قدامة دار الفكر بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .
- مفاهيم ينبغي أن تصحح . الشيخ محمد قطب . دار الشروق . القاهرة . الطبعة السابعة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .
- المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات . محمد عبد الرحمن المغراوي دار طبية الرياض الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .
- مقالات الاسلاميين . أبو الحسن الأشعري تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . مكتبة النهضة الطبعة الثانية ١٩٦٩م .

### تابع فهرس المصادر

- مقدمة ابن خلدون . دار احياء التراث العربي بيروت . الطبعة الرابعة .  
المقفى الكبير . العلامة المقرئى . تحقيق محمد البعلوي . دار الغرب الإسلامى بيروت . الطبعة  
الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .  
الملل والنحل . أبو الفتح الشهرستانى . دار الفكر . بيروت .  
منادمة الأطلال ومسامرة الخيال . العلامة عبد القادر بن بدران المكتب الإسلامى دمشق  
١٣٧٩هـ .  
من أخلاق العلماء . الشيخ محمد سليمان . بنون تاريخ طبع واسم مطبعة  
من أعلام الفكر المعاصر . عبد الله الجزارى .  
منتخبات تواريخ دمشق . محمد أديب الحصنى . دار الآفاق الجديدة . بيروت . الطبعة الأولى  
١٣٩٩هـ .  
منهاج السنة النبوية فى نقص كلام الشيعة والقدرية . شيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق د محمد  
رشاد سالم . جامعة الإمام محمود بن سعود الإسلامية الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م .  
موسوعة مقدمات العلوم والمناهج . عالم الإسلام المعاصر . أنور الجندي توزيع دار الأنصار  
مطبعة التقدم القاهرة ١٩٧٧م .  
الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة . الندوة العالمية للشباب الإسلامى . الرياض  
الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .  
موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية . حسان علي حلاق . جامعة بيروت العربية  
١٩٧٨م .

### حرف النون

- النبوات . شيخ الإسلام ابن تيمية . دار الكتاب العربى . بيروت . ط ١ . ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .  
نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر . الشيخ عبد الحى الحسنى . مطبعة مجلس دائرة  
المعارف العثمانية . حيدر آباد الدكن الهند ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م .  
نشأة الفكر الفلسفى . د علي سامى النشار . دار المعارف بمصر . الطبعة السابقة ١٩٧٧م .  
نشوة الشمول فى السفر إلى اسلامبول . أبو الثناء الألوسى . مطبعة ولاية بغداد ١٢٩١هـ .  
نشوة المدام فى العودة إلى مدينة السلام . أبو الثناء الألوسى . مطبعة ولاية بغداد ١٢٩٢هـ .  
الزعت الأكمل لأصحاب الامام أحمد بن حنبل . محمد كمال الدين الغزى العامري وعليه  
زيادات واستدراكات حتى نهاية القرن الرابع عشر الهجرى . تحقيق وجمع محمد مطيع الحافظ . نزار  
أباطة . دار الفكر . بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .  
نفحة البشام فى رحلة الشام . محمد بن عبد الجواد القاياتى . دار الرائد العربى بيروت  
١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

### تابع فهرس المصادر

نفحة الرحمن في بعض مناقب سيدنا ومولانا وأستاذنا وشيخنا المرحوم السيد أحمد بن المرحوم السيد زيني دحلان . أبو بكر بن محمد شطا . القاهرة دار فينوس ١٣٠٥هـ

نفحة العنبر في حياة إمام العصر أنور محمد يوسف البنوري . إدارة المجلس العلمي كراتشي النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد . دار الخلفاء . الكويت . ط ١ . ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

نهر الذهب في تاريخ حلب . كامل بن حسين البالي الطلي الغزي . المطبعة المارونية ١٣٤٢هـ . نيل الوطن من تراجم اليمن في القرن الثالث عشر . محمد بن محمد بن زيارة . المطبعة السلفية القاهرة . ١٣٤٨هـ .

### حرف الواو

واقعنا المعاصر . الشيخ محمد قطب . مؤسسة المدينة للصحافة . جدة . الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

وجاء دور المجوس أحوال أهل السنة في إيران الجزء الثالث . عبد الله محمد الغريب الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

وجاء دور المجوس الأبعاد التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية . عبدالله محمد الغريب الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

الولاء والبراء . د محمد بن سعيد القحطاني . دار طيبة الرياض ١٤٠٤هـ . الوهم والحقيقة في الفكر المصري الحديث . د أحمد على المجدوب . الزهراء للإعلام العربي القاهرة . الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

### حرف الهاء

هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن . الأمير أحمد فضل فضل بن علي محسن العبدلي المطبعة السلفية . القاهرة ١٣٥١هـ .

### حرف الياء

يوم ١١ يولية ١٨٨٢م . الأمير عمر طوسون ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م . يوميات خليل خليل مردم بك مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م . اليوميات الليبية . حسن الفقيه حسن . تحقيق محمد الأسطى ، عمار جحيدر . منشورات جامعة الفاتح مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي الجماهيرية العربية الليبية ١٩٨٤م . اليهود والماسون في مصر . د علي شلش . الزهراء للإعلام العربي الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

انتهى والحمد لله

\*\*\*

## فهرس الموضوعات

رقم الصفحة

الموضوع

- ١ ..... مقدمة الرسالة .
- ١١ ..... تمهيد ( نبذة عن أحوال الأمة الإسلامية فيما قبل هذه الفترة )
- الباب الأول**
- الأحوال العقيدية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر المجريين**
- ٤٧ ..... الفصل الأول : انحصار مفهوم العبادة في الإسلام .
- ٦٣ ..... الفصل الثاني : الفكر الإرجائي وآثاره .
- ٧٩ ..... الفصل الثالث : ضعف عقيدة الولاء والبراء .
- ١١٧ ..... الفصل الرابع : غربة العقيدة الصحيحة ومحاربتها .
- ١٣٩ ..... الفصل الخامس : هيمنة الفلسفة وعلم الكلام على علماء ومؤلفات العقيدة .
- ١٥٤ ..... الفصل السادس : انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات .
- ويشتمل على :
- أولاً : انتشار مظاهر الشرك . ويحتوى على : ١٥٥
- \* بناء المساجد والقباب والمشاهد على الأضرحة والقبور . ١٥٨
- \* الاستغاثة والاستعانة بأصحاب هذه الأضرحة في الشدائد
- والأزمات ودعاؤهم من دون الله عز وجل . ١٨٢
- \* الذبح والنذر للأضرحة . ١٩٢
- \* الاستشفاء وطلب البرء من الأضرحة . ١٩٥
- \* الاعتصام بالأضرحة . ١٩٨
- \* الأضرحة والقبور تهيمن على حياة الناس كلها . ٢٠١
- \* الشرك الأكبر من خلال ما يسمى بالمذائع النبوية . ٢٠٦
- \* الغلو في أهل البيت والأشخاص . ٢٠٩

- ٢١٢ ..... \* الشرك بالأحياء والغلو فيهم .
- ٢١٥ ..... \* الحلف بغير الله عز وجل .
- ٢١٧ ..... ثانيًا : انتشار البدع والخرافات . ويحتوي على :
- ٢٢٢ ..... \* المولد النبوي .
- ٢٣٣ ..... \* الاحتفالات بالموالد الأخرى .
- ٢٣٨ ..... \* بدعة المحمل .
- ٢٤٢ ..... \* احتفالات أخرى .
- ٢٤٩ ..... \* انتشار الخرافات .
- ٢٥٣ ..... الفصل السابع : الصوفية في هذين القرنين .
- ويحتوي على :
- ٢٥٣ ..... \* نشأة الصوفية .
- ٢٥٥ ..... \* أسباب انتشار الصوفية .
- ٢٦٠ ..... \* نفوذ المتصوفة في العالم الإسلامي .
- ٢٦٥ ..... \* نظرة المتصوفة إلى الحياة ومجالاتها .
- ٢٧٣ ..... \* نظرتهن إلى العلم .
- ٢٧٦ ..... \* الطرق والزوايا عند الصوفية .
- ٢٨٧ ..... \* الذكر عند الصوفية ( الإنشاد ، الغناء ، الرقص )
- ٢٩٥ ..... \* الكرامات والخوارق عند الصوفية في هذه الفترة .
- ٣٠٥ ..... \* الشيخ والمريد عند الصوفية .
- ٣١١ ..... \* الصوفية والجهاد ومقاومة الاستعمار .
- ٣١٧ ..... \* الصوفية والمجازيب الأولياء .
- ٣٢١ ..... \* الصوفية والعقائد المنحرفة .
- ٣٢٨ ..... الفصل الثامن : ازدياد نشاط الفرق المنحرفة .
- ٣٤٦ ..... الفصل التاسع : موقف العلماء في هذه الفترة .

### الباب الثاني

### الحالة العلمية

ويقع في ثلاثة فصول :

الفصل الأول : المستوى التعليمي ومناهج التعليم . ويحتوي على : ..... ٣٦٧

الفصل الثاني : التعصب المذهبي . ..... ٤٠٥

الفصل الثالث : رفض إعادة فتح باب الاجتهاد . ..... ٤١٦

### الباب الثالث

#### ( الآثار المترتبة على الأحوال الدينية )

#### في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين )

الفصل الأول : الآثار الداخلية ( تفشي الضعف في الأمة ) ..... ٤٣٢

ويحتوي على :

أولاً : الضعف السياسي والحربي . ..... ٤٣٢

ثانياً : الضعف الاقتصادي . ..... ٤٤٨

ثالثاً : الضعف العلمي . ..... ٤٦١

رابعاً : الضعف الاجتماعي والأخلاقي . ..... ٥٧١

الفصل الثاني : الآثار الخارجية . ..... ٤٩٠

ويحتوي على :

أولاً : الاستعمار ..... ٤٩١

ثانياً : الغزو الفكري واستيراد المبادئ والنظم . ..... ٥١٤

ثالثاً : النشاط التنصيري في العالم الإسلامي . ..... ٥٥٣

### الباب الرابع

#### ( الصحوة الإسلامية وآفاق المستقبل )

الفصل الأول : أثر حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في العالم الإسلامي . ..... ٥٨٥

الفصل الثاني : الصحوة الإسلامية في العصر الحاضر . ..... ٦٠١

ويحتوي على :

أولاً : العقبات في طريق الصحوة . ..... ٦٠٢

ثانياً : المبشرات في طريق الصحوة وآفاق المستقبل . ..... ٦٢٠

خاتمة الرسالة . ..... ٦٢٨

فهرس المصادر والمراجع . ..... ٦٣١

فهرس الموضوعات . ..... ٦٥٠